سيرة سيرة

ربعي المدهون

طعم الفراق

ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

طعم الفراق

ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

طعم الفراق / سيرة
ربعي المدهون / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠١
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٦٠ ٥٤ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تنفيذ الغلاف والإشراف الفنّي :
®
فكرة الغلاف : رامي المدهون
صورة الغلاف : **بيت في الجدل ، عسقلان ، من كتاب « القرى الفلسطينيّة المدمّرة » جامعة بير زيت**
الصفّ الضوئي :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

سيرة سيرة

ربعي المدهون

طعم الفراق

ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة

إلى زوجتي سناء ، وولديّ وسام ، ورامي . . .
جئتكم من مدن فارقت مدنها ، لكي آخذكم في رحلة إلى مدينتي الأولى .

ربعي

سفر الفلسطينيين

وتكون فلسطينياً ، مسيحا ونبياً تكون . آياتك حول رقبتك معلقة ، مثل قلادة من حروف مقدسة معلقة . على كتفيك يرتاح صليب . تمشي في الأرض مبشراً بسلام يأتي ولا يأتي ، لأن أرضك مقدسة بالأساطير . في وديانها تتقاتل شعوب وقبائل . تحت سمائك ترتكب الخطايا . من بحرك من نهرك يعبرون ، فوق قمم جبالك يشعلون حطب أرزك ويتناحرون ، وعلى جدران معابدك يسيل دم ، وفي حقول قمحك تنبت جثث الضحايا .

وتكون فلسطينيا ، مسيحا ونبيا تكون . على الرمل تخط أسفارك ، بعرق من عوسج ، لحوارييك ، من أبنائك ، من نسل أبنائك ، تخط أسفارك ، تروي ويروون . على الأرض يبسطون كلماتك ، في السماء ينثرون أحلامك ، مثل نجوم في مسبحة ملظومة في سماء مخيم لاجئين ، تحكي قصة النكبة الأولى ، وتاريخك مسبحة نكبات ، منذ وعد الرب بوضع «الفلسطينيم» في خيمة ، وأنزلهم من سفر التكوين . ومثل بلفور وعَدَ الرب أبرام ، بلسانهم ، لأن السماء لا تعرف الكذب ، قالت ، وكانوا هم القائلين : «جميعَ الأرض التي أنت ترى لكَ أعطيها ولنسلِك إلى الأبد» . مذبوح أنت بوعد الرب ، بوعد صاحب الجلالة ، بلسان بلفور إله المستعمرين أنت مذبوح ، لأن حكومة جلالته ، نظرت بعين الرضا والعطف لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطينك ، لكي تكون على أرضك إسرائيل ،

مولودة من رحم الأساطير والكذبة الأولى وخيطان الحكايات، وعبث الخرافة.

وينزل الرب سفر العودة ولا تعودون، يتفجر زلزال، وتتفتت الجبال بين أيدي أطفالك، في حقائب مدارسهم، تتفتت الجبال حجارة مقدسة. ولا يصدق غولياث الفلسطينيين هزيمته بمقلاع، لأن اليمامة تخبره بما سمعت من حكايات مثل نشيد تتلى خلف السماوات. تنادي اليمامة يوقظ صوتها النائمين: يا غولياث الفلسطينيين هزمك داود في الأسطورة، لا ينهزم كنعاني بأساطير. انهض وخذ بيدك مقلاع الحقيقة، تنهض، تنتفض على ظلم أبناء العمومة، من نسل أبرام. تصحح علاقات القربى وتنتصر. سلما تنتصر وتعيد صنع الحكاية. دع المقلاع والهزيمة لنومتهما في أبدية الأساطير، اصنع أنت الحقيقة، وارو لأحفادك يقرءون أسفار الحكاية.

في أسفار مدنك، التي فارقت، يأتيك قول الرب: تعودون يوم تنتصرون، ولا ينزف الأردن النهر قطرة دم، أو تسقط من أعالي جبل النار، أو يتدحرج دمع على سفوح جبل الزيتون، وتكون قيامة فتعودون. العودة قيامة. تنهضون من كل بقاع الأرض، مباركون من الله، رب يسوع الناصري، إله البشر، تغسلون خارطة البلاد من خطوط الكراهية، تصححون خطايا الآلهة، ترفعون أور- شليم، قدسكم، بيت الإسراء والمعراج على أكفكم إلى السماء، تصلون صلاة العودة، تقرءون أسفار التعايش، تفتحون ممرات العبور إلى مسارات الآلهة، إلى أشكلون تصلون، توقظون عسقلان: لتصح يا عسقلان من بين أطلالك، يا مجدلنا، يا «مجداً لنا»، نمت خمسين عاما، في انتظارك أحفاد أحفاد كنعان. مباركة أنت يوم ولدت قبل خمسة آلاف عام، مباركة أنت يوم تعودين. استريحي على رمل شواطئك، واخلعي عنك أشكلونهم، بثوب مجدلاوي مطرّز تستحمين. تتمشين على شواطئ الخريطة يوم القيامة. وعسقلان تسمعكم حين تنادونها، بكل الأسماء تسمعكم حين تنادون، لأنها عرفتكم منذ كانت عاصمة الفلسطينيين.

ر.م

الجزء الأول

المقطوعة الأولى
صيد البدايات

يُطلق القطار صافرته التحذيرية . تنغلق الأبواب الستة في العربات الثلاث بصورة أوتوماتيكية . يتحرك من محطته الأولى في ضاحية «ريتشموند» الراقية والجميلة . ليس في الأمر ما هو غير عادي ، ومع ذلك ينتابني شعور غامض عرضة للتكهن ، ويحتمل غير تفسير . الرحلة لم تلغ ، ولم يتم ، أبداً ، تجاهل جدول المواعيد المطبوع منذ سنوات ، والمعلقة نسخة منه على حائط في المحطة مثل جدول محاضرات جامعية مملّة . فمثل هذا يحدث كثيراً ، لا بل إن التأخير والإلغاء أصبحا من تقاليد شبكة قطارات جنوب غرب لندن ، التي تسارع في العادة ، وللأمانة ، إلى لفت أنظار الركاب المعنيين إلى ذلك ، من خلال توجيه نداء . إلا أن هؤلاء ، وللأمانة أيضاً ، لا يلتقطون من مكبر الصوت الصغير القديم المعلق في زاوية رطبة مهملة من المحطة ، والذي أسيء توزيع الصوت الصادر منه ، منذ البداية ، سوى كلمة واحدة canceled أُلغيت . ثم أنهم ، وبحكم العادة والتكرار ، لا يتوقعون إذاعة بيان مختلف عما اعتادوا سماعه ، كالإعلان ، مثلاً ، عن مجانية الرحلات اليوم ، خصوصا بعد الإرتفاع الأخير في ثمن التذاكر ، أو عن تزويد القطارات بمكيفات لا ضرورة لها أصلاً ، أو بث موسيقى كلاسيكية ترافق الركاب طيلة الرحلة ، بينما يغلق نصفهم أذنيه بموسيقى هي من اختياره الشخصي .

وهكذا ، ما أن يطلق مكبر الصوت دقتي التنبيه المعروفتين ، والمسموعتين جيداً حتى خارج المحطة ، «طِن طَن» ، حتى ترحل الآذان باتجاه الميكروفون . وما أن تعود ، بعد ثوان ، حتى تكون الوجوه والملامح قد اكتست بغبار ردود فعل خارجة عن أية تحفظات ،فيُشَتشِت البعض ، وهم يغادرون المحطة غاضبين ، مخرّين بإنجليزية سليمة وواضحة shit- shit ، بينما يُفكفِك آخرون ، ويسبون : fuck you ، ومنهم من لا يتردد في سب نفسه : fuck me ، ربما لأنه أضاع وقته في انتظار القطار ، وكان بإمكانه أن يصعد إلى مترو الأنفاق الذي كان يستعد للإنطلاق قبل قليل .

طبعاً ،لم يقع شيء من هذا على الإطلاق ، وإلا لما كان القطار قد تحرك من محطة ريتشموند أصلاً . وهكذا توصلت إلى استنتاج أخير بأن ما انتابني من شعور غامض ليس سوى سعادة ما في طور التشكل . أسعدني ذلك وأراحني من ملاحقة ذلك الشعور مؤقتاً . ورحت أتصفح جريدة «القدس العربي» التي ترافقني ، عادة ، في رحلتي اليومية إلى العمل . أبدأ ب «هوائها الطلق» . أسخر من تقلب أمزجة بعض كتابها . أمر على صفحة الرأي . أقرأ بعض المواد الثقافية . أتوقف طويلاً عند ترجمات الصحف العبرية ، التي تعكس ، بصورة يومية ، الاتجاه السياسي والأمني في إسرائيل ، وتكشف عن تقلبات مزاج الرأي العام ، والتغيرات التي تحدد نسبة من هم ضدنا ومن هم ضدنا ، وهي من أفضل ما تقدمه الصحيفة عموما . أتابع غضب رئيس تحرير الجريدة ، عبد الباري عطوان ، الذي يشبه ، في تقلباته ، طقس لندن ، إذ يرفع من حدته موقف عربي متخاذل ، وتراجع فلسطيني مذل . ويهدئ منه موقف متماسك يتحول إلى رجاء وأمل بانفراج قريب من محنة عربية وفلسطينية عميقة وبعيدة . بارقة أمل تلمع من بين سطور افتتاحياته لا تلبث أن تخبو ، تاركة مكانها للغضب ثانية ما أن يقدم الفلسطينيون على تراجع خلال مفاوضاتهم مع إسرائيل ، أو ينكفئ العرب نحو تخاذل متوقع .

هكذا أصبح مؤكداً أن القطار سيواصل انطلاقته ، وأصل أنا إلى محطة

«Camden Road» في الوقت المحدد ، أي بعد حوالي أربعين دقيقة من الآن . فأغادر المحطة إلى الشارع الذي تحمل اسمه ، كما يفعل الركاب عادة . أعبر الشارع مسرعا ، مثل الآخرين ، الذين يبدون مطاردين لسبب ما . أصل إلى محطة قطارات الأنفاق الشهيرة « Camden Town» ، التي تقول أغنية أنها تحفظ للعشاق مواعيد لقاءاتهم :

In Camden Town

I'll meet you in the underground

هاأنذا بين مدخلي المحطة ، أرقب أجساداً متعبة تتلوى على الحيطان ، لشبان من الجنسين يقفون بتكاسل ، محمولين على سيقان كأنها لغيرهم . إنهم مثل عناوين الصحف الشعبية لا يخشون ما نعتبره فضائح . أمر بهم يتبادلون قبلات ذابلة هي من بقايا سهرة الأمس . أخرج من باب المحطة إلى شارع السوق ، الذي يطلقون عليه ، وعلى الشوارع المماثلة له ، في كل المناطق High Street . سيارة شرطة بيضاء تمر مسرعة ، يلوح ضوؤها الأزرق فوق سطحها وهي تزعق بصافرتها : ثمة مشكلة في مكان ما ، لكن أحداً لا يكترث لمرورها ، أو يسأل نفسه عن مشكلة لا تخصه حتماً ، حتى أن ذلك العجوز الجمايكي ، لم يتخل عن رقصته الشهيرة أمام محل الساندوتشات الصغير ، ولا عن مشروبه الذي يحلق معه في فضاء نشوته ، وواصل هز جسده برشاقة على أيقاع ال reggae ينبعث من مسجل مركون قرب الحائط . رحم الله بوب مارلي ، كان سيغني لعجوز كامدن تاون لو لم يحوله الموت إلى عود ريحان ناشف قبل أن يقصفه نصفين .

اليوم هو الأحد ، ومن الطبيعي أن أصادف في الشارع العام ، في صباح كهذا ، خارج من سهرة نهاية الأسبوع ، مجموعات من «البانكس» ، يجرون أجسادا متعبة ثقيلة ، وقد غاصت سيقانهم في أحذية سوداء ذات كعوب عالية ورقاب طويلة مرصعة بدوائر معدنية فضية يكادون لا يظهرون منها ، فتبدو وكأنها تسير بمفردها . عند نهاياتها ، غالباً ما ينسدل شعر طويل أسود فاحم محلى بشرائط قطنية رفيعة ملونة ، وربما جلس رأس حليق ، أو نصف حليق ، تربعت

عليه شجرة من البلاستيك الملون ، أو شرائط صوفية سميكة نازلة ، عند بعضهم ، فوق كومة من أقراط معدنية ، تجعل من أذنيه ملعقتين فضيتين تتدليان على جانبي وجهه . وهذا النوع لا يكتفي بمعدنة أذنيه ، في العادة ، بل يشمل ذلك أحد حاجبيه ، أوكليهما ، وأنفه ، وربما شفته السفلى ، ويقال أن بعضهم لا يتردد في تعليق قرط في أماكن أخرى حساسة من جسده .

أسرع الخطا إلى مكان عملي . أتصفح وجوها كالحة في صباح مشرق قلما يتكرر . أصيح بالعربية على منير السوري الذي يضحك للشاورما وهو يعلقها استعداداً لاستقبال زبائن سوق الأحد : صباحو أبو النور . ابتسم لسماع صاحب Cafe' Mocha يوزع أوامره على العاملات التشيكيات لديه بإنجليزية ذات نكهة شامية . أعبر إشارة المرور . أجتاز الجسر الإسمنتي الثابت ، المرتفع قليلا فوق مياه لا تستغني عن أعشابها . أتذكر زميلا لي لم يزل يخشى عبور الجسر ، منذ حادثة وقعت العام الماضي ، فأضحك . كان غادر مكان العمل ، ذات يوم ، برفقة زهير الجزائري ، صديقي القديم المتجدد ، حين استوقفهما شاب أسود عند حافة الجسر ، عارضا «بضاعة» . توقف زهير ، وأخذ يمازحه ، صاحبنا لم يتوقف ، بل تلعثمت قدماه كما يتلعثم اللسان فيختلط الكلام بالكلام ، خاف من «البضاعة» ، صرخ :

– زهير . . . بتعمل إيه يا زهير الله يخرب بيتك . . . ده مجرم ؟

«حبكت» مع زهير :

– ايش بيك يا أخي ، ح نشوف إيش عنده ، يقول لك آكو بظاعة كلش زينة .

وانفجر ضاحكاً ، ولحق بزميله الذي كف عن عبور الجسر منذ تلك الحادثة الصغيرة ، وصار يسلك طريقاً خلفياً للوصول إلى مكان عمله .

أما أنا فلم أكترث لوجود أولئك المهربين الصغار ، وهم لم يعترضوني ببضاعتهم ، على أية حال ، سوى مرة واحدة . كنت غادرت مكتب العمل ، ساعة الغداء ، مع زميلي عزيز عبد الحي ، الأثيوبي الذي يأخذني التمشي معه ، في شوارع كامدن تاون ، إلى زمن الجدل الفكري والمعارك الأيديولوجية وعز اليسار

الذي فقد عزّه . هو لم يزل شابا ، يحلم بالتغيير ، وبأثيوبيا جديدة يقودها «وِندِم» (رفيق) ملس زيناوي ، خارجاً بها من تحت أنقاض نظام منغستو هيلا مريام . التغيير . . . نعم أيها الـ«عزيز» ، هذا ما يسعى إليه الجميع . انظر إليّ ، مثلاً ، كم تغيرت على مر السنين ، ولم يتغير ما سعيت إلى تغييره . أما أنت ، فلا أدري أين سينتهي بك التغيير .

- good stuff .

همس شاب أسود يضع يديه داخل جيبي بنطلونه ، وينزوى عند حافة الجسر الجنوبية ، حين مررنا به . ثم سار خلفنا بضع خطوات متابعاً عروضه ، مشجعاً كلانا ، أو أحدنا على الأقل ، على تجريب الصنف Just try it

عزيز التفت خلفه محاولاً إفهام الشاب ضرورة التوقف عن اللحاق بنا ، لا كرهاً في «البضاعة» ، ولكن لأن المهّرب شبه العلني ، بدأ يفسد بعروضه جدلنا المحتدم حول ما يمكن استخراجه من الماركسية بعد طرح لينين منها .

صاح عزيز :

- Come on man...I am Muslim.

رد الشاب الذي توقف فعلاً عن السير خلفنا :

- So what...I am Muslim too

- oh my God

هتف عزيز . . . وانفجر ضاحكاً شاتماً :

- يا بن الكلب .

وضحكنا للمفارقة .

انعطف خلف زاوية الشارع إلى الممر المؤدي إلى APTN وكالة أسوشييتدبرس للأخبار المصورة ، حيث أعمل ، مخلفاً ورائي مقهى Espresso يحتضن عدداً من خفافيش الليل السود من «البانكس» ، يحتسون قهوتهم حول طاولة في ركن المقهى الأمامي . خلفهما تماماً ، شابان يجلسان متجاورين إلى طاولة قرب زاوية البراد الكبير ، هل تبادلا قبلة سريعة لحظة مروري من أمام

المقهى؟ أمط شفتي، لم يعد الأمر يثير اهتمامي إلى حد كبير، لكني ربما، قلت لاشعورياً : «يا فتاح يا عليم على هالصبح» . فبعد ست سنوات من العيش وسط المجتمع البريطاني، بدأت أكتسب بعض مناعة ساعدتني على مواجهة مثل هذه الظواهر . صرت أتجاهلها، مع أنني لم أستطع أن أفعل ذلك حين غرقت وسائل الإعلام البريطانية، في تغطية المناقشات الدائرة في البرلمان ومجلس اللوردات، لخفض السن القانونية للمثليين إلى سن السادسة عشرة بدلاً من الثامنة عشرة، وتطبيع الشذوذ بين المراهقين . وقد أثار ذلك لديّ الكثير من التحفظ الشخصي، وأعتقد أنني شعرت بالغثيان، حتى أنني أطلقت على تلك المناقشات، ديمقراطية القفا .

وهكذا، غادر القطار نهائياً محطته في ضاحية ريتشموند، بصورة طبيعية، لولا تلك المفاجأة التي اخترقت كل هواجسي وذكرياتي، ففي اللحظة التي خرج فيها القطار من حدود الضاحية وزاد من سرعته، خرج أبي من ظل بعيد في الذاكرة قاطعاً المسافة، منذ وفاته حتى الآن، لكي يهبط عليّ في القطار، جثة لُفَّت بملاءة بيضاء مثلما رأتها أمي قبل ثمانية وثلاثين عاماً، في حينه قالت أنها رأت بركة صغيرة تخثر دمها عند خاصرته اليسرى .

ألقيت نظرة على جثمان أبي، فيما كانت يدي تُخرج أوراقاً وقلماً، ووجدتني أكتب دون أن أرفع عيني عن جسد أبي الذي لم يُسمح لي برؤيته يوم وفاته :

مات أبي . . . أنهى أربعة وثلاثين عاما من عمره ومات . جاء سعيد المدهون إلى غرفة الفصل في مدرسة خان يونس الثانوية ليبلغنـ . . . . . . ولم أتوقف إلا بعد أن أفرغت العبارة الأخيرة على الورق : أحسست بالأرض تزلزل حيطان المعسكر . رأيت المعسكر يصعد نحو السماء . رأيت السماء تبكي أبي . أسندت رأسي إلى جدار الحائط، وانفجرت باكياً من جديد، ونعش أبي الأبيض يمضي نحو البعيد .

وضعت القلم فوق الأوراق على ركبتي، وألقيت نظرة عبر النافذة، من بين

دمعتين علقتا بمقلتي . كانت ثمة حقول تركض ، وأشجار ، لم أرها من قبل ، تتلاحق مروراً أمام عيني ، في الاتجاه المعاكس لاندفاع القطار . ارتبكت . . . لم أر هذه المشاهد من قبل ! لم أتعرف عليها أبداً ! هل ركبت القطار الخطأ ؟ هل ينقلني هذا القطار إلى مناطق مجهولة ؟ يا إلهي ، هذا غير ممكن ، فقطار «نوريتش» ، الذي صعدت إليه ، قد يغير كل شيء إلا رصيفه . إنه يتوقف عادة ، على سكة الرصيف رقم ٤ أو ٥ في ريتشموند . تحسست قدميَّ ، خفت أن تكونا وقفتا على رصيف آخر . عدت إلى النظر خارج الشباك . خفض القطار من سرعته . تباطأ مرور الأشجار في المزارع الخضراء الممتدة أمام ناظري . دهشت . اقترب القطار من المحطة ، دهشتي غدت حيرة مفاجئة . دخل القطار المحطة ، أخذت حيرتي تتبدد . توقف القطار وقد تعلقت عيناي باسم المحطة ، المخطوط بدهان أبيض على يافطة زرقاء مثبتة على الرصيف : «Dalston» . التقطت القلم ولملمت الأوراق ودسستها بسرعة في حقيبتي . أطلقت سراح الدمعتين وجففتهما . وهبطت من القطار على عجل ، وقد أدركت أنه تجاوز محطة كامدن رود ، التي أقصدها ، بثلاث محطات . انتقلت إلى الرصيف المقابل أنتظر القطار القادم من الجهة الأخرى لكي يعيدني إلى كامدن رود ، وهناك وقفت أتفحص بعيني المنطقة التي أخذني إليها حضور أبي المفاجئ . ووجدتني غارقاً في تلك السعادة التي كانت تتشكل غامضة بعد صعودي إلى عربة القطار . . . وهتفت منتصرا :

يا إلهي . . . لقد أنجزت الفصل الأول الذي كنت أبحث عنه .

***

حملت ما أنجزته في القطار إلى صديقي الشاعر المعروف ، أمجد ناصر ، لإطلاعه عليه . كان أمجد قد ألّح عليَّ ، مراراً ، أن أكتب تجربتي : «هذا التاريخ الشفوي ، الذي لا تعرفه الكتب الرسمية والمدرسية ، ينبغي أن يدون . علينا أن

ندونه بروحه ونكهته ، وبمفرداته الشعبية المحكية كما عايشناه . نلملم الحكايات من أفواه الناس العاديين . . . هذا هو التاريخ الحقيقي الذي يصنعه ناس عاديون . تجربتك غنية ، وتستطيع قول الكثير . .يا أخي اكتب . .فقط اكتب ، ستجد الذاكرة وقد فتحت لك خزائنها يا أستاذ» .

بعد اطلاعه على الفصل الأول ، أو ما افترضت أنه فصل أول ، هتف أمجد بحماس : «جا ـ ميل» . هكذا يلفظ أمجد ، عادة ، كلمة «جميل» ، حين يريد للمعنى أن يتدفق بأكثر مما تحتمل الحروف : «جا ـ ميل . فصل جميل يا صديقي ، وأدهشني ذلك التأويل في مشهد تلقّي النقود من والدك في المستشفى» .

سأبدأ بهذا الفصل إذن ، وسيكون عنوانه «والدان» ، وسوف يتعرف القارئ ، من خلاله ، على قصة والديَّ ، التي لم أروها من قبل .

أدهشتني نفسي من نفسي ، فأنا لم أبدأ الكتابة بهذا الفصل ، ولم يكن الوحيد الذي أنهيت كتابته على أية حال ، فقد كنت عمدت إلى كتابة ما تستحضره الذاكرة ، تاركاً ، بتعبير أمجد ، خزائنها المفتوحة تتدفق مقدمة خياراتها . وتدفقت ذاكرتي أمامي مثل نهر من كلمات جرت على الورق حيناً ، ومثل شلال من حروف سوداء تلاحقت على الشاشة الفضية للكمبيوتر الجالس في حضني مثل طفل أداعبه . ثم بدأت في غربلة ذلك الدفق الكبير ، وإعادة تركيب ما نقله إليَّ من وقائع وأحداث وحوارات ، اخترت لها قالب الجاز ، وأخذت أكتب كمن يدون نوطات موسيقية . لم أجد التوليف السيمفوني ، والخضوع لقالب السوناتا ، والتزام حركاته الثلاث وإيقاعاتها مناسباً ، ربما كان الكونشرتو ، الذي تتحاور فيه آلتان موسيقيتان ، أو آلة وأوركسترا ، أكثر تطابقاً مع طبيعة السرد في بعض فصول هذا العمل ، لكن الجاز هو المناسب لغالبيتها ، ذلك أن كلا من هذه الفصول ، يعد مقطوعة متمايزة في تراكيبها تماماً ، تجمع عناصر درامية وأحداث وشخصيات ومفاهيم مختلفة ، ومتنافرة ، وحتى مناقضة لبعضها ومتناقضة مع بعضها ، يؤدي كل منها دوراً مختلفاً ، لكنها تعود وتتآلف في إطار

متناسق ، وتندفع مشكلة ، أو هكذا حاولت أن أجعل منها ، وحدة متماسكة تحت مظلة عنوان يحميها من اعتداء غيرها من العناوين .

عندما اطمأننت إلى ذلك ، انتقلت إلى الفصل الثاني وما يليه ، أي إلى ما اعتبرته المقطوعة الثانية من مقطوعات الجاز ، كما قررت أن أطلق عليها ، بدلاً من مصطلح الفصول الشائع . قبل أن أفعل ، غيرت عناوين الفصول التي أنجزت كتابتها ، فأصبحت مقطوعات : «حكايات بريئة» ، و«ضحى أحمر : أسطورة شهداء» ، و «قصة والدين» ، و«بائعة القماش» ، و «جسد فيفي» ، و«شقيقتي التي تزوجت» .

كنت أكتب ، وكانت زوجتي تتلقف الصفحات مثل أرغفة ساخنة تخرج من فرن الحكايات . تقرأ ، تتذوق ، تراقب ، تطمئن ، وتتدخل . فقد وقفت وراء هذا المشروع منذ وقت طويل وتريد له النجاح . بكت وأسقطت دمعاً كثيراً على نعش أبي ، مثلما ضحكت وأعجبت وانبهرت ، أيضا ، عند اطلاعها على مقطوعات أخرى ، وأظهرت ، أحياناً ، رفضاً واستياءً ، من بعض ما قرأت ، وأجبرتني على شطب كلمات اعتبرتها مقرفة ، أو مخلة بالذوق العام ، حتى حسبتها عضواً في لجنة مصرية للمراقبة على المصنفات الفنية ، وفي مرات معدودة تركت ما بيدها احتجاجاً ، مفضلة متابعة قراءتها لروايةAngela's ashes للأميركي ، من أصل إيرلندي ، فرانك ماك كورت . معها حق ، الرواية جميلة ومتميزة ، وتحمل جاذبية قوية للقراءة ، على الرغم من طابعها المأسوي الحزين . ثم أن زوجتي ، في مرات أخرى ، استغرقت في مشاهدة حلقات مسلسل sunset beach الأميركي . لكنها ، رغم كل ذلك ، لم تتخل أبداً ، عن موقفها الداعي إلى اعتماد فصل «والدان» ، الذي أصبح بعد التعديل «قصة والدين» ، كأفضل ما يمكن أن أبدأ به هذا الكتاب .

يوم الجمعة الفائت ، الثالث من كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩ ، كتب أمجد ناصر في زاويته الأسبوعية ، «هواء طلق» ، في «القدس العربي» ، معترفاً بإعادته النظر في موقفه من رائعة البير كامو «الغريب» ، في ضوء قراءة البروفيسور إدوارد

سعيد لها ، في مؤلفه الهام «الثقافة والإمبريالية» . وقد ذكّر أمجد بالجملة الافتتاحية للرواية ، والتي تركت تأثيرها على عدد من الأعمال التي بدأت بعبارات مشابهة أو اتخذت من موضوع الموت مدخلاً لها : «اليوم ، ماتت أمي . . .أو ربما ماتت بالأمس» . هكذا بدأ مارسو عبارته الشهيرة .

حين التقيت أمجد في موعدنا الأسبوعي ، صباح الإثنين ١٩٩٩/١٢/٦ ، في المقهى الواقع في الطابق الأول ، من Treaty center في ضاحية Hounslow حيث أقيم ، حملتْ زاويته تلك ، إلى لقائنا مذاقاً جدلياً طيباً ، إلى جانب الشاي الذي تناولته ، والقهوة السادة التي أخذ يرتشفها . تحاورنا وتناقشنا إلى أن دخلت عبارة كامو : «اليوم ، ماتت أمي . . .» بيننا مثل إشارة مرور حمراء أوقفت الكلام وأمسكت بحروفه من إيقاعاتها .

تنبهت ، والتقط أمجد الإنفعال عن ملامحي ، علقت : «أظنها جدلية الحياة والموت بإغرائها الذي لا يقاوم هي التي دفعتني ، أنا أيضاً ، إلى اختيار بداية تشابهت مصادفة مع بداية الغريب : «مات أبي . .» . وقلت لنفسي محاولاً أبعاد شبهة التأثر المباشر بكامو ، أن مؤلف الغريب لم يكن واحداً من ركاب القطار الذي كان يفترض أن ينقلني إلى كامدن تاون ، حين كتبت تلك العبارة, ولم التق «مارسو» ، منذ تعرفت عليه أول مرة في أواخر الستينات ، ولم يصاحبني تلك الرحلة التي رافقتني فيها جثة أبي ، وكتبت خلالها : مات أبي . . .» ، وأنجزت مسودة الفصل الأول .

- عفواً يا صديقي ، لم أقصد ما كتبته أنت بالذات .

قال أمجد ، مستدركاً ما لا يمكن استدراكه بعد النشر. هو يقصد أعمالاً منشورة بالطبع ، لكنني دخلت دائرة الانتقاد حتى قبل النشر .

ثم جاءت نصيحة من زهير الجزائري أوقفتني عند هذا الفصل من زاوية أخرى ، فما أن انتهى زهير من إلقاء نظرة سريعة عليه ، في أثناء عملنا في الأسوشييتدبرس ، وكنت طلبت منه أن يبدي رأيه ، حتى استدار في مواجهتي قائلاً ، بلهجته التي يؤكد ، في مناسبات معينة ، أنها لم تعد عراقية :

- كلّش حزين .
وصمت قليلاً قبل أن يضيف :
- حلو . .حزين .
وجدد صمته .
قلت لنفسي : إذن سأثبِّت قراري ، سيكون هذا الفصل المقطوعة الأولى ، بغض النظر عن اختيار موضوع الموت مدخلاً له ، ولتكن خان يونس ، التي شهدت وفاة أبي غريباً عن مسقط رأسه في المجدل عسقلان ، أولى مدن فراقنا .
زهير خرج عن صمته فجأة ليعترض :
- لا يا أخي . .لا تبدأ بالموت . .

يعني
ما أدري
كيفك . . .

***

ما العمل ؟
أطرح سؤال لينين ، وأتجاهله لكثرة ما غسلنا به شوارع حيرتنا الفكرية والسياسية في «المنعطفات التاريخية التي مرت بها أمتنا العربية» ، التي لم تزل تخرج من منعطف لكي تدخل آخر كأنها أمة من المنعطفات . عطف الله عما سلف ، انهارت الاشتراكية ، واختفت إجابة لينين وبقي لنا نحن السؤال مجرداً .
أستعير سؤال لينين الآخر الذي بقي منه قليل لم يهترئ بعد : «بم نبدأ؟» . . . حقاً بم أبدأ . . . ؟
بالجسد . . .
يا إلهي . . . كيف لم أفطن إلى ذلك منذ البداية ؟
كيف لم أمسك بمفتاح الخليقة ، بسلة المتعة الكبرى ، بسر اللعنة الأولى التي

أنزلت آدم من الجنة . هل حقاً كان آدم ساذجاً لكي تغريه تفاحة يوجد مئات مثلها في سوبر ماركت Tisco ، وعند البقال الهندي ، أسفل البناية التي أقيم فيها؟ وكيف غامر بافتضاح سره أمام إبليس؟ أو ، لعله اكتشف الرغبة الأولى حين أسقطت حواء ورقة توتها ، فواصلت البشرية استمتاعها بممارسة اللعبة . تُسقط الورقة وتعيدها لكي تسقطها . وأنا مثل الآخرين يمكن أن ألعب اللعبة الأولى ، وأصف ، بقليل من الإثارة ، ما جرى بيني وبين فيفي . ستكون تلك بداية معقولة لعمل أدبي يطمح صاحبه إلى اجتذاب أكبر عدد ممكن من القراء . وسوف يكتب نقاد وينشرون مقالات تتناول هذا العمل ، وسيكون ذلك بدافع ممارسة النقد ، أو من باب عرض الكتب ، أو بهدف الحصول على سبعين ، أو حتى مائة جنيه استرليني ، لقاء كيل مديح لعملي هذا ، أو تسديد لكمات نقدية قاتلة له ، أو لتحقيق كلا الهدفين معاً . وسوف يتعرض ، بعضهم ، لتلك المشاهد ولغة السرد المستخدمة . وقد يتهمني بالتهرب من استخدام لغة صريحة ، وربما بالتخلف والجبن ، فيقول ، مثلاً ، أن النص يكون واقعياً ، ويتحلى بمصداقية أكبر ، ويعكس جرأة وصراحة مطلوبتين ، ما دام العمل يندرج في خانة «أدب الاعتراف» ، مع أنني لا أقدم اعترافاً لأحد ، لو أن الكاتب عرض بصورة صريحة الأشياء بأسمائها ، وتخلى عن تعامله مع الجسد وتكويناته وأعضائه ورغباته بهذه الحساسية وذلك الخوف الذي ترتجف له حروف كلماته ، وسوف يغض مثل هؤلاء النقاد النظر عما تنطوي عليه لغة صريحة كالتي يدعون إليها من إثارة .

من حسن الحظ أنني ما زلت أناقش الموضوع ، وأنني لم أكتب تلك الفقرة بعد ، وأستطيع تغييرها ، وحتى التراجع عنها كلية ، وليعذرني القارئ ، إن فعلت ذلك تفادياً لحملة نقدية قاسية متوقعة .

هكذا قررت أن أرسم مشهداً ايروتيكياً يذهب إلى أقصى حدود الإثارة الجنسية ، مستخدماً لغة واضحة وصريحة تسمي الأشياء بأسمائها ، تماماً كما يفعل الكتّاب في الغرب ، دون خجل أو حرج أو خوف من رقابة .

سيقول نقاد من نوع آخر ، يحتجون بأصواتهم ، بينما أنصارهم يجوبون

الشوارع ويدورون في ساحات الجامعات : هذا ليس أدباً ، بل قلة أدب . أليس هذا بعض ما قيل في حيدر حيدر وروايته «وليمة لأعشاب البحر»؟ بعد سبعة عشر عاماً على نشرها ، أدانوه ، كفّروه ، لعنوه ، وتظاهروا ضده ، فطبع ابنه مجد ، الذي بات يشرف على دار «ورد» لطباعة ونشر أعمال صاحبها ، عشرات آلاف النسخ ، على ما قيل . حقاً تطرف قوم عند قوم فوائد ، عندما نشر حيدر حيدر وليمته ، كان كثيرون يفضلون ولائم شواء اللحم والدجاج على الفحم ، واحتساء «الأوزو» الأبيض ، في جبال ترودوس القبرصية ، على قراءة الرواية . كنا نعيش آنذاك ، زمالة عمل طويلة نسبياً ، وصداقات عابرة نحو قطيعتها ، في مدينة لا ذاكرة لها ولا أصدقاء . ولم يكن حيدر حيدر يحلم ببيع مائة نسخة من روايته ، ولو حصل وباع فعلاً ، لعلم بذلك ، جميع العرب في نيقوسيا ، لأن أحداً لم يكن قادراً حتى على إخفاء أحلامه . حينذاك ، قرأت من الرواية ، بصعوبة ، ثلاثين صفحة فقط . لست من عشاق ما يسمونه ب «الرواية الشعرية» ، ولا معجباً بأسلوب حيدر ، على الرغم من وجوده الحي بين الروائيين السوريين زمناً طويلاً وهو في منفاه . ألزمتني الضجة التي رافقت إعادة طباعة الرواية في القاهرة ، في مايو/ أيار الماضي ، بالعودة إلى قراءتها . قطعت بصعوبة مسافة مائة وخمسين صفحة ، مشياً بين السطور وفوق الكلمات ، ولم أعثر على الضجة المثارة ، بل على عمل لم يثر فيَّ حماس متابعة قراءته حتى النهاية . ولم أخطِّئ موقفي السابق منها ، ولم أتراجع عنه ، لكني شعرت بما شعر به كثيرون تضامنوا ، علناً ، مع حيدر ، من تفاهة وتهافت منطق فرسان «زمن الردة» الذي جعل من الرواية رواية ، وتمنيت ، مثل آخرين ، لو أن حيدر حصل على تلك الشهرة بسبب أهمية الرواية ، وليس نتيجة «خلاف بين أهل الأرض على ما يجري في السماء» ، على ما كتب أحدهم دفاعاً عن حيدر .

أما الحداثيون والمقربون من مدارسهم ، فسوف يقولون بأن البداية التي اخترتها أخيراً ، جريئة ، وأن تقنية السرد ، هي ما بعد حداثية . ولا أدري ، حقاً ، إن كان الأمر كذلك ، أم هي القراءات النقدية التي تستخرج من النصوص ما لا يخطر

لمؤلفيها على بال .

لكنني أكون أقدمت على عملية خداع للقارئ ، باللجوء إلى حداثة مبنية على ايروتيكية ، بورنو- كلاسيكية . وقد تبدو إعادة كتابة ما جرى في المطبخ بيني وبين فيفي . . . عفواً ، عند مراجعتي الأخيرة لما كتبت ، وجدت أنه من المفيد التذكير ، هنا ، بأن فيفي التي أتحدث عنها ، لا علاقة لها بالراقصة الشهيرة . ولمزيد من تأكيد عدم وجود علاقة بين الفيفيتين ، أُذكِّر بأن الراقصة الشهيرة لم تكن شهيرة ، ولا راقصة أصلا ، آنذاك . كان الهز كله لنجوى فؤاد . . . بلدياتنا . أفرح وأنا أستمع إلى الصبية في الحارة يرددون بثقة ويقين بأن نجوى فؤاد فلسطينية الأصل ، ومن يافا ، أهتف : صحيح . .صحيح . . فقد كنا نلم الفلسطينيين من الأغاني والأفلام والمسارح :عبد السلام النابلسي فلسطيني . بدر لاما فلسطيني ، هكذا قال عوني الشوا . أنا سألت أمي إن كانت سمعت أن نجوى فؤاد فلسطينية من يافا . برمت بوزها شبرين ، وردت عليَّ قائلة : «يا فرحة أهلك . . . ارتفع راسنا لفوق ، كمان هزّة بطن واللا هزتين بترجع فلسطين لأهلها» .

كانت بقايا مدارس الرقص الأصيل تنسحب تاركة أرض المسارح للهشبكة ، التي توّجتها أغنيات «الطشت قال لي» ، و«السح الدح امبو» . وكانت تحية كاريوكا في طريقها إلى التقاعد ، بعد أن غيرت من الأزواج ما يعادل بدلات الرقص التي اشتهرت بها ، وبعد أن استوطن الشحم على ردفيها ، وخصرها ، الذي كان يحتضنه طفل صغير بذراعيه . أما ميمي جمال ، وآه من ميمي جمال ، كان رقصها ألحاناً وكان جسدها عازفاً ، اختفت ، انسحبت مثل نهار أجبر على الأنسحاب أمام زحف ليل لا يحترم ليله . أغلقت مدارس الرقص أبوابها ، ولم يبق سوى البطن ينط فوق خشب المسارح ، والصدر مشغول ، يلم بحمالتيه الرقيقتين عملات نفطية تدفئ الثديين .

قلت بأن إعادة ما جرى في المطبخ بيني وبين فيفي ، الشغالة التي عملت لدينا ، وكنا مجموعة طلاب غزيين ، نقيم في شقة في منشية البكري في القاهرة ، في بداية حياتي الطلابية ، قد يُفهم منها ، أي الإعادة ، أنني

استهدفت ، إغراء القارئ بعرض مشاهد جنسية مثيرة لكي يواصل القراءة بحثاً عن مزيد ، ذلك أن الذي حدث ، فعلاً ، كان جنسياً . لكن تطوراً مفاجئاً وقع ، فيما بعد ، فبعد اطلاع أمجد ناصر على مخطوطة «طعم الفراق» كاملة ، قدّم ملاحظات قيمة ، أخذتُ بمعظمها ، عند المراجعة الأخيرة . وكان أكثر تلك الملاحظات أهمية ، تأكيده على أن مقطوعة «جسد فيفي» ، إضافة إلى مقطوعتين أخريين قصيرتين ، خارجة جميعها عن سياق العمل . ورغم اتفاقنا على الإمتاع الكامن في ذلك النص ، «جسد فيفي» ، إلا أنني صادقت أمجد على ملاحظته ، وقلت له ، حين أعاد إلي المخطوطة : لقد أخرجتني يا صديقي من جسد فيفي ، وأخرجت فيفي من جسد هذا العمل . غير أنني أعترف ، هنا ، أنني استعدت ، في تلك اللحظة بالذات ، طعم فراق تلك الفتاة التي كانت جزءاً من حياتي .

متاهة أخرى . . . حيرة أكبر . . . بم أبدأ إذن ؟

أعود إلى لينين ، الذي خرج من رأسي قبل سنوات ، ومقولاته ، وخطبه ، ومؤلفاته ، وخصومه الفكريين والسياسيين من كامنييف وزينفييف إلى تروتسكي وآخرين ، دون أن يأخذ سؤاله معه . أكرر السؤال : «بم نبدأ ؟» ، مثلما أكرر الرغبة في العودة إلى «والدان» ، أو «قصة والدين» ، الفصل الذي اخترته ، والذي يبدأ ب «مات أبي . .» ، غير آبه بألبير كامو ، ولا ب «الغريب» مارسو . وليذهب مارسو ، الذي فضح إدوارد سعيد عنصريته ، هو وأمه إلى الجحيم ، لست الأول ولن أكون الأخير الذي يبدأ بالموت ، إلياس خوري فعل ذلك أيضاً ، في روايته باب الشمس : «ماتت أم حسن . . .» . وسواء كان الميت أم حسن ، أو أم مارسو أو أبي ، فسوف أجد طريقي إلى تمايزي الخاص ، فموت أبي لا يشبه موت أي منهما ، موته لا يشبه إلا موته ، مثلما لا تشبه حياته سوى نفسها . لقد عرفت تفاصيل حياته منذ نهايات صباه ، ورأيتها تكبر في أزقة حارة المدهون ، وشوارع المجدل عسقلان ، تتسلق الزمن مثل شجرة لبلاب نحو مراحل العمر . لم ينتظر والده ، سليم محمود ربعي المدهون ، تاجر الأقمشة ، اكتمال تسلقه المرحلة ، فسارع يبحث له عن عروس . قال لشقيقه محمود الذي يكبره بسنوات : «أخوك

كبـر ولازم ندوِّر له ع بنت الحـلال اللي تظبّـه حتـى مـا تطلع عـينه برّه ع بنات الناس» . وصادقه محـمود القول ، فقد سبق ، طبعاً ، أن «ظبّوه» هو نفسه ودلول شعبان المدهون في بيت واحد .

راقبت سليم يتقدم لطلب يد لطيفة لابنه خليل ، ورأيت كيف ارتسمت على وجه والد العـروس ، خليل نصر الله ، تاجر الأقـمشـة المتجول ، الذي لا يبـتسم ، عادة ، لرغيف الخبز الساخن ، ابتسامة ظننتها عابرة ، إلا أنها لم تكن كذلك ، بل تواصلت وامتدت على شفتيه الرفيعتين حتى بلغت عرض قماش البفتة الذي يبيعه ، وكـيف تماوجت زرقة عينيه فـرحاً ، ورقصت كـما يرقص موج عسـقلان للصيادين . رأيت لطيفة وخليل يسبحان في بحر عينيه وهو يسأل سليم : «بدَّك لطيفة لخليل يا سليم . .مرحبى بكم . خليل ابني زيه زي عبد الفتاح وإخوته . . . أصلا هوَّ وعبد الفتاح طيزين فِ لْباس . وْأحسن من خليل ما رح انلاقي . . . على بركة الله» .

ودفع خليل المدهون ، وكـان في الـثـامنة عشـرة من عـمـره ، يعـمـل مـوظفـاً في معسكر مدني للجيش البريطاني ، يقع على مقربة من بلدة الفالوجا ، لخليل نصر الله ، ثلاثمائة جنيه فلسطيني ، مهراً لعروسه لطيفة التي أنهت عامها الثالث عشر قبل أيام فقط . وكـان مـهـراً غـاليـاً مـثل كل مـهـور البـنات في المجـدل . فـقـد كـان سكانها عموماً أغنياء ، ولـم يكن بينهم فقراء ، ولم تعرف مـدينتهم البطالة . فمن لـم يجد عمـلاً اشتغل في صناعة النسيج على النول اليـدوي . وهي مهنة «إن ما أغنت سترت» كما يقولون . واشترى خليل لعروسه ست قطع ذهبية لبستها لطيفة في ليلة زفافها .

رأيت لطيـفة قـبل تلك الليلة تقلب أساورها وقـلائدها الذهبـية بفـرح صبـية ، وهي تضعها قطعة قطعة في صندوق خشبي صغير تدسه ، لاحقاً بين ملابسها .

وتم عقد قران خليل على لطيفة . وأعد بيت العائلة الصغير لسكنى العروسين . كـان لسليم بيتان ، تنازل عن الصغير منهما لابنه العريس ، فجهزه والد العروس بكل ما يلزم .

وجاء يوم الزفاف ، ويا لذلك النهار الذي رأيت فيه لطيفة بفستان زفافها . هل شاهد أحد زفاف والديه ، وسهر حتى أخذ أبوه ، الذي لم يكن أبوه ، أمه التي لم تكن أمه ، إلى بيت الزوجية ؟ هل جرب أن يراقبهما عريسين في قمة سعادتهما لا يوقظهما صراخه ، ولا يختلفان حول أسلوب تربيته ، ولا يسمع أمه تغني له ، وتتغزل بما أنزله في حفاظه وهي تنظفه وتستبدل الحفاظ ، في لحظة يهرب فيها أبوه من رائحته ، تاركا زوجته تترنم بأغنيات صغيرة ، لكي تقنع نفسها بأن ما تشمه هو رائحة الريحان وليس ما ينبعث من حفاظ وسخ ؟ !

جاء ذلك اليوم يرفل في ثوب من ضوء صيفي أبيض ساطع كأنه ثوب عروس . كأن النهار تزوج النهار . نقشت العروس أصابعها ، وصبغت يديها بالحناء . رتبت ملابسها الجديدة في صندوق خشبي مطرز بنقوش فضية : أثواب الجلجلي والبلتاجي والجنة ونار وأبو متين المطرزة بغرز الحرير للزيارت والأفراح ، وخِلقة للبيت ، وشالين من القطن ، وثلاثة شالات حرير ، وكلها من صنع المجدل ، بالإضافة إلى مكحلة نحاسية صغيرة على شكل إبريق فخاري ، وثلاث وربات للرأس من الشاش الأبيض ، وملابس داخلية من البفتة ، وهذه ، أيضاً ، مصنوعات محلية .

بعد الظهر بقليل ، وكان الجميع يستعد لسهرة العمر ، مات ابن عمة العروس ، ابن سليم صالحة ، الملقب بالحاج سليم بروق ، زوج عمتها آمنة . وتبللت حارة المدهون بالخبر . وجرى همس كثير سابق النهار الراكض نحو مسائه : كل عرس وإلو قرص . يبيي ما أسخم بختك يا لطيفة . يعني ماجاش هالصبي الزغير إموت إلا اليوم . قال الفرح في جهة والعزا في جهة . قدر ومكتوب . يا عمي ايأجلو العرس لبعد الأربعين .

انقلبت الحارة بسكانها المداهنة ، وكانوا الأكثر عدداً بين العائلات المجدلية . وحين تنقلب حارتهم تهتز المجدل كلها ، من حارة لبّد شمالاً حتى آخر حدود حديقة البلدية جنوباً . ومن أرض الخلّة شرقاً إلى بيدر الحاج عبيد غرباً . ووقع المداهنة بين خيارين قاسيين : إما أن يغطوا فرح لطيفة وخليل بأحزان بيت الحاج

سليم برّوق أربعين يوماً ، ويتزوج خليل ولطيفة على السكيت ، ويمر المساء مثل المساء ، ولا يظهران فرحتهما بفرحتهما ، أو يفرشون فرح العروسين فوق نعش أحزان آمنة والحاج سليم بروق ، ويطير عقله وعقل زوجته ، وجميع أفراد بيت صالحة المقيمين في حارة المدهون .

خليل نصر الله قال :

- خلينا نأجل العرس يابو محمود ، العروس بنتي والميت ، ابن أختي آمنه ، وما بيصير بنتي تتجوز يوم دفن ابن أختي .

سليم رد بحزم :

- علي الطلاق بالثلاثة ما بيتأجل .

سخرت من سليم ، وقلت : على إيش يا سليم نازل تحلف طلاق بالثلاثة ومرتك ميتة . . . حرام عليك يا زلمة !

كان تبرير سليم المدهون لرفضه ، وإصراره على إتمام الزواج في موعده ، هو أن الحاج سليم بروق والد المتوفى ، لا يمت لعائلة المدهون إلا بنَسَبه معهم ، ولا يُلزمهم ذلك بأحزانه .

جنّ خليل نصر الله ، وكان ، منذ عرفته ، عصبياً سريع الأنفعال ، لا يحتاج ، أصلاً إلى من يدفعه إلى الجنون . أخذ يخبط ركبتيه بكفيه ، ويلعن الساعة التي وافق فيها على زواج ابنته من ابن سليم . وانتهى الأمر إلى قطيعة بين سليم المدهون من جهة ، وخليل نصر الله ، والحاج سليم بروق وزوجته طبعاً ، من جهة أخرى ، دامت خمس سنوات كاملة ، حملوا بعضها إلى غزة مع الحاجيات القليلة التي حملوها معهم خلال هجرتهم من المجدل عام ١٩٤٨ .

أما المداهنة ، فما أن حل المساء ، حتى توافدوا على بيت والد العريس ، لكنهم لم يسهروا حتى الفجر على أنغام عود محمد الجراح المدهون ، كما جرت العادة في زيجاتهم ، وكما كان متوقعاً أيضاً . فبعد أقل من ساعتين على صمدة العروسين ، نهض خليل وأمسك بيد لطيفة وغادر البيت على عجل ، كان يريد أن يضع حداً للسهرة ، حتى لا يطفو الفرح فوق أحزان عروسه التي لم تكن قادرة

على الفرح .

في الصباح لم يكن فرح العروسين يشبه الفرح ، ففي الجهة الأخرى كان لون الحزن يظلل جانب الحارة الذي يقع فيه بيت الحاج سليم بروق والحاجة آمنة . لكن ذلك لم يمنع الذين جاءوا يباركون بصبحية العروسين من الحضور ، وكان أغلبهم شبه صامتين ، إلا واحدة أطلقت لسانها يرفرف في الحارة :

إيبّا وأشوفك يا بو محمود بطربوش غاوي
إيبّا وأصيل والأصل مجدلاوي
إيبّا ويا نجوم السما تطلي وظاوّي
إيبّا وبيت العز والكرَم بيتك يابو محمودي
أولولولولولولولولولولولوولولولولولزلولولولو لي

ولما سمعها خليل نادى على أخيه محمود الذي كان واقفاً بالباب ، من الداخل ، يستقبل ووالده المهنئين ويلمان النقوط . وحين جاءه همس في أذنه أن يسكت المرأة فوراً . حين تخطى محمود عتبة البيت ، كان لسان المرأة قد همد مثل جناحين متعبين ، عندها اضطر إلى أن يطلب من الأخريات عدم المهاهاة ، أو إطلاق الزغاريد لأجل خاطر العروس التي توفي ابن عمتها في يوم زفافها .

***

وحملت لطيفة زوجة خليل سليم المدهون ، لكنها لم تحتفظ بالجنين في تلك السن الصغيرة فأسقطته . وبعد قرابة نصف عام حملت مرة أخرى . وأحسستُ بي جنيناً ينمو في بطنها . يعيش المتاعب التي يسببها دون أن يدركها ، ويضحك من طرافة وحام أمه ، الذي قالت عنه ، عندما رأته على جلد خاصرتي اليسرى :

«هذي كبدة خروف مشوية» . وقلت عنه أنا ، عندما دلتني عليه : «هذي ليفة حمَّام يمّه» ، غضبت كثيراً حينذاك ، إذ افقدتها نكهة وحامها .

هكذا مضت شهوري التسعة ، بين متاعب ، ونمو ، ومزاح ، وحراك فرح له

خليل ولطيفة ، إلى أن جاءت لطيفة آلام المخاض . قالت لي مرة : «والله يمّه غلّبتني وعذبتني وطلّعت روحي ت نْزِلت من بطني ، مع إنك بقيت زي الدودة ، ناشف ومعظرط ومصوص مص» .

في عز ظهيرة يوم من أيام إبريل ، وليكن الرابع عشر ، إلى أن أتأكد من صحة ذلك ، سمعت صرختي الأولى تعلن حضوري إلى الدنيا ، وتوزعه على حارة المدهون ، وصوت الداية أنيسة تهنئ أمي : ألف ألف مبروك يا لطيفة . . . جاب الله صبي . أطلقت ضحكتي الأولى : «فرحانين إبي» .

فتحت عينيّ ، تعرفت على الموجودين : عمتي دلول أكبر أشقاء أبي ، ودلول زوجة عمي محمود ، وهنية زوجة عمي محمد ثاني إخوة أبي الذكور ، الذي اشتهر ب «اعليم» ، ووجوه لم أتعرف عليها بسهولة . بعد صرختي الأولى وتهنئة أنيسة ، انطلق صوت قادم من بعيد ، كان ذلك صوت رقية ، أم خليل سلامة ، عمة أبي ، قادمة من أول الزقاق ، يسبقها سؤالها :

– ايش جاب الله يا جماعة ؟

ردت عليها جارتنا فاطمة :

– صبي يا أم خليل ، صبي .

أطلقت رقية زغرودة عبقت رائحتها في طول الجدل وعرضها :

إيبًا والف مبروك إجاك ولد
إيبًا ويتربى فْ عزّك للأبد
إيبًا ومطرح ما يخطّي سلامة
إيبًا وافرح يا خليل يا زينة الشبابي
أولولولولولولولولولو لي

وامتلأت أذني الصغيرتين بالزغاريد والتهاني ، ونَبَض قلبي بالفرح . . . مبروك ما أجاك يا خليل . . .مبروك ياخويا . .مبروك ما إجاكي يا لطيفة . . . مبروك يابن عم . .مبروك يا قرابة . . . مبروك يا سلفتي . . .مبروك ياجار . . .مبروك يا بنتي . . .مبروك يابو محمود . . . مبروك ياختي . . .مبروك يا جارة . . . مبروك يا

بنيٍّ . . .مبروك يا بنت عم . . إيش رح تسمّوه ؟» .
– ربعي . .ع اسم سيده .
رد أبي .

وظل والداي يلمان التهاني والزغاريد على مدى أسبوع كامل ، يلفانها بمناديل حرير خضراء ، يجعلانها صرراً من ذكريات حلوة .

وكبرت . . .غادرت حجم الدودة ، ولم أعد ممصوصاً ، حسب وصف أمي ، وبدأت أركض في ساحة البيت الصغيرة .

وفي عامي الثالث ، تخطيت عتبة البيت ، وتعثرت قدماي وسقطت . تلقفتني أمي بكفيها ، «اسم الله عليك يمّه» ، ووضعتني في حجرها . وسقط برميل بارود رمته طائرة حربية يهودية وانفجر . شدتني أمي إلى ذراعيها بقوة ، ورمت بي وبنفسها إلى ما وراء العتبة . واندلعت نيران من البيت الواقع عند نهاية الشارع . وصرخت أمي : الله يسترك يا خليل ويحميك . وكان أبي في المقهى الذي افتتحه مؤخراً ، عندما بدأت الطائرات اليهودية غاراتها . وتصاعد صراخ اختلط بدخان غطى الحارة خلال دقائق . هذا بيت عمتي آمنة ، صابو قيزان ، أمي قالت . ولم أفهم في حينه . بعد سنوات طويلة عرفت أنه بيت الحاج سليم برُّوق ، زوج عمتها . وعرفت ، أيضاً ، أن بيتنا الذي انحدفنا خلف بابه لم يكن بيتنا الذي شهد زواج أبي وأمي واحتفى بولادتي . قلت لأمي في جلسة ذكريات : أني بحكي عن بيتنا يمّه . ردت عليٍّ : لأْ يمّه ، إنت ناسي كنت ازغير ، ايش بيعرفك ، يمّه اللي بتحكي عنه هذا ، بيت الحاجة خديجة الحلاق ، إتأجرناه المدة الأخيرة ، إتأجرو سيدك سليم . بيتنا الأولاني اطلعنا منُّه فجأة ، غصب عنا . . . دشّرنا فيه كل غراظنا ورحلنا بعد مصيبة خليل الشيخ سلامة ، أصر سيدك نعطي البيت لأخته وعيلتها ، وننتقل ع بيت الحاجة خديجة اللي بالأجار .

وحزنت بأثر رجعي يمتد مسافة خمسين عاماً وأكثر ، حين عرفت مصادفة أن بيتنا لم يكن بيتنا ، وأن الذي كان بيتنا كان بيتنا .

***

كان خليل الشيخ سلامة ابن رقية ، عمة أبي ، والبالغ من العمر سبعة عشر عاماً ، يواصل عمله ، المعتاد ، خلف نوله الخشبي . وكان إلى جانبه أحمد نصر الله المدهون ، عم والدتي ، الذي يشاركه العمل في القاعة ، وقد جلس على كرسي من القش ، يحتسي كوب شاي أعده قبل لحظات ، حين دخلت دلول شقيقة خليل الكبرى القاعة لاهثة ، وخاطبت خليل مستغيثة : الحقني ياخويا . .ابن قاسم سمَّعني حكي ، واعترظ طريقي وأني رايحة أودي الغدا وجرة الميَّه لابوك ع الكرم .

-ايش ، ابن قاسم حكى معك ، ورديتي عليه واللا لأ ؟

تساءل خليل الذي امتلأ صدره بالغضب .

- سبيت عليه وكسرت جرة الميه ع جْنابه .

وشعر خليل بحجم الإهانة التي ألحقها به ابن قاسم . وصار يرتجف . ظنَّ ، وخمَّن ، وفكَّر ، وتوجَّس ، وتخيَّل : ماذا لو ذهب ابن قاسم إلى مقهى علي محسن ، في وسط البلد ، وروى أمام جمع من الشبان ما حدث ، وهو حتماً سوف يذهب ، الآن ، أو في أي وقت آخر ، فهذه عادته ؟ ثم ماذا لو بالغ في روايته ، وادعى تجاوب دلول مع كلمات غزله الوقحة ؟

صرخ خليل . . . ساڤل ، وضرب قائمة النول على يمينه بقبضته ، وهو يقفز خارجاً من جورة النول . وضع جاكيتته على كتفيه ، وكوفيته البيضاء على رأسه ، وشدَّ إليها عقاله الأسود . تناول بندقية الصيد التي يحتفظ بها في ركن جانبي في القاعة ، تحت بكرة المسدية الضخمة مباشرة ، وهمَّ بالخروج ، فاعترض أحمد طريقه ، شده من ذراعه بقوة وصرخ في وجهه :

- إهدا يا خليل وحط راسك في عقلك . . . خليني أني أشوف ابن قاسم واحكي معه بالهداوة ، وانبهه عشان ما يعيدها .

أزاح خليل أحمد من طريقه وصرخ :

- أني ابن قاسم يغازل أختي وأسكت له . . .مابْقاش خليل إن ما ربيته .

واندفع يركض خارج القاعة . وعادت دلول مسرعة إلى بيت ذويها تحمل قلقها وخوفها من أن تؤدي شكواها إلى ما لا تحمد عقباه .

***

وسُمع صوت طلق ناري بدد سكون ظهيرة الجدل، أعقبه، مباشرة، صوت رصاصة أحدثت صدى مغايراً سمعته القرى المجاورة. وطار حمام كثير من على حيطان وأسطح بيوت المدينة. وفرّت عصافير الدوري في كل الاتجاهات. ونبحت كلاب بعيداً داخل البيارات. وسارع أصحاب الحوانيت التجارية في السوق إلى غلق حوانيتهم. وأنهى مصلون صلاتهم في الجامع الواقع وسط السوق على عجل، ولم يتسن لبعضهم تناول حذائه الذي تركه في الزاوية القريبة من الباب. وهرب الناس في الحارة إلى بيوتهم. واختفى المارون من الشوارع القريبة. وغادر رواد مقاهي المدينة مقاعدهم على عجل. وتصحرت الجدل في عز الظهيرة. ولا بد أن انطباعاً عاماً بوقوع اعتداء قام به مسلحون يهود، من مستوطنة «نغبا» القريبة، قد تولّد لدي الجميع في تلك اللحظة، في ظل تصاعد أخبار هجمات منظمات هاغاناه وشتيرن وليحي وايتسيل اليهودية في المناطق المحيطة بمدن يافا وحيفا وصفد والقدس وانتشارها.

في تلك اللحظة، أيضاً، قفز أحمد من مكانه وصرخ : استر يا رب... عِملها خليل سلامة، وأغلق باب القاعة خلفه وركض في اتجاه ما من المفروض أن أحدده ككاتب، وبالفعل، لقد رأيت أحمد وهو يعدو بعيداً عن القاعة إلا أنني لم أتمكن من ملاحقته، فقد انشغلت بمتابعة دلول إذ سمعتها تشهق عميقاً، ورأيتها تضرب صدرها بكفها ندما، وتهمس بعيداً عن أذنيّ والدتها : يا ريتني ما خبَّرِت خليل ولا شكيت لُهْ. وكراو للحدث، أصابني ارتباك من تزايد قلق دلول، خصوصاً بعد أن التقت والدتها، وأخذت تستمع إليها تردد كلمات تنذر بوقوع مصيبة، في الحارة، لأنها قالت في تلك اللحظة بالذات : «هالطخ كأنه في الحارة يا دلول». وكان ذلك كافياً لمضاعفة مخاوف دلول. أما رقية فقد مضت، رغم ذلك، تجمع مواسير الغزل التي أنجزتها، وترتبها في سلة البوص، فيما دلول تستعين بالسماء لتهدئة نفسها المضطربة. وكانت السماء مضاءة بشمس الظهيرة حين رفعت إليها عينين متوسلتين : يا رب ما يكون خليل

عملها . يا رب ابعد الشر عنه .

- قلتي إشي يا دلول ؟

هزها سؤال والدتها المفاجئ ، فردت بصوت راعش :

- قلت ، اللهم اجعله خير .

سقط ابن قاسم على الأرض جثة هامدة أمام باب قاعة النسيج التي يعمل بها . وأصيب خليل لثوان بما يشبه الشلل وهو ينظر ببلاهة ورعب إلى الشاب وقد غرق في دمه . واستفاق فجأة ، ليجد بندقيته في يده ، ويضع عينيه على الحقيقة : لقد قتل ابن قاسم ، مع أنه لم يقصد أن يقتله . استدار وأخذ يعدو عائداً إلى بيته . كانت والدته ، قد انتهت من وضع المواسير في السلة ، التي علقتها بساعدها ، وهمّت بالخروج بها إلى قاعة النسيج ، ولم يخطر ببالها أن خليل غادرها منذ حين . ولم تحاول دلول اعتراض طريق والدتها خشية انكشاف الحقيقة . لكن الحقيقة داهمت رقية في اللحظة التي همّت فيها بالخروج ، وفوجئت بخليل مندفعاً عبر الباب وبيده بندقيته . كان مكفهر الوجه بلا ملامح ، وقد امتلأت عيناه بالدموع . رقية قرصها قلبها :

- خير يمّه ، ايش اللي رجّعك بدري ، وليش البارودة في إيدك . . إوعي ل . . .لأ . . يا يمّه يا سخام البين علينا . . . إوعى يا خليل . . .

ألقى خليل بنفسه على صدر أمه ، وتمتم بصوت راعش متهدج : يمّه طخيت ابن قاسم وابن قاسم طخني .

سقطت السلة من ساعد رقية ، التي انهارت وتكورت فوق جسدها خلف عتبة الباب من الداخل ، وتدحرج ما في السلة من مواسير في أرجاء البيت ، وانتشرت خيوط الغزل الرفيعة في غير اتجاه .

- أجيب لك مية يمه .

قالت دلول ، وركضت نحو أبريق الماء الفخاري الأسود الموضوع على حافة شباك غرفة والديها . دفع خليل الباب خلفه ، ورمى بندقيته من يده وجثا على ركبتيه أمام والدته التي أخذت تلطم خديها وتندب حظها .

– يمة والله ما ني عارف ايش اللي صار . . . ما شفت ابن قاسم إلاّ وساحب المسدس وطاخخ عليّ ، وما دريت بحالي إلا وأني طاخخ عليه . سامحيني يمة سامحيني!

أبعدته رقية برفق . نظرت إليه عميقاً . مسحت دموعها بطرف منديلها ، وأزاحت يد دلول التي مدت نحوها إبريق الماء ، وقالت لخليل بصوت حازم :

– روح دوغري يا مسخم على أهلك سلِّم حالك لمركز البوليس لِجديد ، روح قبل ما ييجي البوليس ويقبظ عليك .

نهض خليل . التقط بندقيته بيد راعشة ، واستدار خارجاً من البيت .

سلَّم خليل نفسه وبندقية الصيد التي قتلت ابن قاسم لمركز الشرطة . فعل ما نصحت به أمه . وسهرت الجدل ، تلك الليلة ، حائرة تقلب التفاصيل .

* * *

وخرج خليل الشيخ سلامة من سجنه ، بعد شهرين ، بريئاً من تهمة القتل العمد ، واكتفت المحكمة بأن ألزمته بدفع غرامة مالية .

وانفتحت أفواه عشرة آلاف مجدلي ، هم سكان المدينة ، تمضغ الدهشة وتلوك الحكايات . وسال الكلام من بيت إلى بيت . وعبر الهمس ثقوب الجدران . واعتلى القيل والقال الحيطان على اختلاف ارتفاعاتها : قالوا «بيت المدهون ، خوال خليل الشيخ سلامة ، برطلوا المحكمة ودفعوا نيرات ، لبعظ الناس» . وقالوا «هذي محكمة عدل ، الناس اللي فيها شرفا وما بيتبرطلو بمال الدنيا» . وقالوا «يا عمي لفلفو القظية» . وقالوا «البلد فوظى ، حاكمينها لانجليز إللي مش هاممهم أصلاً كل اللي بيصير» . ورددوا أن الإنجليز قالوا «فخار فلسطيني وكسَّر بعظه» . وقالوا أن يهود مستوطنة «نغباه» فرحو ، وقالوا «غوييم قتل غوييم» . وقالوا «يا عمِّي الشرف غالي ، وما حدن بتحمّل إهانة شرفه ، وخليل دافع عن شرفه وشرف أخته» .

وتواصل نسج الخراريف والحكايات شهوراً ، ولم تنغلق الأفواه إلا بعد أن تجمعت في أفق المدينة غيوم الحرب . أما خليل الشيخ سلامة ، الذي خرج من

السجن بريئاً ، فقد وجد تهديدات آل قاسم تمشي على قدمين ، وتطوف حارة لبد شارعا شارعاً ، وزقاقاً زقاقاً ، وتهمس بصوت عال : «دم إبنّا ما بروح هدر» .

ومرت أيام وأسابيع وشهور . وأمطرت السماء قنابل . وفر المجادلة جماعات يجرون أقدامهم بين الرمل ومياه البحر ، تاركين مدينتهم تغتسل بدم ضحاياها ، وتتكفن بنواح الأمهات . وذهب دمهم كله ، ودم غيرهم ، هدراً ، تحت أقدام الجيوش العربية التي جاءت فلسطين زاحفة نحو هزيمتها قبل أن تغادر معسكراتها إلى الحرب .

وطافت فلسطين دلعونا حزينة :

على دلعونا وعلى دلعونا
يهود العالم هاجرو هونا
أجونا العرب لينقذونا
ظيعوا البلد وراحت علينا

***

جاء جدي عشية خروج ابن شقيقته خليل من السجن ، وألقى في وجه أبي بقرار قال أن لا رجعة عنه : إسمع يا خليل يابا . أني جاي من بيت عمتك إم خليل . ابن عمتك أَطنب عليَّ هوَّ وإمه وابوه وخواتو . قال لي ، يا خال أني في عرظك ، فِ هالحارة ما رح أقدر أطلع من باب الدار . خايف يعملوها أولاد قاسم ويقتلوني ، وأني بريء يا خال والمحكمة حكمت لي . وترجَّتني عمتك رقية أجيبهم لعنَّا ، اليوم قبل بكرة . وأني وافقت . ورح آخذ معي إخوتك محمود واعليم ، رح أحملهم بارودتين ، ونطلع إنجيب الجماعة بس الدنيا اتعتم ، عشان ييجو يسكنو في بيتكم مؤقتاً لبينما الله يفرجها .

أبي ، كان يتمزق في داخله ، ولم يعلق . أمي تمتمت همساً : هوَّ عِمِل عَمِلته ، واحنا ياسخام البين ندفع حقها ! أدشّر بيتي ومطرحي ، واتشحطط أني

وجوزي وابني عشان ابن الشيخ سلامة ، حكي ما بيرظي لا الله ولا عبيده .

جدي التفت إليها :

- قلتي إشي يا لطيفة ؟ .

وأخذ يتنقل في البيت بعصبية .

أمي ردَّت :

- ايش بدِّي أقول ياعمي ، بَدعي لألّه تهدا الأحوال وما يصير إلاّ الخير .

- يبقى اتوكلنا على الله .

قال جدي ، وتابع بما يشبه الأوامر :

- لمو هاللي بتقدرو تلموه من غراظكم وخذوه معكم ، روحو لعند الحاجة خديجة الحلاق ، إتأجرت لكم بيتها الثاني ، قبل ما آجي .

***

حمل أبي حاجيات قليلة لُمَّت على عجل . وتبعته أمي وأنا على يديها ، بعد أن أغلقت الباب خلفها تاركة كل شيء على حاله ، الفراش ، الملابس ، القيشاني ، الصحون ، أدوات المطبخ ، أدوات زينتها ، الحمرة والبودرة والمكحلة النحاسية الصغيرة ومشط العظم العريض ، شالاتها الحرير ، أحلامها الناعمة ملقاة على سريرها ، وذكرياتها الحلوة والمرة ، ولم تأخذ معها سوى حليها الذهبية ، التي وضعتها حول رقبتها وفي معصميها ، ومضت وفي عينيها بركة دموع يسبح فيها أهل الجدل بأكملهم ، وحسرة على زمن لن يعود ، وفراق بيت في مدينة لن تفتح لنا أبوابها ثانية .

المقطوعة الثانية
باب النكبة

حلّ إبريل/نيسان ١٩٤٨ على البلاد مثل عاصفة شؤم . ولم تكن الهدنة التي دعت إليها الأمم المتحدة في اجتماع خاص ، عقد في مطلع الشهر ، سوى كذبة يومه الأول . فقد أطلقت منظمة هاغاناة اليهودية أولى حملاتها العسكرية ، في إطار سلسلة من ثلاث عشرة حملة ، تضمنتها خطتها المعنونة بـ «توخنيت دالت» . (الخطة د) ، بهدف توسيع القطاع اليهودي باتجاه شرق البلاد بالقوة المسلحة . واستهدفت ثماني عمليات يهودية قرى عربية تقع خارج المنطقة المخصصة لليهود في خطة التقسيم ، التي اعتمدتها الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤٧ ، ورفضها الجانب العربي . وفي الفترة نفسها ، أطلقت الهاغاناة عملية «نخشون» . وبموجبها تلقى قائد المنظمة أوامر بتدمير جميع البلدات والقرى العربية ، الواقعة على الطريق بين خلدة والقدس ، في حال قاومت ، أو اعترضت تقدم قواته ، واحتلالها بصورة دائمة ، حتى لو أدى ذلك إلى طرد سكانها . وسقطت قرية القسطل الواقعة غربي مدينة القدس بيد الهاغاناة ، وقتل في محاولة استردادها القائد الفلسطيني عبد القادر الحسيني . واتسع نطاق الحرب ، ودخلت البلاد مرحلة حرجة وخطيرة .

قضى والداي الشهور التالية في بيت الحاجة خديجة الحلاق في قلق . يستيقظان على التوتر الذي يصحو مع سكان المدينة ولا ينام ، وينامان على خوف

غامض زاحف بما يجهلان . وحكومة الانتداب البريطاني تخفف من تواجدها المدني والعسكري ، وتقوم بتفكيك بعض معسكراتها . ويفقد أبي وظيفته ككاتب في معسكر الإنجليز القريب من الفالوجا ، ويستأجر مقهى وسط المدينة ، يديره ومحمود دبُّك المدهون ، يجمع منه لقمة عيش سرعان ما تتلون بالخوف ، وتتغمس بالقلق . ومذياع المقهى الهولندي الكبير ماركة فيليبس ، الذي يشبه صحارة الخيار ، لايعرف الفرح ولا يدلّه أحد على مصادره . والزبائن يريدون الاستماع إلى الأخبار ، والأخبار تأتيهم محمّلة بالحرائق والأدخنة المتصاعدة من قرى ومدن فلسطين التي داهمتها حروب صغيرة . وتكف ألسنة المتحلقين حول طاولات اللعب عن مضغ قصص الزواج والطلاق ، وينسون خليل الشيخ سلامة ، يطفئون حكايته التي اشتعلت بزيت ألسنتهم شهوراً . وتلتهم أسئلة الحرب الغزل والنسيج وأقمشة البفتة والروزة التي تشتهر بصناعتها المجدل . ويتبادل الناس الهمس حينا ، والكلام المباح أحياناً ، ولا يسمعون سوى صدى أصواتهم يتردد في متاهات زمن مضى ، وآخر لم يأت بعد :

يا خسارة يا حاج أمين
ظاعت منك فلسطين

ويعود أبي إلى أمي بأحاديث تسم البدن ، فتغفو على سب اليهود وكيل الشتائم لهم ، ولعنات من سمحوا لهم بالهجرة إلى البلاد . وأحياناً لا تكمل عبارتها ، وتنام عميقاً وكأن البلد خلت من اليهود والإنجليز معاً . وينام أبي على آخر ما سمعه من أخبار . وفي الصباح يفتح عينيه وأبواب المقهى على قلق جديد .

ويودع الناس عام ١٩٤٧ حاملين معهم قلقهم إلى السنة الجديدة . ويدخل حمل أمي شهره الثاني . وتقتل منظمة اتسيل اليهودية ٨١ فلسطينياً في هجوم بالقنابل على منطقة مجاورة لحيفا في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر

١٩٤٧ . وتبقى الحرب بعيدة عن الجدل . ويزداد قلق الجادلة لكنهم ينامون في آخر الليل ، فوق فراش من هدوء مدينة تضع رأسها على شاطئ عسقلان ، وتتغطى بخيوط غزلها وتغفو . وحيفا لا تنام . حيفا تظل مفتوحة العينين والأرق يسكن صدرها . ويخوض قادة الحركة الصهيونية من الهاغاناة إلى اتسيل وشتيرن وليحي ، سباقاً محموماً لتحقيق قيام دولة يهودية على أرض فلسطين . وتستعد القوات البريطانية لإنهاء انتدابها المتواصل منذ عام ١٩١٩ ، وتفكك المزيد من معسكراتها . وتعود العائلات البريطانية إلى بلادها تاركة أبناءها خلفها يؤثثون البيت الفلسطيني لإقامة طويلة لليهود . ويكبر الجنين في بطن أمي . وحملات التطهير العرقي تتزايد . ويحث زعيم التجمع اليهودي في فلسطين ، دافيد بن غوريون ، اليهود في البلاد ، على العمل بكل الوسائل لإجلاء الفلسطينيين في مدينتي يافا وحيفا . ويدعو ضباط المخابرات في الهاغاناة الى تدمير وسائل النقل في المدينتين . ورئيسها ، يسرائيل غاليلي ، يتبنى ما أسماه سياسة «الدفاع النشط» ، والرد على الهجمات العربية باستهداف مناطق ومواطنين عرباً . ويغيب الجدليون خلف أنوال نسيجهم ، بعيداً عن تفاصيل ما يجري خلف حيطان المستوطنات اليهودية وبيوت تل أبيب ، يلتقطون النتائج من الجرائد القليلة ومحطات الإذاعات .

منذ أواسط ديسمبر وحتى أبريل ١٩٤٨ ، هوجمت سبع عشرة قرية فلسطينية خلال ساعات العمل . كان عند جدي بندقيتان ، أخرجهما مرة واحدة عندما أطنب عليه ابن اخته ، خليل سلامة ، وطلب منه حمايته من انتقام آل قاسم ، ثم أعادهما إلى نومتهما الأبدية في قن للدجاج . وقتل ستمائة فلسطيني غالبيتهم من النساء والأطفال في أقل من خمسة شهور . واحتفلت ايتسيل وليحي وهاغاناه بقتل مائة وواحد وستين فلسطينياً . كما قتل خمسة عشر فلسطينياً في هجمات استهدفت حافلات للنقل المدني . واعترفت المنظمات تلك بمسؤوليتها عن إلقاء سبع قنابل يدوية في الأسواق وعلى المقاهي ، وتسع قنابل أخرى على حافلات للنقل ، بالإضافة الى تفجير قطارات للركاب في أربع

مناسبات على الأقل أسفرت عن مقتل ثلاثة وتسعين وجرح مائة وواحد وستين .

في الساعة الرابعة من بعد ظهر الرابع عشر من آيار/مايو ١٩٤٨ وقف زعيم التجمع اليهودي في فلسطين ، دافيد بن غوريون ، ليعلن عن بدء الاحتفالات بإعلان الدولة اليهودية . كبر بطن أمي إذ دخل حملها شهره السابع . وجاءت عمتي تركض وتولول : يا سخام البين ايش إللي مقعدكم هان والناس كلها طفشت بريت البلد ؟ واتفق الجميع على الهرب إلى الكروم والبساتين الواقعة خارج المدينة . ونهض قادة «مجلس المقاطعات» ، الذي سيصبح «الكنيسيت» ، المجتمعين في متحف تل أبيب ، وأنشدوا «هاتكفاه»(الأمل) الذي يصبح ، لاحقاً ، النشيد القومي لإسرائيل . وسمعت أصوات لطم خدود في الجدل . قرأ بن غوريون بيان الاستقلال ، وفي ختام قراءته صرخ ، واهتز الشعر الكثيف المنفوش على جانبي رأسه : «نعلن من هنا عن قيام الدولة اليهودية في فلسطين ، تحت اسم «مدينات يسرائيل» (دولة إسرائيل) . وفي الدقيقة الأولى من فجر ١٥ أيار/مايو ، أعلن ، رسمياً استقلال إسرائيل . وبعد عشر دقائق فقط ، أعلنت الولايات المتحدة الأميركية بلسان رئيسها ، ترومان ، أول اعتراف بدولة إسرائيل . وأتمت بريطانيا سحب قواتها ، منهية بذلك انتدابها على فلسطين ، فاتحة الباب أمام أول حرب عربية – إسرائيلية .

***

عبر خمسة عشر ألف جندي يمثلون العراق وسوريا ولبنان الحدود الشمالية لفلسطين ، مزودين باثنين وعشرين دبابة خفيفة وعشر طائرات من طراز Spitfires وتقدمت قوتان مصريتان من الجنوب .

جاء عمي اعليم راكضاً . كان الوقت ظهراً . جو حار نسبياً ، يغطي مساحة من سكون غرقت فيه المقهى التي لا تعرف السكون . الرواد قلائل وتسليتهم الوحيدة هي الهمس بالأخبار القليلة التي تصلهم بالتناقل ، أو يأتي بها المذياع . وقف

عمي بالباب يلثغ كلمات لاهثة : «المثرين ثاروا على أبواب البلد يا جماعة» .

كانت أخبار تقدم القوات المصرية تصل المجدل تباعاً ، من قبل مسافرين أكدوا أنها تقدمت ، فعلاً ، إلى غزة من مركز قيادتها وإمدادها في العريش ، حيث تمركزت ثلاث كتائب مزودة بالمدفعية والدبابات بقيادة رئيس الأركان الجنرال ، فؤاد صادق . وقد اشتبكت القوة المصرية في طريق تقدمها نحو المجدل مع المسلحين اليهود في مستوطنة كفار كدوميم ، وكبدتهم خسائر كبيرة .

وقف أبي يوزع ابتسامة عريضة على زبائنه الذين أوقفتهم كلمات عمي عليم على أقدامهم ، وساقتهم نحو باب المقهى ، وقد تعلقت بين أصابعهم بقايا سجائر ، وفي أيديهم أكواب شاي ، وفناجين قهوة أخذوا يحتسون ما تبقى فيها ، يخلطونه بجات السجائر ، وسحابات الدخان تحمل توقعاتهم إلى فضاءات المدينة . اقترب محمود دبك من أبي وهمس في أذنه : مش قلت لك العرب رح يعملوها ويحاربوا اليهود يا خليل .

زحف هدير المدرعات المصرية إلى المدينة قبل جنازيرها . دخلت الشارع العام ، وأخذت تتقدم نحو السوق في وسط المدينة ، وهناك اندمجت في طقوس الاحتفاء المجدلي بها . سبحت عيون المستقبلين في بحر العلم الأخضر الذي اعتلى أول دبابة وتقدم الجميع ، استراحوا في حضن هلاله الأبيض مثل صباحهم . وخلال دقائق سكن نصف المجادلة شوارع مدينتهم ، وغطوا القوات المصرية بشال أبيض من الرز والملح والزغاريد ، ورقصت النساء ، وهاهت وزغردت :

إيِيّا ويا ميت مرحبا باللي جاي
إيِيّا وطلّتكم علينا بدر وحرب ع لِعداي
إيِيّا وافرحو يا مجادلة وتهنو
إيِيّا وبعون الله ونبيُّه محمد النصر جاي
ألولولولولولولولولولولولولولولولوي

وطارت مواويل الميجنا والعتابا في سماء المدينة مثل حمام أبيض . وتقدم

رئيس البلدية السيد ، سيد أبو شرخ ، شاقاً طريقه بين الزغاريد والفرح ، نحو قيادة القوات المصرية ، مستقبلاً ومرحباً باسم سكان المدينة . وأطلت رؤوس من فتحات الدبابات ، وجلس آخرون يراقبون الفرح يمشي في شوارع المدينة . ورأيت أمي تجلس فوق الدرجة الرخامية الأولى أمام باب بيتنا الأخضر بلون الزيتون ، ولم أكف عن رؤيتها على مر الزمن ، تتبادل حديثا مع امرأة محت الأيام ما كان لها من ملامح ، وأنا بين ساقيها ، رأسي ملقى على صدرها ، مرفقاي مستريحين فوق ركبتيها ، شفتاي تمصمصان أصابع كفيٍّ بالتناوب ، بينما تحك قدماي الصغيرتان الحافيتان الأرض الطينية بين قدميها .

وأسمع أصواتاً ذات رنين تدق أبواب الذاكرة ، وأرى رجالاً يركضون ويتصايحون ، وهم يعبرون الشارع ليس بعيداً منا :

الجيش المصري . . أجانا
قطّع روس الـ . . . هاغاناه

وأسمع زغاريد . هل انطلقت من بين شفاه أمي أم شفاه المرأة في تلك اللحظة ، أم جاءتنا من بعيد ؟

بعد سنين طويلة أفهم ما صاح به الرجال ، وأعرف أنه هتافات . وحين أبلغ العاشرة أشم رائحة الزغاريد ، أُذكِّر والدي بالهتافات ، التفت إليه وأسأله :

– إيش صار يابا في الهتافات ؟

ينظر بعيداً بعيداً نحو السقف ، يبحث بين قطع القرميد الرمادي عن مخرج لحيرته ، ولا يجيب .

***

استقرت داخل الجدل وفي محيطها قوتان مصريتان : الأولى ، وهي الرئيسية ، وقادها الميجور جنرال أحمد علي المواوي ، الذي أقام في بيت تعود

ملكيته لعائلة عباس عند طرف المدينة ، فيما اتخذ عدد من ضباطه من مدرسة الذكور ، الواقعة خلف حديقة البلدية عند الطرف الجنوبي للمدينة ، مقراً لهم . وتشكلت هذه القوة من كتيبة المشاة الأولى ، وكتيبة المشاة السادسة ، وكتيبة المشاة التاسعة ، وتضم كل من الكتائب الثلاث ما بين ٧٠٠-٧٥٠ جنديا ، وكتيبة استطلاع (٣٥ سيارة مسلحة) ، وكتيبة دبابات خفيفة (٧ دبابات) ، وثلاث بطاريات مدفعية زنة ٥٢ رطلا (٤٢ مدفعا) ، وبطارية مدفعية واحدة زنة ١٨ رطلا (٨ مدافع) .

أما القوة الثانية ، فقادها الضابط أحمد عبد العزيز ، يساعده أربعة ضباط ، و١٢٤ جنديا مسلحين ببنادق ، و ٨ رشاشات برن آلية ، واربعة مدافع خفيفة (٧,٣ بوصة) وأربعة مدافع مضادة للدبابات زنة رطلين .

وقد تم تقسيم القوة الجوية المساندة لهذه القوات إلى قسمين : قوة الخط الأمامي للجبهة المتمركزة في العريش ، في سيناء ، حيث القيادة العامة ، وتضم ست طائرات قاذفة مقاتلة من طراز Spitfires وطائرتي استطلاع . أما القوة الثانية فكان مقرها القاهرة .

أشاع وجود القوات المصرية الثقة بين المواطنين ، وساعد ذلك على اندفاع عدد من المتطوعين الفلسطينيين للقيام بعمليات ضد القوات العسكرية للهاغاناة والمستوطنين المسلحين . غير أن القوات المصرية افتقرت ، بشدة ، إلى وضوح الأهداف . فيما افتقدت قوات المتطوعين ، البالغ عدد أفرادها ما بين ٣٢٠٠-٤٠٠٠ مقاتل ، غالبيتهم أعضاء في حركة الإخوان المسلمين المصرية ، إلى جانب عدد من السودانيين والليبيين ، إلى التجانس وكفاءة التدريب .

تمحورت خطة القوات المصرية في مد القتال عبر خط يبدأ من المجدل ، ويعبر الطريق إلى الفالوجا وبيت جبرين وصولاً إلى الخليل ، لعزل ٢٥ مستوطنة يهودية عن الجسم الرئيسي للدولة اليهودية كما حددتها خطة الأمم المتحدة لتقسيم عام ١٩٤٧ . وبهذا يتم عزل منطقة النقب التي تشكل ثلث الدولة حسب الخطة عينها .

كان على هذه القوات، والقوات العربية الأخرى، التي عرفت ب «جيش الإنقاذ»، بقيادة فوزي القاوقجي، قدَّرها تقرير لوكالة المخابرات المركزية الأميركية صدر، لاحقاً، بتاريخ ١٩٤٧/٧/٢٧، بسبعة وعشرين ألفاً، مع إمكانية جلب قوات أخرى متمركزة في الجوار تقدر بتسعة عشر ألف جندي، مواجهة ٩٧ ألف مسلح يهودي، يتوزعون على تشكيلات عسكرية عدة، أهمها قوات الهاغاناه البالغ عددها ٣٥ ألفا، وايتسيل وليحي وحراسات المستوطنات وشرطتها. وكانت القوات اليهودية حسنة التدريب، عالية القدرة القتالية ومتماسكة ولديها خبرات قتالية ميدانية وتقنية عالية.

هبط المساء خفيفاً، وانسحبت الشمس بهدوء نحو خط الأفق البعيد خلف المدينة، وألقت بجسدها البرتقالي في بحر عسقلان. ونامت المدينة تحلم بالنصر على وقع هتافاتها وأصوات الجنود:

الجيش المصري أجانا
قطَّع روس الـ هاغاناه

***

نشط مقهى أبي، وبدأ يرتاده جنود وضباط مصريون. وحقق القادمون العرب انتصارات أولية ردت أنفاسا تقطعت. وفي السابع من الشهر التالي حزيران / يونيو سقط كيبوتس نتسانيم، الواقع على بعد ثمانية كيلومترات من المجدل بيد القوات المصرية، التي اندفعت شرقاً عبر عراق سويدان والفالوجا وعراق المنشية، إلى بيت جبرين والخليل، وفقاً لخطتها المرسومة. وخلال ستة شهور من القتال، تغيرت خارطة الموقف: احتفظت القوات العربية بالجزء الأكبر من الأراضي الفلسطينية تحت سيطرتها، وفشلت القوات اليهودية في استرداد مواقعها: قوات الجامعة العربية تمركزت في الجبهة الشمالية إلى الجنوب من الناصرة. الجيش

السوري سيطر على منطقة تمتد من الخليل إلى شواطئ جنوب منطقة الجليل ، باستثناء عدد من المستوطنات الواقعة شرقي المنطقة . الجيش العراقي يسيطر على وسط فلسطين ويمد سيطرته على جبهة طويلة تمتد غربا نحو طولكرم وقلقيلية على بعد ١٢ كيلومتراً من الساحل . الجيش الأردني يسيطر على القاطع الجنوبي لوادي الأردن ، والمنطقة المحيطة بالقدس والمدينة القديمة ، ورام الله واللد والرملة .

أخذت أمي نفساً عميقاً وهي تتنقل في البيت بحملها الذي بلغ شهره التاسع ، رفعت رأسها إلى السماء بالدعاء : يا رب افرجها علينا وعلى جميع المسلمين . وفي ختام تلك الانتصارات التي تبعتها استراحة امتدت أربعة أسابيع من ٦/١١-٧/٨ /١٩٤٨ ، تنفيذاً لقرار لمجلس الأمن الدولي ، أطلقت أنيسة الداية زغرودة حادة طويلة ، خرجت من بيت الحاجة خديجة الحلاق ، وتناثرت على امتداد جبهات القتال المتوقفة عند الانتصارات العربية : وضعت أمي حملها ، وضعته على حافة الهدنة التي كانت تودع نفسها . وأطلق أبي على المولود اسم راسم . وكانت ملامحه خليطاً من أبي وجدي لأمي خليل نصر الله . كان طفلاً جميلاً ، ذو بشرة بيضاء وشعر أصفر وعينان فاتحتان مثل عسل النحل الصافي . وسوف يُظهر ، في طفولته وصباه لاحقاً ، مزايا أخرى ورثها عن جدي ، تتجاوز اللون والملامح .

وواصلت القوات المصرية التي اجتازت عراق سويدان تقدمها نحو الفالوجة ، وتمكنت من تحقيق انتصار كاسح في عراق المنشية ، بقيادة الضابط جمال عبد الناصر ، ضابط أركان كتيبة المشاة السادسة .

وجاء الخريف ثقيلاً مثل هزيمة لم تقع بعد . وكانت رياحه عاصفة متربة . حتى أن قيادة القوات المصرية لم تعد ترى وقد زحفت الرمال فوق خرائط خططها العسكرية ، وطمست أمام أعين قادتها التفاصيل . فقد مهدت لهزيمتها بخطأ استراتيجي أحدث انكسارات عميقة وخسارات متلاحقة . كانت القيادة المصرية قسمت قواتها إلى ثلاثة قطاعات لا رابط بينها : العريش والنقب ، ساحل غزة وقيادته في المجدل ، والقوات المتمركزة في قاطع الفالوجة - عراق المنشية شمال

صحراء النقب . وقد استغلت القوات اليهودية تمزق القوات المصرية على هذا النحو ، وشنت هجوماً كبيراً مضاداً على محورين : الأول في سيناء-النقب ، والثاني على محورعراق المنشية – الفالوجة ، واحتلت منطقة مركزية حول العوجا في صحراء النقب ، قاطعة ، بذلك ، خطوط إمداد القوات المصرية ، فيما كانت القوات المتمركزة في عراق المنشية تفقد مواقعها في المدينة . ووقعت القوات المتمركزة في الفالوجا ، وعددها ٤٥٠٠ جندي تحت حصار استمر أربعة شهور .

وخلال أسابيع صارت المجدل مدينة لاجئين . امتلأت حواريها وبساتينها ، وحتى مقابرها ، بآلاف العائلات التي دمرت الحرب قراها ، أو تلك التي هربت من أمام تقدم القوات اليهودية .

***

هاأنذا ، قد تجاوزت إشكالية تشابه مداخل الروايات ، قد أوجدت لنفسي جملة استهلالية أفضت إلى عوالم عدة لم تكن مقررة حين صعدت إلى القطار الذاهب إلى كامدن تاون . وقادنا الاستماع ، القارئ وأنا ، إلى المقطوعة الأولى «صيد البدايات» إلى المجدل ، وسكانها ، وعائلتنا ، ووالدي ، والحرب العربية – الاسرائيلية الأولى ، التي توقفت ، في الفقرة السابقة ، عند حصار الجيش المصري في الفالوجا ، الذي سوف يضطر في نهاية الأمر إلى الانسحاب ، تاركاً المجدل التي استقبلته بالزغاريد والفرح ، تلملم أغانيها وأهازيجها الشعبية من شوارعها ، وترحل عن نفسها . وهكذا رحلت عائلتنا مع الراحلين ، عبأت وطنها في شاحنة ، ومضت إلى نكبتها .

أعترف هنا وبصراحة ، أنني عندما بدأت في سرد وقائع تلك الفترة ، وملاحقة تفاصيل الهجرة ، وجدتني كمن يكتب تاريخاً مدرسياً . تذكرت حكايات أمي . كانت كلماتها ، وهي تتحدث عما جرى عام ١٩٤٨ ، تفوح برائحة النكبة ، لها طعم فراق مرير . كنت أشم رائحة النكبة ، أتذوق طعم الفراق

وأبكي بمفردي ، بعيداً عنها ، أخفي دموعي تحت الحائط . كان سردها ينطوي على طاقة انفعالية عالية ، ويتمتع بقوة جمالية لا تتوفر إلا لمن كان طرفاً مباشراً في الحكاية ، بطلاً من أبطال النكبة ، وواحداً من ضحاياها . أمي كانت بطلاً وراوية . أغراني ذلك بالتجريب ، بالتخلي عن دوري كراو ، وتسليم مفاتيح السرد والكلام ، عن هذه المرحلة لأمي . قررت المغامرة ، أن أمنحها الفرصة لكي تكتب ما تبقى من مقطوعة «باب النكبة» ، أن تطلق لهجتها العامية ، الجدلية القحة ، تسبح في فضاءات هذه الدراما الأدبية .

هل تستطيع أمي ذلك ؟ هل ما زالت تتذكر ؟ ما الذي تبقى في ذاكرتها من وقائع الهجرة عام ١٩٤٨ ؟ هل النكبات تُنسى ، تذوب مع الأيام ، تطحنها السنون ، وتذروها رياح الغربة ؟!

كبرت أمي وبلغت السبعين . هدّ حيلها زمن اللجوء . بالكاد تستطيع الوصول إلى الهاتف ، في بيت شقيقتي رحاب ، في مدينة رفح جنوب قطاع غزة ، حيث تقيم ، هذه الأيام ، مع حفيدتيها هيفاء وأنسام .

أتصل بأمي . سوف يسعدها ذلك . تقول ، كلما هاتفتها ، أن مكالمتي ترفعها وتطير بها عالياً وبعيداً عن سطح الأرض . جسدها الذي لا تقوى على حمله خطوتين ترفعه كلماتي الى السماء . غداً أجعلها تطير ، تصير ملاكاً بجناحين من كلمات : «سبحان الله يمّه ، بس تقول لي أنسام خالي ربعي ع التلفيون ، بفز عن الأرظ ، وبقوم زي لقرود ، أني اللي يدوب بقدر أمشي وأروح للحمام» .

لم أر أمي ، منذ الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧ ، سوى مرة واحدة ، فقد التقيت بها برفقة زوجتي سناء ، في بيت شقيقي راسم ، في مخيم اليرموك ، القريب من دمشق ، شتاء العام ١٩٨٠ . أمضينا معاً أربعاً وعشرين ساعة فقط . كأننا خاضعين لإنذار ما : أربعاً وعشرين ساعة فقط وتعودان . عدنا بعدها إلى بيروت لمتابعة عملنا في الإعلام المركزي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، في حي الفاكهاني . أنا في أسبوعية «الحرية» ، وسناء في أرشيف المعلومات التابع للإعلام نفسه .

كيف سكتت أمي على ذلك ؟ كيف سمحت لي بالعودة إلى بيروت ، وقد مضى على آخر لقاء لنا أكثر من ثلاث عشرة سنة ؟!

منذ الساعات الأربع والعشرين تلك ، لم ألتق أمي ثانية . أضحك بمرارة كلما تذكرت : مرة من نفسي ، فألعنها ، ومرة من أمي فألومها على تصديقها بأن النضال يستوجب عودتي بتلك السرعة إلى بيروت . وأن المهمات الحزبية والنضالية ، التي انتظرتني في إعلام الديمقراطية ، تاريخية ، ومصيرية ، وعاجلة على الدوام . مع أنني لو بقيت في دمشق ، قرب أمي ، عشر سنوات أخرى ، لما تغير شيء ، ولما وقع ما لم يقع في السنوات الماضية . ولملأت أنا عينيها بصورتي ، وملأت هي عيني بصورتها ، بدلاً من الصور المغلوطة التي امتلأت بها عيناي وذاكرتي في سنوات جمهورية الفاكهاني الفلسطينية . ولدفأت قلب أمي لعشر سنوات أخر ، بكلمات أهم من الجدل الحزبي ، الذي يزيد الضغط ويوتر الأعصاب ، ويرفع عدد السجائر المستهلكة ، أيضاً ، إلى مستوى الانتحار البطيء . لم أكتشف ذلك إلا بعد فوات الأوان ، ولم أكن المكتشف الوحيد لفوات أوانات لا تحصى أو تعد . هذه المرة لن أدع الأوان يفوت .

***

الثلاثاء ، ١٩٩٩/١٢/٧

قرابة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم ، هبطت من الطابق الثالث ، حيث مكتبي ، إلى الطابق الثاني ، واتجهت فوراً الى غرفة الغرافيك . لم أجد محسن ، المَغربي ، الذي يشرف على تصميمات رسوم الغرافيك . من غرفة محسن يتاح لي التحدث بحرية كاملة ، بعيداً عن ضوضاء المكتب ، ورنين هواتف مراسلي عدد من الفضائيات العربية ، الذين لا يتوقفون عن طلبنا هاتفياً على امتداد النهار ، وكذلك ، عن أي فضول أسوأ من رنين الهواتف أحياناً . وضعت بضعة أوراق وقلم حبر جاف أسود أحضرتها معي على طاولة المكتب أمامي . جلست إلى المكتب

وقربت الهاتف مني . طلبت رقم الهاتف في بيت شقيقتي ، وانتظرت لحظات . ردت علي أنسام :

- أهلين خالو ، طوّلت علينا هالمرة .

تحدثت إلى أنسام قليلاً ، دردشنا عن حجابها الذي لاحقها قبل أن تغادر الطفولة . عن بقائها في قطاع غزة ، بعيداً عن والديها وإخوتها في الدمّام ، في المملكة العربية السعودية ، عن الأبراج العالية التي نبتت من الأرض مثل الفطر في غزة ، عن دراستها . قالت :

- بدرس كمبيوتر يا خالي في كلية عرفات .

ضحكت .

سألتني :

ـ بتضحك على دراستي يا خال ؟

- أبداً يا خالي ، دراستك عز الطلب هالأيام ، هي الكلية اسمها عرفات ؟

- هذي فتحوها جديد يا خال .

أنسام ناولت سماعة الهاتف لجدتها :

- أهلين يمّه . . . زمان ما سمعنا هالصوت .

ألحت علي بالعودة إلى البلاد ، قالت : «يمة بدنا نشوفك ، طيب لوقتيش بدك تبقى برّه !» .

أدخل في الموضوع مباشرة ، أنقل الحوار إلى عام ١٩٤٨ ، قبل أن تفكر أمي في طرح أسئلة أخرى عليّ . هذه فرصتي ، لكنها فرصتها ، أيضاً ، لكي تكتب ، ولو لمرة واحدة في حياتها . تكتب جانباً من سيرتي لأنها سيرتها . بلسانها تكتب . بقلمي أدون لها الحروف مثلما تخرج من بين شفتيها الصغيرتين المدورتين مثل خاتم خطوبة . طلبت منها أن تحكي ، أن تقول كل ما يخطر ببالها ، ألا تتردد ، حكت ، أعادت ربط الحكايات الصغيرة المتناثرة في ذاكرتي ، خاطت بلسانها التفاصيل عن هجرة «مذِلّة وبتوطي الراس . . .» ، غرقت أمي في الحكاية ، تركتها تحكي ، تحكي وأنا أكتب ، أكتب ما تحكي ، فتحكي ، حكت ، وأنا أخذت

أكتب :

«اطلعنا يمّه أول ناس سنة الثمانية وأربعين . طلعنا في عز الشتا ، وما حملنا معنا إشي . حملت أخوك راسم ، وعمره شهرين في قفة . وأخذت معي صُرة أواعي ، وأكل عشان الطريق . ما انت عارف ، الطريق طويلة ورح الجوع . من قلة عقلي حملت معي جهاز عرسي . بعدي صغيرة هذاك الوقت . شو عمري فكرك لمّا هاجرنا ، يدوب تسعتعشر سنة . يا حسرة عليّ شتت الدنيا علينا يمّه واتبهدلنا . جهاز عرسي اللي جبتو معي خِرِب . ليش استعجلنا ؟ اسمعنا ناس قالو اليهود دخلت ع المجدل ، قلنا لنرحل قبل ما يذبحونا . بعدين الغارات يمّهَ ، طيارات اليهود لا كنّت ولا ونّت وهيّ ترمي قيازين . ظلت جمعة ، سبع تيام وهي ترمي قيازين ، الواحد منها بيهد عشر دور وأكثر . كل ثلاث طيارات تيجي مع بعض ، تْزِن وتْجنِّح وترمي . والله في ناس قالت الغارات اللي صارت ع المجدل ما صارت ع بَرلين ، وإنّو في غارة واحدة منها راح أكثر من ثلاثميت مجدلاوي . مش بيت أبويا ، سيدك نصر الله ، انظرب . قلت لأبوك : يا خليل بدي أروح أشوف أهلي . قال لي : انتي مجنونة يا مرة ! تروحي والغظب نازل علينا من السما والأرظ . . . المجدل مولعة نار اقعدي واسكتي . قلت له : هذول أهلي يا خليل ولازم أشوفهم . .بيتهم انهدّ ومش عارفة مين عاش منهم ومين مات . صرَّخ فيَّ أبوك بصوت عالي ، ما انت عارفه أبوك قديش عصبي ، ورمى عليَّ يمين الطلاق . صرت أهدّي فيه : مالك يا بو ربعي . رِجع عادها وقال : عليَّ الطلاق بالثلاثة ما انتي رايحة ، لُمي اغراظك وهاتي هلولاد وخلينا نرحل . والحمد لله يمّه ، بعدين اعرفنا إنّو أهلي كلهم نجو من الغارة . كانو كلهم بريت البيت لمّا سقط القيزان عليه ، بس بيتهم صار تراب يمّه . يومتها ، في نفس اليوم الله وكيلك ، انقتل محمود سلمان المدهون هوَّ وعشرة مهاجرين اتخبو عندو في الملجأ اللي تحت بيته . كلهم مهاجرين ، من الفلاحين اللي أجو من القرى القريبة م المجدل . أيامها انتلت البلد بالمهاجرين . وبنت حسن العالول ماتت هي وابنها وبنتها ، كلهم مع بعظ الله وكيلك . والحاج محمود الشيخ سلامة انقتل ومعه خمس ست نسوان .

وغازي خليل مهدي ، وجمال مهدي ، ومحمود الجبر ، وخليل شبلاق ، بياع النمورة ، والله يمّه مات وهوَّ ورا عربايته . وابراهيم الهواس ، الله يرحمو ، مات هو ومرته واولاده . وكمان الشيخ محمد زويد وعياله . وفيه علي حسونة المدهون ، هذا قريبنا ، كل الناس بتعرف قصته . لمّا هجمو اليهود على عراق سويدان ، راح علي لهناك مع نجدة هوَّ وسبعة ثانيين ، أخذوا بواريدهم وراحو ليهاجمو اليهود ، واشتبكو معاهم على جسر في الطريق . اليهود انسحبو ، بس علي اتصاوب ، وبعدين مات في الطريق ورفقاتو راجعين فيه في السيارة . ومين اعدلك واللا مين . أني يمّه مش حافظاهم ، عقلي مش دفتر . هذول اللي اسمعت عنهم وبتذكر أساميهم . الناس بتقول إنّو أكثر من ألِف ماتو في الحرب . يومها صرخت مرة مجدلاوية ما حدن عارفها مين : طقطقت جنَّحت . شافت الطيارات وهي بتجنِّح وبترمي وصرخت : طقطقت ، جنَّحت ، يا ريتهم قسماو . ياريت يمّة قسّمو لبلاد بينا وبين اليهود ، يا ريت . والله ميت مرّه أحسن من الشحططة اللي تشحططناها . واللا من هالوظع اللي احنا فيه . ليش ، فكرك هالايام حالتنا أحسن!

ايش . مش سامعاك . كيف هاجرنا ! زي الناس يمة . وأني بتناقر مع أبوك لما حلف يمين الطلاق ، ما شفنا إلا عمتك الحاجة وعمك محمود عابرين علينا بيصرخو بصوت واحد : إيش قاعدين تعملو والبلد كلها طفشت ! والحقناهم يمّه دوغري ، اتجمعنا احنا وبيت عمتك وسيدك سليم وبيت عمك محمود وعمك اعليم وبيت الأشقر ، بتعرفهم بيت كتيتة ، أصلهم من دار الحلاق ، اللي ساكنين في حارة البشاشته في خان يونس ، شو انسيت ! وطلع معنا ناس ثانيين ، اطلعنا كلنا في سيارة شحن اتأجرناها شراكة ، اندبينا كلنا فيها زلام ع نسوان على ولاد ع كبار ع زغار ، الله وكيلك كلنا فوق بعظنا زي شوالات التبن . أخذنا الشحن لهربيا . نمنا فيها عند ناس ، الله يخلف عليهم ، ويكثر خيرهم ، والله أربع تيام واحنا نايمين عندهم يمّه . بعدين دشّرنا هربية ورحلنا ع غزة . أكثر من عشره كيلو امشيناها مشي ع رجلينا بين سوافي الرمل ، والمطر نازل علينا والريح تصفّق تلطم

وجوهنا وقفانا . نص الطريق والحاج حسين ، جوز عمتك ، حاملك فوق اكتافه ، الله يرحمه ، طول عمره بيحبك .

المسا مسينا في غزة . ومن هناك ارجعنا استأجرنا سيارة شحن ، وكفّينا دوس دوغري ع خان يونس . اجينا نتأجر بيت ، لقينا بيت الطين ، اللي زي الخص ، وما بتنام فيه الأرانب ، بسعر الذهب . نصبنا خيام . كل من جاب معه سجادة نصبها على عمويد وعمل منها خيمة ، حط فيها غراظو ونام . احنا نمنا كلنا أول ليلة تحت سجادة عمتك . بقت كبيرة ، طويلة وعريظة . بعدي بتذكر هذاك اليوم ، نصبها أبوك وعمك . راح عمك محمود اشترى عمودين من البلد . ولما رجع دق العمودين هوَّ وأبوك في الأرظ ، وربطو بينهم حبل ، ومدو السجادة فوق الحبل على الجهتين . أول ما صارت خيمة ، وقفت عمتك تحتيها ، فردتْ حالها ، راسها خبط في سقف الخيمة ، اضطرت تِحني ظهرها . والله يمّه عمتك طول عمرها مفرودة مثل نخلتها اللي في بيتها في الجدل ، وعمرها ما وطّت راسها . هذاك اليوم حنتْ ظهرها وِتْحسَّرت ، وحكتْ حكي بيقطع القلب من جوَّه ، قالت : سبحان مْغيِّر الأحوال ، طول عمرها رجلينا بتخبط حافية وبالصرامي ع السجاجيد ، طول عمرنا بنمشي فوق السجاجيد ، صارت السجاجيد تمشي فوق روسنا ، من ساعة ما هاجرنا قلت قيمتنا يا ناس ، وبطلنا نقدر نرفع راسنا .

جوز عمتك الحاج حسين خبا وجهه بين ايديه لما سمع مرتو بتحكي ، يمكن طفرت الدمعة من عينه ، الله أعلم . عمك اعليم قال لعمتك : كل الناث هاجرت يا اختي ، فاهمه عليْ . بتعرف عمك ، الله يرحموِ ، بيلثغ ، وكل كلمة والثانية بيقول فاهم علي ، وواخذ بالك .

ردت عمتك تتمسخر على لثغته ودمها فاير بيغلي غلي : لأ مش فاهمة عليك ، كل الناث . ايش عرَّفك يا اعليم ؟ اتعلم تحكي زي الناس في الأول ، وبعدين إفتي . قال شو ! كل الناث .

واتطلعت حواليها ، أبوك وعمك محمود بقو واقفين بانْجين كأنهم مشلولين ، وما طلع صوت حدا فيهم . سيدك سليم واقف على جنب وساكت ، صوت

عمتك لعلع مرة واحدة ، صارت تصرِّخ ، عفريت وركبها . سمَّعت كل الناس اللي بقو حوالينا ، صاروا يتطلعو علينا . والله ما ني متذكرة مين اللي ساعتها قال : أبصر شو صاير للمرة صوتها طالع للسما . وفعلاً يمّه صوت عمتك يمكن وصل للبلد ، ما تقول إلا هسترت : مين منكم شاف اليهود ؟ اليهود ما اجوش ع المجدل ، كلكم شردتوع السمع . جرجرتكم الإشاعات من بيوتكم وهاجرتو . انت يا عمي أبو محمود ، خلينا من اعليم وفتاويه ، شفت يهود يا عمي ، أمانة الله شفت حدن منهم . وانت يا محمود . . . واللا بلاش ، خلليني ساكتة أحسن . يعني كأنّك مش عارفة يا حاجة يا ختي إللى صار كله . قال لها عمك محمود ، وكمَّل : كل الدنيا عارفة أنو الجيش المصري راح ع الفالوجة يقاتل لكن ما قدِرشْ ع اليهود ، أكل خرا وأكلنا معاه . والله عمك اللي عمر الكلمة العاطلة ما طلعت من تُمُه قالها هيك . وبعدين رِجع وقال : مش قاتلو المصريين في عراق المنشية ، مزبوط ما قلناش اشي ، بس بعدين انسحبو منها وراحو ع الفالوجة . تحاصرو هناك . قعدو شهور وهمّ محاصرين ، اللقمة مش لاقيينها ، وينبشو الأرظ على قمعة سيجارة يدخنوها مش لاقيين . صار بس بدهم ينفدو بجلدهم . أهدي يا حاجة ، اهدي يا ختي .

وسكت . عمك محمود سكت بعدها . قرَّب سيدك سليم من عمتك وقال لها : محمود بيحكي الصحيح يا حاجة . الفزع ما دبُّش فينا الا لمّا اصْحينا صبحية هذاك اليوم وما لقيناش للمصريين أثر . كأنهم فص ملح وذاب . زينا زي الناس ، شفنا المصريين دشرو المجدل ، والطيرات نازلة خبط عن أبو جنب ، هجينا . بعدين يا بنت أخويا تعي تقول لك : مش إنتي اللي إجيتيني مع جوزك الحاج حسين وطلبتي مني نستعجل في الرحيل ، وتحمستي إنتي ومحمود ورحتو جبتو خليل وعيلتو؟!

الحاج حسين هز راسه من غير ما يحكي . عمتك صفنت شوية ، وبعدين هزت راسها وقالت : طب ماني عارفة أنو كل اللي انحكى صحيح ومزبوط . أني ما لْحقتش أنسى والله لو بعد ميت سنة ما بنسى اللى جرى النا . أني بس من

غلّي وحرقة قلبي بَحكي .

وسكتت . قالت اللي في قلبها وسكتت . هاجت مثل بحر عسقلان لمّا يهيج ويهدا ، سِخنت سِخنت وبَردت ، كإنك دلقت عليها جرة مية باردة . والثانيين سكتو كمان ، كأنو خيمة السجادة طبقت على أنفاسهم .

بعدين إجت هيئة الأمم ووزعت علينا خيام ، والباقي يمّه بتعرفو كله . طوّلت عليك بالحكي يمّه ها ! خلّيك ترجع لشغلك ، بلا من هالسيرة اللي بتسم البدن ، روح لشغلك يمّه ، إبقى تلفن ، مش بس عشان القصة اللي بتكتبها ، عشان أسمع صوتك كمان ، بطير عن وجه الأرظ بس أسمع صوتك . سلّم لي ع ولادك وع مرتك وع أخوك راسم ، ان احكيت معه . وقل له خليه يروّح ع غزة ، خلينا نشوفه .

وبكت . أضحكتها :

-بتتذكري يوم لفسيخ يمّه ؟

ضحكت ، ولا بد أنها مسحت دموعها بحادثة ذلك اليوم الفريدة ، والتي سأرويها لاحقا .

وافترقنا عند ضحكتين .

الجزء الثاني

المقطوعة الأولى
حكايات بريئة

إلى اللاجئين الأطفال الأوائل . . جيل النكبة ،
أجداد وآباء رماة الحجارة

ونولد في قفف من سعف النخيل ، عراة حفاة نولد ، في البحر في البر ، حفاة عراة نكبر في شوارع من خيام . من تحت الشوادر نلم حروف اللغة نصنع كلمات . نخط على الرمل بصمات أقدامنا صبح مساء . نقيس بجلودنا حرارة الطقس : هذه «رصريصة» يجمد الدم في عروقنا . هذه رمضاء ، نركض هاربين من أقدامنا العارية . تحت أضواء سراجات الزيت نحفظ الحكايات .

نلم أيامنا من بين عروق العوسج . فلسطينيين من بين شعوب الأرض ولدنا مرتين : من طين مثل آدم ، وكل بني آدم ، ومن رمل حين دخلت أسماؤنا سجلات الإغاثة وبطاقات التموين . في الرمل زرعتنا الأونروا ، من بقجها لبسنا ، ومن أكياسها شربنا حليبها الناشف وزيت سمكها الملعون . من الرمل صنعنا ألعاباً . بين الرمل تزاوجنا . تحت الرمل دفنّا أول الأسرار . فوق الرمل ترعد السماء تمطر خياماً ، مثل فطر تنتشر الخيام ، الرعد ينبت فطراً من خيام . وخياماً نسكن ، ونكون ولا نكون .

١

هبط المساء . اختفت الشمس خلف الكثبان الرملية قبل أن تسقط في البحر الذي لا نراه . سكن المخيم . اختفى من ممراته وقع أقدام الصغار يتراكضون بين الخيام على امتداد النهار ويتصايحون . وكفت الحمير عن برطعتها عند أطراف المخيم . وكثر مواء القطط الباحثة عن فئران بين أكياس التموين . وانسحبت بعيداً أصوات باعة الخضار من أهل المدينة الذين جعلوا المخيمات سوقهم الخارجي ، يبيعون اللاجئين أصناف الخضار ، يدورون بها على امتداد النهار محمولة على خراج الحمير ، طازجة منداة بحبات مثل العرق ، تذبل بعد الظهيرة ، وتصبح بلا ثمن في المساء فيخرجون ، يجرون أقدامهم خلف حمير متعبة ، يلكزونها بأطراف العصي ، ويسمعونها كلام ما بعد الهجرة ساخرين : ولك شي يا حمار وشك وش اللاجئ . . حا يا حمار وشك وش لمهاجر . ويعود أغلب الرجال من المقاهي ورحلات التمشي في حواري المدينة . يلتزم البعض خيامهم ويتناول آخرون وجبة عشاء سريعة ويعودون لمواصلة السهر في المقهى ، تحت أضواء الكلوبات الباهرة ، بعيداً عن قناديل الزيت الباهتة ، ذات الخيوط الدخانية السوداء التي لا تنقطع إلا على حواف جفونهم . هكذا فعل أبي ، تناول لقمتين على عجل ، وكأنه على موعد ، وخرج بعد أن شجع أمي على قضاء فترة غيابه في بيت عمتي . ولا بد أنه أراد طمأنة نفسه أولاً ، بأننا لن نكون وحدنا في غيابه ، فهو يعلم جيداً ، أن

أمي سوف تأخذنا إلى بيت عمتي بعد خروجه ، دون أن يوصيها ، وهي اعتادت أن تفعل ذلك بصورة شبه يومية . ثم أن عمتي نفسها لا تستطيع قضاء السهرة وحدها . ولو حدث وتأخرنا عليها ، لا تتردد في مناداة أمي تتعجلها الحضور للسهر .

في بيت عمتي نرتاح من لعنة الخيمة التي تلبسنا مثل قنعة نساء المدينة ، ومن حيرة الجلوس بين كومة الفراش والوسائد ، التي ترتفع إلى مستوى قامتي ، وموقد الكيروسين النحاسي الأصفر ، والملابس ، وكيس الطحين ، وبقية أكياس التموين الأخرى ، وكأننا قطع إضافية لم يعد لها مكان .

يتربع بيت عمتي وسط حقل الخيام المزروعة في الرمل ، مثل«فيلا» أنيقة راقية . فقد بني من الطين ، وغطي بسقف من خشب براميل مستعملة ، غطيت بطبقة سميكة من ورق ثقيل مقوى مغمس بالقار ، لمنع تسرب مياه الأمطار شتاءً . يتكون بيت عمتي من غرفة واحدة ، لكنها واسعة بما يكفي للجلوس بطريقة عادية . لقد تكلف بناؤه الكثير بالنسبة لأسرة لاجئة ، كأسرة عمتي ، فقدت كل شيء تقريباً . وقد اضطرت والدتي إلى تقديم يد المساعدة ، باعت واحدة من قطعها الذهبية ، التي كانت جزءاً من مَهرها ، وقدمت ثمنها لعمتي . أسرَّت لي ذات يوم ، بأنها بكت حين باعتها ، قالت «والله يمّه حسيت يومتها إنِّي ببيع شقفة من عمري» .

حملت أمي راسم ، الذي كان قد غفا ، بين يديها وخرجت ، وتبعتها إلى بيت عمتي الذي لا يبعد سوى أمتار معدودة عن خيمتنا . كانت عمتي وحدها ، وقد حنت قامتها ، لحظة دخولنا ، تشعل سراج الزيت الصغير الموضوع فوق صندوق الملابس الخشبي . وكان لم يزل في الخارج بقايا من ضوء آخذ في الانسحاب أمام العتمة الزاحفة على نهايات النهار . مددت أمي راسم الصغير على فرشة جانبية ، وجلست إلى جانبه . سألتْ أمي عن الحاج حسين ، الذي لم يكن في البيت ، مع أنها تعرف أين هو الآن ، لكنه السؤال التقليدي العفوي الذي يدل على الاهتمام . ردت عمتي وقالت ما تعرفه أمي :«طلع ، وراح ع القهوة» .

- معناتو بيكون هوَّ وخليل هناك .
علقت أمي .
- ما همّ كل يوم بيشوفو بعظ في القهوة ، ما إلهم شغله ولا عملة إلا لقعود ع القهاوي . . .توب علينا يا رب .
توقفت لحظة قبل أن تلتفت إليَّ وتسألني :
- ما لك ياعمتي ، كنّكْ نعسان ، عينيك حمرا . روح اتمدد جنب أخوك .
أمي سبقتني إلى الإجابة ، وقالت بشيء من عدم الارتياح :
- لا نعسان ولا منعّس ، طول نهاره بيركظ مع لولاد في الشمس ، ويجري بين سوافي الرمل لحْمرّت عينيه وصارت مثل الجّمِر .
- هلقيت بيرجع عمك الحاج وبيجيب لك معه حامظ حلو . . .
والتفتت إلى أمي شاكية :
- هاليومين الحاج مجنني يا لطيفة . . . بسمع هالأخبار من راديو القهوة ، وبيدور في المخيم يوزع ويفتي .
- ايش بدهم يحكو الزلام يا حجة غير لخْبار .
- لمصيبة كل يوم بيرجع برأي شكل ، مرَّة بشارتك يا حاجة . . . راجعين على البلاد . . ميتين في الميه راجعين . أقول له ، أُقعد واسكت يا حاج بلا راجعين بلا رايحين . إقول لي إنتي إيش فهّمك ! قال أني بفهمش ، شفتي هالزلمه . وايش ، قال الأُمم المتحدة ، على رأيه ، طلبت م اليهود ايرجعو ميتين واللا ثلثميت ألف مهاجر . أقول له ، والله اليهود ما بيرجعو بسّه . يرجع يجيني براي غير شِكِل : اليهود رفظوا يرجعو أي لاجئ . أقول له : وإنت من عقلك مفكّر إنو اليهود رح إرجعو حدن . إقول لي وهوَّ بيرتعش : أني ما محّيرني إلا لنجليز ملعونين الوالدين يوم معنا ويوم علينا ، مش عارف أبداً إيش اللي بدهم اياه .
تلمّ عمتي طرف ثوبها بأصابعها ، ترفعه قليلاً وتجلس على الفراش : قطيعة تقطع اليهود وسيرتهم ، من يوم ما أجو ع البلاد جابولنا الهم ووجع الراس . أنشا الله بنرجع . . يا ريت . . يا مين درى بيجي يوم وبنرجع ع الجدل .

- الله كريم يا حاجة .

مضت سهرتنا على إيقاع حديث عمتي وتعليقات أمي القليلة ، حتى دخلنا جوف الليل ، ونعست فعلاً . وضعت رأسي على ركبة أمي . وفي المسافة بين الصحو والنوم عبر صوت أيقظني . أمي دفعت رأسي بيدها في حركة خفيفة ، اعتدلت ، ثم شهقت كعادتها وهي تقول : «يا غلبي بايينو حرامي عبر خيمتنا» . عمتي عقبت : «ما أظنش» . وضعت أمي كفها على رأسي وخاطبتني :

- إنت شاطر يمَّه ، قوم روح شوف مين في الخيمة الله يرظى عليك ، أني خايفة ع غراظنا لتروح ، إذا لقيت حدن نادي علي ، أو على عمتك ، فاهم . . يللا يا شاطر !

وأثنت عمتي على اقتراح أمي مؤكدة على شطارتي . فركت عيني بظاهر كفي ، ووقفت بين المرأتين مرتبكاً خائفاً : ماذا لو وجدت شخصاً ما داخل الخيمة !هل أهرب ، هل أصرخ ! هل أنادي أمي كما أوصتني !

أسئلتي أخافتني ، لكني خجلت من الاعتراف بخوفي ، حملته في صدري وخرجت . دلفت إلى الخيمة ، رأيت شبح صبي يقف إلى جانب العمود الذي يتوسطها . لم أتبين ملامحه وسط العتمة ، لكني قدرت أن رأسه يكاد يوازي منتصف العمود . طولي أنا يصل إلى ربع العمود . تعلق أمي ، عادة ، أكياس التموين الصغيرة المصنوعة من القماش على مسامير دقت حول العمود .

تقدم الصبي نحوي يحمل كيساً بين يديه . في البداية خفت منه . بادرني إلى القول :

- ما تخافش ياخو .

تشجعت قليلا ، وسألته بما في أعوامي الأربعة من براءة :

- ايش بتعمل في خيمتنا ؟

رد قائلاً :

- ولا إشي . . . لقيت ياخو كيس السكر واقع على الأرض ، قلت أعلقُه وأرجْعهُ مطرحه .

فكرت أن أنادي أمي أو عمتي ، خفت من أن يضربني ويهرب . طلبت منه أن يعلق الكيس في مكانه ، ففعل ، وغادر الخيمة ، وعدت أنا راكضاً إلى بيت عمتي .

أمي صرخت :

-مالك يّمه . . وجهك إصفر زي الكركم ، شفت حدن في الخيمة ؟

- آه . شفت ، بس راح .

قفزت من مكانها وهي تردد :

-إنسرقنا . .إنسرقنا يا بنت عم . .راحت اكياس التموين .

واندفعت نحو الخيمة مثل المجنونة تحمل في بطنها خمسة شهور جعلت عمتي تلحقها بصوتها : «ع مهلك يا لطيفة عشان اللي في بطنك يا بنت عم» .

غابت أمي بضع دقائق ، عادت بعدها بدموع في عينيها . ألقت بجسدها أرضاً ، وقالت لعمتي بصوت حزين :

- ما لقيتش لا كيس السكر ولا كيس الرز يا حاجة ، مش قلت لك انسرقنا ، قلبي كان حاسسني .

- أني مالي . . الحرامي طلع كذاب . .ايش عرفني إنو رح يرجع . .

قلت محاولاً الدفاع عن نفسي . أمي التفتت إلي شبه غاضبة :

-أني ليش بعتك . . . ها ! يقطع الخلفة واللي بيخلفوها . . ليش ما ناديت عليّ لّما شفت الحرامي ؟ .

أجبتها دون أن أرفع رأسي :

- خفت يظربني .

- وليش ما صرخت .

- بيظربني .

عمتي تدخلت :

- طولي بالك يا لطيفة ، ربعي بعده ازغير ، أكيد الحرامي أكبر منّه . بكره ربعي بيكبر وبس يشوف حرامي رح يكسر راسه .

والتفتت إلي تقول :
مش هيك يا عمتي ، تعا يا عمتي تعا ، اسم الله عليك .
تقدمت مني وضمتني إليها بقوة ، ثم التفتت نحو أمي تخاطبها بصوت هادئ حنون :
- إذا احتجتي سكر واللا رز يا لطيفة خير الله كثير ، تعي خذي من عندي .

٢

في نهاية شهرها التاسع ، وضعت أمي ، في بيت عمتي ، بنتاً ، بمساعدة القابلة أم زهير دهمان . عمتي ناولتها فلقة صابون وعلبة حلاوة طحينية . صار لنا ، راسم وأنا ، أخت . أبي سماها رفقة . اختار اسمها على حرف الراء الذي تبدأ به أسماؤنا ، منذ سماني ربعي كرت «راءات» الأسماء مثل حبات السبحة . أبي رزق بصبي بعدي سماه رفيق ، مات في الجدل طفلاً ، جاء بعده راسم ، والآن رفقة .

عاشت رفقة عاماً وشهرين ، وماتت . كأن اسم رفيق ومؤنثه لا يعيشان في عائلتنا . أصيبت رفقة بلفحة برد . قالوا عنها «نزلة» خفيفة ، مع أن هذا لم يغير من خطورتها . التهب صدر رفقة ، سخنت ، ارتفعت حرارتها . لا عيادات ولا دواء ولا مغيث . ماتت رفقة بعد ثلاثة أيام من المرض . بعد ثلاثة أيام انتهت «رفقة» طفولتنا ، انتهت في اللحظة التي شاهدتها ممددة فوق فرشة صغيرة في بيت عمتي . عيناها مغمضتين . عيناها تسعان الدنيا لو فتحتهما ، لم تعد تفتحهما ، ماتت دنياها في عينيها المغمضتين . ماتت أختي . لم يعد لي أخت .

قبل أسبوع رأيت عمتي تحمل رفقة بين ذراعيها . تقف بها أمام خيمتنا . ورأيت أمي تخرج من الخيمة وتقف إلى جانب عمتي حيث أخذتا تتأملان وجه رفقة ، ترشانه ببسماتهما ، ورفقة تنقل بصرها بينهما تلم البسمات وتبتسم . لاغتها عمتي ضحكت ، ودادت : دا ، دا ، دا . عمتي تعتعت : تعا تعا تعا تعا . رفقة استجابت : تا تا تا تاتا ، وأخذت تفتح قبضة يدها اليسرى الصغيرة

وتغلقها نصف إغلاق وتضحك . جنت عمتي بها :

- عينيها مثل فناجين القهوة يا لطيفة ، سوادهم مثل الكحل ، مناخيرها مثل حبّة لوز . سبحان الخالق ، سبحانك يا رب .

- صلي ع النبي يا حاجة .

أمي قالت .

- اللهم صلي وسلم عليك يا نبي .

عمتي ناولت رفقة لأمي :

- خذي يا لطيفة احملي ، الله يخليها ويمد في عمرها .

- يسمع منك يا رب .

- إبتِعِرفي يا لطيفة يا بنت عم ، قلبي ناكِزني ع هالبنت من كُثر ما هي حلوة ! أني بقول لو تعلقي لْها خرزة زرقه يا بنت عم ، تبعدي عنها شر الحسد .

احتضنت أمي رفقة ، شدتها إلى صدرها :

-لا زرقة ولا حمرا يا بنت عم ، اللي إلو عمر بيعيشو .

رفقة لا عمر لها ، صارت جثة لفت في كفن أبيض حمله عمي محمود على ذراعيه ومشى . على يمينه عمي اعليم . وعلى يساره أبي . وخلف الثلاثة الحاج حسين زوج عمتي . مضى الأشقاء الثلاثة ونسيبهم إلى مقبرة خان يونس صامتين ، وهناك وضعوا جثمانها الصغير داخل نصف جرة فخار ودفنوها . فارقتنا رفقة . كانت أول قطعة من لحمنا تدفن خارج مقبرة الجدل عسقلان .

٣

نخرج للعب معاً ، ابنة عمي أديبة وأنا . نجتاز الخيام في المسافات . نتطلع نحو التلة الكبيرة . رابضة عملاقة هناك ، تعانق سلسلة من التلال مثل أمواج عاتية ضخمة لبحر من رمال . نقرر أن نركب الموجة القريبة ، ونسبح في بحر الرمال . نركض . نقترب ، فنكتشف البحر في الموجة التي صارت مئات من موج صغير شكلته الريح من حبيبات الرمل الناعمة ، تماوجت مثل أطياف أحلام بريئة . نرى

الموج يتشكل موجاً . نصعد محاولين هزيمة جبل الرمال بأقدامنا الصغيرة . تغوص أقدامنا في الرمال ، نجرها وننقلها بصعوبة . نبلغ القمة . تمحو أقدامنا خطوط الريح وتطبع صورتها . نستدير ونجلس على مؤخرتينا . نتفرج على آثار أقدامنا في الرمال ، مثل خفاف جمل صغير تبدو . نتعلم لعبة جديدة . ننزلق دافعين جسدينا الصغيرين فوق السطح ، تحملنا أمواج الرمل وتضعنا عند شواطئ التلة ، نتوقف . ننهض وننفض الرمل عن أجسادنا . تعلمنا التلال التزلج على رمالها ، نستمتع بالدروس ونحفظها عن ظهر قلب . نصعد ثانية لكي نتسابق ، وقد اكتشفنا كيف نطوع تلال الرمل لجسدينا الصغيرين .

نتعب معاً . نجلس فوق القمة معاً . حولنا بصمات أقدامنا منتشرة بعمق في الرمال . على السفح بصمات جسدينا هابطة مثل خطوط محراث عريض . نسرح بعيوننا نحو المخيم ، مثل الفطر منبثقة تبدو الخيام ، نابتة من الرمل بعد ليلة رعد شديد . هذه خيمتنا ، هذه خيمتكم . مئات الخيام منثورة على مساحات من الرمل الأصفر ، يتنقل بينها سكانها ، كأن السماء أمطرت لاجئين .

تصيح أديبة فجأة : إتطلع هناك ، شوف ، ولكْ شوف .

تشير بأصبعها . من بعيد يظهر عدد من الصبية الصغار قادمين في اتجاهنا . نتعرف عليهم وهم يقتربون . نتبادل ذكر أسمائهم : محمد ، عمر ، العبد ، فتحي ، وسعاد ، فتحيه ، صبحيه ، كوثر التي تكبرنا جميعاً .

تفاجئني أديبة بدعوتي للعودة إلى المعسكر .

– يا الاّ نروّح .

– بدّي ألعب معهم .

– أني بلْعبِش مع لِولاد الثانيين .

– خليكي ما أني معك .

– بدّيش ، بدّي أروّح ، إن شافتني إمي بلعب مع لولاد بتظربني .

تنهض . تنفض بكفيها فستانها الصغير ، وتقفز هابطة التل تخب بقدميها في الرمال . تختفي بين الخيام ، بينما يواصل الآخرون صعودهم .

يبلغون منتصف السفح ، يتعثرون . أضحك . ينهضون تباعاً ويمشون على أيديهم وأقدامهم . يبلغون القمة . يلقون بأجسادهم الصغيرة فوق الرمل . تنطلق ضحكاتهم من بين أنفاس تقطعت .

اقترحت كوثر أن نلعب عروس وعريس .

قال لها العبد مندهشاً :

– ما بْنِعرِفهاش ! .

ضحكت ، وغطت فمها بكفها :

– يي عليكم ما أهبلكم ، ما بتعرفوش تلعبو عروس وعريس !

–لأ ، ما بنعرفش ، ايش يعني ؟

أكد العبد ما قاله من قبل .

– أني بَعلِّمكُم .

خيَّرتنا كوثر ، ثم قالت :

–تعو نجرب . . اسمعوا ، ربعي هو العريس ، وسعاد العروس .

بقيت صامتاً ولم أعلق . الآخرون لم يعترضوا ، ربما لأنهم مثلي لا يعرفون اللعبة ، ويرغبون في معرفتها .

امتثلنا لقرار كوثر بصمت ، وتقدمت نحو سعاد ، غير أن صراخ فتحي المفاجئ أوقفني :

– والله لروح أحكي لأهاليكم بتعملو اشي رزيل ، هلقيت اعرفت اللعبة بتاعتكم ، هذا اشي عيب ورزيل .

وهبط السافية زحفاً على مؤخرته ، ثم ركض مسرعاً باتجاه الخيام . سعاد قفزت من مكانها وركضت هاربة . أنا انتفضت واقفاً ، ونسيت عرسي الصغير الذي أوشكت على تعلمه . وتفرقت البقية سريعاً ، ركض كل في اتجاه ، ولم ير أحدنا الآخر طيلة اليوم .

حُمت وقتاً طويلاً حول خيمتنا دون أن أجرؤ على الاقتراب منها . خفت من أن يكون فتحي قد نفذ تهديده ، وحكى لوالدي ، أو أحدهما .

- هاي ربعي أجا .
لا أدري من قال ذلك ، لكني مت فزعاً لمجرد سماع القول .
فكرت في الابتعاد والاختباء خلف خيمة جيراننا ، شدني صوت أمي تناديني . كانت تقف خلفي في تلك اللحظة ، دون أن أدري . فاجأتني بشهقتها حين استدرت :
- هيه . . . ولك يا داشر وينْ بَقيت طاشِش .
- إلعِبنا ع رمل السافية أنا ولولاد .
رمت عليّ نظرة شك ، وعادت تسألني :
- أكيد إَعملِتو إِشي رزيل ؟
سكت ، ولم أجب .
عادت تسألني بنبرة تحذير :
- إحكي الدُغري .
ثم بتهديد واضح :
- وحياة الله ، واللي في بطني ، بحكي لأبوك .
وكانت حامل في شهرها الخامس . خفت على شهورها الخمسة . دندلت رأسي :
- كنا بدنا نلعب عريس وعروس .
- عُرس اللي يعرّس جلدك على عظمك انشالله . ولك كلّك قدْ النِتفه ، مين الداشر اللي علّمك السفالة ، ها ؟ .
- . . . . . .
صمتت أمي للحظات ، ثم قالت بحدة أقل :
- قالت لي عمتك ، ربعي راح دشَر مع لِولاد السفلة ، راحو وعِملو العيب . صرّخت عليها ، قلت الها ربعي ما بيعرفش لا العيب ولا الكلام الرزيل . . . طلّعتني كذّابة قدّام عمتك يا داشر ، طيب هالمرّة سماح ، بس إذا عمرك بِتعيدها ، رح أخللي أبوك يشلع ذانك ويِمزَع رقبتك .

٤

لم تطل إقامتنا في المعسكر بعد وفاة الصغيرة رفقة . ومرضت أمي فجأة . نقلت إلى مستشفى المعمداني في غزة ، ثم إلى مستشفى البريج . أجريت لها عملية جراحية لاستئصال ورم في الجهة اليسرى من بطنها . بعد عودتها من المستشفى ، قرر أبي ترك الإقامة في المعسكر في أقرب فرصة . كان قد عين كاتبا في مركز توزيع التموين ، التابع لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين «أونروا» براتب جيد . صار بإمكانه استئجار بيت في المدينة . عمتي اعترضت ، وعرضت عليه الإقامة في بيتها على أن تنتقل هي وزوجها إلى خيمتنا فرفض ، هو الذي لم يرفض لها طلبا من قبل ، لا بل ذهب أبعد من الرفض ، وصرخ في وجهها :

– الخيمة جابت لمرتي المرظ يا حاجة ، بدِّك إياني أدشِّر مرتي تموت قدامي زي ما ماتت رفقة في أربعه وعشرين ساعة !

– يقطعني يا رب ، مش قصدي يا خويا ، بدي اياكم تسكنو مطرحي . . الحاج حسين ما بيعارظ ولا بيزعل .

– الشتوية ع لبواب يا حاجة ، واني مش مستغني عنك حتى تنامي في الطين ووحل الشتا ، شفتي اللي صار فينا الشتوية اللي فاتت ، مرة الخيمة طارت ، ومرة صحينا وفرشاتنا غرقانه بالميّه وحصيرتنا ذايبه .

وفي النهاية ، رضخت عمتي لقرار أبي ، بل وتحمست للبحث له عن بيت . لم تشأ الحاجة إغضاب خليل أبي . كانت تحبه أكثر من شقيقيه الآخرين ، محمود واعليم ، ربما لأنه أصغرهم ، وربما لأنها هي التي ربته بعد وفاة والدتهما وكان لم يزل صبياً .

وعثرت عمتي على بيت كبير في حارة النجار ، يتكون من ثلاث غرف واسعة ، كل منها يتسع لنوم عشرة أشخاص . يمتد أمامها حوش كبير ، لا تقل مساحته عن أربعمائة متر مربعاً . تركنا معسكر الخيام ، وانتقلنا إلى البيت الجديد ، حيث أقمنا وعمتي وزوجها في غرفتين من غرفه ، فيما شغل الغرفة الثالثة قريبنا العبد زهرة المدهون .

عشنا الشهور الأولى في سعادة لا توصف ، نلعب أخي وأنا مع أولاد أقاربنا الصبيان والبنات ، اسمير ، وفؤاد ، وليلى ، ونوال . لكن سعادتنا لم تمتد أبعد من خريف ذلك العام ١٩٥٠ . ففي الشتاء مرض أبي ، وحزنت أمي التي كانت لا تزال تعاني المرض ، وتشاءمت . قالت أن البيت نحس ، وأننا لو بقينا في المعسكر لما مرض أبي . وقالت عمتي كلاما مشابها .

كان أبي قد عاد إلى البيت مساء أمس متعباً . لم يطلب عشاءه كالعادة . قال لأمي ، التي سألته ، أنه لا يشعر برغبة في تناول أي طعام . وسعل أمامها عدة مرات . ارتبكت أمي خوفاً عليه . لاحظ ذلك فطمأنها :

- شوية برد وبتروح يا لطيفة .

غير ملابسه ، وتمدد في فراشه ، وسارعت أمي وألقت اللحاف عليه ، ثم أضافت إليه بطانية ، وراح في إغفاءة طويلة .

بعد ظهر اليوم التالي ، عاد أبي من عمله في حال سيئة ، فقد دخل سعاله قبل قدميه . وخرج جميع من في البيت يتراكضون ، وخصوصاً أمي وعمتي . أسندته كل منهما على أحد كتفيها ، ولف هو ذراعيه حولهما زاحفاً نحو غرفتنا . كان يلهث بقوة ويتنفس بصعوبة ، فسارعت المرأتان تدخلانه الغرفة ، وساعدتاه على الجلوس على فراشه وهو بكامل ملابسه . ثم سارعت أمي تدس مخدتين خلف ظهره . مد أبي ساقيه أمامه وألقى بظهرة إلى الخلف . خف لهاثه المتسارع ، وشعر ببعض الارتياح .

طلبت عمتي من أمي أن تغلي له بذور اليانسون ، قالت أنها تفتح الصدر وتساعد على التنفس ، ففعلت . وشرب أبي اليانسون وغفا ، غير أنه لم ينم سوى ساعات قليلة ، أيقظه السعال خلالها عشرات المرات على امتداد الليل .

في الصباح صحبه زوج عمتي الحاج حسين إلى مركز الصحة في خان يونس ، المعروف ب«الصحية» . وعادا من هناك بدواء للسعال . لكن السعال لم يتوقف . وأمضى أبي ، وأمضى كل من في البيت بمن في ذلك جيراننا الأقارب ليلة قلق أخرى . وفي الصباح التالي عاد إلى الصحية . كان الحاج حسين قد

حمل بعض الأقمشة على كتفه وخرج باحثاً عن رزقه في شوارع المدينة . فصحبت عمتي شقيقها إلى العيادة نفسها . لكن الطبيب المناوب حوله هذه المرّة إلى مستشفى البريج للأمراض الصدرية ، لإجراء تصوير شعاعي وفحص البلغم الخارج من صدره . ومنذ ذلك اليوم ، بدأت إقامة أبي الطويلة في المستشفى ، فقد ازدادت حالته خطورة ، وبدأت خيوط دم تظهر في بصاقه . وانتشر القلق على ملامح أيامنا ، غطاها بالكآبة والحزن ، لقد بدأ أبي رحلة عذاب صعبة وقاسية مع السل الرئوي «TB Tuberculosis» ، الذي انتشر في أنسجة رئتيه .

وحفظت أنا على مر السنين أدوية أبي . تعلمت نطقها قبل أن أتعلم فك الحروف . ناولت أبي ، غير مرة ، علبة الستربتومايسين ، والآيسونيازيد ، والكودايين الذي يساعده على النوم ، والذي لا يزيد حجم حبته على حبة عدس صغيرة ، وغيرها . ولم يشف أبي . أصبح السل مزمناً . سكن السل صدره إلى الأبد . صار أبي مسلولاً . صرنا نتعرف عليه من سعاله . صار أبي جسداً من سعال . وبدأ يبتعد عنا وهو على مسافة متر واحد .

٥

في أواخر العام ١٩٥١ ، بدأت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين ، «أونروا» ،في بناء مساكن شعبية للاجئين . وحصل أبي وعمي محمود على مسكنين في بلوك B ، في المبنى رقم ٣٦ ، المكون من ثماني غرف ، والقريب من المدينة ، على بعد خمسين متراً فقط من الطريق العام المؤدي إلى البحر .

تركنا بيت حارة النجار ، وكان أبي لم يزل نزيل مستشفى البريج ، وانتقلنا إلى البيت الجديد فور تسلمه . أما عمتي فقد بنت بيتاً مماثلاً لبيتها السابق في المعسكر الجديد . بنته هذه المرة على حافة المدينة ، في الشارع الفاصل بينها وبين معسكرات اللاجئين .

توزعنا وعائلة عمي محمود بيت الأونروا المكون من ثلاث غرف : غرفتان لعمّي وزوجته وبناته وحماته ، الحاجة رقية . وغرفة لنا ، أبي وأمي وراسم وأنا .

الغرفة الرابعة والأخيرة ، في نصف المبنى الشمالي ، سكنها عيد رمضان ، الموظف في قسم الصيانة في الأونروا ، وهو لاجئ من قرية بربرة . النصف الجنوبي ، الواقع خلفنا ، سكنته ثلاث عائلات ، جميعها من قرية القسطينة . فور انتقالنا ، تولت النساء الثلاث ، أمي وامرأة عمي ووالدتها ، تسوير البيت . أحطنه بقطع كبيرة من بقايا ألبسة وشراشف ومناديل رأس نسائية وبطانيات قديمة ، ثبتنها على أعمدة من فروع شجر . وبقي السور ، الذي يشبه الغربال ، قائماً لعدة شهور ، تم استبداله ، بعدها ، بحائط طيني . وقد بذلت الحاجة رقية الجهد الأكبر في بنائه ، وساعدتها أمي وامرأة عمي في تلييسه من الداخل والخارج لتمتينه وتحسين منظره . غير أنه تعرض للسقوط أكثر من مرة بفعل الأمطار ، وأعيد بناؤه حيناً وترميمه أحياناً ، إلى أن تم هدمه ، في مرحلة لاحقة ، وبناء سور إسمنتي .

٦

وكبرت أنا في بيتنا الجديد ، بلغت الخامسة من العمر . . .

٧

أخذني ابن جيراننا إبراهيم كفينة ، الذي يكبرني بخمس سنوات ، إلى المدرسة . جر سنواتي الخمس معه إلى عالم لم أكن وعيت معانيه الأولى بعد . لكنها رغبة أمي ، التي تعجلت التحاقي بالمدرسة . وعد إبراهيم أمي بأن لا يتركني طيلة الطريق ، وبأن يتولى تسجيل اسمي لدى إدارة المدرسة ، وبأن يعيدني بنفسه إلى البيت ، في المعسكر ، بعد انتهاء الدروس .

ارتاحت أمي لوعود إبراهيم الثلاثة ، استشعرت فيها قوة طلاق بائن لا رجعة فيه . فهي أحبت إبراهيم منذ صغره ووثقت به : «إبراهيم عاقل ، طيب ومؤدب وابن حلال ، تِربايِة الشيخ محمد كفينة ، رحمتْ الله عليه» .

قبل حضوره إلى بيتنا ، تلت أمي عليّ آيات إعجابها تلك ، وزادت عليها توصية تلزمني أنا هذه المرّة ، قالت «حُطْ أيدك في أيد إبراهيم طول الطريق

وإوعى تدشرها أبداً . . . إوعى يمّه» .

جاء إبراهي . مد لي يده فالتقطها بسرعة . شبكت أصابع كفي الصغيرة بأصابعه . استدرنا ومشينا نحو باب الدار معاً ، وقبل أن نمضي ، استوقفتنا أمي . اقتربت مني . انحنت عليّ برفق ، ودسّت في جيب بنطلوني ، الرمادي القصير ، منديلاً صغيراً من قماش المالطي الأبيض . ثم أخذت تسوّي قميصي حول وسطي ، وتحت حمالات بنطلوني ، وتهمس لي : «إوعى يَمّه تِمسح برابيرك في كُمّكْ وِتفْظَحنا ، نشّفْ بالمحرمة ، سامع» .

خرجنا ، وقبل أن نبتعد عن البيت ، جاءنا صوتها مستعطفاً : «ربعي أمانة في رقَبْتَك يا إبراهيم ، دير بالك عليه الله يرظى عليك» . ودعت له بالبقاء وطول العمر . ولم تكن تعلم أن إبراهيم سوف يُقتل وهو في السادسة عشرة من عمره ، في مذبحة جماعية ترتكبها القوات الإسرائيلية في خان يونس ، في الثالث من أكتوبر ١٩٥٦ ، ولهذا دعت لإبراهيم بالبقاء : «إيطول عمرك ويخلّيك لإمّك يا رب» .

وعبرنا الحارة سعيدين .

في الطريق حدثني إبراهيم كثيراً . قال لي أن المدرسة جميلة ، وأنني سوف أحبها ، فرحت . وأن ثمة تلاميذ شطار ، وآخرون كسالى يتلقون الضرب بالعصي على أيدي المعلمين ، خِفت . وزاد أن بعض المعلمين يستخدمون عصي من الخيزران ، وآخرون يفضلون الضرب بعصي من شجر الرمان ، ارتعبت ، حتى أنني ضممت كفي الطليقة بقوة . ثم قال أن التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة والحساب ودروساً أخرى ، استغربت ، وسألته :

- كيفْ بْتِعلّمو ؟

أجاب بمرح :

- بِيْصيرو يقْرو اللي بْيِحْكوه . بْيِكتِبوه بْقلم رصاص على ورق ، بَعْدين بْيقروه بْصوت عالي ، زيْ هيكْ : راس روس . دار دور . وبيْعَلموهُم لِحساب كمان وبِيصيروا يْعِدّو ويِحسْبو .

هتفت :

– أني بَعِدْ لّلعِشرين .

وتابعنا سيرنا وأيدينا لم تزل متشابكة . وأخذنا نقلد فرق الكشافة : وَحْ تْنين ، وح تنين ، وح تنين ، ونضحك .

أقبل من الجهة الأخرى رجل لا أعرفه . ابتسم حين اقترب منّا . إبراهيم طرح عليه السلام ، فردَّ الرجل سلامه وزاد عليه «رحمة الله وبركاته» . أما أنا فقد ابتسمت للرجل وما زلت أردد : وح تنين ، وَح تنين . وحين مر بمحاذاتي قفزت على قدم واحدة خطوتين وقلت له بفرح :

– أني رايحْ عَ المِدرسة .

ابتسم وهو يمر بنا .

وصلنا إلى المدرسة . اجتزنا بوابة خشبية خضراء اللون عريضة ، على جانبيها أشجار أكاسيا خضراء وارفة . تنفتح البوابة على ساحة واسعة ، امتلأت بأولاد من أعمار مختلفة . يحيط بالساحة ، من ثلاث جهات ، مبنى كبير من الحجر الكلسي الأبيض ، يتكون من طابقين . من زاويته يصعد سلمان رخاميان عريضان .

وقف إبراهيم يتأمل المبنى الكبير ، كأنه لم يره من قبل . أخذ نفساً عميقاً ، ثم أخرج الهواء من صدره كمن يستفيق من حلم جميل ، والتفت إلي وأعلن :

– هاذي هيْ مِدرسة خان يونس الإعدادية للبنين يا ربعي .

«آه والله» . قلت ، دون أن أفهم معظم ما قاله إبراهيم . عرفت «هذي» ، و«خان يونس» ، وأنها مدرسة ، لكنني لم أفهم أبداً لا «الإعدادية» ولا «للبنين» . عندما عرفت معناهما ، لاحقاً ، انتابتني أحاسيس غريبة . سألت نفسي متعجباً : لماذا لم يقل لي إبراهيم ، في حينه أنها مدرسة «للولاد لكبار» .

طاف بي إبراهيم على المكان . أخذني إلى حنفيات الشرب ، ست حنفيات صغيرة خارجة من الحائط مثل حنفيات وضوء في مسجد . دلني على المراحيض ، بناء مربع صغير يقع خلف حنفيات الشرب ، قال عنه أنه «دورة

مياه» .

عدنا إلى وسط الساحة ، وتوقفنا قبالة المبنى الكبير . من هناك رأيت ، للمرة الأولى ، جرس المدرسة . تجولت بنظري في المكان . استوقفني علم فلسطين بألوانه الأربعة ، الأبيض والأحمر والأخضر والأسود ، وكان يرفرف وقد علق على عمود ثبت على بعد أمتار قليلة من سور واطئ يمتد بعرض البناء الكبير . وراح إبراهيم يتطلع مثلي إلى العلم . والتفت إلي فجأة وقال :

– هذي سارية .

ولم أفهم قوله ، ولم أهتم له كثيراً ، لعله قصد شيئاً آخر بقوله «سارية» .

استغرقنا في تأملاتنا ، حتى امتصت عيوننا ألوان العلم . امتصتها كما تمتص رمال التلال قطرات مطر . وسمعت إبراهيم يردد كلاماً يتماوج بين شفتيه مثل نسمة :

سود مواقعنا ، بيض مواضعنا ، خضر مرابعنا ، حمر مآقينا ، بيض مواقعنا ، خضر مرابعنا ، سود مواقعنا ، مواضعنا ، مرابعنا وظل يردد تلك الكلمات ذات الوقع الموسيقي الذي طربت له دون أن أفهم معانيه ، حتى رن الجرس ، وأخرجنا من السباحة بين الألوان .

سحب إبراهيم يده من يدي طالباً مني الالتحاق بمن هم في مثل سني من التلاميذ ، الذين بدؤوا يتراكضون ويتصايحون مشكلين تجمعات صغيرة ، سرعان ما انتظمت في طوابير طويلة . غضبت وأوشكت على البكاء . أردت أن أبقى مع إبراهيم . لقد أوصته أمي بي ، فلماذا يخالف وصيتها ويتركني . سألته أن أبقى إلى جانبه فرفض ، مؤكداً عدم جواز ذلك ، وإلا أعادوني إلي البيت ، هكذا قال . استجبت لكلامه حتى لا أعود إلى البيت ، وابتعدت عنه ، وانضممت إلى طابور تلاميذ صغار يمتد بمحاذاة الجانب الغربي من مبنى المدرسة .

انطلق صوت قوي خشن من مكان ما في الساحة صارخاً ومكرراً الصراخ : سكوت . وعمّ الساحة صمت رهيب .

وفجأة شق تلميذ متوسط القامة قوي البنية الصفوف . وقف أمام الطوابير . رفع

الصبي رأسه عالياً وبدأ يهتف :

فلسطين

ويرد التلاميذ : لنا

نرويها

بالدما

نموت ونحيا

فلسطين فلسطين فلسطين .

وصفق التلاميذ ، وصفقت معهم ، وعاد صاحب الهتاف إلى مكانه في الطابور . وفجأة سمعنا صوت دحرجة براميل . وظهر أربعة رجال خلف براميل خشبية ، أخذوا يدحرجونها قبل أن يوقفوها على قواعدها ، في أربعة مواقع قبالتنا . وباشر كل منهم فتح البرميل الذي يقف خلفه بأداة من حديد ، فتسللت إلى أنوفنا رائحة فسيخ غريبة . قطع الجميع الصمت بأكفهم ، صفقوا حتى مزقوه ، فصفقت معهم . وارتفع في الجو صوت تكسر أسطح البراميل : طعيييييع ، أعازيييييعق طق .عبقت الساحة برائحة الفسيخ . ازداد الحماس ، وعلا التصفيق وطال ولم يتوقف إلا عندما عاد الصوت القوي الخشن يكرر نداءه السابق : سكوت .

ران صمت جديد له طعم الترقب . رائحة الفسيخ تملأ المكان وتسيطر على حواس الجميع . والكل يشم والأنوف تسحب المزيد . وبينما أنا غارق في أنفي مثل الجميع ، داهمني شك فظيع في حقيقة وجود فسيخ داخل براميل . إذ لم أر في حياتي فسيخاً في برميل . أمي ترص سمك السردين الصغير داخل سحارة خشبية مستطيلة . تجعله طبقات متتابعة ، تفصل فيما بينها بكميات كبيرة من الملح . فالملح ، كما تقول ، يمتص الماء من لحم السردين ، فيتملح ويجف ويتحول إلي فسيخ .

مددت رقبتي الصغيرة إلي الأمام ، حركت رأسي في الاتجاهين . رأيت أول فسيخه وهي تخرج من البرميل الثالث ، معلقة بين أصابع واحد من الرجال

الأربعة : طويلة ، عريضة ، رقيقة . بطنها ذهبي اللون وظهرها برونزي غامق ، ولا تشبه فسيخنا في شيء ، لكنها أجمل منه بكثير . همهمت وسط همهمات أطلقها الجميع . وقلت محدثاً نفسي : فسيخنا ، الذي تكبسه أمي ، نحيف وقصير ومعظرط ، أيضاً ، يشبه لطفي الحيلة ابن حارتنا . الرجل الواقف قبالتي خلف البرميل الرابع سحب من داخله فسيخة اهتزت بين أصابعه ، فتساقط من عينيها سائل بني حسبته دموع ، تقطَّرت عبر فم مفتوح يكشف عن ضحكة أزلية ساخرة .أفلتت مني ضحكة مسموعة ، فانطلق صوت قادم من بعيد مثل الرعد :

- اخرس .

خرست . واضطر الآخرون لأن يخرسوا معي ، حتى لم نعد نسمع غير أصوات تساقط دموع الفسيخ في البراميل .

وفجأة مزق الصمت صوت مدرس قدم من جهة اليمين ، يحمل بيده عصا غليظة ، صاح في الرجال الواقفين خلف البراميل :

- ياللا . .يللا . .أعطوهم واحد واحد وبالدور .

ثم التفت نحونا واخذ يصيح ، ويهز عصاه :

- بالنظام ، واحد واحد مفهوم !

وردت المدرسة بأصوات متناثرة :

-مفهوم يا أستاز .

بدؤوا يوزعون علينا الفسيخ واحدة لكل تلميذ . وجاء دوري . وناولني الرجل فسيخة دامعة باكية مثل الأخريات . أمسكت بها من ذيلها بأطراف أصابع يدي اليمنى ، وعدت ثانية إلى مكاني داخل الطابور .

وخلال دقائق تدلت من بين أصابع التلاميذ مئات السمكات المملحة . ورن الجرس ، أطلق رنيناً متواصلا هذه المرة : تلي لي لي لي لن تلي لي لي لي لن تلي لي . وأخذ الطلاب يتفرقون . وركضت نحو إبراهيم ، فوجدته واقفاً في انتظاري يمسك فسيخته من ذيلها مثل الجميع ، وما أن رآني حتى هتف :

- المدرسة خلّصت ، يلاّ انْروَّح .

وانطلقنا عائدين .

انتشر التلاميذ في الطرقات . حملوا إلى المدينة رائحة الفسيخ النفاذة . المقيمون في المدينة أخذوا الرائحة إلى شوارعها ومناطق سكناهم . وحملناها نحن اللاجئين معنا إلى معسكراتنا . وخلال وقت قصير صارت خان يونس ومخيماتها مدينة فسيخ . غرقت في الرائحة من دوارها الرئيسي ، شرقاً ، إلى المخيم الفوقاني غرباً . ولم يعد الناس يشمون الرائحة وحسب ، بل ويرونها أيضاً . حتى قيل أنها مرت بالمزارع والكروم ، وعبرت البيارات الكبيرة الصغيرة ، ووصلت المواصي ، عند شاطئ البحر ، على بعد كيلو مترين من المدينة ، وطافت فوق أشجارها . واشتمها المزارعون الذين أكدوا أنها رائحة فسيخ فعلاً ، واستغربوا كيف اختفت رائحة الفواكه الفواحة ، من الأشجار المثمرة في المزارع المترامية بين خطوط الرمال ، ما أن مرت سحب الرائحة من هناك .

دخلنا حارتنا معاً ، إبراهيم وأنا . عند زاوية بيتنا افترقنا . شافتني الحاجة رقية حماة عمي محمود قادماً ، ترقص فسيختي بين أصابعي . غرزت إبرتها في صدر الثوب الجدلاوي الذي تحيكه ، ثم وضعته جانباً وعلى ثغرها نبتت ابتسامه . فركت أنفها ، وزحزحت مؤخرتها عن عتبة الباب لتسمح لي بالمرور . وأشارت لي بالابتعاد وهي تقول :

«خلّيك بْعيد عَشان ما تْنَقِّط مَيِّتْ لِفْسيخ عَ الثوب» .

ثم نادت على أمي بكلمات ساخرة :

– تعي يا لطيفة شوفي ابنك ، راح ع المدرسة تَ يِتْعلّم رِجع جايِب معُه فْسيخ .

قلت للحاجة رقية وأنا اجتاز عتبة باب البيت إلى الداخل :

– ما تخافيش ، لِفسيخة نِشفت .

جاءت أمي ، وأخي راسم ، ودلول امرأة عمي محمود ، وأديبة ابنتها . خرجوا جميعهم من غرف البيت يتفرجون على الفسيخة الغريبة .

– هِيييييه .

أمي شهقت كعادتها حين تستثار دهشتها لسبب ما ، وعادة ما تضيف إلى شهقتها كلمة يا غلبي ، وهذا ما فعلته فعلاً :

– هيييييه ، يا غُلبي يمّه ، هذا سمك مْدخّن .

أُصبت بخيبة . أُمي لا تعتبر فسيختي فسيخاً إذن . بوّزت ، حتى أنها لاحظت خيبتي على وجهي فقالت مستدركة :

– كلُّهْ فسيخ يمّه وزيْ بَعَضُه ، إنْت ازْعِلت ! .

ارتحت . وناولتها الفسيخة التي بدأت بها حياتي الدراسية .

في اليوم التالي رفضت الذهاب إلى المدرسة . عرفت أنه لا يوجد فسيخ .

٨

مر عام على يوم الفسيخ ، الذي صار يوماً تؤرخ به الوقائع والأحداث . قيل ، والقائلون عديد ، سافر فلان قبل توزيع الفسيخ بيوم ، و تزوج فلان بعد الفسيخ بستة أسابيع . دون أن ينتبه أحد ، أو يسأل عن تاريخ اليوم الذي تم فيه توزيع الفسيخ . ومنذ ذلك الوقت الذي لا وقت له ، لم ألتحق بأية مدرسة . اليوم ، قررت أمي أن سني أصبحت مناسبة للالتحاق بالمدرسة من جديد . طلبت من جدي الحضور غداً صباحا ، واصطحابي إلى المدرسة . في الصباح ، عندما حضر فعلاً ، أوصته بألا يتركني إلا بعد أن يتأكد تماماً من التحاقي بالصف . فطمأنها مازحاً : «إذا الصبي رجع وريحته فسيخ إقليه بالزيت» . ضحكت وهي تقول : «يقطع لفسيخ ويومه . قال بروحش ع المدرسة إلا إذا فيه فسيخ» .

٩

علقت حقيبتي القماش ، التي خاطتها أمي عند «فاطمة القريناوي» حول رقبتي ، وتبعت خطوات جدي الثقيلة ، إلى أن بلغنا بوابة مدرسة خان يونس الابتدائية للذكور . وهناك شاهدت ، للمّرة الأولى ، المدرسة التي سمعت عنها كثيراً : مباني مترامية على مساحة واسعة . أربعة بلوكات بنيت من طين خُلط

بالقش ، تغطِّيها أسقف هرمية من صفيح الزينكو . عند طرف ساحتها ، المفتوحة على المدرسة الإعدادية ، التي وزعت الفسيخ قبل عام ، نُصبت ست خيام كبيرة خصِّصت لطلاب الصف الأول الابتدائي من اللاجئين .

أخذني جدي إلى غرفة الناظر ، الواقعة إلى يسار البوابة الرئيسية ، ضمن بناء خشبي مستقل ، يضم الإدارة وغرف المدرسين . واستقبلنا الرجل باحترام كبير . استمع إلى رواية جدي ومطالبه . ثم دون اسمي في سجل أمامه ، وطمأن جدي مؤكداً له أنني سوف ألتحق في الحال بالصف الأول الابتدائي . ثم التفت إلى قائلاً أن باستطاعتي أن اذهب إلى الساحة ، وألعب مع الأولاد إلي أن يرن الجرس ويحين موعد الدروس ، ففعلت ، بينما عاد جدي إلى المخيم مطمئناً .

هذه ساحة المدرسة . حارة واسعة مترامية بلا حدود . لها حنفيات مياه مثل الحارة ، ومراحيض أيضاً ، لكنها كثيرة ، وقد أقيمت في مكان واحد . أحببت حارة المدرسة ، فيها التقيت أولاد حارتنا ، محمد الحلاق ، ويحيى زقوت ، وسعيد المدهون ، وصالح مرسه ، ونهاد العثامنة . وأولاد حارة البشاشته عوني الشوا ، وعبد الهادي زيدان ، ومحمود زيدان ، وعمر السنوار . وعددا آخر من أولاد معسكر الجادلة الفوقاني ، من بينهم فؤاد الحلاق وفتحي قدورة . سررت كثيرا . وغمرتني بهجة ناعمة . وأحسست بألفة دافئة ، وأنا أجول بصري على أركان المدرسة الأربعة ، كأنني في حارة كبيرة جمعت كل الحواري . صحيح أنهم لا يوزعون فسيخاً هنا ، ولكن توجد كل الحواري ، وفيها أصدقاء اللعب أيضاً . التقيت الجميع . لعبنا كثيراً . ركضنا خلف بعضنا في الساحة الترابية . تسابقنا في الوصول إلى حنفيات المياه وشربنا . تسلقنا أشجار الكينيا المحاذية للسور الشمالي . رن الجرس . أسرعنا والتحقنا بالآخرين الذين أخذوا ينتظمون في طوابير . مدرس قصير سمين ، في حجم عوني الشوا ، أخذ يزعق بعصبية لم أفهم سببها :

– الطويل ورا والقصير قُدَّام يا بَجَم إنتَ وْهُوَّ .

ركضت حتى صرت أول واحد . أوقفونا اثنين اثنين . بجانبي وقف عبد الهادي زيدان . قادونا ، بعد دقائق ، إلى الخيام على إيقاع صفارة تصفر : تُوروروت

توروروت . وقع أقدامنا الحافية يرد : تْرَم تْرَم . تورورروت توروروت . ترم ترم . . أدخلونا إلى الخيام . كل مجموعة دخلت خيمة مختلفة . دخلنا محمد وعوني وأنا الخيمة نفسها . سعيد اختفى عن ناظري . لا أعرف أية خيمة دخل .

وقف الأستاذ عند رأس الخيمة ، أمام لوح أسود وضع على حامل خشبي ، وطلب من الجميع الإنصات ليسجل الحضور . عوني همس في أذني :

– الأستاذ اسمه فايز ، أني بَعِرْفُه عشان إجيت قَبلك .

الأستاذ فايز أخذ يقرأ الأسماء ويكتب شيئاً في دفتر أمامه . بعض التلاميذ ردوا ب «نعم» ، وبعضهم قال حاضر ، أو موجود . قرأ الأستاذ اسمي : رِبعي المدهون . كسر الراء كما يفعل كثيرون ، ولم أعترض على ذلك خوفاً من أن يسارع إلى وصفي ب «البجم» . ومع أنني لم أفهم معنى تلك الكلمة حين سمعتها أول مرة من الأستاذ القصير السمين ، إلا أنني استشعرت فيها طعم مسبة كبيرة . وفيما أنا مشغول بهواجسي فاجأني عوني الشوا ومحمد الحلاق بحوار سمج . عوني أخذ يقلد نطق الأستاذ حين ناداني باسمي ، ومحمد يرد عليه مقلداً جوابي : ناعم .

غضبت من كليهما . شتمتهما ، محمد وعوني معاً ، لكني لم أجمعهما في شتيمة واحدة ، بل قلت لمحمد :

– إسكُت ياعْوَج يابو عينين ازْغار .

وقلت لعوني :

– طز فيك يا تْخين يا مْبَعبَل .

الأستاذ فايز انتهرنا صارخاً :

– سِد بوزَك يا جَحِش انت ويَّاه .

سكتنا . خبأْت في صدري غبطة سرية ، أخفيتها تحت صمت عميق كاذب . فأنا لم أخسر شيئاً بسد بوزي . ولا بشتيمة «جحش» فقد طال سد البوز والشتيمة عوني ومحمد أيضاً . غير أنهما خسرا ، بالإضافة إلى ذلك ، متعتهما في الثرثرة والسخرية مني . فهما يتكلمان طوال الوقت . ولو لم يكسر الأستاذ

الحرف الأول من اسمي ، ولو لم أمد كلمة نعم ، كما زعما ، لوجدا شيئاً آخر يسخران منه ومني ، لمجرد الثرثرة والتسلية . هكذا هما دائماً في الحارة .

وبينما كان المدرس يكتب حروف الأبجدية على اللوح ، حانت مني التفاتة إلى الخيمة المجاورة . كان طرفها مرفوعاً مثل قميص شمّر صاحبه كمّيه . وكان سعيد هناك . استغربت كيف لم ألحظ ذلك من قبل . لعلني انشغلت بسخريات عوني ومحمد . التقت عيناي بعيني سعيد عن بعد . لا بد أنه مستاء مثلي من وجودنا في خيمتين . لقد صحت توقعاتي ، ها هو يشير إليَّ بيده ، يريد أن يقول شيئاً . لعله يعرف طريقة تجمعنا في فصل واحد بعيداً عن عوني ومحمد .

قررت الذهاب إلى خيمة سعيد الأولى في أقرب فرصة ، لن أتحمل بقائي بعيداً عن سعيد . نحن صديقان منذ قسنا حرارة الأرض صيفا بأقدامنا العارية راكضين خلف فراشات ملونة .

رن الجرس . صاح الأستاذ : «فُرصةْ ربع ساعة» . وانسل خارج الخيمة . اندفعنا إلى الخارج راكضين مثل فئران مذعورة تسبقنا صرخات لا معنى لها ولا هدف . التقيت وسعيد في منتصف المسافة بين الخيمتين . عاتبني :

– ليش ما إِجيت عَ خيمتنا ، يعني عوني ومحمد أصحابك أكثر مني؟

– الأستاذ فايز هوَّ اللي ودَّاني عَ هاذيك الخيمة .

– بِدَّك تيجي ع خيمتنا ؟

– بخاف الأستاذ فايز إيدور عليّ ؟

– بلاش هبل ، فيهْ خمسين واحد في الخيمة غيرك ، بتفكره حافظ الصف كله !

ذهبنا إلى دورة المياه البعيدة ، التابعة للمدرسة الإعدادية ، مدرسة الفسيخ . بُلنا واقفين . أحب التبول وقوفاً . أستمتع بتحريك البول في كل الاتجاهات وهو مندفع مثل نافورة صغيرة . أرقبه يحفر في الرمل أشكالاً تبدو مألوفة . الآن أرقب اندفاع البول وارتطامه السريع بالحائط الأملس المقابل . أتابعه وهو يغسله من بول سابق ، دون أن يحدث خريراً كالذي يحدثه البول في مرحاض الحارة . البول في

مراحيض المدرسة يمضي منفلشاً بانسيابية نحو قناة سفلية تمتد بين زاويتي الحائط ، حيث يتجمع ويجري وقد تصاعد منه بخار خفيف ، أخذ يرتفع بطيئاً نحو السقف ناشراً رائحة خاصة ، هي مزيج من روائح بول الآخرين الذي اختلط بالرائحة المنبعثة من كرات الفونيك الأبيض المطهرة ، بصراخ الأولاد أثناء دخولهم وخروجهم .

ابتعدنا عن المراحيض ، بعد أن غسلنا أيدينا تحت الحنفيات ، وشربنا ، ومسح كل منا يديه وبوزه بطرف كم قميصه . ومسحت توصية أمي وتنبيهاتها لي بألا أفعل ذلك .

رن الجرس معلناً انتهاء الفرصة . ركضت إلى خيمتي الأولى . التقطت حقيبتي عن الأرض ، وخرجت مسرعاً نحو سعيد ، الذي انتظرني عند الطرف المواجه لخيمتنا . وسرعان ما دحشنا نفسينا وسط الجميع . تربعنا أرضاً . أمضينا اليوم كله في سعادة لا توصف ، حتى انتهاء ساعات الدوام المدرسي ، حيث غادرنا المدرسة معاً ، قبل أن نفترق عند حارة البشاشتة ، فاتجه سعيد إلى بيته ، وأكملت أنا طريقي إلى بيتنا صعوداً عبر الطريق الترابي .

١٠

مضى الوقت يمضغ الوقت ، والأيام تبتلع بعضها ، وأنا أتابع دروسي في خيمة سعيد ، عند الأستاذ «خالد رضوان» ، دون أن تعترضني عقبات أو مشاكل . تعلمت ، ألف باء ، وراس روس ، ودار دور . وكان عند شادي قرد ، وكان عند راجي فرن . حتى جاء يوم من خارج الحسابات . كان الأستاذ خالد يتنقل بين تلاميذ الصف الذين انهمكوا في نسخ كلمات كتبها على اللوح ، عندما توقف خلفي تماماً . وفاجأني بصرخة لم أتوقعها أبداً :

– قومْ ولهْ ، وقِّف ، فِزْ .

وجدت جسدي مفروداً مثل الألف ، وقلمي وكراستي ومحاتي كلها على الأرض ، رأسي على صدري ، وساقي ترتجفان .

-خليك واقف ، ما تقعد إلا لما أقول لك .

-حاضر يا أستاز .

سألني عن اسمي فأخبرته . طلب مني أن ألم أغراضي وأضعها في الحقيبة . فعلت ولحقت به إلى طاولته عند أول الخيمة . جلس خلف الطاولة . قلب أوراقاً وكشوفاً موضوعة عليها . التفت إلي يقول :

- اسمك مش موجود في الكشف .

ثم أضاف بلهجة حادة مثل شتيمة :

- روح روَّح على دارْكو ، وما تِرجَعِش ، ولا تورّيني وِجهَك الاّ ومعك أبوك ، سامع .

سقط دمعاً من عيني . بكيت . أنا لم أرتكب خطأ . أبي في المستشفى منذ أكثر من ستة شهور . تسمرت في مكاني ، لا أدري ما أفعل أو أقول . انتهرني مجدداً :

- بقولْ لكْ روح روِّح وجيب وليْ أمرك ؟

لملمت ما لدي من شجاعة تناثرت ، ومرَّرت ثلاث كلمات من بين دموعي الخائفة :

- أبويا في المستشفى .

- جيب عمَّك ، جِدّك ، خالك ، قِرد ، عَفريت يِحِمْلَك ، أيْ حدا من قرايبك ، إفهِمت ، روح إنصْرِف !

انصرفت باكياً ، دون أن أعرف السبب .

١١

اصطحبني جدي صبيحة اليوم التالي إلى غرفة الناظر في المدرسة ، بعد تأنيب وتوبيخ مزدوج ، تلقيته منه ومن والدتي في البيت ، علمني أن الانتقال من فصل إلى آخر لا يجوز دون إذن . في المدرسة وافق الناظر على إعادة تسجيلي بعد أن مسح وجه جدي بكلمات تركته مبللاً بالخجل والحياء . أشفقت على

جدي ، ووعدته بأن لا أغادر الفصل هذه المرة ، لا عند سعيد ولا عند غيره . ومنذ ذلك التاريخ ، أكتوبر ١٩٥٢ ، انتظمت في الدراسة . خرجت من مرحلتي الفسيخ وتبديل الخيام ، ودخلت مرحلة زيت السمك ، ومبيدات الحشرات ، التي صارت جزءاً من حياتنا اليومية .

١٢

جاءت أديبة ، شقراء نمشاء جميلة . قالت عمتي ، مراراً ، أنها تشبه جدتها لأبيها : «الخالِق الناطِق إمِّي ، شقرا ونَمشة ، لونْها لون المِشمِش ، بقت مشمشية بِتطَيُّر العقِل الله . . يرحمها» .

المشمشية جاءت تضحك . ما أن رأتني حتى انفجرت ضاحكة . اغتظت . وصرخت :

– عَ ايش بْتِضحَكي ، شايفاني كراكوز قُدّامِك .

أشارت بيدها إلى رأسي :

– زي لِختياريّه . ما شفت حالك في لمراية .

– أصلاً إحنا ما عنّاش مراية . .بعدين هذا دي .دي .تي . عشان يموِّت القمل والبراغيث .

– حط كازع راسك وتشمّس .

– البنات اللي بيعملن هيك ، عشان شعرهِن طويل بتخبّا فيهْ القمل والسيبان ، إحنا ملناش شعر ، وروسنا ملْط ع الزيرو .

شبنا في الصبا المبكر . نظفتنا وكالة غوث اللاجئين من القمل والبراغيث ، فشيَّبتنا . يأتي رجال دائرة الصحة إلى مدرستنا مرّة كل أسبوع . يركنون أدواتهم الخيفة وسط الساحة ، على مقربة من الخيمة الأولى . يُخرجنا المدرسون في طابور للرش بمبيد الحشرات . يوزعون المسحوق الأبيض بالتساوي . لا فرق بين وسخ ونظيف . بين رأس استوطنها القمل والصئبان ، وأخرى حليقة نظيفة ملساء مثل سطح بطيخة . الكل يطارده الغبار الناعم مثل حشرة . يأتيني الدور . يمد الرجل

ماسورة مضخّة الرش الطويلة داخل كمّي ، ويضغط مكبسها عدّة مرات . يعفُط المسحوق الأبيض مندفعاً بقوة من الماسورة الرفيعة ، وينتشر حول ذراعي وتحت إبطي ، ومعه تنتشر الرائحة التي لا تشبه إلا نفسها . يكرر الرجل العملية مع الكم الآخر ، ثم الصدر . يطلب مني أن أحني رأسي ، أحنيه . يدخل الماسورة من ياقة قميصي ، خلف رقبتي ، ويكبس بحماس كأنه يلاحق بعوضة . ينتهي ، أو هكذا أظن . جسدي يتطهر . لن تقربه الحشرات . لا قمل ولا صئبان ولا براغيث لمدة أسبوع . أرفع رأسي ، وأفرد قامتي ، أستعد للإفلات ، يجذبني من رقبتي :

– ما خلّصتش ، إرجع وطّي راسك ولَهْ .

أفعل ، أحني رأسي مجدداً وأغمض عيني . يعفر الرجل رأسي بالمسحوق الأبيض ، ينتهي وينادي :

– اللي بَعدو .

أركض عائداً إلى خيمة الفصل ، تلاحقني سحابة من المسحوق الأبيض . أجلس بين الجالسين مثل شجيرات قطن صغيرة . وعند انتهاء اليوم الدراسي نسارع إلى نفض أجسادنا ورؤوسنا .

فعلت ذلك أمام أديبة . نظفت بقايا ال دي .دي .تي . بكفي لكي أوقف ضحكاتها الهازئة .

– خَلصْ راحْ ، عَجبِك ؟

صغرت ضحكتها حتى حدود الابتسام :

– طيِّب يلا نِلعَب .

أتمنع :

– مُش هَلقيت .

وأخرج إلى الحارة راكضاً .

***

١٧ آذار/ مارس ١٩٥٤

صباح يوم نصف صيفي ، شمسه نصف كسولة ، جمع أمي وامرأة عمي دلول ، تتفيآن تحت الحائط وتقرصان العجين . وجاءت أديبة ، خرجت من الغرفة الوسطى راكضة وبيدها عروس من قماش لتدخل بين صفوف الكلام الذي أخذت المرأتان ترصانه فوق بعضه مثلما ترصان العجين . جلست على مقربة من والدتها ، وأخذت تغير ملابس لعبتها . أنا واصلت اللعب بطائرة ورقية . أقذف بها في الهواء ، تندفع في مدار نصف دائري وتعود إليّ فالتقطها . سقطت هذه المرّة قرب أديبة . التقطتها وجلست بجانبها . حدثتني عن لعبتها ، قالت أنها ستصنع لها جرزاية من الصوف للشتاء القادم . ضحكت . وقلت لها :

- الشتا قرّب يخلص .

وأضفت مازحاً :

-إعملي لها بلوزة من غير كمام .

ردت بحزم :

- عيب .

كانت دلول ، في تلك اللحظة تنقل بصرها بيننا ، تملأ المسافة بين شفتيها ، الرقيقتين مثل خيوط الحرير ، وبيننا بابتسامة بدت لي محيرة . وضعت قرص عجين على الفرش الخشبي أمامها ، وعادت تقلب نظراتها بيني وبين أديبة . خفضت بصري وتظاهرت بالانشغال بطائرتي .

قالت دلول تخاطب أمي وقد تركت نصف عين علينا :

- ما أحلاهم وهمّ بيلعبو مع بعظ .

برمت أمي شفتيها في حركة ذات مغزى :

- بَعِدهُم ازْغار يا دلول ، ولّما يكبرو بيفرِجها الله .

لوّنت دلول كلماتها بشيء من اللؤم :

- بنت عمُّه وما رحْ يلاقي أحسن منها .

نهضت أديبة . حملت لعبتها ودخلت غرفة نوم والديها . اقتطعت والدتي عجينة ، كورتها وألقت بها على الفرش بعصبية خفيفة :

-أديبة أكبر من ربعي بكثير . . . أديبة وِلدَت وأني حامل في ربعي في نص السادس !

دلول صحّحت لها سريعاً بحدة :

- لأْ وانت سادقة ، في أواخر السابع يا سِلِفتي . وبدك الدوغري والمزبوط ، إنتِ وْلدْتي بعدي بستة وثلاثين يوم بالتمام والكمال .

سكتت أمي وابتلعت هزيمتها . تضعف أمي دائماً أمام حجج دلول . وتردد ، وأسمعها أحيانا : دلول متعلمة ودرست في الجدل للصف الرابع . الحق على أبوياً اللي ما علمنيش . صرخ فيّ لما طلبت منه أروح ع المدرسة وأني زغيرة : اقعدي وانطزي يا بنت . . . أني ما عنديش بنات تروح ع المدارس .

تلفتت إليّ مستجيرة بي :

- سامع يمّه ، سامع ، أديبة أكبر منك بستة وثلاثين يوم .

لم أعلق ، رغم ما في تلك الحقيقة من إزعاج لي ، داريته بإقناع نفسي بأنني أطول من أديبة .

١٣

كبرت . وكبرت معي حقيقة أن أديبة تكبرني بستة وثلاثين يوماً ، وأن لديها شهادة ميلاد ، بينما لا أملك أنا شهادة ، شهادتي أضاعها والدي ، ذابت في ازدحام الرحيل ، وتلاطم أمواج الخوف .

أبحث عن تاريخ ميلادي في تاريخ ميلاد أديبة . أغربل الأيام وأدقق بين فواصلها ، ولا أجدني . لا لسان أمي ولا لسان امرأة عمي يؤكدان الحقيقة . الحقيقة ضاعت مع الشهادة . متى ولدت إذن ؟ أبي لم يحفظ تاريخ ميلادي . اطمأن إلى شهادة الميلاد ، لكنه أضاعها . أمي لا من يعتب عليها ، فهي لا تفك حرفاً ولا تربطه بحرف ، ولا تعرف تاريخ ميلادها هي أصلاً . تعرف أمي الوقت اللازم لكي يخمر العجين . تحسب عدد الأرغفة التي يمكن الحصول عليها من شوال من الدقيق . تحدد متى يفقس بيض الدجاجة . تعد الأيام ، وتنتظر حتى

تسمع صوت أول كتكوت يدق بمنقاره جدار البيضة ، تتأمله وهو يكسر الجدار الكلسي ويطل برأسه الصغير ، تفرح إذ تكون أول من رآها . تحفظ أمي موعد تسلم تموين الوكالة ، وكميات الرز والسكر والطحين والفول الناشف المخصصة لنا كل أسبوعين . تعرف أهمية المرمية واليانسون والبابونج . تعتقد أن بول الأطفال يفيد في التخفيف من أثر الحصبة إذا نُقطت قطرات منه في العينين ، لكنها لا تحسب التواريخ . أضيع أنا في حساباتها وأشكال معرفتها . أشعر بأنني مولود خارج الزمن . أتحسس جسدي ، أتلمس روحي ، أعثر عليَّ ، أجدني في وحام أمي ، الذي يؤكد رحلة حملها بي في بطنها طيلة تسعة أشهر . أعرف وحام أمي . يشبه كبد خروف ، كتلة فاتحة اللون التصقت بخاصرتي اليسرى ، هي من أثر هجوم وحمي على أمي في ليلة قاسية . منتصف تلك الليلة ، التي تقارب الليلة السبعين من ليالي حملها ، أيقظت لطيفة زوجها خليل من نومه قرابة منتصف الليل ، وطلبت منه أن يحضر لها كبد خروف مشوي . استيقظ خليل قلقا غاضبا كعادته ، ولهذا لا أستبعد أن يكون زعَّق بصوت أفزع الجيران ، طالباً من زوجته النوم والكف عن التخريف ، وربما قال لها : «كبدة خروف في نص الليل يا مرة ، ومشويَّة كمان . نامي . نامي يا مرة شَوي اللي يِشوي جِلدك على عظمِك انشالله» . طبعا أمي نامت . أستطيع أن أتخيلها وقد برمت شفتيها الصغيرتين ، وأدارت وجهها إلى الجهة الأخرى . أغلقت عينيها ، أولاً ، ثم منخريها على رائحة الشواء التي هبت على أنفها بقوة وحام ، هو الأول في حياتها .

قالت أُمي لدلّول ذات مساء آنس : لَو جاب لي خليل اللي نِفسي فيهْ يا دلّول هذيك الليلة ، كان ما طِلعَتش الوحمة عَ جِلد الصبي .

١٤

تشرين أول / اكتوبر ١٩٥٤

جاءت شقيقتاي دفعة واحدة . بدلاً من واحدة صار لي شقيقتان . أمي وضعت ، بتاريخ ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٤ توأمين في مستوصف الأونروا ،

الذي لا يبعد أكثر من ثلاثمائة متر عن بيتنا . والجاور لمسجد الخيم ، حيث يؤذن الشيخ محمد أبو العظم ، لص الدجاج ، الذي هداه الله . تاب وصار شيخاً ، يؤذن ، ويؤم في المصلين أحياناً .

جاءت «أم رمضان» الداية . وقفت عند زاوية بيتنا الغربية . أطلت برأسها من فوق الحائط الواطئ . صاحت تنادى أبي . عندما خرج من الغرفة ورأته فاجأته بسؤال :

- بدك بنت واللا صبي يا بو ربعي .

رد أبي :

- بدي بنت يا أم رمظان ، بس اللي بيجيبه الله منيح .

هتفت :

- أجاك ثنتين ، توم بنات يا بو ربعي .

وسكتت . . . ولم تبارك له ، خافت من ردة فعل سلبية تصدر عنه .

ابتسم أبي ، ونقل ابتسامته إلى وجه أم رمضان وسألها معاتباً :

- طب مش تباركي لي يا أم رمظان .

- ألف مبروك . . . والله خفت تكون ازْعِلت عشان توم بنات ، مانت عارف في ناس . . .

قاطعها مازحاً :

- كبرت حصتنا من التموين يا أم رمظان ، هالشتوية بيعطونا ثلاث بطانيات بدل ثنتين ، وغرفتين نوم بدل واحده ، صرنا عيلة بست نفار .

عندما تقررت عودة أمي إلى البيت ، ذهبت إليها في المستوصف حيث عدنا معاً . أمي حملت إحدى التوأمين ، أنا حملت الأخرى .

نوّر وجه أبي بالبهجة عندما رآنا داخلين نحمل له طفلتين جميلتين . سارع يتأملهما بفرح كبير ، يقلب نظره بينهما ، ويقلب في ذهنه قاموس أسمائه المليء بالراءات . صفن قليلاً وفكر : هذي شقرا . هذي حنطية . عنين هذي زرقا ، واخذاهم من سيدها أبو إمها . عينين هذي سوداء زي عينين إمها . هذه زي

خالتها هنية . هذه زي إمها لطيفة ثم هتف :

– هذي زي راسم ، رح نسميها رسمية . هذه زي ربعي بنسميها رحاب ، لأنو ربعية بيزبطش مش حلو .

وضحكنا جميع منَ في البيت ممن تحلقوا حول أمي وأبي يباركون له ولأمي الطفلتين .

اقتسمت وأمي مسؤولية تربية التوأمين ، هي تولت رسمية ، وأنا رحاب . تنام رسمية في سرير حديدي ، تنام رحاب في أرجوحة معلقة بأربعة حبال في سقف الغرفة ، بين الشباك وسرير أبي . تغيب أمي في السوق . أهز مهد الشقيقتين . ربيت رحاب سبعة شهور كاملة . علمتني أمي رعاية طفلة رضيعة ، خطوة خطوة . قلدتها في كل شيء . أرضعت رحاب من زجاجة الحليب . فككت قماطتها . غيرت لها ملابسها . أعدت لفها في القماطة . فعلت ذلك عشرات المرات ، في حضور أمي وفي غيابها . أخذت رحاب في زياراتنا للأقارب . حملتها في الزيارات الروتينية للمستوصف الصحي ، لقياس وزنها ، ولإعطائها لقاحات الأطفال وخلافه . لاعبتها ، لاغيتها . هدهدتها . أخرجتها من أرجوحتها . أنمتها في الأرجوحة . فعلت كل ما تفعله الأم حقاً .

فجأة ، ماتت رسمية . شقيقتي الوحيدة التي كانت ستكسو سماء أسرتنا بزرقة عينيها . مرضت ، سخنت ، ماتت . سرقها مرض أطفال سريع . سحبها من بيننا ليضعوها في نصف جرة فخارية ، ويدفنوها كما دفنوا رفقة ، قبل أربع سنوات .

١٥

أواسط العام ١٩٥٨ ، توفى عمي محمود بعد إصابته بمرض الزلال . لم يمهله المرض أكثر من أربعة شهور ، قضاها في مستشفى الشفاء في غزة . مات في الأربعين من عمره ، تاركاً خلفه بناته الثلاث ، أديبة ، وسعاد ، وحمدية ، وابنه الوحيد ، الصغير حمدي .

بعد وفاة عمي صادف أن انتقل جارنا ، عيد رمضان ، للسكن في مكان آخر ،

حيث تسلم بيتاً من غرفتين . فجاءتنا الفرصة لنتسلم غرفة إضافية . ضاقت بنا الغرفة الواحدة ، وأصبحت مستحيلة ، فعلاً ، منذ وضعت أمي التوأمين . وحتى بعد وفاة رسمية ، فقد بقينا ننام في الغرفة خمسة أشخاص .

رحيل جارنا عيد جاء نعمة علينا وبركة . حصلنا على إذن دائرة الإسكان في الوكالة ، بتسلم غرفة جارنا ، وأعدنا تقسيم البيت مجدداً : الغرفتان الغربيتان لبيت عمي . الشرقيتان لنا . عشنا فترة قصيرة في بيت من أربع غرف . أرملة عمي دلول وأمها ، الحاجة رقية ، قررتا ، لسبب ما لا أعرفه ، إقامة جدار فاصل بيننا . أمي لم تعترض . عمتي لم تبد ارتياحاً . جدي قال : خليهن ، دلول وإمها يسوّن اللي بدهن إياه ، بيتهن وهنٌ حرات فيه . صار بيننا جدار فاصل . صار لكل منا مدخله الخاص إلى بيته . صرت ، أنا وأديبة ، أولاد عم وجيران . صرنا ننادي على بعضنا إذا رغبنا في اللقاء ، أو مراجعة دروسنا معاً . صرنا نستدير من الباب إلى الباب ، إذا احتاج أحدنا الآخر .

بدأنا نكبر منفصلين . . .

المقطوعة الثانية
ضحى أحمر
أسطورة شهداء

إلى الحاجة أم يوسف زقوت

التي بكتهم ثلاثة في الضحى العالي

ويأتيكم وقت ينفلت من حسابات الزمن . يهرب من مكانته بين مراحل العمر ، وتكون مذبحة . في الضحى العالي تكون مذبحة . في الحادية عشرة من عمر ربعي ، في العام الذي يبدو مثل خطأ تحاول ذاكرته استبعاده ، تقع مذبحة . هو العام المتأرجح بين مراحل طفولته وعلامات البلوغ . عام تكثف في ساعتين من عمر مدينة تقاتل خلف وعد الرب ثم تستسلم . تمدد جسدها بين قرية بني سهيلة وشاطئ البحر ، تستريح من القتال ، ولا تستريح . إذ يذبح أبناؤكم بسيف عمومتكم من نسل أبرام ويعقوب . وتنام مدينتكم بين جثث ضحاياها . ليلتين تنام مدينتكم بين جثث الضحايا . ويموت الصباح . فجركم تتمنون لو لم تروه ، ووعد الرب لا تخالفون . ولا تكون ظهيرة . ويكون زمن يدير ظهره للزمن . وتمشي خيوط دمكم خارج شرايين المدينة . ويكون ليل . مائة وأربعة وعشرون يوماً يكون ليل . وفي الخامس والعشرين ، بعد المائة ، يأتيكم نهار . ويكون سابعاً بين أيام الشهر .

نفترش الخوف ونتوسد القلق . نغفو على أصوات رعد من قذائف ، ونفيق على

مطر من رصاص ، وعلى أنين المدينة يتصاعد مع خيوط فجرها ينتشر في سماء ، تتسرب من فتحة الباب المقابل ، كالحة معفرة بروائح البارود . أمي ، إلى جواري ، تشد منديلها إلى رأسها وتتمتم : «قطيعة تقطع اليهود ويومهم . أخذو لبلاد ولاحقينًا لهان كمان» . أم محمد الشريف مشدودة إلى مؤخرتها الثقيلة في الفراش ، تهز رأساً معلقاً بين كتفي جسد دائخ في حلقة زار . صوت الرصاص يقترب . أخي راسم يطلب شاياً . جدي المتكور حول جسده النحيل ، المنحني في الزاوية الشرقية فوق لفافة تبغ ، ينتهره : «نام يا صبي ، الدنيا بعدها ليل ، مش سامع الطخ اللي داير في البلد» . راسم يناكفه بكلمات بريئة : «الدنيا مش ليل ، طلع النهار من طيز لحمار» . صوت الرصاص يزداد اقتراباً . «فتحي القريناوي» يقترح أن يستطلع الأمر : «خلينا نشوف اللي صاير يا جماعة الخير» . عمتي تمنعه : «أُقعد يا فتحي أني اللي رح أشوف» . ثم تنهض وتخطو نحو الباب . راسم يؤكد مطلبه صراحة : «بدّي شاي» . عمتي ، التي نهضت واستقامت قامتها تهمهم وتتمتم :

« يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم» . وترفع صوتها وكفيها بالدعاء «استر يا ستار واحفظ البشر والديار» . يتقطع دعاؤها على وقع الرصاص ويستحيل شظايا حروف وتتمزق في فمها الكلمات . محمد الشريف خايف : «هالطخ كله مش لله» . خديجة تبحث عن النجاة لزوجها في السماء : «خللي اعتمادك على الله يا محمد ، ما بيصير إلاّ اللي كتبو علينا» . «والنعم بالله» . يرد الجميع بصوت واحد كمصلين استقاموا خلف إمامهم . تخطو عمتي نحو باب الغرفة بتثاقل . أخي لا ينسى طلبه ولا يتنازل عنه ويصرخ : «بدي شاااااااااااي» . أمي تحاول إسكات صراخه بصراخها : «من وين أجيب لك شاي هالقيت ، ونار جهنم نازلة ع روسنا ؟!» . عمتي تحاول وضع حد للمشكلة : حطّي له تلقيمة شاي في كباية ميّه يا لطيفة وحركيها خلّيه يسكت» . راسم يحتج : «أني بدّي شاي مش ميّه صفرا» . «شاي اللي يشوي عظمك على هالصبح» . تبرطم أمي وهي تحاول النهوض متكئة على كفها اليمنى . رصاص غزير ينطلق في الحارة يشل حركتها .

جسدها يتخشب للحظات محنياً قبل أن تسقط على مؤخرتها . عمتي تصرخ بصوت راعش وهي تمد رأسها خارج الباب : «باينها البلد سقطت يا جماعة» . يطفئ جدي سيجارته في صحن فخاري مليء بالتراب ، وضع إلى جابنيه . يلم جسده النحيل وينهض به : «اهدي يا حاجة ، بلا ما تفزعي لولاد» . يلتفت إلينا أنا وأخي : «ما فيش اشي يا سيدي ما تخافوش» . محمد الشريف يمسك بذراع خديجة ويحثها على النهوض والهرب . أمه تحمل رأسها بين كفيها وتهتف : «وين بدك تروح يا بنيّ ، والبلد كلها يهود ؟» . عمتي تعترضه بكلمات قاطعة : «خليك هان يا محمد ليطخوك ع الباب» . يوقفه تحذير عمتي ويخشّب قدميه . تتشبث خديجة بذراعه : «طوّل بالك يا زلمة لنشوف ايش اللي صاير» . «يا ولدي خليك قاعد يا بنعيش سوا يا بنموت سوا» . يقول أبو محمد ، ويشد عُقاله إلى رأسه فوق الكوفية . تجتاز عمتي عتبة الباب إلى الخارج . تخترق نظراتها الفتحات الطولية أعلى سور البيت وتستدير مولولة : «اليهود في الحارة وحوالين البيت يا جماعه ، خلِّينا نسلم حالنا قبل ما يذبحونا في قلب الدار» . تلتقط أمي رحاب الصغيرة من على الفراش وتلقي بها على صدرها . يتدافع الجميع عبر الباب هلعين . أقفز من مكاني والحق بأمي . ويلحق راسم بعمتي التي تصيح بي بصوت آمر وقد أصبح الجميع في قاع الدار : «هات العصايا اللي هناك يا عمتي» . أركض وأحضرها . وقع أقدام وصراخ أطفال وصيحات جنود تتخالط خلف سور البيت . ترفع عمتي منديلها عن رأسها . تشقه نصفين وسط اندهاش الجميع الذين أخذوا يتدافعون نحو الباب الخارجي العريض . تعيد عمتي نصف المنديل إلى رأسها ، وتلتقط طرفه بين أسنانها . تخطف العصا من يدي وتعلق نصف المنديل على أحد طرفيها . تمسك العصا من طرفها الثاني وترفعها عالياً فوق رأسها . يزحف الجميع تحت الراية مثل موج يلاطم شاطئ تعاسته . جدي يحاذي عمتي ويهمس ممتدحاً حكمتها في الدعوة إلى الاستسلام : «خير ما فعلتي يا حاجة . إذا استسلمنا ما بصير اشي ، لأنه ، دولياً ، ممنوع يئذو اللي بيرفع الراية البيظا» . ويصدق الآخرون ما قاله جدي ، ولا بد أن أحدهم يقول

الآن : يا عمي هذي خبرة أبو محمود من أيام لنجليز . «يعني رح نسلّم حالنا لليهود» . أقول لنفسي . أموت خوفاً أنا ونفسي . أختبئ في كلمات جدي ، وأطمئن نفسي : «إحنا رافعين راية بيظا» . أندس بين جسدي أمي وعمتي . الراية تخفق عاليا ، وقلوبنا تدق لها الطبول حزينة . عند الباب يفاجئنا ثلاثة جنود بأسلحتهم الرشاشة مرفوعة في وجوهنا . يتخالط صراخنا بتهديداتهم الهستيرية . تتقافز أذرعنا في الهواء معلنة استسلاماً لا ارادياً . أمي لا تقوى على الاستسلام لأن شقيقتي ملأت الصراخ صراخاً وقد تعلقت برقبتها . عمتي تستسلم بذراع واحدة ، وتعلن بالأخرى استسلاماً رسمياً اتفقنا عليه . جنديان ينتزعان محمد وفتحي من ذراعيهما . خديجة الفزعة تضم صراخها إلى الصراخ فيطفو فوق صوت الرصاص . الجنديان يقودان الشابين بعيداً . الثالث يسوقنا بقوة وعصبية نحو الشارع الرئيسي . سيل من البشر من كل الأعمار يتدفق من الزوايا والطرقات الجانبية ويصب في نهر بشري يندفع نحو المجهول .

يمضي ركبنا المستسلم مهرولاً ، تقوده راية عمتي ، وقد نقص اثنان ، محمد والقريناوي . أمسك أنا بذيل ثوب عمتي ، أرتجف خوفاً فيرتعش الثوب بين أصابعي . راسم يمسك بذيل ثوب أمي ، يركض في خطوه الصغير . تنعطف يميناً . نعبر الطريق الترابي خلف بقالة شموط . يندفع نحونا جندي لا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره ، ظهر فجأة من خلف دكان محمد أبو العلا ، في الجهة المقابلة . يدفع الجندي عمتي بكعب رشاش صغير يحمله ، ويصرخ في وجهها :

« نزّل نزّل خمارة» . تسقط الراية من يد عمتي . تدوس أقدامنا راية استسلامنا . أشعر بأننا سنموت بلا راية تحمي رؤوسنا ، أرتعب . نمر من خلف مقهى « أبو اسماعين» . نقتفي خطى الآخرين . نغادر الزقاق الخلفي الى الشارع العام ، شارع البحر . نواجه عدداً كبيراً من الجنود : «يا اللا يا اللا إمشي أرابيم ملوخلوخيم» . تتعثر قدما أم محمد . يسندها زوجها ويحول دون سقوطها : «إشي بيعمي البصيرة» ، تقول . نواصل سيرنا الذي لا يحتاج إلى أوامر لكي يسير . نجتاز دكان المصور شموط نزولاً باتجاه حارة الجايلة . جندي مسلح بهراوة

غليظة يلوح لنا من بعيد ، على مدخل الحارة المقابلة لحارة الجايدة . حين نصل يبدأ في توجيه الجموع بعصاه . نتبع اشارات العصا تدخلنا الحارة مثل دجاج مذعور . في الحارة ثمة عشرات الأطفال والنساء والرجال من كبار السن سبقونا إلى المكان ، غالبيتهم من عائلات مقيمة في حارتي الآغا والجايدة المتقابلتين . نندس تجمعاً وسط التجمع . نسمع ثرثراته الهامسة . نرتاح قليلاً بين الثرثرة والهمس . بعد لحظات نصبح طرفاً في الهمس . نغرق في تفاصيل الكلام ، ونسمع عن دم سال في شوارع المدينة ، لحظة استيقاظنا من النوم الذي لم ننمه .

***

اقتحمت القوات الإسرائيلية مدينة خان يونس من ثلاثة محاور : وحدات مدرعة وكتائب مشاة ، اجتازت تقاطع الطرق الرئيسي ، المعروف بالدوار شرق المدينة . معركة قصيرة دارت هناك مع قوات «الحرس الوطني الفلسطيني» ، تساندها وحدات من الجيش المصري ، تجمعت بعد سقوط مدينتي غزة ، ورفح ، انتهت بتراجع القوات المدافعة ، وانسحابها نحو داخل المدينة . وحدات آلية ، وأخرى من المشاة ، تقدمت من المدخل الشمالي للمدينة ، اجتازت مزلقان القرارة ، وعبرت الطريق الترابي عند الجميزات السبع السبيل ، ومرت بالبيارات والمزارع الواقعة شمال المدينة ، مروراً بأراضي السطلان - آل الأسطل- وصولا الى مدرسة خان يونس الاعدادية للبنين .

قوات إسرائيلية ثالثة زحفت باتجاه المدينة من محورها الجنوبي لجهة رفح . اجتازت حارات شعث والنجار والبيوك ، وتقدمت نحو وسط المدينة الذي أصبح مركزاً لتجمع بقايا قوات «الحرس الوطني الفلسطيني» ، وفلول الجيش المصري المنسحبة من مواقعها على المحاور الثلاثة ، أمام زحف القوات الإسرائيلية المتفوقة .

غيرت القوات المدافعة عن المدينة تكتيكاتها القتالية ، وتحولت الى مجموعات عصابية ، توزعت في الأزقة المتفرعة من وسط المدينة ، ابتداءً من كراج الباصات

شرقاً وحتى مقهى خان يونس . لكن مقاومتها على المحاور الجديدة لم تستمر ، وإن أخرت تقدم الإسرائيليين بعض الوقت . وفي النهاية أدركت استحالة وقف القوات الإسرائيلية الزاحفة ، فقررت تكبيدها خسائر . في تلك اللحظة ولدت أسطورة . خارج مألوف الحكايات ولدت . أسطورة لم تكتب ولم تحكى ، ولم يُسمع بها من قبل . ومثل كل أسطورة صار لها بطل ، قيل أن اسمه محمد أبو الكاس ، كلما ذكر اسمه خرج من بين المنصتين لحكايته من يقول «اسمه على اسم النبي» . وهتف السامعون بصوت واحد «عليه الصلاة والسلام» . وقيل أنه جندي مصري شجاع لم يلق بسلاحه في الطريق ، ولم يختبىء في ملابس مدنية ، أو يهرب كما فعل الحاكم العسكري ، الذي ترك المدينة تغرق في دمها وهرب على متن زورق أبحر به ليلاً باتجاه شواطئ بور سعيد . وقيل ، أيضا ، أن أبا الكاس فدائي قديم من قرية حمامة ينتمي إلى فدائيي مصطفى حافظ ، الذين عللت إسرائيل مشاركتها في العدوان الثلاثي للانتقام منهم ووضع حد لنشاطاتهم ، مع أنها قتلت زعيمهم مصطفى حافظ بطرد بريدي ملغوم قبل عام . ثمة أبو الكاس إذن . من أين جاء ؟ لم يعد السؤال مهماً ، فأبطال الأساطير مثل الشهداء يتشابهون . وهكذا أصبح أهم ما قيل يدور حول تشكل الأسطورة نفسها في الشارع العام ، وكيف أن الرواة تناقلوها كما لو أنها وقعت قبل آلاف السنين ، وهذا ما أضفى عليها الطابع الأسطوري ، مع أنها ولدت هذا الصباح .

صعد أبو الكاس وعدد من رفاقه الى الطوابق الثلاثة في عمارة أبو دقة ، وبعضهم إلى السطح ، وقد حملوا معهم كميات كبيرة من الذخيرة والقنابل اليدوية ، وانتظروا تقدم طلائع القوة الاسرائيلية ، التي نجحت في اجتياز كراج السيارات العمومية ، والمسجد السني ، وبدأت تقترب من العمارة . وران على المنطقة صمت غير مألوف . وبدت المنطقة مهجورة تماماً إلا من وقع خفيف لأقدام جنود يقتربون . وظن المحتلون أن المدينة ماتت . وقدرت قيادتهم أنها لفظت آخر أنفاسها مع قتل آخر مقاتليها عند موقف الباصات العمومي . ورنم أحدهم «هـ ا . . ف ا . . . نا غي . .وتزايدت الترانيم . هافا نغيلا هافا وتحول وسط المدينة أمام

عمارة أبو دقة وأسفلها إلى ميدان احتفلت فيه القوات الإسرائيلية بانتصارها . وأخذت حناجر الجنود تردد : هافا . . هافا نغيلا . . وأقدامهم تضرب الأرض إذلالاً لها وتذكيراً بإخضاعها والسيطرة عليها : نغيلا هافا . . . نغيلا هافا . وقيل أن الإسرائيليين غنوا حتى دخلوا في الإيقاع ، وتغطوا بالكلمات . أخذتهم النشوة فصاروا إيقاعاً مغطى بكلمات . . . نغيلا هافا . . . نغيلا هافا . وقرر أبو الكاس أن يمحو بالبارود الكلمات . سمع صوت أمه قادماً من بعيد : ريحة البارود يمّه مثل ريحة البخور . وريحة البخور بتطرد الشياطين . واليهود يمّة ظالمين ، والظالم شيطان . أصدر أوامره لرفاقه بإلقاء القنابل اليدوية المتوفرة على طلائع القوة الاسرائيلية . وبَركنت الساحة بأصوات انفجارات خالطتها كلماتُ نشيد إنطلقت من مذياع يحمله أحد أفراد مجموعة أبو الكاس . وردد الشباب ومعهم أبو الكاس النشيد حتى أمتلأت الساحة بالكلمات ، التي تطاير بعضها وشوهد يومض في السماء الواسعة :

الله أكبر فوق كيد المعتدي
الله للمظلوم خير مؤيدي
أنا باليقين والسلاح سأفتدي
بلدي ونور الحق يسطع في يدي
قولو معي قولو معي
الله الله الله أكبر الله فوق المعتدي

وانهمر الرصاص من رشاشات أبو الكاس ورفاقه ، يمطر بغزارة المحتفلين الجنود . ونشبت معركة لم يحسب أحد مدتها . وانتهت بانتهاء ذخيرة أفراد المجموعة . وسقط أبو الكاس في الشرفة . وجرح عدد من رفاقه . وصعد جنود إسرئيليون إلى طوابق العمارة . وأخذوا يمشطونها طابقاً طابقاً ، يطلقون النارعلى من يصادفونه حياً أو ميتاً . وقتلوا الشهداء فماتوا مرتين . وأصيب أبو الكاس إصابات خطيرة ، لكنه

لم يمت . ألقوا بجثته حيا من الطابق الثالث ، وكذا فعلوا بآخرين من رفاقه وبعضهم كان حياً . وسال دم غزيرعلى أرض الطريق ، وصنع دائرة مثل قرص شمس الأصيل . وقيل أن الدائرة سوف تعود للظهور في مثل هذا الصباح ، من كل عام .

هكذا مات أبو الكاس ، وهكذا صار موته حكاية وصار هو أسطورة . وأحب الناس الحكاية وتناقلوا التفاصيل . هاربون من وسط المدينة جاءوا بالتفاصيل . نثروها في الشوارع وفوق أسطح البيوت ، مثل الرز والملح في الأفراح نثروها . رفرفت أرواح في سماء المدينة ، حامت فوق رؤوس الذين جمعهم الإسرائيليون في شارع قبالة حارة الجايدة . رأيت عمتي تتلفت حواليها منبهرة ، كأن روحاً تحوم حولها . سمعتها تردد «لو عنا عشرة زي أبو الكاس ، لو عنا عشرة زي أبو الكاس» . حسبتها تهذي ، مع أنها لا تهذي ، بل كلامها ، مثل كلام الناس ، اختلط بالكلام ، كما تختلط الجثث بالأرواح ، ولا نعرف أيها يحكي : الجثث أم الأرواح . سمعت امرأة ، ملفعة بقنعتها ، تهمس بكلام حزين فيه نكهة الشعر . كأنها تحزن شعراً . لم أحفظه ، لأن همسها ليس شعراً لكي أحفظه ، لكنه يشبه الشعر . أعرف الشعر . تعلمت في المدرسة الإعدادية بعضه . كتبته مرات عدة على اللوح الأسود . في آخر درس للخط ، كتبت بيت أبي القاسم الشابي :

اذا الشـــعب يومـــاً أراد الحـــيـــاة

فـــلا بد أن يســـتـــجـــيب القـــدر

مدرس اللغة العربية ، الأستاذ محمد الأسطل ، خاطب تلاميذ الفصل قائلاً : «انسخوا البيت ، في دفاتركم عشر مرات . تعلّموا كيف خطٌّ رِبْعي – الأستاذ محمد يصر دائماً على كسر رائي وتسكين بائي – بهالجمال من مّرة واحدة . الخط العربي جميل . تذوقوا الجمال . ربعي يتذوقه» . هكذا قال ، لأن الخط شعر أيضاً . تخط قوافيه الأصابع . وتنطلق من كلماته موسيقى . نسمعها حين نخط حروف الكلام . صاحبة الصوت قالت كلاماً يبث موسيقى . حسبتها شاعرة .

تكلمت المرأة القابعة الى جواري وأفزعتني . فالذي انطلق من داخل القنعة السوداء صوت رجل . قال الصوت : «قتلوا حافظ البطة . وبيقولو إنه إيد الأستاذ عبد الحميد طقش راحت . ومن ساعة ما دخلو البلد وهم عمالين يقتلو الشباب من أربعتعشر سنة لحد خمسة وأربعين . اللي بيلاقوه بيطخوه ع طول» . لا يهذي . صوت الرجل الخارج من قنعة امرأة لا يهذي . مثل عمتي لا يهذي ، لأنني سأتعرف إلى الأستاذ عبد الحميد طقش وهو بذراع واحدة . هو شاعر . ماذا لدى الشاعر لكي يطلقوا عليه النار سوى الكلمات . اطلقوا النار على ذراعه التي تحمل يده ، التي تحتفظ بأصابع تعرف كيف تخط حروف الشعر وتبني قصيدة من الكلمات . حاولوا قتل القصيدة ، وعبد الحميد وفيّ للقصيدة صديق للقوافي محب للكلمات . صار يكتب شعراً باليد الاخرى . يقرؤه على الملأ ، في مدرسة خان يونس الثانوية . يقرؤه في ميدان الجندي المجهول وسط المدينة يقرؤه . يقف أمام آلاف المستمعين ، قريباً من الملجأ الذي دفنت فيه أكثر من مائتي جثة ، عند حافة سور المنتزه ، ويقرأ شعراً . بجانب تمثال الجندي المجهول يقرأ شعراً ، ويكون المكان غاصاً بأرواح الشهداء ، التي تأتي خصيصاً لحضور مهرجان الشعر ، ولتحيي ذكرى استشهادها . وتستمع لأشعار عن بطولاتها . وتطوف المدينة في موكب كرنفالي رائع . وتَسمع المدينة أصواتا في السماء :

على دلعــــونا وعلى دلعـــــونا
احنا حـــاربنا ابن صــهــيــونا
إحنا استــشــهــدنا وبالروح فــدينا
وانتـــو بالرحـــمـــة ردوا علينا

ثم تضرب الأرواح الموال بأخيه ، بالأوف ، بالميجنا ، بالعتابا ، بالليل ،بالعين ، وتعود . في كل موسم ومناسبة وطنية صارت الأرواح تعود . تتذكر نفسها وتعود . ويقال أن عشرة آلاف حضروا مهرجاناً معيناً ، مع أن الحاضرين كانوا سبعة . وأن

بعضهم أرواحاً جاءت من دير ياسين ومن الفالوجة والجدل ، واللد والرملة ، وبيسان وحتى من قرى صفد ، وشمال فلسطين ، لأن الأرواح مثل الملائكة لا تعرف جنسها ولا تشعر بالمسافات . ويحلف كثيرون أنهم سمعوا صوت عبد القادر الحسيني ، وأكدوا أنه تحدث إليهم . ومنهم من قال أن الشيخ الجليل عز الدين القسام همس في أذنه معاتباً : «ما تنسوناش ، وديرو بالكم على فلاحين بلادنا ، هذول زتون الأرض اللي بيسند الظهر» . وحلفت الحاجة رقية ، حماة عمي محمود ، أنها رأت الشهيد علي حسونة المدهون : «زي الطيف مرق من قدامي . وقف ابعيد وقال لي : ايش صاير للمجادلة يا حاجة ، من يوم ما طخوني اليهود في عراق سويدان ما حدن منهم استشهد ولا دخل الجنة ، لحتى عبرو اليهود عليكم وذبحوكم» . وقالوا أن الضابط المصري ، أحمد عبد العزيز ، الذي استشهد في حرب الـ ٤٨ ، ظهر في مدرسة خان يونس القريبة من سوق الخميس ، وامتلأ صدره سعادة عندما قرأ اسمه على يافطتها : «مدرسة الشهيد أحمد عبد العزيز الإبتدائية للبنين» .

المقنعة صاحبة الصوت الرجالي واصلت بث الكلام . من فتحة القنعة النسائية ، بصوت رجالي واصلت الكلام . وأكدت أن الإسرائيليين قتلوا الجندي المجهول ، أيضاً ، أطلقوا عليه النار فلم يسقط فنسفوه ، لأنه مثل زهرة نبتت في حديقة المدينة ، تحمل أوراقها أسماء الشهداء . صاحبة الصوت لا تهذي ، لأن النصب التذكاري شوهد على الأرض قطعاً محطمة . لا تهذي حقاً لكن المرأة الجالسة لصقها لكزتها في خاصرتها محذرة : «يا خو ليسمعك الإسرائيلي التخين ويوديك في داهية» .

أمي شهقت : «يا غلبي ايش اللي مقعدو هالزلمة هان . ايش اللي جابرو يلبس قنعة وداير زي النسوان ؟» .

أخيراً عرفته . كنت أنظر اليه من تحت لتحت ، حتى جاءت الفرصة وأرخى غطاء رأسه قليلاً . بانت ملامحه . إنه مدير مركز البريد ، أعرفه لأنني تسكعت مراراً ، مع أولاد من حارتنا ، قرب المبنى الوحيد للبريد في المدينة . هناك

شاهدته ، أكثر من مرّة . ولا بد أن موظفيه اشتكوا له ، ولو لمرة واحدة ، من أوراق يعثرون عليها بين الرسائل ، وهم يجمعون البريد من الصندوق الأحمرالوحيد المعلق على الحائط ، قرب الباب . بين الرسائل يعثرون ، يومياً ، على ورقة . رسالة لا تشبه الرسالة . لا مظروف ولا عنوان . ورقة لا تحمل أية رسالة ، لأنها لا تنقل كلاما مكتوباً . عجوز ينظم هذا البريد النادر ، ولا يتخلف عنه مرة واحدة . يأتي من جنوب المدينة ، يعبر حارات شعث والنجار ويجتاز السوق ، ويصل إلى الصندوق ، لكي يلقي فيه برسالته اليومية ويعود .

تجرأت مرّة وسألته :

– لمين بتبعت مكاتيبك يا عم ؟

استدار ببطء . تطلع إليّ من بين ثقبين صغيرين في أعلى وجهه ، ورد بثقة عالية :

– لألّه .

زممت شفتي على ضحكة تحاول الإفلات مني ، وسألته بشيء من السخرية :

– وكيف رح يروح المكتوب لألّه ؟

– الملايكة بياخدوه من الصندوق .

واستدار ، حمل ظهره المحني ومضى .

قلت لنفسي : «هذا الزلمة جبان ، مدير البريد ميتين في الِمية جبان» . ليس لأنه لم يحل مشكلة العجوز وبريده اليومي ، وهي واضحة تماماً ، إذ لا بد أن العجوز سأل الأقارب والجيران والمعارف المساعدة ولم يتلقاها . فقرر أن يبعث بشكواه إلى الله . لكن ليس لهذا السبب اتهمت مدير البريد ، بل لأنه وضع جسد رجل في ثياب امرأة . بعد ذلك عذرته إذ فكرت : «مش أحسن ما يموت وتروح في كيسه» . وقالت أمي كلاماً مماثلاً .

فما حدث هو أن مجموعة إسرائيلية حاولت اقتحام بيت مدير البريد . صرخ أفرادها ، بمن في البيت ، طالبين منهم الخروج وأيديهم مرفوعة فوق رؤوسهم . ثلاث نساء أقارب أدركن أن الموت هو الذي يتحدث ، ساوين الرجولة بالأنوثة .

ألبسن المدير قنعة وداير ، وأخرجنه بينهن : «كلنا نسوان يا خواجات . ازلام ما عنا . والله العظيم ما عنا . هربوع المواصي . صدقونا يا خواجات» ، وبكين ، وتصايحن بالتناوب مثل دجاجات . وصرخن بالتناوب أيضاً ، مرات ، وبصورة جماعية مرات أخرى ، بعد أن قسَّمن الصراخ ، مثلما قسمن الأيمان التي حلفنها .

ألحق الجنود بالتجمع أربع نساء ، إحداهن كانت الرجل القابع إلى جواري .

***

لاح القريناوي يعدو من بعيد تسبقه عواصف من رمل تثيره قدماه . عمتي رأته ، صرخت فانتبه الجميع إلى عودته : «يا خراب بيتك يا فتحي ، ايش عملوا فيك اليهود يا مسخَّم»؟

فتحي يدق جريد النخيل ، يصنع منه مكانساً . رصاصات تزيد على ست دقت ذراعه اليسرى . مزقت اللحم تهدل . لو تسعفني يميني ! فتحي تمنّى ، أسعفته . لملم بيمينه أشلاء ذراعه اليسرى . ذراعه تحملت مسؤولية ذراعه . الدم لا تمكن لملمته ، تساقط مطراً أحمر قانياً على امتداد الطريق . جثا القريناوي عند قدمي عمتي : «وصيتك لولاد يا حاجة» . عمتي انتفضت ، ارتجفت أمام لحمه الممزق مثل خرقة قديمة . الأطفال تصايحوا رعباً ، وأنا ابتلعت صيحتي . النساء ولولت . الدم يتساقط ، من يوقفه . عمتي قفزت مثل مجنونة . «طخوني يا حاجة طخوني أنا ومحمد . محمد الشريف مات يا حاجة ، محمد مااااااات» . أغمي على زوجته خديجة . أمه صارت تشهق وتولول تحت منديل رأسها . المسكينة لم تتمكن من إطلاق صرخة حزن على وحيدها . عبت الحزن كله في صدرها . كاد صدرها ينفجر حزناً . أبوه ارتمى على الحائط . أغمض عينية وأخذ يهز رأسه يمنة ويسرى ، يردد آيات غير مفهومة . عمتي وقفت وسط الجمع مثل ثور هائج . كبَّرت وصرخت في الجندي البدين : «قطيعة تقطعكم وتقطع اليوم اللي شفناكم فيه .

الله أكبر عليكم . الله أكبر عليكم . انتو ما الكم دين ورب تعبدوه !» .

جاء الجندي مهرولاً . قال بعربية مقبولة حين وصل ، ورأى بعينيه ما حل بالقريناوي : «لازم إسعاف ، يا اللا لازم إسعاف» .

امراة تبرعت بمنديل لفته حول ذراع القريناوي الممزقة . حملها فتحي بيمناه ولحق بالجندي الذي أخذه إلى طرف الشارع . هناك سقط فتحي على مؤخرته يرتجف . مرت سيارة جيب عسكرية أوقفها الجندي الذي ساعد فتحي على النهوض والصعود إلى السيارة . قال كلمات للجنود القابعين فيها ، لم يسمعها أحد . السيارة مضت واختفت في الشارع الطويل . عاد الجندي إلى الجمع وأعلن أمامه : «راح ع مستشفى» . واستدار عائداً إلى مكانه عند الزاوية ، يهز عصاه القصيرة في الهواء .

عمتي لم تستطع حبس دموعها ، مع أنها أخت الرجال . أمي انتفضت فجأة كمن صحا من كابوس : «خليل . خليل يا حاجة ، يا ورديه عليّ . أني قاعدة هان والطخ والموت عن أبو جنب . أني قايمة ، راجعة ع بيتنا أشوف خليل واطمئن عليه» .

***

خليل ، أبي ، لم ينضم إلينا في بيت أم مروان الآغا . نام ليلته في بيتنا . بقي مع عائلة عمي محمود . جاءت عمتي مساء أمس . استبقت غروب الشمس وجاءت . كنا قد غدرنا للتو ، الملجأ ، الذي حفرناه أمام مدخل البيت ، وغطيناه بباب الدار ، حين وصلت عمتي . وقف أبي يستقبلها ببجامته الزرقاء المقلمة ، وقد انتفخت فوق الركبتين من طول الجلوس داخل الملجأ ، وعلى كتفيه جاكتته الكحلية الغامقة معفرة بالتراب . رفع نظارتيه الطبيتين عن عينيه ، ثم أعادهما . وسأل نفسه : «يا ترى إيش اللي جاب الحاجة هلقيت» . ألقت عمتي بتحية المساء وبادرت أبي إلى القول :

- جيب هالمرة ولولاد يا خليل وتعو ناموا معنا في بيت إم مروان الآغا .

- بدّك اياني أدشر بيتنا وأروح انام في بيوت الناس يا حاجة !

- الجماعة راحوا ع البحر ، رح إنامو في المواصي واعطوني المفتاح . جاري محمد الشريف جوز بنت عمك خديجة الشيخ يوسف سبقنا لهناك هو ومرته وأمّه وأبوه . أبوك رح يلحقهم . كمان فتحي القريناوي ، بياع المكانس ، ابتعرفه ، ودا عيلته عند قرايبو في مخيم اللدادوة وراح . كلهم صاروا هناك . البيت يا خويا قوي ، سقفو بطون بتحمل رصاص وحتى مدافع ، وبيسعنا كلنا .

أبي تردد مبدياً عدم رغبة ، دون أن يفصح . ملامحه أفصحت .

عمتي كررت رجاءها :

- اسمع مني يا خليل ، سقف بيتكم قرميد يا خويا ، لو نزل عليه حجر بيصير تراب . أنا خايفة عليك وع لولاد .

في النهاية وافق أبي على أن ننتقل نحن الأولاد وأمي فقط ، وأصرَّ هو على البقاء مع بيت عمي . قال مخاطباً عمتي :

- محمود ما أجاش اليوم وبات ليلته في الحراسة عند حاووز الميّة . خذي إنت لولاد والمره وروحو ، توكلو على الله .

ودعنا أبي وبنات عمي ووالدتهم وجدتهم الحاجة رقية ، ومضينا بخطوات سريعة راجفة في أذيال عمتي ، حيث وصلنا بيت أم مروان قبيل هبوط الليل . والتحقنا بالجميع .

***

في بيت أم مروان أمضينا ليلة لا تشبه الليالي ، نمنا فيها دون أن ننام . ليل أسود مثل الليل ، ولا من يجرؤ على إشعال شمعة . القذائف تتساقط على المدينة ، تصفر عابرة المسافة من البحر الى جثث الأبرياء حيث تسقط . زورقان إسرائيليان حربيان أخذا في إطلاقها . توقفا في صدر البحر . الليلة ليلتهما . أمطرا المدينة قذائف ، تماماً كما فعلت الطائرات التي أشبعت المدينة رشقاً برصاص

رشاشاتها الثقيلة نهاراً . نام من نام في بيت أم مروان ، وقلق من قلق ، وصحونا ، على نهار طلع من طيز الحمار ، وعلى صوت أخي يطلب شاياً .

لا شاي في التجمع . في التجمع بكاء وعويل . رعب يضع الجميع على حافة الموت . قلق وفقدان أمل . أمي عادت تؤكد رغبتها في العودة إلى البيت . خاطبت عمتي مجدداً :

– يا حاجة ، أني ما رح أظل هان ، رح آخذ لولاد وأرجع ع بيتنا ، بدي أروح أطمئن على زلمتي .

عمتي لم تعترض :

– انتبهي وانتي رايحه يا لطيفة ، وديري بالك ع لولاد . أول ما تهدا باجي لعندكم .

قمنا ، وودعنا عمتي وجدي والآخرين ومضينا . عند زاوية الشارع استوقفنا الجندي . سألنا عن وجهتنا . أمي أخبرته برغبتنا في العودة إلى بيتنا على بعد عشر دقائق من المكان ، وطلبت منه أن يسمح لنا بالعودة . وافق بلا تردد ، وأوصى أمي بالحذر ، والتزام جانب الطريق ، ومحاذاة الحيطان ، والانتباه عند قطع الطريق من جانب إلى آخر ، قال لها أن السيارات العسكرية تقطع الشوارع بسرعة جنونية .

أمي شكرته على حسن تصرفه . تصرف الجندي مختلف . قبل ذلك ، لم يتردد في إيقاف سيارة لإسعاف القريناوي . أنا استغربت موقفه ، لم أحبه ، ولم أحقد عليه . وجدته طيباً بطريقة معينة .

***

مضينا ثلاثتنا أمي ، ورحاب على يديها ، وراسم وأنا ، نقطع شارع البحر ، الذي بدا ساكناً إلا من حركة السيارات العسكرية الإسرائيلية تقطعه في الاتجاهين بين فينة وأخرى . واحدة مكشوفة تقل عدداً من الجنود مدججين

بالسلاح مرت بنا ، أبطأت سرعتها فجأة . خفنا . أمي شدت رحاب إلى صدرها أكثر ، والتصقت أنا وراسم بها ، حتى تلاطمت أجسادنا . التفت بعض الجنود إلينا . أمي أحست بخوفنا في تلاطم سيقاننا بسيقانها ، قالت «ما تخافوش يمّه» . قالت ذلك وصوتها يرتعش أكثر من ارتعاش ساقي . تصايح الجنود وقهقه بعضهم ، وغنوا :

ألاقي زيك فين يا علي
إنت في العين دي والعين دي يا علي
يا كويني يا علي .

السيارة استعادت سرعتها ومضت . كلمات الأغنية سقطت خلف ضجيج العجلات :

يا نسيني يا علي . .عل . . .

أمي برطمت على الخفيف : «عِلّة تعلكم وتتعب سركم» .

وتابعنا سيرنا في الطريق الذي بدا بلا نهاية . عشر دقائق تفصلنا عن حارتنا صارت دهراً من رعب . رعب في الشارع الحافل بكل الاحتمالات . ورعب في داخلنا من المفاجآت واحتمالات السوء ، بعد مقتل محمد وجرح القريناوي ، وما سمعنا من قصص عن قتل بالجملة شهدته المدينة .

أمي حثتنا على الإسراع : عجلوا يمّه . من هان يمّه . لأ من هان . تعو من هان أأمن يمّه . تابعنا مشينا عدواً . أختي تهتز فوق صدر أمي ، كأنها فوق سنام جمل صبور . اجتزنا ، تباعا ، محل المصور شموط ، ودكان حبوب ، ومقهى ضرغام ، فدكان أبو علي بنات . درنا حول الملجأ الإسمنتي الكبير الذي أقيم قبل الحرب بأيام ، وعبرنا الزقاق على يميننا مبتعدين عن الشارع العام . مررنا ببيت الشيخ

هاشم ضرغام ، ثم عرجنا يساراً . ذاك بيت العبد أبو مسلم ، صاحب المقهى الذي يحمل اسمه ، ويرتاده ، عادة ، جدي وعمي اعليم . على بعد عشرين متراً لاحت لنا جثث في الزقاق . اقتربنا أكثر . أمي ترددت في مشيتها ، فترددنا معها . وقفت . التصقنا بها . أحسست بساقيها ترتعشان تحت الثوب ، تتعاركان . ثم خطت بتثاقل ، فخطونا . ثمة جثث تسد الزقاق . شبان أربعة ملقون على وجوههم وسط بركة من دم لم يجف بعد . لم أقو على النظر . شعرت بقلبي يرتجف . وأخذت ركبتاي تصطكان . انفصلنا عن بعضنا لنتمكن من المرور . مرت أمي من بين الجثث . راسم عبر وهو يمسك بثوبها . أنا قفزت فوق جثة أحدهم . أمي بكت وانتحبت خلال ثوان ، وأنا سمعت نحيبها . عندما خرجنا من الزقاق التفت إلي وقالت : هاذول اولاد أبو العبد مسلم . عددت أسماءهم . هي تعرفهم واحداً واحداً ، وولولت : «ويلي على أهاليكم» .

اجتزنا المذبحة ، واتجهنا يمينا نحو بيت أبو اسماعين «علي كتوع» . أمي تردد بلا انقطاع : «الله يحميك يا خليل» . أسمعها تردد اسم أبي أبكي خوفاً على أبي . قطرات من دمعي تسقط فوق خطاي على رمل الطريق . تساؤلاتي تتتابع على وقع أقدامي الصغيرة : «وينك يابا وينك» .

قطعنا المسافة بين بيت أبو مسلم وبيت كتوع ، لنكتشف أننا سرنا فوق خيط دم يصل بين مذبحتين : على باب بيت العايدي ، قبل مدخل بيت كتوع بثلاثة أمتار فقط ، في المساحة الصغيرة التي تعلو الطريق ، تمددت جثة محمد العايدي . وجهه تغمس بدم معجون بالتراب . عرفته ، من ملابسه الخاكية التي يقف بها وسط دكانه المجاورة لدكان بنات ، يؤجر الدراجات الهوائية ، عرفته أمي أكدت ذلك أيضاً . قالت «يا خيبتي هذا محمد العايدي طاخينه اليهود ، الله يساعد مرته وولاده» . لم نتوقف . استدرنا يساراً نعبر الممر الفاصل بين حارتين . حارة نتركها خلفنا ، تفتح على بيت إسماعيل كتوع . على مقربة منه حنفية المياه تتوسط المسافة بينه وبين بيت عمي اعليم . أين هو الآن ؟ وحارة نتجه إليها ، تقع في الجهة الاخرى ، تنفتح على بيت الغندور ، الذي يحتل الزاوية اليسرى ، وبيت

جاد الله ، في الجهة المقابلة . ومنه تعلن الحارة ، أنها حارتنا . عبرنا . لقد وصلنا أخيراً . دخلنا الحارة تتقدمنا أمي . طلينا جميعا على فضاء آخر لموت آخر .

***

هذه حارتنا . حارة لا تشبه حارتنا . مساحة ساكنة بلا أنفاس . جسد سحب الموت نبضه . حارتنا لم تعد تنبض . ماتت فيها الحياة . اختفت منها قططها التي اعتادت المواء في كل المواسم والاوقات . أصوات الدجاجات لم تعد تسمع . أين بطات أمي الشرشير والمرجان يتمايلن مثل نساء حوامل . أين ديك الحاجة رقية ، الذي يمشي في الحارة ملكاً ، يفرض ذكورته على الدجاجات بلا موعد ، يصيح وسط الحارة انتصاراً بعد كل نطة على ظهر دجاجة . أين ثرثرات النساء في فرن أبو عادل ، يوزعن القيل والقال ، يصنعن سلطة إشاعات يتغذى على نكهتها الساهرون . أين بائع «أبو الروايح» يقف بصينيته وسط الشارع ، يحرض بعباراته الشهيرة الصغار «أبو الروايح يا مال الشام . طبش امك يا ولد . طبش امك يا زغيِّر» . يعود راسم من الحارة راكضاً . يطلب من أمي تعريفة ، ترفض . يلجأ الى نصيحة البائع . يخرج إلى الحارة . يجمع بعض الحجارة الصغيرة . يهدد أمي بحدفها ، ترفض . يحدفها تباعاً ، ويصيب بعضها باب الدار . ترضخ أمي وتعطيه . يشترى واحدة من تلك التفاحات الصغيرة الخضراء ، المعلقة على عيدان رفيعة مغروزة في لوح صبار أخضر ، وقد وضعت على رؤوسها طرابيش زهرية من سكر محروق . أين كرات الشراب تتطاير بين أقدامنا ؟ أين الغميضة وحدر بدر والسبع شقفات ؟ أين ألعابنا الصغيرة والكبيرة؟ أين العجائز من الرجال ، يقضون ما بعد الظهيرة تحت حائط بيتنا يلعبون السيجة؟ أين النكهة التي تجعل من حارتنا حارتنا ؟ هذه ليست حارتنا .

جمع كبير ظهر ، إلى اليمين ، قبالتنا ، أعادنا إلى حقائق الأشياء . هذه حارتنا إذن ، وأولئك هم ساكنوها : جبل من حطام بشر . شيوخ ، ونساء ، وأطفال تجمعوا

أمام بيت أم العبد كفينة ، تراصوا تحت حائطه المواجه للحارة . من وسط الجمع خرج صوت يقول «أجت أم ربعي ولولاد» . ركضنا نحو الجمع الكبير . من وسطه نهض رجل طويل القامة وسيما . رفع نظارتيه . أعادهما غير مصدق . إنه أبي . مثل تاج الزهرة يقف وسط التجمع . أبي حي . صحت في داخلي :

هذا هو خليل عمّه . نوارة الحارة ، وزينة شباب الجدل زي ما بتقولي . وركضنا نحو التجمع . وهجمنا على أبي . عانقناه أخي وأنا . احتوانا واحتويناه . تمسكنا بساقيه ، بركبتيه ، بكفيه ، بعينيه . وحدها أمي اكتفت بلمس يديه ، وانشغال عينيها بعينيه . لم تعانقه «عيب» . العناق عيب ، في مخيم لا يعرف دائماً العيب . في لحظة ضاعت فيها الفوارق بين الحياة والموت ، احتفظت أمي بخجلها ولم يساعدها أبي ويمسح حمرة الخجل عن وجهها ، وظلا لبرهة صامتين ، إلى أن تكاثرت حولهما التهاني والتباريك ، فأخذا يلمان التهاني من بين الدموع «الحمد لله على السلامة يا ام ربعي» ، «اهنيت بسلامة المرة ولولاد يا بو ربعي» .

رأيت الفرحة تخرج من عيون باكية ، من بين شفاه جفت ، كأنها لم تبتسم منذ دهور . رأيت بريق عيني عمي يضيء وجهه فرحاً . رأيت السعادة على وجهي زوجته هنية وابنته الوحيدة حليمة . رأيت ابتسامة زوجة عمي محمود ، النحيلة الرفيعة ، مثل خيطي شفتيها ، ابتسمت وقد انشغلت عيناها بغزل الدموع مثل خيطان حزن . رأيت بنات عمي أديبة وسعاد وحمدية ، وابن عمي الصغير حمدي . رأيت كل الذين فكروا بنا وعدنا لأجلهم .

جلس أبي وأجلسنا حوله . أعطاني وإخوتي كل واحد حبة «طوفي» . أكلنا حلوى وسط مستنقع الحزن . «إشيء بسكّت الجوع» . هكذا فكرت . تلفت حوالي أتعرف على الموجودين . خلفي أم يوسف زقوت (المجدل) ، وبناتها الثلاث ، الكبرى جميلة ، والوسطى مريم والصغرى خولة ، وشقيقهما يحيى ، صديقي الذي يقاربني عمراً . لم أر يوسف ابنها الأكبر ، لم أر محمد ابنها الأوسط . في الجانب الآخر أم العبد كفينة . تربعت أمام باب بيتها ، ووضعت حفيدها الصغير فايز(عامان) على ركبتيها . اختفى من بين الجمع بكرها عبد

اللطيف «أبو فايز» ، وشقيقه الأصغر ابراهيم ، الذي أخذني إلى المدرسة في يوم الفسيخ الشهير . على مقربة منا جلس خليل الحلاق ، أبو رفيق (الجدل) ، وزوجته ، وولداه بشير (١٤) ومحمد (١١) زميل دراستي منذ الخيمة الأولى .

أم يوسف وبناتها ، وأم العبد وكنتها ، أم فايز ، زوجة عبد اللطيف ، أم «شفيق البرقاوي» ، وأم إبراهيم الجعيدي ، وأم رفيق الحلاق ، وأم ، وأم ، وأم ، أمهات بلا عدد يبكين . نساء لسن أمهات يبكين . كل من رأيت من النساء يبكي ، حتى خلت نفسي وسط سحابة تمطر دموع . ينتحبن . مثل رياح حزينة أصواتهن . لا يقوين على نواح علني . عيناي أغرورقتا بالدموع . اغتسل وجهي بأحزانهن . فهمت ، وأبي أكد ما فهمت . همس يخبر أمي وسمعت همسه :

« اليهود أخذوا الشباب لعند دكان أبو ابراهيم الجعيدي ، بيقولو طخوهم في قفا الدكان» .

يا ويلي على إمياتهم !

أمي ولولت ، ثم بكت ، ولحقت دموعها بالغيمة التي واصلت زخاتها من عيون النساء . رأيت المخيم يغرق في بركة من دموع النساء .

***

قرابة الرابعة والنصف ، من بعد ظهر الثالث من نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٥٦ ، انطلق صوت ، من مكبرات للصوت ، يعلن بعربية واضحة منع التجول . صوت يعلو وينخفض . يبتعد ويقترب . يتلاشى ويتضح ، ويكرر : «يا أهالي خان يونس . أيها المواطنون . بأمر من الحاكم العسكري العام لقطاع غزة ، ساغان ألوف ، «حييم غاؤون» ، يمنع منعاً باتاً التجول في الشوارع ، وإلى إشعار آخر . كل من تسول له نفسه الخروج من البيت يتعرض لأطلاق النار . ولقد أعذر من أنذر . يا أهالي خان يونس . أيها المواطنون . بأمر من الحا . سا . . . الو . غاؤون . يمن . . .من . .تا . . .

الجمع اضطرب . الذعر حل فوق الذعر على سطح بركة الدموع ، والكلام خالط الكلام . اسكتوا يا جماعة لنسمع ايش بيقول الميكروفون . يسمع منهم عزرايين ان شالله . نسمع ايش ، هو في حدا في الشوارع غير جثث اللي ماتو يا حسرتي . يا عمي كل اشي مبين ، انطرشتو ، باختصار بيقول ممنوع التجول . خلينا نقوم انروح ع بيوتنا قبل ما يصير اشي . يا جماعة الخير ، وحدو الله وطولو بالكم ، ما بنقدر نتحرك إلا إذا أجتنا الأوامر . أكثر من اللي صار عمره ما رح اصير . قاله القرد اسخطني ، قال له اكثر من هيك ايش اسوي فيك . العسكري قال ما تتحركوش من هان . وحدو الله يا جماعة خلينا نشوف مين اللي جاي . هصصصصص ، اليهود أجو .

سيارة جيب عسكرية إسرائيلية اقتحمت الحارة ، فجأة ، قادمة من جهة مقهى أبو مسلم . مكبرات الصوت لم تزل تكرر «بأمر من الحاكم ال . . .» . السيارة توقفت وسط الحارة قريباً من مرحاض الرجال . رئيس بلدية خان يونس ، «سليمان زارع الأسطل» ، هبط من السيارة . تبعه ، مباشرة ، ضابط إسرائيلي كبير . تقدم الاثنان من الجمع الذي وقف أفراده على قدم واحدة . أنا وقفت مع الواقفين . صفق أحدهم ، تبعه آخر ، وثالث ، الجمع صفق . لرئيس البلدية والضابط الإسرائيلي صفقوا . لم يطلب أحد منهم ذلك ، ربما الخوف فعل . خافوا على أرواحهم المتبقية «يا روح ما بعدك روح» . ربما تعبيراً عن الأمل في وضع نهاية لنهار مشبع بالدم يبدو بلا نهاية . ربما أدخل ظهور رئيس البلدية الطمأنينة إلى قلوبهم ، رؤيته إلى جانب العسكري الإسرائيلي أوحت بوقف المذبحة . بانسحاب السكين بعيداً عن رقابهم . وعي جمعي ما مختلط ، متداخل ، دفع أول كفين إلى التصفيق فتلاطمت أكف البقية مرحبة ، دون أن تتفق على سبب .

الأسطل خاطب الجمع . قال كلمات قليلة أعلن ، من خلالها ، عن قرار السلطات الإسرائيلية السماح بعودة الأهالي إلى بيوتهم . وطلب من الجميع إبقاء الأضواء ، في بيوتهم ، خافتة ليلاً . همهم الجميع معلنين امتثالهم للأوامر . صفقوا للمرة الأخيرة . وصفقت مثل الاخرين . وعاد الجميع إلى بيوتهم بركان

حزن لم ينفجر بعد .

***

هبط الليل . أمي أشعلت مصباح الكاز الزجاجي الصغير «نمرة -٢» ، وخفضت فتيلته إلى الحد الأدنى . وضعت رحاب ، التي غفت ، على جنابية صغيرة ملقاة على الحصيرة بجانب السرير الطيني الذي ينام عليه أبي . تناولتُ فرشة من على كوم الفراش في الجهة الأخرى المقابلة للسرير ، ومددتها الى جوار الحائط الفاصل بين غرفتنا وغرفة بيت عمي المجاورة ، فيما كانت أمي تمد لراسم جنابية صغيرة سارع بإلقاء جسده عليها وراح في إغفاءة عميقة قبل أن تنتهي من وضع وسادة تحت رأسه ، ونام كعادته متكوراً حول جسده ، ركبتاه ملتصقتان بأسفل بطنه وذراعاه متقاطعتان . وغرقت الغرفة في صمت بحر الليل الذي افترش المدينة وغطى جراحها المفتوحة . وصار بإمكاننا سماع أنفاسنا بطيئة وعميقة متعبة من لهاث يوم طويل . وراحت عيناي المفتوحتان على الضوء الباهت تحدقان في الدائرة الصفراء المعلقة أسفل السقف القرميدي والتي أحدثها مصباح الكاز . جاء محمد زقوت ، كان يلبس بنطلونه الخاكي القصير ، يحتضن كرة شراب . جاء يسأل عني . انتزعتني دقات قبضته على وجه الباب . أخذتني الى الحارة التي أعدت السبع شقفات ، لعبتنا المفضلة . ركضنا وركض محمد . ظل يركض حول كرة القيت في السماء فأخذتها الريح ، وأم يوسف تناديه : «ارجع يا محمد . .عتمت الدنيا يّمه» . ومحمد لا يعود . تأخذه الريح مع كرة الشراب نحو النجوم . يوقظني همس أبي «مش قادر أتصور اللي صار» . «نام يا خليل عشان صحتك» . تخاطبه أمي بهمس مماثل ، وقد تمددت إلى جانبه فتلاصق ظهراهما ، كما اعتادا أن يناما تجنباً لعدوى سل محتملة . تحاضنا بالمقلوب . ينهض موسى من بين الجثث الممدة خلف الدكان : «صلبونا بالشقلوب . دير وجهك ع الخيط يا خمار . . صرّخ الجندي اللي كان قدي في العمر» . وحدق الجميع في جدار

الموت . عندما صلبوا المسيح تواجهوا . دقوا المسامير الكبيرة الغليظة في كفيه وقدميه وأعلوا صليبه فوق الرابية كي يشهد الجميع . المسيح فلسطيني ، والفلسطيني نبي ومسيح ، خاف القتلة من صلب المسيح مرتين . أدار القاتل وجهه وأطلق الرصاص . وسقط الجميع على وجوههم يلقمون الحجارة ويتنفسون التراب . «اسمعت صوت أبوي ، ظل يتلوى ويتشقلب ويتمرغ تمات ، ما قدرت أعمل إشي لأني مفروض ميت زيه» . نهض موسى بعد انصراف الجندي وانطلق يعدو . وشقت ساقاه مخيم اللدادوة نصفين . اعتلى الرابية الواقعة خلف المخيم . تدحرج فوق سفحها قبل أن ينهض ويلقي بجسده للريح . وحين استيقظ من هربه في رفح ، اكتشف الجرح الذي أحدثته رصاصة اخترقت قدمه اليمنى . عاد من رفح بعد يومين لكي يروي التفاصيل . وأبي يؤكد لأمي أنه أرق لا يستطيع النوم . ويواصل همسه بالحكايات . أسمع همس الحكايات . أرى زهرها يتفتح في العتمة صوراً تقطر دما لمن عرفتهم من الشهداء .

***

قرابة التاسعة صباحاً ، وصلت مجموعة عسكرية إسرائيلية كبيرة ، إلى بيت أبو مسلم . هبطت شارع البحر . استدار أفرادها خلف المقهى . دخل بعضهم بيت أبي مسلم ، وانتظر آخرون في الخارج . أخرجوا الرجل وأولاده الأربعة . أوقفوهم أمام جدار البيت ، وأطلق أكثر من جندي النار عليهم ، وسقط الجميع أرضاً ، مات أولاد أبي مسلم الأربعة على الفور . أصيب الأب بجروح في إحدى قدميه . تظاهر بالموت ، وبقي ملقى على وجهه يتنفس تراباً ودماً نزف من أجساد أبنائه . تفرقت المجموعة إلى وحدات عسكرية صغيرة ، ما بين ثلاثة إلى خمسة جنود . اتجهت وحدة أولى نحو بيت محمود صقر ، الشهير ب «أبو إبراهيم الجعيدي» الواقع على الشارع العام . أبو مسلم نهض وهرب من الحارة واختبأ في بيت في حارة مجاورة ، في الوقت الذي دخلت وحدة ثانية صغيرة بيت الشيخ هاشم

ضرغام، أطلقت النار على ابنه محمود وقتلته فوراً . وغادر أفرادها المكان، وساروا نحو بيت محمد العايدي . ثلاثة منهم توقفوا عند البيت، وأكمل آخران طريقهما، وانضما إلى وحدة ثالثة دخلت حارة اليافاوية، حيث يقع بيت عمي اعليم، وأخذت تمشط بيوت الحارة والبيوت الواقعة شرقي حارتنا، ووصل قسم منها بيت مدير مكتب توزيع التموين وشقيقه، وهناك انفصل جنديان عن البقية واتجها نحو بيت أم يوسف زقوت، على بعد ثلاثين متراً فقط .

الوحدة التي وصلت الى بيت محمود صقر، أخرجته وعائلته، زوجته وابنه الأكبر ابراهيم وشقيقته سعدة والصغير محمد . أخذوا أبو إبراهيم إلى دكانه . وقاد جندي بقية أفراد العائلة الى بيت أم العبد كفينة حيث قرروا تجميع من لا يرغبون في قتلهم من النساء والأطفال وكبار السن .

أخذت أنصت باهتمام لما يقوله أبي . أغالب النعاس في عيني، أطرده بتفاصيل الحكايات . ضحكة خافتة أطلقها أبي فتحت عيني على ما سماه أبي «قصة اعليم» . عندها سألته أمي : ليش هو اعليم الو قصة ؟ رد أبي : «اسمعي بس وانت تموتي من الظُحُك» . وروى :

بعد ما قعدنا تحت حيط أم العبد كفينة، يمكن بساعة بلكثير، ما شفنا إلا اعليم جاي يركظ شادد طرف هنديته بإيده . والله وكيل، دب حاله في نص القاعدين وصرَّخ : طخوني يا خويا ثلاث ارثاثات وما متش . ثدقوني يا جماعة الخير طخوني ثلاث ارثاثات .

خبأت ضحكتي في فمي، لكي أضحكها فيما بعد .

أبي تابع قوله :

صرخت في اعليم، قلت له : اقعد يا خويا ليشوفوك اليهود ويرجعوا يطخوك . اقعد واحكي وانت قاعد .

والله لولا الوظع اللي احنا فيه يا لطيفة، لفرطنا من الظحك على لسان اعليم الألوق . اعليم بيموت من الظحك . لو اسمعتيه كيف حكى !

وقال أبي أن عمي جلس على ركبتيه . مد طرف دمايته الذي لم يزل يمسك

به بين أصابعه ، وأخذ يعرضه ، وسط دهشة الجميع ، وبه حرق دائري صغير فوق الجيب الأيسر قرب خاصرته . قال عمي أنه ناتج عن مرور إحدى ثلاث رصاصات أطلقت عليه .

وحسب رواية عمي ، المنقولة عن لسان أبي ، فإن جندياً أخرجه من البيت وقاده باتجاه بيت الشيخ هاشم ضرغام . وقاد رفيق له زوجة عمي وابنته حليمة ، البالغة من العمر خمس سنوات ، إلى حارتنا ، حيث انضمتا إلى التجمع أمام بيت أم العبد كفينة .

دفع الجندي عمي إلى زقاق جانبي ، وطلب منه الوقوف وظهره إلى الحائط . في تلك اللحظة وصل جندي إلى حيث يقفان . نادى على رفيقه الذي سارع إليه محذراً عمي من التحرك من مكانه . وعلى الفور باشرا حوارا بالعبرية بدا لعمي ذا نبرة خلافية . ولم يفكر في ما إذا كان الأمر يتعلق به ، وربما باحتمال إطلاق النار عليه ، بل سارع إلى الهرب من الموت قبل أن يلحق به . استغل فرصة غرق الجنديين في حوارهما وقفز محاولاً الاختفاء سريعاً خلف زاوية الزقاق . الجندي الأول تنبه لحركته وأطلق عليه سيلاً من الرصاص . سقط عمي أرضاً ، ولم يغب عن وعيه . ظن أنه أصيب في مكان ما . فتح طرف عينه اليسرى . لم ير الجنديين اللذين غادرا المكان فور إطلاق النار . تحسس عمي جسده ولم يعثر على آثار لدم أو إصابات ، لكنه أحس بسخونة خفيفة عند خاصرته اليسرى . نهض . أمسك بطرف هنديته عند الخاصرة . فوقع بصره على حرق دائري أسود . تلفت حواليه ، ولما تأكد من خلو المكان أسلم ساقيه للريح ، ولم يتوقف إلا عند التجمع حيث ارتمى قرب أبي وهو يردد : «طخوني ثلاث رثاثات يا خويا ، طخوني ثلاث رثاثات» .

رأيت العايدي ينهض من أمام باب بيته ويحكم قبضتيه حول رقبة جندي يحاول الابتعاد لإطلاق النار عليه . ملأ الجندي الحارة صراخاً . جاء آخرون وخلصوا الجندي من بين يديه ، لكن رقبة زميلهم ظلت معلقة بكفي العايدي . أطلقوا عليه النار . سقط العايدي مجدداً . عاد إلى مكانه يتنفس التراب ودمه

الذي تخثر من قبل . وامتلأت الغرفة أشباحاً . ووجدتني أنام بين أشباح . ارتعش جسمي مثل جناحي حشرة طائرة . قمت وصرت أعدوا في حقل مفروش بالظلمة حتى ذبت فيها ، صرت ظلاما ولم أعد أرى نفسي . صرخت :

« الحقيني يمه» . أصابعها أخذت تتحسس جبهتي ، صوتها استبق الأصابع : «إسم الله عليك يمّة ، ما تخافش هذا كابوس ، يمّه اسم الله عليك» . أغلقت عيني ثانية ورحت في إغفاءة عميقة ، تاركاً أبي يهمس حكايات .

***

اليوم التالي :

عن لسان أبي ، نقلاً عن أم يوسف زقوت ، عن محمد العثامنة ، عن الحاج خليل الحلاق ، قيل أنه لما وصل موكب الموت الزاحف إلى بيتنا ، وقف جندي مدجج بالسلاح قبالة الباب المنزوع منذ استخدمناه غطاءً واقياً للملجأ ، ودعا من في البيت للخروج مرفوعي الأيدي . وتقدم أبي الجميع رافعاً يديه ، وتبعه الآخرون ، حتى ابن عمي الصغير ، حمدي ، الذي لا يتجاوز عمره الثلاث سنوات ، حاول تقليد الجميع ورفع إحدى يديه . أمسك الجندي أبي من ذراعه وطلب من البقية الجلوس أمام بيت أم العبد كفينة . في تلك اللحظة كان جندي آخر يسوق أمامه ولديها عبد اللطيف وإبراهيم .

سأل الجندي أبي :

- فدائي .

قال :

- مريض . مريض بالسل ياخواجه ، وأول ما تفتح الطريق راجع ع مستشفى البريج .

- طيب ، بعد شوية بيطيب .

قرر الجندي أن يسوق أبي أمامه ، ويمضي به حيث يأخذون الآخرين ، وفي

تلك اللحظة بالذات ، وذلك على عكس رغبة الجندي وميوله ، انفجر في الحارة صراخ ارتجت له أسطح البيوت القرميدية ، اختلط باستغاثة عبرية ، تبين بعد ثوان أن مصدرها جنديان يتعاركان في بيت «اليازوري» مدير وكالة توزيع التموين معه ومع شقيقه وزوجتيهما وأمهما . وقيل أن النساء الثلاث أمسكن بخناق الجنديين لمنعهم من إخراج المدير وشقيقه . أمر الجندي أبي بعدم التحرك من مكانه ، وركض باتجاه مصدر الاستغاثة لمساعدة رفيقيه . أبي تسمر في مكانه . جندي آخر خرج راكضاً من الزقاق الفاصل بين حارتنا وبيت عمي اعليم ، انتهر أبي على وقوفه وسط الطريق ، وأمره بالإسراع والانضمام إلى تجمع النساء والأطفال ، ولحق بالجندي الأول الذي سبقه إلى بيت اليازوري . وأنقذ الشجار أبي من الموت ، مثلما أنقذ الشقيقين ، اللذين فشل الجنود في انتزاعهما من أحضان النساء وأذرعهن التي زنرتهما بعناد حديدي .

بعد انتهاء المعركة انتقل جنديان الى بيت بائع الساعات أبو مطيع الخطيب . ثم مرا ببيت جارتهما دون أن يتوقفا . كانت أم يوسف تجلس في قاع الدار وحولها بناتها الثلاث جميلة ومريم وخولة أولادها الثلاثة يوسف ومحمد ويحيى ، وابن شقيقتها أحمد ، الذي جاء من غزة ، قبل يومين ، فور سقوط المدينة ، وقبل انتشار القوات الإسرائيلية فيها . ترك بيت ذويه ليحتمي مع أولاد خالته أم يوسف في خان يونس التي لم تزل تقاوم . وقيل أن والديه هما اللذان أشارا عليه بذلك . قالا له : «خان يونس آأمن» ، وودعاه بالدعاء : «روح الله يحميك ، ويجعل لك في كل خطوة سلامة» .

سمع الجميع أصوات جند في الخارج . يوسف ، الذي يكبر أخويه وابن خالته ، قرر استطلاع ما يجري . نهض من مكانه واتجه صوب الباب . أمسك باللقاطة الحديد وهم بتحريكها وفتح الباب . نهضت أمه ولحقت به ، ورجته ألا يفعل ، فأشار إليها بالابتعاد والبقاء صامتة . فتح الباب مواربا . أحدث صريراً خفيفاً . أم يوسف عضت أصابعها ، ورجته همساً : «أبوس ايديك يمّه» . يوسف أطل برأسه من شق الباب . أحد الجنديين لمحه . صوب سلاحه نحوه مباشرة ،

وصرخ به أن يخرج رافعاً يديه . يوسف فعل ، فتح الباب كاملاً وخرج .

صاح الجندي في جميع من في البيت طالباً الخروج ، ففعلوا .

ساق الجندي يوسف وأحمد أمامه ، ووقف رفيقه يراقب الآخرين . محمد لحق بشقيقه يوسف وابن خالته أحمد . الجندي الثاني اعترض طريقه . محمد أصر على اللحاق بهما . الجندي أمسك محمد من ذراعه هذه المرة . محمد أخذ ينتفض ويصرخ : «دشرني بدي أروح مع أخويا» . الجنديان تبادلا بضع كلمات عبرية . الجندي الثاني سمح لمحمد بمتابعة طريقه . محمد لحق بشقيقه وابن خالته . خلال دقائق وقف ثلاثتهم إلى جانب محمود صقر «الجعيدي» ، وآخرين ، أمام حائط دكانه . أم يوسف ويحيى الصغير وبناتها الثلاث انضموا ، بطلب من أحد الجنديين إلى التجمع .

وقيل أنه خلال أقل من نصف ساعة ، تم جمع سبعة عشر شاباً ، سيقوا إلى دكان أبي ابراهيم الجعيدي . وكان بينهم أبو موسى وابنه الكبير (بينة ، أو زرنوقة) ، «أحمد» أبو الخير (يافا) ، رفيق الحلاق (المجدل) ، «أحمد العثامنة» (القسطينة) ، أحمد أبو حطب (القسطينة) ، محمد أبو العلا (القسطينة) ، الشقيقان عبد اللطيف وإبراهيم كفينة (المجدل) . الشقيقان يوسف ومحمد زقوت وابن خالتهما أحمد (المجدل) .

خلف دكان الجعيدي أُطلقت عليهم النار من مسافة لا تزيد على ثلاثة أمتار .

***

عادت مكبرات الصوت التي أعلنت منع التجول قبل ثماني وأربعين ساعة ، تعلن رفع الحظر ، جزئياً ، لدفن الموتى بصورة عاجلة . السلطات العسكرية سمحت بالتحرك داخل الحارات ، وتقليص الحركة في الشوارع العامة ، باستثناء عربات نقل الموتى الذين نقلوا على عجل ، وغالباً فوق عربات تجرها حمير ، ودفنوا في فسقيات بصورة جماعية .

***

قررت أن أذهب الى دكان أبي ابراهيم . أن أرى بعيني ما جرى خلفها . أمي اعترضت . قالت أن منع التجول لم يرفع بعد ، وقد أتعرض لأطلاق النار . أبي لم يعترض ، قال لها أن كل الناس راحوا ، وتفقدوا الجثث ، وتعرفوا على الشهداء . لكن أمي لم تقتنع متعذرة بأنني لم أزل صغيراً على رؤية ما رآه الآخرون . ورجتني للمرة الأخيرة قائلة : بلاها يمّه هالروحه ، اللي راحو قالو اشي بيقشعر البدن ، وفيه ناس داخو ، وحتى غميو لما شافو الميتين .

***

أمس : ١٩٥٦/١١/٤

اليوم أرى محمد الصغير ، السمين المدور ذا الوجه الأبيض البرتقالي مثل شمس العصاري . سوف أمر به جثة قد لا تدل عليه . مات محمد زقوت ، أصبح مرحوماً منذ الطلقات الأولى التي أصابته . وسوف ترافق اسمه الرحمة كلما ذكر . وسوف يصبح وأخوه يوسف وأبوه ، الذي مات منذ أيام البلاد ، وابن خالته ، أيضاً ، باب رزق مفتوح للشيخ أبو محمود الحمامي ، يقرأ على أرواحهم ، بالجملة وبالمفرق . يبيع الآيات مثل شروة بطيخ . وأم يوسف تشتري الرحمة لزوجها وولديها وابن شقيقتها بمبلغ تدفعه ، شهرياً ، للشيخ نصف الضرير . يحيى ، ابنها الوحيد الذي أبقاه الإسرائيليون لها ، ولم يكونوا ليفعلوا لو كان عمره أكبر بعامين ، يغلق باب الرزق في وجه الشيخ ويطرده ، ويعلن أمامي :«طردت أبو محمود» . يضع جهاز الترانزستور المستطيل الأسود الصغير بيننا ، على البطانية التي نجلس عليها ، أمام باب بيتهم . يسند ظهره إلى جدار الحائط ، وينتظر مني أن أعلق . ولا أعلق مباشرة ، ربما لأن ما قاله يشبه المزاح . إذ من يجرؤ على طرد مقرئ ، ويوقف نشر الرحمة حول أرواح الميتين ! أنا قد لا أهتم لمقرئ غاب عن تلاوة أم حضر ، حتى لو كان الأمر يتعلق بروح أبي ، لكنني لا أقوى على طرده . مذيعة برنامج «ما

يطلبه المستمعون» في صوت الإذاعة البريطانية ، من لندن ، تنتهي من إعلان أسماء الراغبين في الاستماع إلى أغنية تالية ، وتعلن أنها لفريد الأطرش . يحيى يتأفف وهو يدير مؤشر المحطات بحثاً عن أغنية أخرى . وأساند أنا تأففه ، وفاء لمطربنا المفضل عبد الحليم حافظ ، دون أن أنسى أنه لم يزل ينتظر تعليقي . أسرح بعيداً وعالياً . أبحث في السماء الصافية عن إجابات . أتطلع أمامي . أمسح بنظراتي شجرة الكينيا صاعداً بعيني معها فوق سطح بيت العثامنة الذي يواجهنا ، مستمتعاً بحفيف أوراقها ، وبدفء شمس الضحى ، وبكوب الشاي الذي أحضرته أم يحيى ، منذ قليل . وفي النهاية . .لا أعلق .

-«بقول لك طردت أبو محمود . مش مصدّقني ؟»

يذكّرني .

-«يعني انت بتحكي جد !» أسأله بدهشة .

يتوقف عن تحريك مؤشر المحطات . شارل أزنافور يغني .la mamma يرفع يحيى الصوت قليلاً ، ويهز رأسه طرباً .

-«أحلى من Que c'eat triste Venice ايش رأيك ؟» .

-«أزنافور بيجنن» .

يرتشف شايه : بتعرف ! إمي قالت لي يمّه حرام عليك ، الزلمة غلبان ومسكين ، بدو يربي أولاده . قلت الها ، يمّه الشيخ كثير حكي ، بيدس أسعار الخضرة والبطيخ بين الآيات . بيقرأ آية وبيسألك : إنزلتي يا حاجة اليوم ع السوق . شو اشتريتي يا أم يوسف . نزلت السريدة اليوم ع السوق والا لأ يا حاجة . إبقديش أخذتي كيلو البندورة يا أم يوسف ؟ . أمي سكتت . طبعاً ما عجبهاش الحكي ، بس سكتت .

يسكت بدوره . وتعتريني حيرة ، وقشعريرة فكرية وبدنية . وأزنافور يغني . وتحاصرني أسئلة : هل الموتى بحاجة حقا لمن يقرأ على أرواحهم ! هل تؤثر القراءة في مصيرهم بعد الموت ، حيث تكون دفاتر حسنات وسيئات دنياهم قد أغلقت ؟ ما فعلوه ، خلال حياتهم ، فعلوه ، أكان خيراً أم شراً . وكلام الله

جميل ، ولكن هل تخفف قراءة المشايخ من عقاب من ارتكب معصية عند ربه ؟ هل أبي بحاجة إلى من يقرأ على روحه ، وهو الذي أمضى قرابة عشر سنوات من عمره ، يهرب روحه من السل اللعين ، قبل أن يقبض السل عليها ؟ أمي تدفع للشيخ محمود أيضاً . وأنا أقرأ الفاتحة كلما زرت قبر أبي . عرفت بأن الناس يقرءون ، رأيتهم وأكفهم مفتوحة يواجه باطنها السماء ، ينتظرون نزول الرحمة ، وهم يقرءون الفاتحة على أرواح موتاهم أمام القبور ، أقرأ مثلهم . لم أفكر في الأمر . لم أطرح أية أسئلة . اليوم أفكر . يحيى يتخذ قرارات ، وأنا أطرح أسئلة . أنا ويحيى أكثرنا من الأسئلة بعد ذلك . وبعض أسئلتنا كان كبيراً . لماذا يطلب الناس الشيخ محمود ليقرأ على أرواح موتاهم ؟ يحيى يسأل أكثر . أسألة يحيى تؤسئلني بعمق .

فكرت ، صحيح أبو محمود مقرئ لكنه يخلط كلام الله بالصيصان . في بيت أم يوسف يسأل عن السريدة والسمك ، كما يقول يحيى ، ومن غير المستبعد أن يسأل عن الباذنجان ، وعن أسعار الملفوف والملوخية . في بيتنا أسمعه يسأل أمي عن أسعار الصيصان في السوق . يعني الرحمة التي تطلبها أمي لروح أبي ، تصله مع آخر أسعار الصيصان في السوق . أستغفر ربي . هذا كله كفر وحرام . لا هذا ليس كفراً ولا حراماً . كفر أم حرام ، لا أدري .

أسأل يحيى :

– طيب مش حرام اللي عملته ؟

– الشيخ محمود ما بيفرقش بين الأموات .

أفكر ،

الشيخ محمود يقرأ على روح أي ميت ، ما دام أهله يدفعون . هو يعمل مقرئاً . لكن ثمة من فعلوا السبعة وذمتها في حياتهم ، وماتوا . وثمة من ماتوا شهداء ، أو حجاج . وثمة من لم يزوروا مسجداً في حياتهم ، ولا يعرفون أين يقف خطيب الجمعة ، ولا يعنيهم ما يقول . وآخرون معرصون . وغيرهم مؤمنون لا يقطعون فرضاً . وناس مثل أبي ، دفعوا حساب آخرتهم من دنياهم . عشر سنوات من

عذاب السل وعذاب أمي معه ، وعذابنا نحن الأخوة الثلاثة منذ كنا صغاراً . وكذلك عمتي ، التي تولت رعايتنا جميعاً ولم تزل . وأبي لم يرتكب معصية أو ذنباً . والشيخ محمود يقرأ بلا تمييز ، لأن وظيفته التي يعتاش منها هي أن يقرأ . فهل يتساوى الجميع ؟

وجدت نفسي في الشارع . أعدو بلا توقف . أبلغ الطرف الثاني من الطريق الترابي الذي يفصل بيت الجعيدي عن حارتنا . من بعيد تلوح لي جثة تسد الزقاق . تكبر ، خوفي يكبر . أفكر في العودة . أسمع صوت أمي من بعيد : «يمّه بلاها هالروحة ، اللي راحو قالو بتقشعر البدن» . يقشعُر بدني . يقف شعر رأسي مثل أشواك الصبار . جسدي يرتعش ، والجثة تقترب . تفاصيلها تكبر . الجثة هي أبو ابراهيم . وأبو إبراهيم صار جثة تغلق الطريق الى دكانه . هو أول من أسند ظهره الى حائط الموت . صار بوابة المذبحة . حارس جثث الشهداء ودليلهم إلى الجنة .

أقف أمام جثته . ساقاي تعرقبان ولا تقويان على الحركة . عيناي تكتشفان محمد . من جثته أعرفه ، من جسمه المدور أعرفه . أتخطى جثة أبي ابراهيم قفزاً . أجدني فوق جثة محمد . قدماي ترتعشان . قلبي يرتجف . صوت أم يوسف يشق صدر المعسكر ، يمزق جسده قطعاً . قطعاً من حزن يتناثر المخيم . أحس بدوار . أخاف السقوط فوق محمد . تتجول عيناي في المكان ,أصرخ في داخلي . أعدد لي أسماء الشهداء : «هذاك يوسف أخو محمد ، وهذاك أبو موسى ، وهذاك أبو الخير مد هناك لقدام ، وهذاك مين يا ربي ، يمكن غريب عن الحارة ، وهذاك ، وهذاك واحد بتعرّف ع الجثث ، وهذاك أخوه لابو الخير واقف بيصيّح زي الزغار فوق جثة أخوه ، وهذاك وهذاك» . أشعر بالأسماء تخنقني . كفي تحيط برقبتي . واحد يتفقد الجثث يلتفت نحوي ، يراني ويصرخ : «ايش بتعمل يا صبي ، روح روح أحسن لك ، أنت مش قد هالشوفه» .

أهز رأسي موافقاً ، وأستدير عائداً . أتخطى جثة أبي إبراهيم ثانية . أطلق ساقي للريح ، كأن آلاف الجنود الإسرائيليين يركضون خلفي ، يطلقون الرصاص

بلا توقف . أصل البيت . أدفع الباب ، الذي أعاد أبي تركيبه . أقف وسط الدار باكياً . أشهق وأبكي . أمي تغطيني بجسدها :

- قلت لك بلاها هالروحة يمّه ، يمّه لكبار ما قدروش يستحملوها .

- رحت أشوف محمد .

- أُشفته يمّه ؟

وألقيت بنفسي في حضن أمي . وبكيت كما لم أبك من قبل .

* * *

هذا المساء قررت مغادرة النص . الانفصال ، مؤقتاً ، عن ربعي الصغير الذي تركته قبل ثلاثة وأربعين عاماً ويوم واحد بالضبط ، يبكي في حجر أمه لطيفة . أرغب في التجول بعيداً عن نفسي لكي أرى نفسي . أراني الكبير الذي أثقل ذاكرة الصغير فيه بما رواه ، وأراد الاعتذار منه ، عن عدم قدرته على الجزم بصحة اسم جار عمته بائع المكانس« فتحي القريناوي» ، الذي أصيب في ذراعه . لذلك وضعت اسمه بين قوسين . حاصرته مثلما حاصرت أسماء وشخصيات أخري استبدلت أسماءها الحقيقية لاعتبارات تتعلق بأصحابها ، الذين تعذّر عليَّ الاتصال بهم واستشارتهم في بعض ما يتعلق بحياتهم الخاصة المتشابكة ، أحياناً مع نسيج حياتي . أو بسبب سقوطها من الذاكرة ، مع أنني وللحقيقة لم أقصد ذلك ، بل خانتني ذاكرتي المتعبة من ضغط السنين . فمن يعش نصف قرن لاجئاً يعرف كيف يتراكم فوق ذاكرته الأولى اللجوء فوق اللجوء فوق اللجوء ، فيحمل فوق سنواته الخمسين جبلاً من متاعب السنين . أتسلق جبل ذاكرتي مثلما أتسلق الصخور . أبحث في ثقوبها عن أسماء غيبتها السنين ، وأخشى أن أجرح السنين . عن حوارات كانت تمثل الحوارات ، وأخشى أن أكسر الكلمات . الجأ إلى جان جينيه أل«أسير» ال« عاشق» لكي« أؤكد للقارئ ، أن ذكرياتي دقيقة في ما يتعلق بالوقائع والأحداث والتواريخ ، غير أن (الحوارات) أعيد تركيبها . . . (آملاً) أن تكون أمينة ، لكني أعرف أنه لن يكون لها أبداً حذق حوار حقيقي» .

***

أكتب الآن وأنا جالس على الكنبة العريضة، في غرفة الجلوس الصغيرة، في شقتي الرقم «٧٠»، في الطابق التاسع، من بناية Madison Heights، في ضاحية Hounslow، جنوب غرب لندن. على ركبتي يجلس جهاز الكمبيوتر الصغير. أصابعي تعزف عليه هذه الدراما.

اليوم هو الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٩٩، والساعة تقترب من السادسة والنصف مساءً. المطر يتساقط بغزارة في الخارج. خلف الزجاج سماء رمادية مغبرة بقطرات مطر ينساب على الزجاج تباعاً، تاركة مكانها لغيرها، تسقط محدثة نقرشات خفيفة من النوع الذي نعشق الاستماع إليه طالما بقينا في الداخل. زوجتي سناء، العاشقة للمسلسلات المتلفزة، وخصوصاً الـ«soap op-era» تتابع إحدى حلقات «The Simpsons»، الكوميدية الشعبية المشهورة، على القناة الثانية، في التليفزيون البريطاني. رامي، ابني الثاني، الذي يبلغ السابعة عشرة من عمره، في العاشر من كانون الثاني / يناير المقبل، يتابع في غرفته، تمارينه على الغيتار، الذي صار مولعاً به بصورة مفاجئة، منذ شهرين فقط. وكنت فشلت، خلال سنوات، في إقناعه بتعلم العزف على الغيتار على يدي. اليوم لم يعد مقتنعاً بالغيتار الكهربائي الذي اشتريته له. اكتشف مواقع ضعف تقنية كثيرة فيه. هكذا قال، ربما، لتبرير شراء آلة عزف جديدة بتقنيات أفضل.

أما وسام، ابني الأكبر، فينهي الليلة عامه التاسع عشر. غداً يحتفل بعيد ميلاده، على طريقته، مع مجموعة من أصدقائه. لقد قرروا قضاء السهرة في ناد ليلي للرقص والمرح. قرروا الاستمتاع بالمناسبة Having fun، كما يقولون. غير أننا سنحتفل بعيد ميلاد وسام في البيت أولاً، وقد أعددنا له الهدايا بهذه المناسبة. زوجتي وضعت عجينة الكيك، الذي تجيد صنعه، في الفرن الكهربائي. غداً تذهب إلى عملها، لذا فضلت إعداد الكيك اليوم. عادت سناء إلى متابعة حلقة سمبسون، بينما بدأت أنا بكتابة القسم الثاني من ضحا أحمر. ويتناول الفترة التي تلت وقوع المذبحة إلى حين انسحاب الجش

الإسرائيلي في السابع من مارس/ آذار ١٩٥٦ .

استمر الاحتلال الاسرائيلي لقطاع غزة أربعة شهور، لم تقع خلالها أحداث كبيرة، أو مهمة، باستثناء مقتل سيدة شابة، في غزة، تدعى يسرى اللبابيدي، قيل أن دورية اسرائيلية داهمت بيتها وحاولت اعتقال زوجها. اعترضت يسرى طريق أفراد الدورية، وتصدت لهم بشجاعة. وخلال معركة قصيرة مع الجنود تلقت يسرى طعنات، في صدرها، أدت إلى وفاتها. وأصبحت سيرة بطولتها على كل لسان. إنها أول امرأة تسقط شهيدة خلال أيام الاحتلال.

بعد دفن جثث القتلى، وتم ذلك بعد مرور ٤٨ ساعة، سمح لسكان خان يونس بالتجول مدة ساعتين لقضاء بعض الحاجيات الضرورية. جاءت سيارة تحمل فوق سطحها اثني عشر ميكروفوناً بني اللون، طافت الشوارع الرئيسية، تعلن عن رفع حظر التجول بين العاشرة صباحاً والثانية عشرة ظهراً. ورغم الحاجة إلى التنفس والخروج من ضغط حظر التجول على الأنفاس، فقد تردد غالبية السكان في الخروج من بيوتهم إلى الشوارع العامة، كأنهم لا يرغبون في التعرف على الاحتلال واختبار مظاهره المؤلمة. كأن الخوف الذي خلفته المذبحة شل قابليتهم على استعادة أي شكل من أشكال حياتهم الطبيعية.

هكذا صار الجميع يلتقون خلال تلك الفترة القصيرة من النهار أمام أبواب البيوت، وفي الأزقة الضيقة، للاطمئنان على بعضهم، ولتبادل المواد الغذائية الاساسية، وخصوصاً الخبز، واستدانة بعض الطحين. فثمة من تلقى مواده التموينية قبيل اندلاع المعارك، ولم يزل يحتفظ ببعضها. وثمة من ينتظر عودة دوائر وكالة غوث اللاجئين الى عملها المعتاد، لكي يتسلم حصته من التموين. وقد ظلت دوائر الوكالة الدولية هذه، مغلقة لأيام عدة بسبب حظر التجول، وصعوبة عودة العمال والموظفين إلى أعمالهم.

ظل فرن أبو عادل اليافاوي، المقابل لبيتنا مغلقاً لفترة. فالوقت المتاح لا يكفي حتى لإشعال الحطب وتسخين بلاط الفرن، الذي يحتاج إلى إعداد مبكر. عاد الناس، الى عادات القرى القديمة. استعادوا خبز الصاج الرقيق، على نار

الحطب . أعدوا الطوابين داخل بيوتهم ، بنوها من الطين والقش . عادت الحاجة رقية تتحدث عن خبز الطابون . تعجن كلماتها بذكريات أيام البلاد . لكنها تمجق شفتيها متحسرة وهي تقول : هذاك كنا نخبزه عشان بنحبه ، أما هذا ابنخبزه عشان مجبورين عليه .

ساعتان من التنفس تفتح الأبواب على الأبواب . يدخل الناس ويخرجون دون حرج أو خجل . صارت البيوت بلا جدران . وفقدت العائلات قيمة أسمائها ، صار المعسكر عائلة واحدة .

أما نحن الصغار ، فقد تسلمنا مهمة جلب بعض اللوازم الضرورية . الدكاكين القليلة الواقعة على الشارع العام ، دكان أبي زكي خميس ، ودكان بنات ، اخذت تفتح أبوابها مواربة ، لمدة قصيرة . حتى أم إبراهيم الجعيدي فتحت الدكان . سلمته لجابر ريان ، جارنا الأعرج المصاب باعوجاج خلقي في كاحل قدمه اليسرى . صار يفتح باب الدكان الصغير . يناول عبره المواد المطلوبة ، ويغلقه سريعاً قبل ظهور جنود الاحتلال مجدداً . صرنا نشتري الكيروسين ، والسكر والشاي ، الضرورات الثلاث بعد الخبز ، والتي حرص البائعون على بيعها بكميات قليلة لسد حاجات الجميع . ونشط بعض باعة الكيروسين في خزانات صغيرة تجرها بغال . وأخذ بعض الصغار يبيعون الشاي المعبأ محلياً ، وقراطيس السكر الورقية ، التي لا تكفي لتحلية أكثر من أبريقي شاي ، من الحجم الصغير . كذلك قراطيس الدقة والزعتر . يدورون بها في أزقة المعسكر . يختفون قبيل عودة حظر التجول بقليل .

هكذا مضت الأيام الأولى للاحتلال ثقيلة ، رتيبة ، متوترة ، متشابهه ، مثيرة للقلق . وخلالها أمضينا معظم أوقاتنا في إعداد الطعام ، والغسيل ، وتبادل الزيارات السريعة . تأتي عمتي لزيارتنا وأذهب أنا أو أخي لزيارتها في بيتها . وقلما لعبنا في الحارة لأكثر من ساعة ، تلاحقنا بعدها نداءات الأمهات الخائفات من ظهور مفاجىء لدورية عسكرية . إلى أن مددت ساعات التجول إلى أربع ساعات ، ثم ثماني . ثم سمح للمواطنين بالتجول من الساعة السابعة صباحاً

وحتى العاشرة ليلاً . لكن الغالبية فضلت ، على الدوام ، العودة إلى بيوتها مع غروب الشمس ، وعودة الدجاج إلى أقنانه من رحلته اليومية في الحارات . باستثناء قلة من لاعبي الورق ، تواصل سهرها في المقاهي الثلاث القريبة ، إلى أن يقترب منع حظر التجول . في هذه الفترة عدنا إلى الدراسة ، التي حذفت من بين موادها مادة التاريخ . وقد تواصلت الدراسة متقطعة ، بسبب الاضرابات التي تكررت مراراً .. وبعضها نفذ بنشر إشاعات لاجبار الطلاب على مغادرة فصولهم . كتلك التي سمعناها مرة حين جاء إلى المدرسة من يقول أن اليهود قادمون لقطع آذان الطلاب . خلال دقائق اختفت المدرسة .

أمضى أبي شهور الاحتلال الاربعة بين البيت وسريره شبه الدائم في مستشفى البريج . أما عمي محمود فقد واصل عمله في حراسة مشروع خزان المياه ليلاً . وقد ساعد راتبه ، الذي لا يزيد على أربعة جنيهات مصرية ، في تغلب أسرتينا على الكثير من صعوبات تلك الفترة .

لكن الشهور لم تمض دون غرائب أو مفاجآت ، إذ جاء إلى حارتنا ، ذات يوم ، وأنا العب ومحمد جميلة ومحمد المصرية ، شرطي إسرائيلي . شرطي مدني . هكذا قلنا عنه ، لأنه يلبس بذلة كحلية ، لباس قوات الشرطة المدنية ، والتي لبسها أيضاً ، بعض رجال الشرطة الفلسطينيين ، الذين بقوا في وظائفهم ، وقررت الإدارة العسكرية الاسرائيلية الاستفادة من خدماتهم ، ومن معرفتهم بالمدينة والمخيمات ، ومساعدتها في ضبط النظام وملاحقة اللصوص ، والتعامل مع القضايا الأمنية للناس ، وحل مشكلاتهم .

سألنا الشرطي عن بيت أبي مصطفى الحوراني ، جارنا ، الذي يقع بيته خلف فرن أبي عادل . خفنا ثلاثتنا من السؤال . لكن الشرطي ، الذي بدا في الأربعين من عمره ، ابتسم لنا وهو يقول :

– ما تخافوش ، الحوراني صاحبي من زمان .

لكنه مثل اللي أجا يكحلها عماها ، ضاعف من مخاوفنا . يهودي صاحب جارنا ابن قرية المسمية !

قال أيضاً وقد فتحنا أفواهنا كالبلهاء :

– أبو مصطفى فلاح زيي ، زرعنا وحصدنا سنين سوا .

أخذناه الى هناك . سرنا ثلاثتنا من حوله ، ودللناه على بيت الحوراني ، ووقفنا بعيداً نراقب ما سيجري .

فتح العجوز ذو اللحية البيضاء الباب ، وما أن وقع نظره على الشرطي الإسرائيلي حتى تخشب في مكانه . وصارت لحيته تطلع وتنزل . نظراته تجمدت كأن عينيه غارتا في رأسه ، ثم فتح ذراعيه عريضتين ، ودخل الإسرائيلي بينهما . تعانق الرجلان وتبادلا القبلات أمام أعيننا التي عمتها الدهشة . وركضنا عائدين إلى بيوتنا . تفرقنا يحمل كل منا إلى أهله حكاية مثل خراريف زمان .

أمي قالت : معناتو اصحاب من أيام لبلاد .

أبي قال : يا ما فلسطينية ويهود تصاحبو زمان .

وانتشرت الحكاية . وعلمت ، مثلما علم الجميع ، أن الشرطي الإسرائيلي أعطى أبي مصطفى مبلغاً من المال ، وأخبره أنه حصته من ريع الأرض التي تركها ، مرغماً ، وهاجر ، وصار اليهودي يفلحها وحده .

المخيم كله استغرب ، ولذلك أكثر من القيل والقال . ناس قالوا يهودي صحيح بس عنده ضمير ، واللي عنده ضمير لا برتاح ولا بينام . وناس عتبوا على الحوراني ولاموه ، وقالوا« يا ريته بزق في وجه اليهودي بدل ما يحظنه وياخذ منه مصاري . مش يستحي ع شيبته ، أولاد الناس ، جيرانه شباب مثل الورد ، هذاك اليوم ماتو طخ ع ايدين اليهود . ودمهم يا ويلي بعدو ما نشف» .

وفوق هذا وذاك نسجت النساء حكايات عند حنفيات المياه . لم يضيعن وقت انتظار ملء جرارهن عبثاً ، ونسجن حكايات . وقلن ، أيضاً ، ما يصدق وما لا يصدق ، في أثناء انتظار الخبز في فرن أبي عادل ، الذي أعيد فتحه ، وعاد جعبوب يعمل فيه بانتظام . ومما قلن وقاله غيرهن ، من الرجال ، أيضاً ، أن اليهودي ، الذي لم يذكر أحد اسمه ، بحث عن الحوراني منذ اليوم الأول للاحتلال . وهذا يعني أنه فكر فيه منذ أن هاجر ، وغادر المسمية . وأنه ظل

يتحين فرصة اللقاء لكي يرد إليه الأمانة . فوقع الاحتلال الذي جاء بالمذابح والموت . لكنه جاء ، بالنسبة له ، بالمناسبة المنتظرة للقاء صديقين قديمين .

غير أن أهم ما سمعته آنذاك ، وأثار دهشتي ، هو مبالغة بعض الناس حول طيبة ذلك اليهودي ، وإعجابهم الشديد به . إذ لا يعقل أن يتخلى يهودي ليهودي عن أغورة واحدة ، حتى حين تساوي قيمتها العدم نفسه . فكيف يعيد الشرطي اليهودي أموالاً إلى شخص غير يهودي ، من ال«الغوييم» الأغراب . وأكثر من ذلك«غوييم» فلسطيني . وهناك من قال أن اليهودي ، يهودي مش أصيل ومش نقي . . يا عمي هذا الزلمة فيه عرق فلسطيني . طب ليش ؟ قال لأنه عاش طول عمره بين الفلسطينية . وضربوا مثلاً بسؤال غريب ، قالوا ، طيب ، لو اليهودي اللي رجع المصاري ، بعد أكثر من ثمان اسنين ، أصله بولوني بيرجع منها نص أغورة ! . مع انه لا يوجد للأغورة نصف ، ولا تمكن قسمتها أصلاً .

كل شيء محتمل وغير محتمل قيل ، ولم يبق ما هو منطقي ، أو غير منطقي ، إلا وقيل في قصة اليهودي والحوراني ابن المسمية ، إلا سؤال واحد لم يسأله أحد : ماذا لو جد اليهودي صديقه الحوراني قتيلاً برصاص جيش الدفاع ! هل يبكيه؟ هل يسلم الأمانة لذويه ؟ ويلعن أمامهم جيش الدفاع ، ويتحسر على أيام العيش سويا ، في فلسطين . ويقول لهم ، من دون خوف ، وبلهجة أهل المسمية ، الذين عاش بينهم ، يا جماعة الأرض أرضكم ، وجماعتنا هم اللي خربو الدنيا ، وما خلوا بينا لا خبز ولا ملح ؟ هل يفعل ذلك ، أم يفرح لمقتل صديقه ويحتفظ لنفسه بحصته من ريع الأرض . ويقول ما يقوله المثل ، بركة يا جامع ، أجت منك ما جت مني ، ويلقي باللائمة على الزمن ، والعداء التاريخي . ويبرر العدوان ، وكل ما نتج عنه ، وترتب عليه ، مؤكداً ، كما أكدت جماعته ، من بن غوريون إلى موشي ديان ، أن احتلال قطاع غزة جاء رداً على نشاطات فدائيي مصطفى حافظ ، الذين تسللوا ، مراراً ، الى المستوطنات اليهودية ، وقتلوا بعض سكانها ؟

لا أحد يعرف ، لأن السؤال لم يطرح حينذاك . وقد اكتفى الناس بإبداء

الاستغراب المخلوط بالإعجاب والذهول .

وظلت حارتنا تحكي وتحكي ، وطلع الحكي من الحارة وعبأ المعسكرات كلها بالكلام المعاد . إلى أن جاء يوم خرست فيه حارتنا ، وقطعت ألسنة سكانها ، مرة واحدة ، وعلقت على حبال الغسيل ، لكي تجف وتتخلص من الكلام العالق بها . وبعد ذلك تبدأ الألسنة ، ذاتها ، في نسج حكاية جديدة .

جفت حكاية اليهودي وابن المسمية فعلاً ، عندما عجز الناس عن إيجاد إضافات . كأنهم وصلوا إلى الليلة بعد الألف من الحكاية . وعادت ألسنتهم تلعب في الأفواه المفتوحة ، ليس بسبب تعرضها للشمس فوق حبال الغسيل ، وجفاف قصة اليهودي وابن المسمية ، بل بحثاً عن حكاية جديدة . وجاءت الفرصة ، في المراحل الأخيرة من عملية تجفيف الالسنة ، وعلى غير ما هو متوقع ، مع بداية قصة أولاد زوانة ، أقاربنا .

قيل أن الشلي ، المقيم في مخيم الشاطىء ، في غزة ، شكا قريبه ، أبا شعبان ، المقيم في حارتنا ، لليهود . قالوا أنه سلمه مبلغاً من المال ، وضعه أمانة لديه أثناء الهجرة ، من الجدل ، عام ١٩٤٨ . قال له : يا ابن عم خلي لي هالمصاري معك . وبتعطيني اياهن بعدين إذا ظلينا طيبين . ومنذ ذلك الحين لم يسترد الشلي نقوده . ولم يرد العبد زوانة الأمانة لصاحبها مع أنه ميسور الحال ، من أيام الجدل .

فجأة قرر محمد الشلي مطالبة العبد زوانة برد الأمانة . العبد رفض ذلك . قال له : ما لكيش عندي اشي . هكذا قيل في حارتنا . ذهب الشيلي الى الشرطة الإسرائيلية وقدم شكوى ضد العبد زوانه ، وبعدها جرى ما جرى .

لكن ما الذي جرى للعبد زوانة ، حتى أهز رأسي ، اندهاشاً ، أثناء الكتابه ؟

ما جرى للعبد زوانة ولولديه أكبر بكثير من المصاري ، ومن أية ديون ، أو أمانات . لقد شاهدت الحكاية وهي تصنع ، أي قبل أن تصبح حكاية تحكى .

فقد استيقظت قرابة منتصف الليل ، أو بعده بقليل ، على وقع أصوات غريبة . حين فتحت عيني وجدتني بين ساقين عملاقتين ، تنتصبان على جانبي جسدي

الصغير وأنا ممدد على ظهري في الفراش . ساقان ملفوفتان في بنطلون كحلي سميك ، يصعد إلى خاصرة لا أراها . أوشكت على الصراخ . أمي سارعت وبسملت ، صارخة في وجه الشرطي ، الذي طاول رأسه خشب سقف البيت القرميدي : حرام عليكم ، خافو الله ياناس ، صحيت الصبي من نومه ورعبته . أزاح الشرطي ساقيه بعيداً . نهضت من فراشي . رأيت جدي يقف إلى جانب شرطيين آخرين عند باب غرفتنا من الخارج . جدي ينام عندنا منذ أربعة أيام . منذ عاد أبي الى المستشفى . أبي اضطر إلى العودة إلى البريج لإجراء بعض الفحوصات الضرورية لصدره ، فقرر الأطباء إبقاءه لبضعة أسابيع ، وقرر جدي أن ينام عندنا ، لأن عمي محمود غائب ، أيضاً ، يمضي الليل في حراسة خزان مياه لم يكتمل بعد ، ولا يوجد رجال في البيت .

خرج جدي برفقة رجال الشرطة الإسرائيليين الثلاثة ، الذين لم يقولوا كلمة واحدة . خاطب أمي وهو يجتاز عتبة الباب قائلاً : أني راجع يا لطيفة .

سألت أمي وأنا أفرك النعاس والخوف في عيني :

– ايش بدهم اليهود يمّه ؟

أجابت :

– جايين بدهم العبد زوانة . ما قالوش ليش . الله يستر . وسيدك راح يوديهم لهناك .

– طب ليش اجو لعنا ؟ احنا ايش دخلنا .

– المختار حمار . أبو مهدي هو اللي جابهم . والله يمّه قشعر بدني لمن خبطوع الباب نص الليل ، وهم يصرخو« افتخ يا خمار ، افتخ يا خمار» .

فتحت الهم ، وصرخت عليهم :

– كلنا ولايا ايش بدكم جايين في انصاص الليالي ؟

واحد منهم سألني :

– وايش في هون ؟

وأشر على أوظة بيت عمك . عقلي طار ، صرت بدي أقع من طولي . عمك خبا برودة لقيها ، قبل مدة ، وهو راجع في الليل ، تحت الفرشة . خفت يعبروع

الاوظة ويلاقوها . وقفت في وجه اليهودي ، وصرخت : قلت له ولايا ، كلنا ولايا . وصرخت على مرت عمك تطلع عشان يمّه ما يعبروش عليها في الاوظة . ها ، الا . فزّت دلول وطلعت . لمن شافها اليهودي رجع واندار لاوظتنا ، وعبر بدو يفتش لمن أنت صحيت وشفته . بعدين طلع . بعيدين سأل المختار : بيت مين هذا ؟ رد عليه المختار ، وقال له : بيت أولاد سليم المدهون . وما شفنالك يمّه إلا واحد من اليهود بيخبطو للمختار بالبارودة بين اكتافو ، وبيقول له : يا خمار بدنا العبد مدهون مش سليم ، أنت ما بفهم . أني اجيت أفرط من الظحك . بس والله يمّه احزنت ع المختار .

عاد جدي بعد حوالي ربع ساعة مثلما خرج ، لا يعرف شيئاً مما جرى وما سيجري . عاد حزيناً ، لم يتصور أنه سوف يجد نفسه ، في يوم من الأيام ، يدل اليهود على بيت واحد من أقاربه . وهو يعلم أن الأموز لن تنتهي على خير ما دام اليهود حشروا حالهم فيها .

رمى جدي عصاه جانباً ، وتمدد على فرشته . وآخر ما سمعته منه قبل أن أغفو ، قوله لأمي : دشرتهم هناك وارجعت . ما خلونيش أستنى ، والا أسمع اشي . الله يستر ، قلبي مش مطمئن .

في اليوم التالي ، صحت شكوك جدي ، وتبين أن لقلقه أسباباً وجيهة بالفعل . فقد علمنا ، مثل جميع سكان الحارة ، أن الشرطة الإسرائيلية اعتقلت العبد زوانة وولديه الكبير شعبان والأصغر منه محمد .

احتجز الوالد والشقيقان في مركز شرطة خان يونس لعدة أيام ، قبل أن يطلق سراحهم . وقد لزموا جميعهم الفراش لأسابيع . فقد تعرضوا لضرب مبرح ، وتورمت وجوههم . وصار صعباً التعرف على العبد زوانه بعد الضرب الذي تلقاه . وقيل أن زوجته ، أم شعبان ، لم تستطع معرفة شعبان من محمد عندما دخلا البيت . حتى أن شخصاً من أقاربنا زارهما ، قال ، مازحاً ، بعد عودته : « صار اللي بيشوفهم ما بيعرف شعبان من رمظان» .

***

ظل الحال على امتداد شهور الاحتلال الأربعة ، على ما هو عليه . رعب ، وخوف ، وحذر ، ودوريات ، ومداهمات من حين لآخر ، يحكى عنها هنا وهناك . إلى أن جاء اليوم الرابع والعشرون بعد المئة . فجر ذلك اليوم صحونا على مكبرات الصوت ، تعلن عن منع التجول إلى إشعار آخر . طافت السيارة التي تشبه سحارة خضار ، تحمل ميكروفوناتها الاثني عشر ، الشوارع الرئيسية في المدينة ، قبل أن تتجه إلى المعسكرات ، صعوداً عبر طريق البحر ، حيث توقفت قبالة مقهى أبي مسلم ، ورددت ما سبق ورددته في المدينة :

«أيها المواطنون ،

أيها المواطنون ،

بأمر من الحاكم العسكري لمدينة خان يونس ، يمنع منعاً باتاً مغادرة البيوت والتجول في الشوارع . من الساعة السادسة من صباح اليوم وإلى إشعار آخر . الزموا بيوتكم . كل من يخالف الأوامر يعرض نفسه لإطلاق النار . ولقد أعذر من أنذر .

أيها المواطنون .

بأمر من . . . .

انتهت جولتنا ، محمد جميلة ولطفي الحيلة وأنا ، بعد ظهر امس ، إلى« الميني ماركيت» الوحيد الذي افتتحته السلطات العسكرية في خان يونس في الطابق الأرضي من بناية ابي دقة . قبالة تمثال الجندي المجهول ، الذي نسفته القوات الإسرائيلية ، في أثناء عمليات احتلال المدينة . لفت نظرنا وجود شاحنة أمام المحل . وقفنا نرقب المشهد . عاملان يقومان بنقل البضائع إلى الشاحنة ، يشرف على عملهما إسرائيلي تجاوز الخمسين من عمره . قصير القامة ، أشيب . تطلع إلينا حالما توقفنا قبالة المحل . لم يمهلنا لمحاولة فهم ما يجري . ترك ما بيده وتقدم باتجاهنا . عندما أصبح على مدخل المحل صاح :

– ما فيه مدغشة اليوم ، روخ ع المدغشة بتاعك خبيبي ؟!

محمد رد عليه :

- ما فش مدرسة اليوم يا خواجة .

عاد يقول :

- طيب ، روخ البيت بتاعك ، كمان ما في بيت اندك ؟

رد محمد :

- لأ فيه يا خواجة ، بس بدنا نتفرج . خلينا نتفرج الله يخليك .

أنا قلت لمحمد :

- خلينا نروح يا محمد شو بدنا بهالفرجة .

الخواجة كرر :

- روخ ع البيت .

صحت في محمد :

- يا اللا امشي خلص .

محمد لم يتحرك . الخواجة استدار قافزاً إلى داخل المحل وأحضر عصا غليظة ، وعاد راكضاً باتجاهنا . استدرنا ثلاثتنا وهربنا من أمامه مسرعين .

***

بقي منع التجول ساري المفعول ، على امتداد النهار وما بعد غروب الشمس ، الذي لم نستطع مشاهدته لكثافة الغيوم التي تلبدت في السماء اليوم ، جاءت السيارة ، التي تحمل ميكروفوناتها الاثني عشر فوق ظهرها ، وعادت تؤكد على استمرار منع التجول« إلى إشعار آخر» . مع أن لا حاجة لمثل هذا التأكيد . فالناس تلتزم بيوتها ليلاً مثل الدجاج . غير أن طعم نهار اليوم بدا غريباً . أبي لم يتوقف عن طرح الأسئلة . سألني أكثر من ثلاث مرات عن المحل الذي شاهدت اليهود ، أمس ، ينقلون ما فيه من بضائع . وفي كل مرة يضاعف أبي السؤال قائلاً : أنت متأكد ، يعني متأكد أنهم عزلو المحل ، والا بس بيبدلو لبظاعة ؟ فأؤكد له ما رأيت بعيني . فيقول وهو يهز رأسه : فيه اشي غريب بيصير . التعزيل مش طبيعي ،

ومنع التجول صار له زمان ما طول هالقد .

لكن حوار أبي لم يتجاوزنا . لأنني لم أستطع إفادته بأكثر مما أفدت . والوحيد الذي يستطيع أن يحاوره ، في أمور كهذه ، هو عمي محمود ، الذي يواصل حراسته لخزان المياه الذي لم تخزن فيه مياه بعد . وهو لم يحضر منذ ليلة أمس . أعلن منع التجول قبيل انتهاء نوبة حراسته الليلية ، فبقي في عمله .

وهكذا ذهب أبي لينام ، وقد وضع أسئلته تحت مخدته ، حتى تبقى ساخنة ، وقريبة منه .

اندسست في فراشي مثل بقية من في البيت ، أمي وأخي راسم وأختي رحاب ، وامرأة عمي محمود ، وأمها الحاجة رقية ، وبنات عمي أديبة وحمدية وسعاد والصغير حمدي . جدي عاد قبل أسبوع ليبيت عند عمتي بعد ان عاد أبي من المستشفى .

في الخارج بدأت أصوات دبابات نصف مجنزرة تصل أسماعنا . تتواصل دون توقف . كأنها قافلة تمتد من نهايات المعسكر عند سوافي الرمل ، لكنها ظلت تهدر بعيداً عن معسكرنا . نمت . في أذني هدير الجنزرات ، في عيني مشهد أخير للحاجة رقية تخبر ابنتها ، بانها ستسبِّت الليلة . لماذا تذكرت ذلك ، لماذا استحضرت حكايتها الآن ؟ لا أدري ، لكنها حضرت بكلماتها الغريبة : رح أسبّت الليلة ، واشوف المستقبل . كثيراً ما تفعل ذلك . تستحم ، تصلي العشاء ، ثم تتمدد في فراشها . أخبرتنا مراراً أنها تستطيع أن ترى ، في ما يراه النائم ، أحداثاً تجري في المستقبل . تفعل ذلك ليلة السبت . لهذا سمت العملية تسبيتة . وقد قررت تلك الليلة أن تسبت لترى المستقبل . الليلة ليلة أربعاء . تمنيت لو أنها ليلة سبت . الحاجة قالت لنا ، ذات مرة ، أنها تبسمل أولاً ، ثم تنوي : نويت كذا وكذا . ثم تقرأ آية الكرسي سبع مرات ، وتنام .

في الصباح نتحلق حولها . نسألها عما رأته ، تقول :

– صلوا على النبي .

– اللهم صلي وسلم عليك يا نبي .

- زيدو النبي صلاة .
- اللهم صلي وسلم عليك يا نبي .
- حلمت ، اللهم اجعلو خير .
- خير انشالله .

رأيت في ما يرى النايم سهل أخضر على مد النظر . وزلمة لابس أبيظ في ابيظ واقف في النص . الهيئتو ولي من أولياء الله . . .قال لي ياحاجة اطمئني وطمني غيرك . . .

وبقيت مع أحلام الحاجة وتسبيتتها حتى غفوت .

منتصف الليل صحوت على هدير الجنزرات ، الذي يؤكد مرورها من منطقة قريبة جداً . لم أستبعد عبورها الشارع الرئيسي في تلك اللحظات ، بين بيت المرحوم ابي ابراهيم الجعيدي وبيت ابي العبد الحيلة ، على مسافة خمسين متراً من بيتنا .

فتحت عيني على ضوء المصباح الواهن ، لمحت أبي يتقلب في سريره الاسمنتي ، ويستقر على جانبه الأيمن ، في مواجهة أمي ، التي تنام إلى جوارنا على الأرض . تنحنح كأنه يختبر نومها ، ففاجأته بأنها مستيقظة . وبادرته بالسؤال :

- إنت صاحي يابو ربعي ، أني ما اعرفت أنام منيح من كركعة هالجنزرات . فكرك شو الدنيا ليل واللا نهار !

أبي رد همساً :

- الدنيا بعدها نص الليل يا مرة .
- وايش صحاك في نص الليل .
- قلقت . نمت زي اللي نايم ع خزوق .

سكت أبي لحظة ، ثم قال :

- بتعرفي يا لطيفة ، بيتهيألي أن اليهود بينسحبو .
- ينسحبو ، أعوذ بالله !

– أني متأكد ، من ساعة ما نمت ، وأني بقلب أفكاري وبديرها .
– ولشو وصلت ؟
اعتدل في جلسته . استند إلى الحائط ، بعد أن وضع مخدتين خلف ظهره .
صوت الجنزرات يكاد يختفي في البعيد . همس ابي صار مسموعاً تماماً ، وأنا أرخيت أذني باهتمام .
أبي تابع كلامه :
– من أسبوع والإذاعات بتحكي عن تهديد الروس لليهود . وعبد الناصر صار له من مدة ، كل ما بيخطب بيقول أنه قطاع غزة لازم يرجع لصحابه ، زي ما رجعت سينا وبور سعيد لمصر .
أمي سألت :
– وايش جاب هذا لهذا ؟ والله ماني فاهمة . عبد الناصر آه ، افهمنا ، بس الروس شو دخلهم ، ايش الهم مصلحة ، وليش ت يهددوا اليهود !
– الروس معنا .
أجابها أبي .
تابعت أسئلتها :
– وبتصدق أنهم معنا ، كلها خراريف فاظية . ما حدن مع حدا هالأيام .
– لأ ، اطمئني . الروس معنا ، مش خراريف فاظية . الروس ، فعلاً ، أني بقول لك هددو اليهود . وبولغانين قال الهم لازم تنسحبو . والروس بيمزحوش .
– الروس كفار يا خليل ، وعمر الكافر ما بيجي من وراه خير . قال يا طالب الدبس من طيز النمس ، يكفيك شر العسل .
أبي انفعل :
– احنا مالنا ومالهم ، اذا كفار والا مش كفار . بعدين بلا دبس بلا نمس ، الروس قوة كبيرة مش مسخرة زي ما بتفكريهم !
– طيب وليش احمقت يا زلمة ، أني ما قلتش إشي غلط . عشان قلت كفار يعني ، يقطعني ويقطع الساني ، خلص بطلت احكي .

- يا وليـة ، احنا مش داعيينهم للصلاة في الجامع ، لا ورا الشيخ محمـد ابو العظم ، ولا الشيخ ابو كرشين . المهم يخوفو اليهود وينسحبو ويحلو عنا .

- خلص ، زي ما بدك ، بس ما تزعلش ، الزعل مش منيح .

- فلقتيني ، وبتقولي لي ما احمقش وما ازعلش ، بدي احمق واجن كمان .

- وني ايش عرفني .

كدت أضحك . لكني كتمت ضحكتي وواصلت التظاهر بالنوم ، والاستمتاع بمناقرتهما الطريفة .

أمي عادت تنق :

- طيب ليش الروس معنا ، ما فهمتنيش !

ابي أفأف . نفخ ، وتنهد ، ولم يجبها مباشرة . أحسست بانه لا يعرف كيف يرد عليها . وهو لو عرف ، أصلا ، لوجد صعوبة في شرح ذلك لأمي . لكنه سرعان ما توصل إلى حل وجده معقولاً ، وربما منطقياً ، إذ قال لها :

- الروس واقفين معنا لانهم بيحبوش اليهود .

أمي ارتاحت للجواب وأثنت على كلامه :

- مزبوط ، والله العفريت ما بيحبهم .

خلصنا ، ارتحتي هلقيت !

قال أبي ، معتقداً أنه أنهى بذلك الجدل العجيب مع أمي . غير أنها سرعان ما عادت تسأله وهي تستدير ، وتنقلب على جانبها الآخر ، معطية له ظهرها :

- يعني فكرك صحيح اليهود بينسحبو ؟

- يمكن .

- بالمرة ؟

- يعني أني ايش عرفني يا مرة !

- وطي صوتك يا زلمة ليصحو لولاد . . .

- ما اتخافيش لولاد نايمين .

ضحكت في سري . أمي تابعت :

- إنت قلت بينسحبو

أبي عاد إلى انفعاله السابق :

- استغفر الله العظيم من كل ذنب أثيم . خلص يا ولية نامي ، والله لو سمعو صوتك لبطلو ينسحبو ، وظلو قاعدين على قلوبنا .

- ليش هو اني ابن غوريون ، والا شرتوت (موشي شرتوك) عشان يخافو مني !

- طيب نامي والصباح رباح .

واعاد أبي المخدتين إلى مكانهما ونام . ولم أعد أسمع صوت أمي . ونمت بدوري ، غفوت على كلمات أبي الغريبة .

***

الفجر يعاني لحظة ولادته ، والسماء تغسل جسد المدينة بقطرات ماء خفيفة ، تسمع نقرشاتها فوق علب الصفيح ، وعلى أسطح أطشات الغسيل في ساحات البيوت . مثل صوت قيثارات صغيرة نقرشاتها .

ياناس ، يا هو ، يا أهل الحارة ، أصحو وصلو على النبي ، اليهود طلعو من البلد .

دخل الصوت علينا خفيفاً ، متقطعاً ، مثل صوت المطر . حرك النائمين في فراشهم تحركوا . أحلمهم حلموا . أوقظهم أستيقظوا . في يقظتهم حلموا . نهضوا من الحلم ، صحوا على الحقيقة .

رأيت أبي وقد وقف وسط الغرفة مثل عمود الخيمة . وضع قدميه في نعليه وخرج بهدوء كأنه ريح خفيفة .

بدأ الكل يتحرك في فراشه ، ينهض . أصوات وهمهمات تصلنا من الخارج . أمي قامت من فراشها ولحقت بأبي . سمعت الحاجة رقية تسأل أبي« اسمعت اللي أني اسمعته يا بو ربعي» . أبي أجابها « بيقولو اليهود طلعو م البلد» . قمت

وخرجت لأجد أبي وامي والحاجة رقية وامرأة عمي دلول يتوسطون قاع الدار . برقت السماء ورعدت منذرة بهطول أمطار أكثر غزارة . شافوا وجوههم في ضوء البرق السريع . الحاجة قالت : جاي مطر الكب امن الرب ، خ نعبر جوه يا جماعة الخير قبل ما نغرق . علا الصوت في السماء متقاطعاً مع نقرشات حبات المطر ، التي لم تزل تنزلق ، من على السطح القرميدي ، فوق الصفائح واطشات الغسيل : يا عالم . تك . اطلعو من بيوتكم تك تك ما تك . في يهود في البلد تك تك تتكتك .

جارنا عيد رمضان صاح من خلف الحائط الفاصل بيننا :

- أصحى يا بو ربعي ، قومو يا جماعة اليهود انسحبو .

رد أبي :

صاحيين يابو شعبان الحمد لله فرج من الله .

والتفت إلى أمي قائلاً :

- مش قلتلك يا لطيفة الليلة أنه اليهود بينسحبو ، صدقتي .

أمي لم تعلق ، واكتفت بوضع ابتسامة مثل الصبح على شفتيها .

نصدق ولا نصدق .

تزايد هطول المطر ، وهرعنا جميعاً ودخلنا غرفة الحاجة رقية .

الحاجة رقية قالت أنها حلمت حلماً ، وهي ترى تفسيره الآن . قالت : شفت في منامي ارظ مفروشة بحشيش أخظر . ونور مثل . . .

لم اسمع بقية حلمها ، ولم أهتم له ، خرجت من غرفتها ، وغادرت البيت إلى الحارة ، وصرخات أمي تلاحقني .

ولدهشتي وجدت الحارة منتشرة في الحارة . من وسط الحارة ، ناديت أبي :

- يا با الحارة كلها صارت في الحارة .

خلال ثوان انضم أبي إلى من في الحارة . رأيته يسير نحو أبي شعبان الذي سبقنا ، رافعاً جاكتته الكحلية فوق رأسه ليحتمي من المطر . رأيت الحارة ناساً ومطراً . وكلاماً متقطعاً وموصولاً عن الرجل الذي أعلن سقوط الاحتلال . إنه أبو

العبد ، مؤذن ذلك الصباح . وقف عند زاوية بيته المطل على الشارع العام ، يعلن انسحاب الجيش الإسرائيلي من خان يونس .

صحا الرجل فجراً . تناول جعبوب المياه وهمَّ بالخروج إلى المرحاض العام القريب من بيته ، لكي يتشطف ، ويعود إلى البيت ، يتوضأ ويؤدي صلاة الفجر . ما أن أغلق باب البيت خلفه حتى فوجيء بسيارة تخرج من خلف مقهى أبي مسلم تتقدم نحوه ببطء . توقفت السيارة فجأة على بعد عشرين متراً منه . الجعبوب سقط من يده . والماء اندلق على الرمل المبلل بالمطر . أبو العبد ظنها سيارة عسكرية إسرائيلية . كاد يستدير ويرمي بنفسه عبر الباب داخل البيت . جندي يعتمر قبعة زرقاء هبط من السيارة وأسرع نحوه . أبو العبد انتبه لهيأة الجندي الغريبة . الجندي هتف مبتسماً :

. Israeli no . hallo, hallo . Israeli no

أبو العبد أصابته الحيرة . نادى على ابنه عبد الرحمن الذي خرج يسأل :

– ايش فيه يابا ؟

– اسمع يابا هاظا العسكري ايش بيقول ، بيرطن ، وبيقول إسرائيلي نو .

عبد الرحمن سأل الجندي :

who are you?

الجندي أجاب :

. ispaniol , no english, UN-

وأشار الجندي إلى الحروف المكتوبة على كتفه اليسرى ، وكذلك إلى مقدم السيارة وجوانبها ، فيما اخذ رفاقه يتصايحون ola , amigo , mangana .

التفت عبد الرحمن إلى أبيه ، وصاح وهو يشهق :

– يابا ، يا يا هـ هـ ذول مش يهود ، هذول تعون أم متحدة .

– يعني اليهود طلعو ؟

وبدأ الحيلة الأب يصرخ ، يردد كلماته التي سمعناها عند الفجر مثل الآذان ، كأن أبو العبد صار مؤذن المعسكر : يا ناس يا هو أصحو وصلو على النبي ، محمد

سيد المرسلين ، ما في يهود في البلد . يا عالم يا هـ . .
وصحت المدينة بأكملها . انفجرت مثل بركان فرح مخزون .

***

لم أشهد في حياتي نهاراً يشبه نهار اليوم ، السابع من مارس/آذار عام ١٩٥٧ . نهار لا يشبه إلا ذاته . في صباحه اهتزت المدينة ، وارتجت المعسكرات من رعد الفرح الذي أطلقته ، حتى قيل أن المدينة صارت بحراً . وصار بشرها أمواجاً . هاج البحر وماج . وصعدت أمواجه من المعسكرات ، زحفت على المدينة الزاحفة على نفسها . ومعسكر البدو الفوقاني يتشكل موجاً ، يهبط زاحفاً نحو وسط المدينة التي أغرقها طوفان البشر . رأيت خان يونس تغرق تحت طوفان من الفرح . أناسها في البيوت ، في الأزقة ، في الشوارع يرقصون . طرحت المدينة قنعتها عن رأسها . خلعت عن جسدها دايرها الأسود كما تخلع حزناً جثم على قلبها . بانت مفاتنها . شاهدت خان يونس عارية من حزنها . فوق ساحاتها شبان يدبكون . يدقون بأقدامهم وجه الأرض المغسول بالمطر ، يتطاير الماء رذاذاً ، يلحق بزخات الرصاص ، المنطلق من مئات البنادق ، صار الرصاص مطر .

وأخذ آلاف البشر يتراكضون في الشوارع . يغتسلون من خوف جثم على صدورهم أربعة شهور كاملة . يهتفون حتى تبح حناجرهم . كأن فلسطين عادت مع أنها لم تعد . سراً زرعوا بنادقهم . خبؤوها في الرمل بذوراً . تنفست الأرض حريتها بانسحاب المحتلين الإسرائيليين . أنبتت الأرض بنادق . رأيت خان يونس مزروعة بالبنادق . رأيت شابين يطلقان النار من رشاشي برن ثقيلين . سمعت عن دبابة صغيرة ، من طراز شيرمان ، أخفاها مواطنون تحت شجرة ضخمة ، في أرض آل وافي .« في أرض الوفيات دبابة» . همس أحدهم ، ورددت المدينة همسة حتى رعدت الأصوات مثل دبابة . تناقل الجميع قصتها . قالوا شجرة ضخمة ظليلة حنَّت عليها . حنَت فروعها وغصونها عليها وغطتها . دفأتها أربعة شهور كاملة في

حضنها . حبلت بها طيلة فترة بقاء الاحتلال . قالوا في شجر بيحْبل أربعتُشهُر وبيثمِر . ولدت الشجرة يوم رحيل الاحتلال . هنأ الناس بعضهم بالميلاد . وعلقوا خرزة زرقة وماشالله على جبين المولود . سمعت قصة الشجرة والدبابة وأنا أركض مع الراكضين . معي يركض عبد الرحمن الحيلة ، وابن خالته لطفي ، وأخوه صالح ، ومحمد جميلة . نركض ونهتف . نردد ما يردده الآخرون .« خان يونس يا بور سعيد : كفاحك كفاح مجيد» . نركض . والمطر يركض تحت ثيابنا . ورائحة البارود مثل البخور تنتشر في الفضاء المبلل بمياه المطر . والأرض تنشر رائحتها فلا ندرك أيهما الأطيب : بخور البارود أم رائحة الارض بعد المطر ، والتي لا تشبهها رائحة .

رائحة الأرض كريهة حين تجف ويتشقق وجهها . وبصاطير الاحتلال شققت وجه الأرض ، مزقت خدودها ، ونشفت ريقها . شممت تلك الرائحة ذات مرة . ذات مرة ، قبل عامين ، وقد نشف ريق الأرض . حل فصل الشتاء من دون شتاء . لا برد ولا ريح ولا مطر . حتى سخر الناس منه ، وضحكوا عليه . قالوا هذا شتا من قلته ، لو ما اجاش أحسن . كأنه يمكن تغيير الفصول ، وتبديلها ، وحتى إلغاء ما لا نرغب فيه منها . هكذا قالوا ، لأن الشتاء لم يأت إلا في الرزنامة . الرزنامة حددت موعده ، كالعادة ، بعد الخريف . جاء الخريف وراح ، ولم يأت الشتاء . والناس لا يريدون فصلاً يسجل حضوره في الرزنامة ولا يأتي . يريدونه أن يأتي ببرده ورياحه وغيومه وأمطاره . يروي عطش الأرض التي انتظرته طويلاً .

حرث الفلاحون ، ونكشوا ، ورموا بذار القمح والشعير على وجه الأرض ، وانتظروا أن يأتي المطر . لم تسقط قطرة واحدة منه . من أين ترضع الارض إن جفت ضروع السماء . خاف الفلاحون على البذار . وتداعى المشايخ ، وأصحاب الأرض والمزارعين الى مسيرة استسقاء . يومها خرجت برفقة عدد من أولاد حارتنا وانضممنا إلى مسيرة الاستسقاء . طفنا معها المدينة صعوداً عبر الطريق العام ، المؤدي إلى مدينة رفح جنوباً . صعدنا تلة الشيخ محمد شرقا . سرنا في طريق زراعي طويل ، متعرج ، خال من الزرع . الكل يهلل ويكبر ، ويدعو الله أن

ينزل المطر . يرفعون أكفهم الى السماء بالدعاء يحاولون سحب الماء منها . وصلنا إلى سقيفة صغيرة قديمة . قالوا هذا ضريح الشيخ محمد ، ولي من أولياء الله الصالحين . أخذنا نسرق ، تباعاً ، بصبصات سريعة ، عبر شباك العناكب المنصوبة حول طاقة في الجدار . لم ير أي منّا الشيخ محمد ، ولا الضريح الذي اختنق بين جدران سقيفته نصف المعتمة . لكننا قرأنا الفاتحة على روحه ، مثلما فعل كل من مر بالضريح . وظل الناس يتضرعون بالشيخ الميت أكثر من ربع ساعة . يتوسلونه التدخل بفضل بركاته . ثم واصلت الجموع زحفها في طريق متعرج طويل . كلما مررنا ببيت رشقتنا نساؤه بالماء ، وكبّرن . يتساقط الماء رذاذاً فوق رؤوسنا كأنه المطر الموعود . وتتصاعد آيات التكبير ، تشق طريقها إلى السماء . طفنا الأزقة والطرقات حتى وصلنا دوار المدينة . ومن هناك عدنا باتجاه وسطها ، حيث توقف الزحف أمام الجامع الكبير . دخل الكبار ليقيموا صلاة الاستسقاء وعدنا نحن الصغار إلى حارتنا نطوف بجنباتها مجدداً .

اليوم نطوف المدينة على غير هدى . من شارع البحر إلى شارع جلال ، إلى مركز البوليس القديم ، المواجه لمرآب باصات بامية ، والذي تسلل إليه الإسرائيليون ونسفوه عام ١٩٥٥ ، إلى مزلقان السكة الحديد ، الى دوار المدينة . نعود . نختفي في أمواج بشرية أخرى تتجه نحو أراضي السطلان . نسبح في مياهها . نقفز فرحاً . نطير مثل فراشات فوق مروج خضراء كالتي حلمت بها الحاجة رقية ، ولم نستمع لبقية حلمها . كأن ما نحن فيه هو البقية . بقية الواقع الذي لم تره الحاجة في حلمها ورأيناه في الطوفان .

عدت بعد الظهر متعباً . اجتزت عتبة الباب الذي وجدته مفتوحاً ، لأجد أمي ، وبقية من في البيت ، وقد تحلقوا حول عمي محمود . عمي يمسك ببندقية إيطالية قديمة ، يحاول إطلاق الرصاص منها فلا ينطلق . زوجته دلول تضحك ، وحماته الحاجة رقية تدعوه إلى الكف عن محاولاته

- ايش بدك في هالشغلة يا بو حمدي !

يتجاهل أبو حمدي الحاجة ونصيحتها ، ويواصل عبثاً محاولاته تقليد

الآخرين . يحاول إخراج فرحته بزوال الاحتلال من فوهة بندقية . الحاجة رقية عادت تعلّق بسخرية هذه المرّة :

- أجَت الحزينة تِفرح ، ما لِقيت الهاش مطْرح .

أمي ، التي وقفت ترقب محاولات عمي مثل الآخرين ، التفتت إليّ وقد تنبهت لبلل ملابسي وصرخت في وجههي :

- هيييييه ، يا غُلبي على أهلك ، ولَك ايش اللي عاملو فْ حالك ، جاي زي الجاجة اللي حطّوها تِحت الحنفية . روح انصرف غيِّر أواعيك لتُبرُد وتِتْشوَّش وتْموت . روح الله يِقصُف عُمرك .

اكتفيت بإعلان التحدي الحاسم ، رداً على خطاب أمي الطويل :

- بِدِّيش .

أم حمدي ، تدخلت :

- على ايش يقصف عمره يا لطيفة . صلّي عَ النبي يا مره . كل لِولاد بْيرُكظو في المطر . خلّيهُم ينَفسو عن حالهُم ، إلهُم أربَعتُشهُر محبوسين .

أمي صلّت على النبي ،« عليه الصلاة والسلام» ، وقالت :

- خايفة عليه ياخذ برد يا دلول ، إنتي معايا والاّ معه ؟

دلول سكتت .

أمي معقّدة من البرد ، منذ رمى البرد أبي في السرير ، قبل أكثرمن خمس سنوات ، صارت تخاف منه أكثر من عزرائيل ، وحتى أكثر من اليهود .

- بارودتك مصدية وما رح اتطخ يا عمي .

قلت لعمي محمود ، وتواريت خلف أم حمدي ، خوفاً من ردة فعله . لم يحجبني جسدها على أية حال لنحافتها كأنها عود قصب ناشف . لكن عمي أثنى على كلامي ولم يغضب ، الأغلب أنه يئس إذ قال :

- والله مزبوط يا عمي . مع الاستعجال والخوف هذيك الليلة ما عرفتش ألف البارودة منيح ، وابعد عنها الرطوبة ، دفنتها في الأرظ زي ما أجت .

فيما بعد ، علمت أن عمي عثر على البندقية بالصدفة . شخص ما رماها قريباً

من المنطقة التي يعمل فيها . ربما خوفاً من مداهمة إسرائيلية غير متوقعة لبيته . وربما خوفاً من مجرد وجود سلاح في البيت في ظروف الاحتلال . أحضر عمي تلك البندقية ، سراً ، في منتصف إحدى الليالي ، ووضعها تحت الفراش . ثم عاد ونقلها ، بعد ذلك ، قبيل الفجر . حفر الأرض ، في قاع الدار ، قرب الباب الخارجي . لف البندقية في خرقة بالية ، وأهال عليها التراب . غير أن الرطوبة والصدأ نالا من بندقيته ، فلم تنطلق منها رصاصة واحدة ، حين حاول استخدامها . أخجلت البندقية عمي وأحرجته أمامنا . الرصاص يتطاير وأصواته تغطي سماء المدينة . الارض تمطر ، والسماء تستقبل مطرها . رأيت السماء تغرق بمطر من رصاص يتساقط عليها فرحاً . وبندقية عمي لا غيوم فيها ولا مطر .

***

انتهى أسبوع الفرح . ولمعت أرض خان يونس تحت أقدام سبعين ألفاً من سكانها . سماؤها صارت مثل الفضة . كأنها ليست خان يونس . كأن الاحتلال لم يحتلها . كأن الإسرائيليين لم يطؤوها ، ربما لانها استحمت أسبوعاً تحت المطر . وازالت ما علق بها منه وما لم يعلق . ودخلت البلاد مرحلة جديدة .

في الرابع عشر من مارس / آذار أعلن عن تدويل قطاع غزة . وسمي رالف بانش رئيساً للإدارة الدولية ، يقوم بمهام الحاكم الإداري العام للقطاع . وبالإعلان ذاك استكملت قوات الأمم المتحدة رسم صورتها الأخيرة في القطاع . وحددت شكل تواجدها ، الذي بدأ بتسلم مواقع القوات الإسرائيلية تباعاً ، أثناء عملية الانسحاب ، وانتهى بحاكمية إدارية .

نشط القوميون والبعثيون والإخوان والشيوعيون وجميع الأحزاب العاملة في القطاع لقطع الطريق على التدويل ، الذي اجمعوا أنه سيقضي على عروبة هذا الجزء من فلسطين .

حركوا التظاهرات . ونزلت غزة بأكملها إلى شوارعها . واختفى الناس من

بيـوتهم في المدن والقـرى والمعسكرات . راحـوا يواجـهـون التـدويل مـبـاشـرة . وغضبت خان يونس حتى تجعدت شوارعها من قوطبة ملامحها . ركضت ، كما يجب أن أركض ، برفـقة مـحـمـد جـميلة ومـحـمـد المصـرية خلف المتظاهرين . المتظاهرون رددوا شعارات كثيرة ، ورددنا معهم« لا إسرائيل ولا تدويل» ، و« عاش جـمـال عـبـد النـاصـر» ، و« خان يونس يا بورسـعيـد ، كـفـاحك كـفـاح مـجـيـد» . وأنشـدوا« الله أكـبـر» ، فأنشـدنـا . حين بلغنا أول شـارع جـلال قـرأنا على حـائط زاويتـه الشـمـاليـة ، شـعاراً كـتب بخط عـريض بلون أزرق« مـصـر مـصـر أمنا ، ولن نرضى لـهـا بـديلا» . وسـمـعنا من يقـول أن جـمـاعـة« القـومـيين العـرب» وراء خط الشـعـار على الحـائط ، وحـيطان أخـرى . لأن البـعـثـيين لا يتطلعـون إلى جنوب فلسطين ، قيل عن البعثيين«هواهم شـمـالي» . وعن الاخوان « غايبين طوشة ، لا هم في الشـمـال ولا في الجنوب . معلقين في السـمـا منْ سنةْ الثـمـانيـة وأربعين ، طِلعوا وما نِزلوش» .

بعد حرب الثمـانية وأربعين ، صارالقطاع يغلي . والبعثيون يحلمون بالسهر في دمـشق . والشـيـوعيـون يتـحـسـرون على التـقـسـيم . والإخوان يملؤون المساجد ودور العبادة ، والمدارس ، والشوارع . وضعوا فلسطين جانبا ، وانشغلوا بالدعوة ، مؤجلين الجهاد ، مع أن الجهاد على الأرض له ثواب الجـهاد في السمـاء . المخابرات المصرية عرفت كـيف تستفيد من نوم العصاري الذي نامته الحركة الوطنية ، منذ النكبة . عينت الضـابط مصطفى حـافظ ، رئيساً للاستخبارات العسكرية المصرية في قطاع غـزة ، وكلفـتـه مـهـمـة تنظيم وحـدات فـدائيـة . أخـذ حـافظ الـدور عن الأحـزاب الوطنيـة ، ونظم بين عـامي ١٩٥٤ و١٩٥٥ عـمليات فـدائيـة ناجـحـة رفـعت أسـهم مصر وعبد الناصر وحافظ نفسه لدى الفلسطينيين .

إسرائيل شعرت بخطورة التطور الجديد . فشنت غارات انتقامية عدة ، أبرزها الهجوم على غـزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، والذي تكرر في ٢٢ أغسطس ، وعملية البريج ليلة ٢٨-٢٩ أغسطس ، التي نفذتها ثلاث وحدات تابعة للكتيبة ١٠١ ، وتزعـمـهـا أريئيل شـارون . وقـد نسـفت إحداها بوابة مقـر مصطفى حـافظ وقـتلت

عشرين لاجئاً فلسطينيا ، بينهم سبع نساء ، وخمسة أطفال ، وجرحت اثنين وعشرين . ونجا حافظ الذي لم يتواجد في مقره تلك الليلة . الإسرائيليون لم يرتاحوا حتى نجحوا في اغتيال حافظ بطرد بريدي أرسل الى مقر قيادته . ثم شاركوا في العدوان الثلاثي مع الإنجليز والفرنسيين ، واحتلوا القطاع ، وارتكبوا ما شاؤؤا من المذابح . وأخيراً انسحبوا .

استيقظ البعثيون ، والقوميون ، والشيوعيون ، والإخوان ، على خروج الإسرائيليين من القطاع ، وأطلقوا الشعارات . في هذه الأجواء تبنى الفلسطينيون شعار إسقاط التدويل . وصار أقصى ما يتمناه الناس هو عودة الإدارة المصرية ، التي أرتهم نجوم السما . واستحضرت ، بعد تسلمها إدارة القطاع ، رسمياً ، عام ١٩٤٩ ، فرق الهجانة ، بعماماتهم الخاكية ، وسراويلهم القصيرة ، لكي يفرضوا النظام بالكرباج . قيل إنهم نوبيون ، وقيل سودانيون .

انا لم أشعر بارتياح لشعار« مصر مصر أمنا ولا نرضى لها بديلا» . لأنني اختبرت حنين مصر آلام ، وأحسست بدفء صدرها ، الذي رأيته يحتضن الناس بالكرابيج . تلتف على أعناقهم مثل الثعابين . مرة خفت على عمي محمود . جاء ثلاثة من شرطة الهجانة ، في أواخر العام ١٩٥٣ ، إلى بيتنا ، يتماوجون ويهتزون فوق سنام جمالهم . يعبرون أزقة المعسكر كأنهم يعبرون صحراء . هددوا عمي بالضرب إن لم يباشر في إزالة جانب من سور البيت الغربي ، بناه قبل أيام ، وإعادة بنائه متراً إلى الوراء . وعرضت كرابيجهم أمام عيني مصير هواء مزقته . رأيت هواءً ممزقاً مثل خرقة بالية . لا بد أن عمي رأى ما رأيت ، وخاف على جلده من أن يتمزق مثل خرق الهواء . أخذ يهدم السور بيديه أمام أنظارهم ، وقطع الهواء الممزق تتساقط على رأسه فيعرق . يدفع حافة الجدار بقوة من الداخل ، ويعرق . فتسقط حجارته على الطريق ، كأنها غير مرغوبة .

اطمأن الهجانة . لوت جمالهم أعناقها الطويلة ، وحركت قوائمها إلى الأمام ، ومضوا . قبل أن يبتعدوا ، قال هجانة لعمي : انتي مخالفة القانون .

لم أفهم معنى التدويل . لكنني حين سمعت ما قيل عنه أعجبت به . قالوا

«بتصير الأمم المتحدة مسؤولة عنا . هي بتصرف علينا . وبتعطي الناس كل اشي ، خصوصاً البزابورتات . بيصير مع الناس بزابورتات دولية ، بيسافرو فيها وين ما بدهم ، ما حدن بيسالهم» . لكن غالبية الناس قالوا :« إذا دولوها ، عمرها ما بترجع للعرب» . خفت أن لا يعود قطاع غزة إلى العرب . ولأنني عرب ، هتفت ضد التدويل ، نادماً بشدة على إعجابي به .

قبيل الظهر نقل مواطنون جاءوا من غزة إلى خان يونس ، أخبارا تقول أن شاباً يدعى محمد مشرف ، لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، صعد إلى أعلى مبنى صغير ، يقع في نهاية شارع البحر . وقام بإنزال علم الأمم المتحدة فور رفعه فوق المبنى ، ورفع العلم الفلسطيني في مكانه ، وسط تصفيق المتظاهرين وهتافاتهم بالنصر وضد التدويل . جندي تابع للقوة الدولية التي تحرس المكان ، ظن أنه يدافع عن الهيأة التي يخدم في صفوفها ، أطلق النار على الشاب الصغير وقتله فوراً . لم يفهم الجندي معنى رفض الناس للتدويل ، وما يختلج في صدورهم وهم يرون بأعينهم جزءاً من وطنهم يمزق بيد دول العالم ، وتوزع عليها مسؤوليته مثل بقج الأونروا . مات محمد مشرف . وهاجت غزة نهاراً ولم تنم ليلاً . وفي الصباح أدرك الناس أن محمد مشرف أسقط التدويل . سموا الشارع باسمه .

المقطوعة الثالثة
قصة والدين

وأبي يشبه أبي . أبي لا يشبه غير أبي . أنجبني مرة وأضاع تاريخ ميلادي . أنجبته أنا مرة . أعطيته بعض تاريخي ، لكي يعيش مرتين . عاش أبي في الأولى أبي . وفي الثانية يعيش بين سطور الحكايات . أبي عاد إلى الحياة ثانية . يسكن الآن في اللغة . يقيم بين الحروف . اللغة كيان نابض بالحياة . أبي لغة وكيان . أمي زهرة ذبلت قبل انقضاء فصل الربيع . جفت لانقطاع ريق أبي . أنجبتُ أمي في اللغة مرة ، أنجبتني أمي مرتين . في الأولى نادتني ربعي . في الثانية رأت فيَّ خليل . أمي رأت فيَّ أبي ، طفلاً يكبر ويصبح خليل . اسمه يبقى ربعي . مباركة ذكرى أبي .

مات أبي ، أنهى أربعة وثلاثين عاماً من عمره ومات . جاء سعيد المدهون إلى غرفة الصف ، في مدرسة خان يونس الثانوية للبنين ، قرابة العاشرة صباحاً . لمحته بطرف عيني يطل برأسه عبر الباب المفتوح ، يرفع يده نحو مدرس الكيمياء المصري ، الأستاذ «أحمد عبد السلام» ، ويخطو خطوتين إلى الداخل . الطلاب استغلوا انشغال الأستاذ أحمد ، المفاجىء بسعيد ، وثرثروا ، أحدثوا جلبة بعضها همهمات . زميلي ، عادل القدرة ، الذي يشاركني المقعد ، انتبه لنظرات سعيد ولم يسمع صوته لأن صوت سعيد لم يتعد الوشوشة . شفتا سعيد اقتربتا من أذن الأستاذ أحمد . الأستاذ أحنى قامته لكي يسحب الكلمات من فم سعيد ، خاف أن تفلت ، أن تسقط منها حروف تلمها أذني أحد . أنا همست في أذن عادل :«هذا سعيد ، قريبي وصاحبي» .

– «اخرس انت وهو» .

صاح الأستاذ في طلاب الفصل ، وعاد ينصت لكلمات سعيد . قلقت . شعرت بهما يتآمران علي ، سعيد والأستاذ يتآمران علي . لماذا لم يستأذن سعيد الأستاذ ، يأخذني جانباً ، ويحدثني مباشرة . لم يأت ليسأل عن شخص آخر . أنا اعرف سعيد ، قصد غرفة صفي مباشرة ، يعرف أنني في الصف الأول ثانوي ، الأغلب أنه سأل عن رقم غرفة الصف فقط ، وربما ، لجدية الموضوع ، اضطر لمقابلة

ناظر المدرسة ، الأستاذ مجدي أبو رمضان ، عرف مكاني وجاء . سعيد لم يلتحق بالمدرسة الثانوية أصلاً ، ولا يعرف أحداً من طلابها كما يعرفني . حصل في امتحان الإعدادية على أقل من مائة وسبعة وعشرين علامة . طلبت إدارة المدرسة من أمه ، فضية ، المغربية الأصل ، أن تدفع له أربعة عشر جنيهاً مصرياً ، لكي يأذنوا له بالالتحاق بالدراسة الثانوية . قالوا لها هذا قانون جديد ينطبق على كل من هم في مستواه ، علامات ابنك ضعيفة تقل عن مائة وسبعة وعشرين . أمه لا تملك المبلغ . ذهب سعيد إلى فرن يقع فوق ظهر معسكر «البشاشتة» ، في بطن السافية تماماً ، وعمل أجيراً . وقف في جورة الفرن يحرك الزلاقات على امتداد النهار ، بالخشبية السميكة يدخل عجيناً ليناً ، بالزلاقة الحديدية الرقيقة يخرج خبزاً يتصاعد منه البخار . سعيد تغير ، صار فراناً . اشتهر بخبزه الشهي كأنه خبز طابون . يخرج الأرغفة ويرتبها في الفرش مثل عناقيد أقمار . لكنه لم يعد سعيد طفولتي . حتى اسمه تغير ، من سعيد المدهون إلى سعيد الفران . كل الناس نادوه سعيد الفران ، كأنهم أسقطوا عنه اسم العائلة .

الأستاذ أحمد رفع رأسه . فرد قامته . تراجع خطوة إلى وراء . ابتعد عن سعيد . وقف خلف طاولته . أسند أصابع كفيه إلى حافتها . وضع تعبيراً محايداً على وجهه . مسح الحضور بعينيه . عينا سعيد لا تمسح أحدا سواي . الطلاب صمتوا . الفصل غرق في الصمت . صار بإمكاني أن اسمع دقات قلبي ، قلبي الصغير دق دقات كبيرة ، حتى خفت أن يسمعها عادل . عادل طيب ، لاحظ قلقي ، حاول أن يطمئنني : «انشا الله خير ياخو» . الأستاذ أحمد نادى عليّ في تلك اللحظة ، نطق اسمي الرباعي : الطالب ربعي خليل سليم المدهون . صحيح أنه كسر الراء بحدة ، ولم يفتحها ، كما ينبغي ، لكنه نطق الاسم بصورة رسمية كأننا أمام محكمة ، كأنه يخشى وقوع التباس ، مع أنني لم أسمع ، في حياتي ، عن أحد اسمه ربعي ، لا بفتح الراء ولا بكسرها ولا بضمها ، ولو وجد فعلاً ، وهذا ما لم يؤكده أحد ، فلن يكون اسم أبيه خليل ، أو جده سليم ، ومن عائلة المدهون أيضاً ، فهذه حالة نادرة حصلت أول مرة مع جدي الخامس ، الذي لسبب

لا يعرفه أحد ، سما ابنه ربعي ، طالباً ، أول من استفسره عن الاسم ، بفتح الراء والباء ليستقيم المعنى . وحصلت في المرة الثانية مع أبي الذي نزل عند رغبة والده سليم المدهون ، جدي الأول ، الذي لم يزل حياً يرزق ، وقبل بإحياء اسم جده الرابع وحمّلني اسمه . أبي سماني ربعي ، ولم يوزع على الناس حركات تشكيل معينة يستخدمونها عندما ينادونني ، أو يأتون على ذكر اسمي . أبي ترك ألسنتهم ، عن غير قصد منه ، تلعب ب «رائي » ، تضمها ، تفتحها ، تكسرها . ليس هذا وحسب ، بل وبـ «بائي» أيضا ، التي فُتحت وضُمت وكُسرت ، وحتى سُكّنت على مر السنين . وكثيراً ما شعرت بانكسار المعنى ، وبخلافات الحروف ، بألم تكسرها في أذني . وأسمع من يقول لي حاسدني : أنت محظوظ ، نيّالك ، لازم ترفع راسك فوق ، فوق للسما ، إنت الوحيد اللي وِرث اسم جده ، اسم أكبر راس في أكبر فرع في العيلة . أما أنا فللواقع ، فلم أرث ، حتى الآن على الأقل ، شيئاً قيماً ، غير فرادة الاسم وغرابته ، بالإضافة إلى الهجرة ، طبعاً ، واللجوء ، وسوافي الرمل ، والخيام ، والشحططة ، والبرد ، والمرمطة ، والفقر ، وبقجة الاونروا ، وكرت التموين .

الأستاذ أحمد تعرف على حين وقفت . لو لم أفعل لما عرفني . مربي الفصل هو الوحيد الذي يعرفنا بالاسم ، ويربط أسماءنا بأشكالنا ، بغض النظر عن طريقة نطق الأسماء ، والحركات اللفظية الضرورية لذلك .

نظر إلي الأستاذ أحمد بانفعال ، غير واضح ، وقال :

– خد يا ابني شنطتك ، وروّح مع قريبك . ربنا معاكو .

شعرت بانقباض وبقلبي الصغير يرتجف . أبي ، هل حدث له مكروه لا قدر الله ؟ هجست وأنا أجمع كتبي بسرعة وأحشوها بلا ترتيب في حقيبتي . حملت الحقيبة وخرجت . خلفي تركت تساؤلات ارتسمت على وجوه زملائي ، أعرف أن بعضهم يحسدني ، الآن : «نيّاله مروّح» .

لحقت بسعيد الذي طلب مني أن أسرع الخطى ، قال إنه جاء على دراجة هوائية استاجرها من دكان محمد ابي العلا ، تركها عند مدخل المدرسة ، أنا لم

أهتم كثيراً لما قاله ، بل سألته مباشرة :

- خير يا سعيد ، ايش فيه ؟

صمت ، أشاح بوجهه عني كأنه يخفي دمعة سقطت رغماً عنه .

حاولت استعادته بسرعة :

- أبويا ماله يا سعيد ، في اشي لا سمح الله ؟

- أبوك ، الله أعطاك عمره .

- ايش ؟!

- توفى .

- أبويا مات ؟!

مستحيل . لا أصدق ، ولا أريد أن أصدق . عيناي لا تصدقان . لو كانتا تصدقان لأسقطتا ولو دمعة واحدة ، على الأقل . لكن قلبي صدق ، صار يدق مثل طبل فرقة كشافة .

علقت حزام حقيبتي القماش حول رقبتي ، وركبنا الدراجة معاً ، سعيد جلس على الكرسي ، يداه على طرفي «الغدون» ، أنا وضعت مؤخرتي على جحش الدراجة . أمسكت ب «الغدون» من وسطه ، مددت ساقي في الهواء ، انطلقنا مبتعدين .

قبالة مدرسة خان يونس الثانوية للبنات عدت أسأل سعيداً :

- صحيح اللي قلته يا سعيد . . . صحيح أبويا مات ؟

- من شوية جابته سيارة إسعاف بيظا م المستشفى . المختار ، محمد خليل ، أبو فايز ، أجا معه من مستشفى البريج لخان يونس ، بعدين وصل عبد الله محسن ، أبو ابراهيم ، المختار تلفن له م المستشفى أول ما وصل لهناك ، كمان محمد افهيد أجا ، وسيدك نصر الله ، وخالك أبو نصري ، وسعيد حمص ، ومحمود صفية ، كل ازلام العيلة أجو ، من غزة وجباليا ، ومعسكر الشاطئ ، ومن مخيم المغازي أجا أبو اسرائيل ، أحمد سلمان ، ومحمود دبك أجا من رفح ، وكل المداهنة في خان يونس ، طبعاً ، والله ما ظل لا زلمة ولا مرة إلا وأجا ، بيتكم مليان

ناس بره وجوّه ، الحارة كلها انتلت ، عمك اعليم قال لي أناديك م المدرسة عشان تلحق الجنازة .

اجتزنا كراج باصات بامية القديم ، ثم مزلقان سكة الحديد . توقفنا عند أول شارع جلال ، ليس بعيداً من مقر الحاكم الإداري العسكري . تبادلنا المواقع ، سعيد أخذ مكاني على الجحش ، وقدت أنا الدراجة هذه المرة ، وانطلقنا من جديد صامتين .

***

مات أبي صبيحة يوم الخميس ، الثاني عشر من أيار «مايو» ، عام ١٩٦٠ . اختطفه الموت قبل يوم واحد من زيارتنا الأسبوعية له ، في مستشفى البريج . أمي قالت ، قبلها بثلاثة أيام ، أمام سلفتها هنية ، زوجة عمي اعليم :

– أبو ربعي جاي الخميس يا هنية .

هنية أذهلتها المفاجأة :

– اهنيتي يا ام ربعي ، هذا خبر بيستاهل الواحد يفرح له .

وسألتها :

– ومين جاب هالخبر لمنيح ؟

أمي أجابت :

– ناس إجو من المستشفى ، شافو أبو ربعي هناك ، وطلب منهم يبلغوني انو جاي يوم الخميس ، وحلفوا انو قال لهم : خلص أني طبت والحمد لله ، رح اروح الخميس ، وما رح ارجع ع المستشفى أبداً .

أمي لم تسعها الدنيا ، طارت من الفرحة . أمس ، الأربعاء ، أخذت تنط في البيت مثل فراشة ، أمي صارت فراشة ، وأنا كدت ، من فرحتها ، أرى جناحيها وأميز ألوانهما . أنزلت أمي صورة أبي المعلقة على الجدار في صدر البيت ، مسحت ما علق بزجاجها من غبار ، قبلتها ، أبعدتها قليلا ، نظرت إليها عميقاً ،

كأنها تراها للمرة الاولى ، خاطبتها ، تحدثت إليها كما تتحدث معه ، الصورة صارت ترى وتسمع ، عيونهما التقت ، ابتسم أبي ، رحبت أمي به ، وقالت له كلمات تشبه الأماني : «اهلاً وسهلاً يا خليل ، يا من درى ، بترجع ع بيتك على طول» . أبي لم يعلق ، ابتسم ولم يعلق ، لأنه عائد إلى البيت غداً ، وغداً يقول لأمي كل ما يريد قوله براحته .

أعادت أمي الصورة إلى مكانها . تأملتها قليلاً ، ثم استدارت تاركة الغرفة إلى قاع الدار . دخلت مطبخنا الصغير ، غسلت الأواني ، والقشاني ، والصحون الفخارية ، والخاشوقة ، والسكاكين ، «خليل بيحب كل شي نظيف» ، تمتمت . ثم خرجت وبيدها اليمنى وابور الكاز وسكين . قطفت حبة ليمون عن الشجرة ، وقسمتها نصفين ، وضعت أحدهما على حافة حوض الغسيل الاسمنتي ، قرب باب الدار ، وأخذت تدعك بالنصف الثاني هيكل الوابور النحاسي ، تفركه كأنها تحممني وأنا صغير .

- اشلح يمه أواعيك ت احممك .

أخلع ملابسي وتحممني في الطشت ، لسنوات ظلت تحممني في الطشت ، حين بلغت السابعة بدأت أخجل : اشلح يمه ت احممك . ما بدي ، اطلعي ، ما بشلح . ولك امك اني ، بتستحي من امك ، اشلح وخلصني ، بتعرفش تحمم حالك . لأ ما بدي ، صرت سبع اسنين ، بتحمم لحالي ، اطلعي بقول لك ، بقول لك اطلعي ، خلص بديش ، بديش ، بديش . انت حـر ، بدّة تبـدّك ، الله لا يجعلك تتحمم ولا تنظف . خللي الوسخ ياكل جلدك ، وخليك ظل أهرش وحك جلدك زي الجربانين .

وابورنا صار أصفر مثل الذهب ، مثل جلدي بعد الحمام . أمي أعادته إلى المطبخ ، وأخذت فلقة الليمون الثانية معها حيث وضعتهما وخرجت . غسلت يديها بالماء والصابون تحت حنفية الحوض الاسمنتي ، وجففتهما ببشكير ، تناولته عن حبل الغسيل ، الممتد من زاوية باب البيت اليمنى إلى طرف سقف غرفة نومها . عادت إلى المطبخ مجدداً ، أحضرت المقص الكبير ، ومشت نحو شجرة

الليمون ، قصقصت الأوراق الصفر عن أغصانها ، لمت ما تساقط من أوراقها على الأرض وعند حوافي حوض الزريعة . كنست ب «الغنو» قاع الدار . مسحت الأرض ، ورشت ماء في كل مكان . سقت النعناع ، والورد الجوري ، والقرنفل ، ولسان العصفور ، وشجيرة تمر الحنة . قطفت عرقاً أبيض وشكلته في طرف شعرها . مسحت بباطن كفها الريحانه الفواحة في زاوية الحوض الشرقية ، عبق البيت بالريحان . دخلت غرفة النوم ، غيرت الملاءات والشراشف ، فوق سرير أبي ، واستبدلت أثواب المخدتين بأخريين مطرزتين عند أطرافهما برسوم الورد ، وسط إحداها نقشت بالصنارة كلمة «بالسلامة» ، على صدر الثانية طرزت «نوم العافية» ، رتبت أمي السرير كأنها تستعد لليلة دخلتها ، صار بيتنا مثل زهرالفل الأبيض ، وصارت أمي عروساً .

غنا ليلة الخميس على نسمة فرح ، نامت أمي على صورة أبي القادم في الصباح .

***

في الصباح ، أتوا بأبي محمولاً فوق «دسكرة» بين أيدي ممرضين اثنين . الممرضان أنزلاه من سيارة إسعاف تابعة لمستشفى البريج . سلماه لأمي جثة . أمي أرادته اليوم بشبابه كله ، عائداً إلى أحضانها إلى الأبد ، تسلمته جثة . عاد أبي في اليوم الذي حدده ، الخميس ، لكنه عاد كأنه مطرود من المستشفى ، كأن إقامته الطويلة ، التي استمرت ، متقطعة ، ما يقارب التسع سنوات ، انتهت فجأة فرحلوه رافضين تمديد إقامته فترة أخرى . مات أبي لأنه قرر العودة إلى البيت نهائياً ، كأن حياته غير ممكنة خارج المستشفى . سنواته أمضاها كالمحكوم ، رسمياً ، بالسل الرئوي . ليته مدد محكوميته في المستشفى ولم يمت ، يزورنا كل ثلاثة أشهر لمدة أسبوع ، كما اعتاد ، يزور أمي في سريرها ، ونحن نيام ، كلما اشتاق ، يعيدان وصل لياليهما المتقطعة ، ونستعيد نحن أنفاس أبي .

سألت نفسي مراراً : كيف يمارسان الحب ؟ شغلني الموضوع فسألت . السل مرض خطير ومعد ، كيف اعتادت أمي على إدخال أنفاسها إلى صدر أبي ؟ كيف امتصت رحيق الحب من شفتيه ؟ كيف أخذت أنفاسه طيلة عشر سنوات دون سل ؟ هل غطى أبي وجهه ، في كل مرة ؟ صار مثل عذراء خجولة أمام وجه أمي المكشوف ؟ تعطيه بسخاء شفتين صغيرتين ، مبرومتين ، مثل خاتم خطوبة ، يغطي وجهه ، يمنعها من تنفس سله ؟ عشقت أمي أبي بمرضه الخطير . تنفست سلّه ولم تخشه . أما هو ، مسكين أبي ، لا بد أنه كان يحتضنها بظهره . رأيته مراراً يعشق بظهره ؟ هل يجيش الظهر بالعواطف ، كما يجيش الصدر ؟ ظهر أبي جياش ! ظهره حنون ! هذا فصل للكلمات عن معانيها ، كيف نفصل الصدر عن الحنان ، ونعطي للظهر وظيفة لم يتعود عليها ؟ كيف ينبض القلب بالمقلوب ، يرسل دقاته في اتجاه معاكس ، ليسمعها الحبيب كأنها الصدى ؟

عندما تجاوزت شقيقتي رحاب عامها الثاني ، وبدأت تنقل خطواتها الصغيرة داخل البيت ، أخذ اشتياق أبي لها يكبر . يناديها ، يداديها : داده . داده . داده .

حين تصل إليه يتلقفها بكفيه بين ركبتيه . يسقط رأسها عند بطنه ، ترفعه نحو وجهه ضاحكة . يجتاحه شوق إلى ضمها ، يتردد ، يخاف انفجار خزان السل في صدره .

يتمدد أبي على جانبه الأيمن فوق السرير . يطلب من رحاب أن تجلس فوق خاصرته . تسرع وتتسلقه ، وتجلس فوق خاصرته ، وهي تطلق ضحكات صغيرة . يهز أبي خاصرته ، ويميلها قليلاً إلى أمام . تنزلق رحاب خلف ظهره . يحيطها بذراعه اليسرى ، في حركة رشيقة . يكركرها بأصابع يده . تقهقه الصغيرة ، تعجبها اللعبة إذ تستمتع بحنان الظهر . صارعلى رحاب أن تبحث عن حنان الصدر عند أمي . صار علينا أن نبحث مثلها . صار على أمي أن تبحث هي ، ايضاً ، معنا عن صدر أبي ، عن ظهره ، عن أبي كله .

أبي اليوم لن يعود . سوف نفتقد فيه حتى أنفاسه الخطيرة العابقة بالسل .

***

أبي مات . يبدو أن ما نقله إلي سعيد صحيح . استشعرت الحقيقة عندما هبطت عن الدراجة الهوائية عند دكان جابر ريان . من زاوية الشارع شاهدت الساحة حول بيتنا مغلقة بالبشر . سمعت أصوات الحزن تعلو وتهبط . رأيت وجوها بلا ملامح . رأيت ملامح تبحث عن وجوهها . اقتربت قليلاً . ميزت الحزن في الأصوات . تعرفت على الملامح ، بدأت أقرأ الأسماء والتفاصيل . عوض المدهون ، زوج ثريا ، المتمدنة التي تلبس الكاب ، منذ عرفته يحمل حصوته في كليته اليمنى ويدور . نصحوه بالبيرة ، احتاج الى فتوى . شرعها الطبيب ولم تعد كفراً ، شرب . لم تفده كثيراً ، فلجأ إلى الجراحة . شقيقه خليل لا يطلب تشريعاً او تصريحاً من أحد . أبو سامي يشرب بمزاجه . يشرب بالنيابة عن جميع أفراد العائلة ، الذين لا يشربون . يأخذ عنهم لذة محرمة ، ويتحمل وحده وقع كلام قد يقال . أحببته رغم ذلك ، خليل طيب وجدع . أبي قال عنه خليل زلمة ، جدع ، وأحسن من خمسين نصاب وعونطجي من اللي بيرخوش السبحة من ايديهم ليل نهار ، طبعاً ، مش كل من حمل السبحة شيخ ، أكد أبي .

هذه عمتي صفية ، أم إبراهيم ، عمة أبي ، الشقراء الجميلة التي لم يقو الزمن على هزيمة جمالها رغم تجاوزها الستين . ها هي تستدير ، تختفي بين الجموع . أحبها أبي مثل أمه التي ماتت وهو طفل . أحبته هي مثل حبات عينيها ، وأحبتنا ، أخي وأنا ، مثل أولادها .

اقترب أكثر . ألمح زوج عمتي صفية ، عبد الله محسن ، أبو إبراهيم ، كبير العائلة ، الأكثر احتراماً بين أبناء جيله . يتحرك ابو إبراهيم بين أبناء الحامولة مثل الضمير . إلى يساره ، ألمح ولديه الكبيرين ، إبراهيم ويوسف ، وكذلك محمد ، أبو فاروق زوج شقيقتهما الكبرى .

هذا الشيخ يوسف ، وذاك ابنه الأكبر جابر ، المهذب ، العاقل ، الذي يعتبره أبي حكيم العائلة . وذاك شقيقه الأصغر رمضان ، الجنجي ، الطيب ، يقفون ثلاثتهم عند زاوية البيت . أخوهما إسماعيل ، الملقب بالسرهد ، بقي في المجدل – عسقلان ولم يرحل ، لم يهاجر مع الذين هاجروا . لا أحد يعرف مصيره الآن .

شاب نحيل مربوع يتحرك عند بداية التجمع الكبير ، إنه شحدة افهيد . شحدة هذا نشف ريق زوجته وأبيه . صاحب فايز المدهون ، الطويل الحليوة ، ابن المختار محمد خليل . فايز طالع لأمه ، الزوجة الأولى للمختار . شحدة وفايز يعملان معاً في مكتب سفريات المدهون ، في غزة ، الذي يملكه والده . قالوا «شحدة بدو يجاري فايز ، اللي جيب أبوه متلتلة بالمصاري من أيام لبلاد ، طب ايش جاب لجاب» .

ثم هذه انشراح ، ابنة عمتي أم ابراهيم ، أخت أم فاروق وإبراهيم ويوسف وعفيفة ومريم وعصام وأسعد . انشراح شوفتها تفتح القلب . انشراح لم تتزوج ، لم يأتها عريس . قالوا وقالوا وقالوا ، في الآخر قالوا : مالهاش نصيب .

الشيخ صبحي مقرىء ، مؤذن ، إمام مسجد متدرب ، مطرب موشحات «الله ياسيدي الشيخ» . ملك إحياء موالد «أبدعتم يا مولانا» ، ولاعب خفة يد أيضاً . ذهب الى دولة نفطية ، وأعجب صوته كل من سمعه . أقام علاقات ممتازة مع بعض ذوي الشأن . سلاهم وأنسهم وأنساهم ما يرغبون في نسيانه . قدم لهم العاباً سحرية أذهلتهم ، وسهرهم الليالي . أغدقوا عليه عملاتهم . وفجأة تنبهوا ، قالوا زنديق واتهموه بالشعوذة ، وطردوه من البلاد ، وعاد إلى خان يونس بجيوب مليئة . عاد إلى زوجتيه . الغائبون يعودون إلى حضن امرأة ، الشيخ يعود الى حضنين . لا يكتفي بزوجة واحدة ، ويصر على أنه يعدل بينهما ، ويستطيع قسمة سواد الليل نصفين .

هذا هو المختار محمد خليل موسى المدهون «أبو فايز» ، صاحب مكاتب «سفريات المدهون» . ها هو يتحرك في كل الاتجاهات ، يظهرمن بين الجموع ويختفي ، يتزعم موكب الموت الآخذ في التشكل . لم يعد أبي مرة واحدة ، لا في البيت ولا في المستشفى . قالوا ، المختار موسوس ، وبيخاف من العدوى . لم يزرنا في يوم فرح ، كأننا لم نعرف الفرح ، كأن الفرح لا يليق بنا . كل الناس تزورنا في العيد وتعيِّد علينا إلا المختار ، لا عمره زارنا ولا عيد علينا . اليوم رافق جثمان أبي من المستشفى إلى البيت ، كما أخبرني سعيد . أخيراً ، عملها المختار ،

ودخل إلى مستشفى البريج . طبعاً ، هو لم يذهب للزيارة ، بل ليخرج أبي من هناك جثة . لكنه سلطان الموت علينا . الموت حق . الموت يرفع العتب . اليوم ليس يوم حساب . اليوم يوم وداع أبي . دمعت عيناي ، تكاثرت فيهما الدموع ، هطلت الدموع ، زخت . رأيت الناس بركة من دموع . رأيت انشراح نهراً يجري ، يصب في بركة الدموع . رأيت الناس يبكون . أدركت أن أبي مات فعلاً ، فانفجر في داخلي بركان حزن ، وشقت صرختي السماء وهزت الأرض تحت أقدام الجميع : لأ يابا مش هالقيت ، أني بعدني صغيييييييييييييييير .

***

الجمعة الماضية زرت أبي . وجدته ينتظرني عند البوابة حين وصلت . أستبق موعد الزيارة بدقائق ، ربما تعجل رؤية أمي كالعادة . لم يجدها ، وجدني وحيداً . ليس من عادتي المجيء وحدي . أمي لم تأت ، قالت لي إنها متعبة هذا الأسبوع ، وستعود إلى زيارة أبي ، أسبوعياً بعد ذلك ، دون انقطاع . أبي لم يسألني عنها عندما تقابلنا ، عن بعد ، على جانبي بوابة المستشفى الحديد ، أجل إحراجاً متبادلاً . أبي خجول ، وأنا ورثت عنه خجله كاملاً غير منقوص . تحدثنا لدقائق ، ملأنا الوقت بالكلام في أمور عامة إلى حين فتحوا البوابة في الموعد الرسمي للزيارات ، في الساعة الواحدة ظهراً . صافحت أبي ، وناولته السلة التي أحضرتها معي وفيها حاجياته وقد احتفظت بتشكيلتها مثل العادة : طنجرة شوربة صغيرة محكمة الإغلاق ، حمامتان محشوتان بالرز والصنوبر ، بضع برتقالات شموطي ، وعدد من حبات التفاح . على واجهة السلة غيارات أبي الداخلية ، كما رتبتها أمي ، ومجلته الأسبوعية المصرية المفضلة ، «آخر ساعة» . في جيبي حملت له عشرة قروش ، هي مصروفه الأسبوعي ، دفعتها عمتي كالعادة ، خمسة قروش ورقية وأخرى معدنية «شلن» . أبي قال للحارس ، عند البوابة : هذي غيارات داخلية ، وصحف ، وورق ، وشوية فواكه . وكشف عن جانب مما في السلة لطمأنة

الحارس ، إذ أن إدخال المأكولات الى المستشفى محظور . الحارس اطمأن . أبي حمل سلته ، ودخلنا معاً عنبر المرضى ، وسرنا بين أسرته حتى وصلنا إلى سرير أبي الرقم ٢٦٥ . جلست على حافة السرير إلى حين انتهى أبي من ترتيب حاجياته ، وآخرها المجلة التي وضعها تحت وسادته .

في السرير المجاور رجل يسعل ، تحلق حوله زواره . أسندوه ، في تلك اللحظة ، ارتاح وكف عن السعال . أبي تناول بطانية من على سريره وخرجنا معاً . فرش أبي البطانية على الأرض الطينية الصلدة تحت شجرة أكاسيا خضراء ظليلة عند الجدار الغربي للساحة الخلفية للمستشفى ، غير بعيد عن فتحة تسلل الصغار . مد حالك يابا ، ازحف ، أيوة ، براو عليك . قوم ، كتكت أواعيك من الرمل . عبرت من الطاقة التي أحدثها المرضى أنفسهم في أسفل جدار السور الخلفي . نزعوا قالب طوب في مكان أقرب الى الزاوية الغربية . حفروا الأرض تحته قليلاً . صار بوابة سرية للصغار ، يغلقها المرضى حال تنتهي الزيارات . يفتحونها للصغار حين يأتون مبكراً ، متعجلين الدخول قبل الموعد الرسمي من البوابة الرئيسية ، كما يتعجل أبي سلته ، أحياناً ، فأناولها له من فوق السور ، ثم أحشر جسدي الصغير في فتحة الجدار وأخرج منه داخل الساحة الخلفية . ضحكت . قلت لأبي : هالقيت لازم ترفعو كمان حجر يابا عشان أقدر أعبر م الحيط . ضحك أبي : هالقيت صرت زلمة يابا . . . كبرت .

امتلأت الساحة الخلفية بالمرضى والزوار . الجو حار نسبياً ، في مثل هذا الوقت من السنة . الزوار يفضلون الجلوس في الساحة على قضاء وقت الزيارة بين الأسرّة . نسمات قليلة أخذت تهب على المكان ، بين فينة وأخرى ، يصحبها حفيف أوراق الأكاسيا والكينيا انعشت الجو . روائح الزهور ، التي جلبها بعض الزوار معهم ، تركت في الجو أنفاساً ربيعية .

أبي وأنا وحدنا والسؤال المؤجل : لماذا لم تأت أمي . أفكر في الاعتذار . يسبقني سؤال أبي عن أمي قبل أن أرتب اعتذاري بصيغة تخفف عنه افتقادها . فشلت في تغيير الصيغة وقلت له ما أخبرتني به أمي .

تحدثنا على امتداد الساعة المخصصة للزيارة . أسمعته كل الأخبار الطيبة . قلت له أن رحاب الصغيرة فرحة جداً بالعروس التي أهدتها لها السيدة «مادلين» ، مديرة المستشفى . همس لي بأنها يهودية أميركية ، وبأنه الوحيد الذي يعرف ، وأنها اعترفت له بذلك ، بعد أن صارا صديقين حميمين . أحسست برعشة داخلية . أبي أكد لي أنها طيبة ، قال : مش كل اليهود زي بعظ يابا .

أخبرت أبي أنني ذاهب إلى السينما ، بعد ظهر الغد . قلت له أنني اتفقت مع عوني الشوا على الذهاب . قد نشاهد «تراس بولبا» في سينما السامر ، أو «الفايكينغ» في سينما الجلاء . كلانا يحب يول برينر برأسه الحمراء المزلطة التي تشبه طيز السعدان ، وكيرك دوغلاس ، وتوني كيرتيس . وانتظرت تعليقه . خفت من احتمال رفضه . سألني عما معي من نقود ، أخبرته . قال إن ما معي لا يكفي . فاجأني بأن أعطاني نصف مصروفه . شعرت بحرج شديد ، كدت أذوب خجلاً . هل أخطأت بإبلاغه ؟ هل سيتاثر بنقص مصروفه الأسبوعي ؟ أحسست بالذنب . لا أريد أن أذهب إلى السينما إذا كان ذلك سيثقل عليه ، أو يغضبه . شعر بما أنا فيه ، دس الورقة ، من فئة الخمسة قروش ، في يدي . يدي تعرقت . شعرت بكفي تبكي ، يغرق دمعها الورقة ، خفت ذوبانها . فتحت كفي ، تنفست الورقة التي كادت تختنق . شعرت بها كياناً يستعيد حياته في يدى . وضعت الورقة في جيب قميصي عند الصدر . أشرق وجه أبي ، صار مثل شمس الضحى . فهمت أبي في تلك اللحظة أكثر مما فهمته العمر كله . أعطاني نقوداً من جيبه ، مع أنها نقود عمتي . ضحى بنصف مصروفه ، لكي يمتلك لحظة افتقدها ، منذ داهمه المرض ، وتوقف عن مد يده في جيبه وإخراج بعض النقود .

***

تلقفتني انشراح . أمسكت بي من ذراعي . أخذت حقيبتي ووضعتها جانباً . سمعت همسا يتناثر حوالي : اجا ربعي ، يا ويلي عليه وعلى اخوته . انشراح

منعتني من دخول البيت حيث يسجى جثمان أبي . أتت لي بكرسي صغير من القش ، ألقيت بجسدي عليه ، أسقطته دفعة واحدة . ناولتني انشراح منديلها الأبيض . أخذت أفرغ ما يتجمع في عيني من حزن ، حتى صار منديل انشراح قماشاً من دموع . شهقت مراراً ، حتى خلت أنني خلصت ما لدي من دموع . ناديت أبي من بين أنفاس متقطعة . لفظت اسمه من بين شفتين زرقاوتين حزينتين ، وحولي يتواصل الصراخ والعويل . نساء يندبن . رؤوسهن ترتفع فوق سور البيت وتنخفض . رجال يحملون رؤوسهم فوق اكف غرقت في الصمت . رأيت جدي من بين الدموع خارجاً من البيت محني الظهر ، متكئاً على عكازة . أول مرة أرى جدي محني الظهر . جدي قصير القامة ظهره لايكفي للانحناء ! الزمن هو الذي انحنى فوق قامتة . مال عليه وهدّ حيله . رأيت الزمن يحني قامتة فوق قامة جدي منكسراً مثل قلبه . جابر الشيخ يوسف سارع يسنده . أجلسه على كرسي صغير :

- وحد ألله يا عمي أبو محمود .
- «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .
- هذي حال الدنيا . حكمة الله يا ابن عم . قدر ومكتوب علينا .

وبكى جدي ، «ويبقى وجه ربك» . بكى مثل طفل . خلط كلام الله بالدموع . ناشده الرحمة : اللهم لا اعتراض على حكمك ،لكن هذا كثير . حيلنا نهد يا عالم .

- استغفر الله يا أبو محمود .

قال جابر . بكى أبو محمود ، . استغفر ربه وبكى .

- نوارة العيلة راح ، ماتت وردتنا يا جابر يا ابن عم .

قبلها بعامين ، فقط ، ودع جدي ابنه محموداً . بكره محمود . أبو حمدي توفي عن أربعين عاماً . قال جدي وعمي لم يزل يحتضر : مات جملنا . جمل العيلة راح . محمود جمل العيلة راح . أبي انتحى زاوية جانبية قرب باب غرفة أخيه ، وجلس عندها يبكي . لم يقو على النظر إلى أخيه الاكبر وهو يحتضر . الآن هو

الميت . أبي هو الميت . مات دون أن يحتضر في حضرة أحد غير أطبائه وممرضيه . جدي ودع جمل العيلة أكبر أبنائه قبل عامين . اليوم يودع وردة العيلة ، أصغرهم ، يودع أبي خليل .

أي قلب كبير لهذا الرجل يتحمل ضربتين في القلب .

لم أر أمي ، ولا عمتي في تلك اللحظات ، لم أر أخي راسم ، لم أر رحاب الصغيرة . كأن موت أبي أضاعنا ، كأننا افترقنا في ازدحام الحزن وزحمة المشيعين . عمتي ظهرت فجأة ، لحظة خروج جثمان أبي من غرفة نومه إلى النعش ، صوتها علا كل الأصوات نحيباً ، أخذت تقفز مثل مجنونة ، تلطم خديها دون توقف . أبي هو حياتها ، هو أعز الناس وأغلى الحبايب : خليل اخويا وابويا وابني كمان ، أني عايشة عشانه وعشان اولاده وبس .

أمي ، أين ذهبت العروس التي انشغلت طيلة نهار البارحة في تحضير نفسها لليلة العمر ! ماذا فعل بها موت أبي المفاجىء ؟ خليل لم يخلف بوعده ، الموت هو الذي غير موعده واستبق فرحتهما . عرف بموعدهما فاختطف أبي ، أعاده إلى أمي جثة تخرج ، الآن ، محمولة فوق نعش ، سوف يرفعه على أكتافهم أبناء الحمولة ، الذين جاؤوا يودعون خليل . خليل لن يعود الى سرير رتبتيه يا لطيفة . لن يشم رائحة الريحان الذي عبقتيه في أرجاء بيته الكبير . خليل صار صورة معلقة على جدار . حافظي على الصورة يا لطيفة ، فسوف تتحدثين ونتحدث إليها كثيراً . كثيراً يا أمي ، على عرض الأيام ، وطول السنين .

رفع الرجال النعش فوق أكتافهم .

وحدوا الله

انطلق صوت يعلن ارتفاع النعش فوق أكتاف الرجال .

لا إله إلا اللـــــــه

رددت جموع المشيعين ، الذين مدوا اسم الجلالة حتى بدت أصواتهم بلا نهاية . اسم الله ملأ السماء ، ملأ الكون . شقت اصوات النساء صدر المعسكر . أمي شقت ثوبها عند الصدر نصفين . دلقت ثدييها في وجه النساء . سارعت

دلول امرأة عمي محمود إلى لم فلقتي ثوبها . جمعتهما بيديها . غطت أمي بصدرها . احتضنتها ، ولفت حولها ذراعيها . دشريني يا دلول ، خليني اروح مع خليل ، سايق عليكي الله اتدشريني ، سايق عليكم الله يا ناس ، أني ماليش عيشة من بعده ، خلوني الحق خليل ، ادفنوني معه سايق عليكم الله يا ناس . . .

حالت النساء بين أمي واللحاق بنعش أبي خوفاً عليها . أمي أطلقت صرخة عظيمة . صرخة شقت وجه السماء . رعدت السماء . في عز الصيف رعدت السماء .

وحدوا الله

تحركت جنازة ابي .

لا إله إلا اللـــــــــــه

احسست بالأرض تزلزل تحت أبنية المعسكر . رأيت المعسكر يصعد نحو السماء . رأيت السماء تبكي أبي . أسندت رأسي إلى جدار البيت ، وانفجرت باكياً من جديد ، ونعش أبي الأبيض يمضي نحو البعيد .

المقطوعة الرابعة
بائعة القماش

إلى عمتي . . نخلة من عسقلان . .
أسقطت علينا . حباً جنياً . .

اليوم ، أزور عمتي . مضى أسبوع على وفاة أبي . غداً السبت ، أعود إلى المدرسة . أذهب إليها يتيماً للمرة الأولى . سوف يقول زملائي «ربعي ما الوش أبو» . تسندني كلمات أمي : بدك تعوّظني في موت أبوك يا ربعي انجح في دروسك . يوم ما تنجح وتروح ع الجامعة ، رح أقول إنه أبوك ما مات . عشان كل من شافك يقول : صحيح اللي خلف ما مات» . عليّ أن أدفن رأسي بين صفحات الكتب إذن . أنام بين السطور وأتغطى بالكلمات ، ولا أصحو إلا لقراءة نتائج الامتحانات ، لا بل سأذهب قبل أن تعلق النتائج على الحائط . أقف مع مئات الطلاب ، أنصت لأسماء الناجحين تقرأ حسب الترتيب الأبجدي . هذا حرف الراء يبدأ براجح وبراتب ورائف ، ثم تكر سبحة الراءات حتى تصل إلى رائي فتجر خلفها الاسم كله : ربعي خليل سليم الدهون . يصيح بعض زملائي : طلع إسمك يا ربعي ، ناجح . مبروك . أحمل فرحتي وأنطلق راكضاً . أركض من مدرسة خان يونس الثانوية إلى بيت عمتي أولاً . أفتح بابها المفتوح لكل الناس . أضع خبر نجاحي في حجرها فتغسل وجهها بالفرح . أستدير خارجاً . أركض

مجدداً نحو بيتنا . أمي سوف تنتظرني أمام الباب مثل بقية الآباء والأمهات الذين ينتظرون عودة أولادهم بنتائج الامتحانات . سوف تراني قادماً من بعيد ، أعدو حاملاً فرحتي إليها . تبتسم . أرى ابتسامتها ترتفع نحو السماء مثل غيمه بيضاء تظلل المعسكر بضوء فضي كأنها القمر . أمرر كلمتين من بين لهاثي : «إنجحت يمّه» . ترد علي من بين دموعها : «مبروك يمّه . لو كان أبوك طيب ويفرح لك» . تمسح دمع فرح حزين ، لكي تفرح من دون حزن : «هلقيت بقدر أقول أنه أبوك ما مات» .

أذهب إلى بيت عمتي . سوف يسرها وجودي كثيراً . لأنها تذهب إلى غزة لشراء كميات جديدة من الأقمشة ، كما تفعل كل يوم جمعة . تتركني في البيت طيلة فترة غيابها . تكره أن تترك البيت خالياً . تقول : «البيت الفاظي بيشجع الحرامية على السرقة» . ومع أن جدي يقيم معها ، إلا أنها لا تعتبره موجوداً . معها حق ، جدي يغادر البيت فور انتهاء نوبة سعاله الصباحية بقليل . ينظف صحنه الفخاري المملوء بالرمل ، وقد جمع بصاق ليله كله ، بما فيه من شخطات ونخطات . يملؤه رملاً نظيفاً . يهيئه لحفلة سعال جديدة . يضعه قرب رأسه عند زاوية الفراش القريبة من ركن الغرفة الشرقي . يمسح زوره بكسرة خبز وحبتي زيتون يبلعهما مع كباية شاي . ثم يحشو علبة تبغه المعدنية ببعض التبغ ، ويخرج مطمئناً مرتاح البال ، تاركًا خطواته اللاحقة ترسم نفسها بنفسها . أصادفه في الطريق ، أحياناً ، وأنا ذاهب إلى بيت عمتي . وأحياناً أخرى أثناء عودتي منه . وأراه مرات خلال تسكعي في سوق المدينة ، يقلب بكفه كمية تبغ جاف بهدف الشراء ، وربما بدافع الفضول . أو في طريقي إلى البحر ، حيث يكون جدي عائدًا من زيارة لأحد أقربائنا في معسكر الجادلة الفوقاني . أراه هائماً في مشيته التي لا يسبقها ولا تسبقه . أمر أحياناً من أمام مقهى أبي مسلم المواجه للمسلخ ، أرى جدي حول طاولة ضمت عدداً من أصدقائه . أسمعهم يتصايحون مثل أطفال المعسكر . تتدافش أيديهم بحجارة «الدومينو» : طج ت وريك . قديش ظل معك ؟ إحسب وسجل عندك . نزل ثلاثة شاي يا معلم ، المرة الجاية

كل الزباين رح تشرب ع حساب هالخسران أبو نجيب .

يقول جدي لعمتي : «بتعرفي يا حاجة إنّي اربحت شِلن في الدخانات اللي اشتريتهن من سوق الخميس آخر مرة» .

يبرم بأصابعه ورقة رقيقة حول كمية تبغ . يبلل طرف الورقة بلسانه ، ويمسدها بإصبعيه السباب والإبهام . يضع طرفها الرفيع بين شفتيه ، ويشعل بقداحته الفضية اللون الطرف الآخر . ينفث الدخان حوله ، ويتابع قوله ، مستبقاً أولى سعلاته : «بس الشلن ما بيعملش إشي هالإيام ياحاجة» ! عمتي ، التي تنصت لكلامه ، وهي ترتب لفائف القماش ، تلتقط المعنى من وسط الدخان المتصاعد من فم جدي ومنخريه . تضع ما بين يديها جانباً . تخرج صرة قماش صغيرة من صدرها . تفكها وتناوله بريزة ، عشرة قروش كاملة . تعقد الصرة ، وتعيدها إلى صدرها . يلتقط جدي البريزة من بين أصابعها ، ويقول لها كلاماً يكرره بعد كل بريزة يتسلمها : «بكرة البريزة بترجع لك يا حاجة» . تضحك عمتي وتقول لي : «بريزة سيدك زي درهم العجوز» . «أي عجوز يا عمتي ؟» . أسألها . تحكي لي الطرفة . تقول أن عجوزا فقيرة أرادت أن تدخر درهماً حصلت عليه . أقنعها جحا بأن تضعه عنده ، لأنه يستطيع أن يجعله يلد كل يوم فلساً . فوافقت المرأة طمعاً . وضعه جحا تحت وسادته . قبيل الفجر صحا ، ووضع فلساً إلى جانب الدرهم . وحين عادت العجوز لتفقده أراها جحا الطفل الوليد . وكرر العملية في اليومين التاليين ، والعجوز تعد أولاد الدرهم . في اليوم الرابع أنفق جحا الدرهم . ولما عادت المرأة للسؤال عنه واسترداده وأولاده من الفلوس ، وجدت جحا يبكي . سألته إذا ما كانت أحواله تبكيه ، فأجاب بالنفي مؤكداً أنه بخير ، لكنه يبكي حال الدرهم الذي مات وهو يلد . واختتمت عمتي طرفة جحا بقولها : «إذا درهم العجوز مات وهو بيلد ، برايز سيدك بتموت أول ما تحبل» .

جدي ليس في بيت عمتي إذاً . يدور في الشوارع . . . ممكن ! في المقهى . . . ربما ! في بيت عمي اعليم . . .الله اعلم ! المهم أنه يخرج في مثل هذا الوقت .

هكذا سأجد الجو مناسباً لمراجعة ما فاتني من دروس . سيكون البيت هادئاً ،

باستثناء وقع ضربات «فتحي القريناوي» الثقيلة على جذوع النخيل . استعاد فتحي يده التي مزقتها رصاصات الجنود عام ١٩٥٦ . لكنه استعادها مثل خرقة قديمة جرى تقطيبها على عجل . يتوقف فتحي قبيل الظهيرة . يعرض ما انتهى من دقه لحرارة الشمس لكي يجف . ويبدأ في شد ما جف منه بأسلاك معدنية رفيعة ، كمرحلة أخيرة ، قبل تجميعه ، تمهيداً لعرضه في سوق المدينة .

حين وصلت إلى بيت عمتي ، خلال خمس دقائق تقريباً ، وجدتها على وشك الخروج . بادرتني إلى القول :

- اجيت في وقتك يا عمتي ، يدوبك بدي أطلع . دير بالك ع البيت . ما تبيعش لحدن ما بتعرفوش . إذا اضطريت ، ولا بد ، وبعت بالدين ، سجل كل شي . العقل مش دفتر يا عمتي .

وخرجت ، استقلت سيارة أجرة توقفت تواً أمام البيت . أغلقت الباب خلفها . استدرت إلى الداخل ، بينما صوت السيارة يبتعد تدريجياً .

***

وحدي في البيت ، جالساً على الدوشك الخشبي ، محاطاً بالأقمشة ، في الغرفة المطلة على الشارع دون أن تطل عليه ، «الدكان اللي ما الهاش باب» ، كما أطلق عليها . أتأمل الرفوف التي تعملقت على الحيطان . أتفحص الكم المتنوع من الأقمشة . أتذوق بعيني طعم الألوان . هذه أورغانزا شفافة بألوانها الزاهية مثل جناحي فراشة . هذا شيفون خفيف هفهاف . هنا لفافة من الكريتون الثقيل القوي ، يفرقع حين تنفضه عمتي بين يديها . تعمد إلى استعراض متانته أمام الزبون . إنه الكريتون ، قماش الستائر وبرادي النوافذ ، الذي استعار اسمه ، على مايبدو من كلمة curtain الإنجليزية .

أقلب الترغال بين يدي . أتحسس القماش الناعم . أمرر أصابعي بين كسراته الطولية المتساوية . لا يحتاج إلى مكوى بعد الغسيل . رائج بين معلمات المدارس

هذه الأيام . يناسب مقدرتهن على دفع الثمن . أنيق . يليق بمؤخراتهن الكروية المفتولة . والبيضاوية التي تشبه قدوس بطيخ المواصي في خان يونس . بعض المعلمات تجرأ وشق التنورة مسافة أصبعين فوق الركبة ، موضة . فتحية جرادة ، السمراء المكتنزة ، أعطت ، مثل غيرها من مدرسات حارتنا ، متنفساً للحم المحروم من التعبير عن نفسه . عبرت ، وتركته يحكي ، يقدم نفسه دون وساطة أو حاجة إلى كلمات غزل . فتحية ، مثل الأخريات ، انتزعت حق التمرد على الثوب الطويل ، عندما أصبحت مصدراً لدخل العائلة ، صارت حنفية نقود . والفضل للأونروا طبعاً ، وظفت البنات خريجات الثانوية العامة . جعلتهن يؤمّن مصروف آباء عاطلين عن العمل ، لم يسعفهم الزمن ، وظلوا أميين لا يقرؤون حروف أسمائهم .

غض المتنفعون النظر عن قيراط من لحم سيقان البنات تمرد . أعلن عن نفسه في ارتعاش طرف التنورة . في ارتباك الكعب العالي يقاوم الطرق الترابية ، يحرك برشاقة الإليتين . كل الذين تابعوا بريق اللحم يومض عند طرف تنانير الترغال ، فوق الركبتين ، حلموا بالزواج من مدرسة . الأحلام كبرت . المهور ارتفعت . البنات صرن أصنافاً من البضائع ، تعرض بأسعار غير قابلة للمفاصلة أو النقاش . اللداويات غاليات ، والرملاويات واليافاويات لسن أقل منهن مهراً . الفلاحات ، اللاجئات من أصول قروية ، أرخص . أما المجدلاويات ، فهن الأغلى مهراً بين الجميع . المجدلاويات بيضاوات . وجوههن مثل القماش البفتة . بنات حسب ونسب . يجمعن بساطة الفلاحات الى شموخ بنات المدينة . كأنهن لا زلن في المجدل . كأن المعسكر صار مدينة ، وصار فيه شموخ . معدلات في كل شيء ، في الطبخ ، في النظافة ، في الغسيل . في كل المعسكرات يرددون : «المجدلاويات معدلات وبياخذن العقل . بس دير بالك ، بدك تتجوز مجدلاوية بدك تدفع . بدك تفت مصاري ليقول أبوها بس . المجدلاوي ما بيجوز بنته بمهر أقل من ألفين نيرة مصرية ، إذا يدوبها متعلمة ، ومعها ابتدائي ، والا بلكثير اعدادية . أما اذا بتشتغل معلمة ، هوهوه ، بدك تشلح الباسك ، تحط اللي وراك واللي قدامك . أما الخان

يونسيات ، فأحسن لك تنسى ، وما تفكرش في الموضوع . لا بغالي ولا برخيص . أهل خان يونس ما بيجوزوش بناتهم للاجئين . بدك يقولولك زي ما قالو للحمار : شي يا حمار وشك وش لمهاجر . حا يا حمار وشك وش اللاجىء ! .

جدي تزوج . وسط بورصة المهور التي تصعد ولا تهبط أبداً ، تزوج جدي الذي تجاوز عمره موديل سيارات هذه الأيام ، ولم يحلم ، أو يفكر في الزواج ، منذ وفاة زوجته حليمة ، قبل أكثر من ربع قرن ، تزوج . وبدلاً من واحدة تزوج من اثنتين . نعم جدي سليم المدهون ، أبو محمود ، تزوج من مدرستين دون العشرين . صار له زوجتان على سنة الله ورسوله ، تماماً كما فعل ابن اخته خليل الشيخ سلامة ، وكما فعل الشيخ صبحي المدهون ، والمختار محمد خليل . لكنه محروم من وضع أصابعه بين اللحم . ومن استنشاق رائحة الترغال المغمسة بطعم اللحم . لم يدفع أربعة آلاف جنيه ، بل أخذ مهراً لنفسه . تزوج مقابل جنيهين ونصف الجنيه شهرياً . يأخذ ولا يدفع . يقبضها من والد كل من الزوجتين شهرياً ، بشروط متماثلة طبعاً : ألا يرى الزوجة . ألا يحادثها . أن يقبل بأن توضع العصمة في يدها ، لتطلقه عندما يأتيها أول عريس حقيقي توافق عليه . ألا يأتي على سيرة زواجه بين الناس ، وخصوصاً في المقهى .

أنقذ زواج جدي عائلتي زوجتيه ، وضمن لهما استمرار الإعاشة ، والاحتفاظ بكرت التموين . فمنذ قررت وكالة الغوث وقف صرف التموين لموظفيها الذين يزيد دخل الواحد منهم على ثمانية عشر جنيهاً ، بدأ كثيرون يبحثون ، بين كبار السن ، الموثوقين من الرجال ، عن أزواج لبناتهم ، ليصار إلى فصل البنت عن العائلة ، وإلحاقها بزوجها رسمياً ، فيسقط حقها في الحصول على تموين ، لكن ذويها يحتفظون بهذا الحق . وهكذا بزواج يكلف جنيهين ، أو ثلاثة ، أنقذت عائلات كثيرة تمويناً ، قد يكلف شراؤه نصف راتب أي مدرسة . جدي من ناحيته ، وجد وظيفة براتب ثابت ، أهم ألف مرة من خلطة التمباك العجمي التي يبيعها ليكسب قروشاً قليلة من أصدقائه . كما أن العمل زوجا ، بتلك الشروط ، لا يحتاج إلى عمل . حتى راتبه يأتي إليه ، يبحث عنه حتى يجده ، فلا يضطر

إلى زيارة بيت أي من الزوجتين ولفت الأنظار . عمل جدي زوجاً مع وقف التنفيذ ، واستمتع بدخله الجديد . ومع ذلك لم يستغن عن بريزة عمتي من حين لآخر .

هذا قماش «يمّه القمرع الباب» . رقيق موشح بزهور كأنه حديقة . أضحك . عندما راجت أغنية فايزة أحمد ، تلك ، سارع التجار إلى إطلاق اسم الأغنية على نوع من قماش الأورغانزا الشفاف . أخذ الاسم بعقول الصبايا . أيقظ في رؤوسهن صور العرسان . فرسان يمتطون ظهور خيول بيضاء ينتظرون على الأبواب . لبسن الفساتين . نسجن أحلاماً من قماش هفهاف وكلمات أغنية . غنين : «يمّه أرد الباب . . . واللا أنادي له» !

أتأسف لصباح . كلمات أغنيتها «زنوبة» لم تستقر على جسد ، أو تدخل نسيج حلم عذراء . داس الشباب بأقدامهم الحافية المتسخة على الكلمات «زنوبة ، حلوة وخفة وحبوبة» . زنوبة شبشباً تحت أقدام الجميع ينام . صندلاً بأصبع انتعلوه . هذا الابتكار البسيط ، الذي يذكرنا ، كل ثانية ، بأننا لم نزل حفاة ، نسير فوق قطعة إسفنجية رقيقة ، تدخل زبالة الشوارع إلى أقدامنا ، وتحشي الرمال بين أصابعنا ، وفي أظافرنا ، صار له شنة ورنة . اسمه على لسان الصبوحة . تسمع عنه في كل الإذاعات : «حلوة وخفة وحبوبة» . بيع أكثر من البندورة ، ومن السمك . ثمنه في مستطاع الجميع . انتعله ثلاثة أرباع المخيمات صيفاً . عمتي باعت مئات الزنوبات أيضاً . لم تغنِّ ، ولم تسمع صباح في يوم من الأيام ، ولم تفتح مذياعا ، بل هي لا تملك واحدا أصلا ، لكنها عرفت كيف تدس الزنوبات تحت أقدام المشترين .

«ملاعيب تجار » .

تقول عمتي وتضحك . ثم تواصل : «بدهم ايمشوا السوق . مش بيقولو التجارة شطارة ! التجار لكبار ملاعين والدين يا عمتي . والإسم اللي بيقولولي عليه بقوله للناس . يمّه القمرع الباب ، ورمش عينه ، وقلبي ومفتاحه ، والناس بتشتري . طب ما احنا يا عمتي سمّينا الثوب الجدلاوي جنة ونار ، وبلتاجي ،

وجلجلي ، وأبو متين ، وغيره وغيراته . صحيح مش أغاني ، بس كله عشان الناس تشتري . وعشان ينعرف لقماش من بعظه . الدنيا يا عمتي تجارة . شوف سيدك سليم بيصرف من ورا نسوانه الثنتين . جوزوه معلمتين عشان ما ينقطع لا سكر أهاليهن ولا طحينهم . شطارة يا عمتي . التجارة وصلت للجيزة والمهور . شوف مهر البنات قديش صار . معلمات المدرسة صارن يتساعرن بالألافات . بكره أديبة بنت عمك بتصير معلمة . سنتين ثلاثة وبتتوظف . بيهجمو عليها العرسان . لو شو ما طلبنا مهر رح يدفعو . بس لا والله يا عمتي ، فشرو ، أني حالفة ميت يمين ما بياخذها غيرك . أديبة بنت عمك وانت أولى فيها . أجوزها لغريب ، أعوذ بالله!» .

***

احتاجت عمتي ثلاث سنوات حتى دخلت سجلات تجار المدينة ، وصار مقصها يعمل مثل منشار النجار «ياكل ع الطالع والنازل» ، مع أن أسنانه لم تمضغ سوى المال الحلال . مرت أيام وأسابيع ، وحتى شهور ، دون أن تستطيع عمتي توفير مصاريفنا الأساسية من بيع القماش ، ولو استمر الحال على ما هو عليه لعلا مقصها الصدأ .

رأيت عمتي مراراً ، جالسة على عتبة «الدكان اللي ما لهاش ابواب» . رأسها ساقط بين كفيها مثقل بالهموم . لا رفوف حولها ولا أقمشة ، بضع أمتار من المالطي والبفتة ، ملفوفة على كرتوناتها ، مرمية خلف ظهرها . ألوانها حزينة باهتة ، تشكو لبعضها قلة الطلب . في الغرفة الأخرى يرقد زوجها الحاج حسين العمصي ، طريح مرضه المفاجىء . سقط مرة واحدة سقطة حصان ، ولم يقم منها . «سقط في يوم ما بينتسى» ، تقول عمتي كلما تذكرت . سقط في صبحية يوم من الكوانين والدنيا قائمة قيامتها ، برد وشتاء والريح تصفر . صحا الحاج من نومه ليجد نصفه الأيسر مشلولاً من رأسه حتى قدميه ، يرتعش بلا

توقف . صار الحاج نصفين ، نصف لا يعرف نصفه ، ونصف حزين على نصفه . جنت عمتي . لطمت خديها . الحاج حاول أن يقول لها شيئاً ، لسانه ثقل ، صار كأنه مربوط في حلقه . قامت عمتي مثل القردة . نطت تركض في الشوارع . استنجدت بعمي محمود وجدي سليم ، الذي أقام في بيت عمي اعليم في ذلك الحين ، قبل أن ينتقل إلى بيتها . رافقاها إلى البيت . عمي محمود حمل الحاج حسين على ظهره ، وضعوه ثلاثتهم في سيارة ، وأخذوه للصحية ، ثم داروا به على العيادات ، في النهاية قيل لهم هذا شلل نصفي كامل . وقيل هذا فالج . طبيب صحية الأونروا خاطب عمتي مباشرة ، قائلاً لها :

- جوزك يا حاجة انفلج .

ابتلعت عمتي صدمتها ، لكنها لم تسكت ، ولم تستكن ، أو تستسلم لقدره وقدرها . أخذته لعيادة خصوصية .

قالت للطبيب :

- خوذ كل اللي عندي يا دكتور ، أني مستعدة أدفع اللي ورايا واللي قدامي ، بس يطيب الحاج ويرجع لصحته .

قال لها :

- الموضوع مش موضوع مصاري يا حاجة .

- طب موضوع ايش يا بني ؟

- هذا فالج يا حاجة .

نقلت عمتي زوجها الى مستشفى تل الزهور في غزة . ثم إلى مستشفى المعمداني ، وعادت ، في المرتين ، بحسرتها تحمل دستة أجوبة مثل بعضها . وفي النهاية استسلمت وهي تردد : صدق اللي قال : فالج لا تعالج .

من يومها والحاج حسين مستسلم لمصيره ، ممد على ظهره على فرشة في غرفة النوم . يعد خشب السقف ألف مرة في اليوم . صحته تتدهور من يوم ليوم . الغريب أن ابتسامته لم تختف عن وجهه لحظة واحدة . كأن الفالج عاجز عن إلغائها ، حتى عندما يرسم الحاج نصف ابتسامة على شفتيه الذابلتين ، فإنها

تضيء وجهه بالفرح . كأن الفالج لا يقوى على هزيمة الفرح ، كأن الفرح لا ينفلج .

عمتي قررت أن تكمل المشوار وتنقذ تجارة زوجها من «فالجها» . أخذت تنقل ما في البيت من قماش إلى سوق الخميس ، الذي يقام في ملعب المدينة القديم كل أسبوع . يباع فيه ويشترى كل شيء تقريباً ، من الإبرة حتى تعشير النعاج . النعاج التي يدفع أصحابها لصاحب التيس السعيد مبالغ معقولة ، لقاء نطة تضمن خرافاً قوية من نسله .

تمرنت عمتي على التجارة . في البداية احتلت موقعاً صغيراً في سوق مزدحم بالتجار والمنافسين . دخلت بين الأقمشة والتجار في سوق الخميس ، إلى أن جاء يوم سمعت فيه نفسها تهمس لنفسها : «النسوان يا حاجة النسوان . .عليك بالنسوان . اليافاويات واللداويات مفاتيح كسوة البيت كله . . . والنسوان بيفهمن ع النسوان» .

وفكرت : ألم تشكُ لها أم محمود سلطان من أعين الرجال في محلات بيع الأقمشة في المدينة ! ألم تصف لها شعورها حين تغتسل بالخجل . ثم ها هي «لطيفة القريناوي» سمراء المخيم ، ذات العينين الكستنائيتين ، والشفاه المخملية ، والصدر الرماني ، تعلن أمامها ، قبل يومين فقط عن ارتباكها الشديد ، أمام نظرات الشباب ، التي تفقدها القدرة على اختيار القماش الذي تريد . ألم تقل أنها تفقد عذريتها ألف مرة حين تحاصرها العيون ، تخلع عنها ملابسها وتمر بين ثنايا جسدها دون خجل ، أو حياء !

هتفت عمتي ولم يسمع هتافها سواها : «أجيبهن للبيت . . . وبنكون نسوان في بعظ» .

وهكذا توفر لعمتي ، واخد من كنوز المدينة ، معسكر اللد والرملة . أول مرة يساوي المعسكر كنزاً . معسكر الرمل ، وعواصف الخريف ، والرمد الربيعي ، وأمراض الشتاء والصيف . معسكر سرقات الدجاج ، والفقر والعازة ، صار كنزاً ، وعرفت عمتي كيف تغرف من الكنز المفتوح .

***

يقع بيت عمتي عند مداخل المعسكرات، على شارع طويل عريض نسبياً، يفصل المخيمات عن المدينة. منذ اليوم سوف تكرس عمتي الفصل بينهما تجارياً. تحوّل شارعها إلى حدود تجارية. تسور المعسكر بأسعار معتدلة. تحيطه برأفة وعطف على فقرائه. تحميه ببيت مفتوح، تعتقل فيه النساء. لا رجال حقيقيون هنا، ولا بصبصة عيون. هنا بقايا رجل، زوج مشلول ممدد في الغرفة المجاورة. واذا همست أحداهن: «طيب وربعي، ابن اخوك يا حاجة، طول النهار رايح جاي لعندك!» ترد عمتي، مستهجنة، مستغربة مثل هذه الظنون: «ربعي! أعوذ بالله ،صلّي ع النبي يا شيخة، يا ريت كل الصبيان زيه. مؤدب، وعاقل، أصلاً بيستحي يرفع عينه». سوف أتردد كثيراً في رفع عيني لاحقاً.

عمتي فكرت في كل ذلك. استلقت على ظهرها فوق حصيرة مدت في قاع الدار. وحدها والسماء المفتوحة على أفق لانهائي. حكت للنجوم المنثورة مثل قلائد من فضة قصتها. سمعت همساً في السماء. صار الهمس كلاماً. الكلام صار وشوشة. مثل وحي صار الكلام: إفتحي بيتك يا حاجة. إفتحي صدرك. إفتحي دفتر للديون. في ناس معهاش تدفع مرة واحدة، أصبري عليهم، الصبر مفتاح الفرج، وانت معك بدل المفتاح مية.

غفت عمتي على همس الكلام.

صحت من نومها، عند منتصف الليل، على صوت الحاج حسين، يناديها من غرفة النوم: وينك يا حاجة، ليش نايمة برة.

نهضت. لا تعرف كم من الوقت نامت. دخلت غرفة نومها واندست في الفراش إلى جانب الحاج حسين، وغفت ثانية.

في الصباح قامت. مسحت وجهها بكفيها. خرجت الى قاع الدار. يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، بك استعنا وعليك توكلنا يا رب العالمين، يا أرحم الراحمين. تناولت جعبوب المياه الفخاري. ذهبت إلى ركن في زاوية البيت. تشطفت. توضأت. أحضرت مصليتها الصغيرة المزركشة. عادت إلى قاع الدار. فردت المصلية. أدت صلاة الفجر في خشوع، بينما كان الفجر يصحو، يطل

عليها بضوئه الفضي ، ويغسل وجهها بنور الهي .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

طوت مصليتها . وضعتها تحت إبط ذراعها اليسرى . رفعت رأسها الى السماء . السماء حكت . وتردد الكلام من حولها : كملي المشوار اللي انقطع يا حاجة . كملي المشوار .

***

جمعت عمتي ما في بيتها من نقود ، وضعتها في عبها . فتحت باب الدار ، وجدتني أمامها . قبضتي معلقة في الهواء . قبضتي تراجعت عن دق باب صار مفتوحاً .

- جيت وألله جابك يا عمتي .

قالت عمتي .

دخلت البيت . عمتي تابعت قولها :

- خليك جنب عمك الحاج عبان ما أرجع . رايحة أجيب أكمن ثوب قماش من محلات الشرفا في غزة ، بالكن الله بيسرها ويفتحها علينا وعليكم ، مهو عشانكم يا عمتي .

- طيب بس جيبي لي اشي بس ترجعي .

غادرت عمتي البيت ودعاؤها لم يزل في السماء .

أغلقت الباب خلفها ، واتجهت نحو الغرفة الأخرى حيث يرقد الحاج حسين ، الذي سمع بعض حوارنا وصوت غلق الباب ، إذ صاح بصوته الواهن المتقطع : مين ، ربعي . .تع . .تعا يابا تع . .تعا . . .

طوال عمره يناديني «يابا» . لم يرزق الحاج بأولاد فاعتبرني وأخي راسم ولديه : ابني ربعي ، اني ربعي ابني . وراسم ابني . همه لثنين اولادي . هكذا

اعتاد القول .

في السادسة من عمري ناداني « يابا» . زارنا ذات يوم ، كما يفعل من وقت لآخر . دق بقبضته باب الدار ، وكانت قبضته لم تزل قوية ، فتحت له أمي . سألها عني . نادتني . خرجت من الغرفة حيث ألعب . صاح بي : تعا يا با . اقتربت منه . بدا مسروراً . عيناه تضحكان . دس يده اليمنى في جيب هنديته الروزة الحرير . خشخش بأصابعه القطع المعدنية الصغيرة ، حتى أسمع الحارة رنينها . رنينها صار فرحاً يتراقص على وجهه . أخرج يده من جيبه وبها بعض النقود . سألني مازحاً :

– أعطيك قرش يابا واللا تعريفتينَ أكثر ؟ .

أنا استحيت . أمي فرطت من الضحك . قالت له :

– يا حاج . . . ربعي بيعرف إنه القرش تعريفتين .

والتفتت إلي وقالت :

– خوذ منه يمّه الحاج مش غريب ، الحاج حسين زي ابوك .

تناولت قرشاً من يده . شفت السعادة تمشي مزهوة على وجهه . أحسست بدمايته الروزة ترقص على بدنه ، وهو يستدير عائداً ، ترفرف على جانبيه مثل جناحين ، تطير به نحو البعيد ، فيحلق مختفياً في الأفق .

أغلقت أمي الباب . أجلستني إلى جانبها . حكت لي قصة زواج عمتي من الحاج حسين العمصي . قالت أن عمتي تزوجت ، قبله ، من محمود محسن المدهون ، شقيق عبد الله محسن ، زوج عمتي أم إبراهيم . وقد قتل محمود في حادث أثناء عودته من رعي بقرات بيت محسن . طعنه رجل من قرية الجورة المجاورة للمجدل . جاءه من الخلف شاهراً سكيناً في يده ، وطعنه في ظهره . مات بعد دقائق . نزف دماً كثيراً ومات . وتزوجت عمتي بعدها حسين العمصي . وكان يكبرها بعشرين عاماً ، وليس من عائلتنا . وافق جدي ، وكبار رجال العائلة ، على زواج عمتي دلول من غريب ، من خارج العائلة لأنها أرملة . بعد مدة اكتشفت عمتي أن زوجها الثاني لا ينجب . سكتت ، ورضيت بنصيبها ، فقد

أحبت حسين العمصي كثيراً . وقالت أمي : لمّا خلّفتك وخلفت أخوك راسم بعدك ، صارت عمتك تقول هذول ولادي . ولمإ أوعيتو وصرتو تفهمو ، صار الحاج يناديكم يابا . تعا يابا . خوذ يابا . يمد ايده في جيبته ويعطيكم . طول عمره طيب وحنون .

***

ها هو الحاج حسين ، الطيب والحنون ، ممدداً على فراشه نصف مشلول . ينتظر مني أن أسليه ، أن أعيده الى أيام زمان ، أيام كان الحاج حاجا ، تحمل كتفاه كومة من ثياب القماش ترتفع نحو السماء ، يدور بها الشوارع والساحات النهار كله ، ويعود إلى البيت مساء ، قويا مثلما خرج منه .

جلست إلى جانبه على حافة الفراش . تطلعت إلى وجهه . بشوش كعادته ، لا يعرف الحزن أبداً . مازحته : «كيف حالك يا حاج سكوتش ؟»

ابتسم . يصعب علي وصف ابتسامته . هل أصفها بنصف ابتسامة ؟ أم بابتسامة نصف مشلولة ؟ لا أدري . كل ما أستطيع قوله هو أن ما رأيته هو ابتسامة ، لأن عيني الحاج ، شبه المطفأتين ، برقتا . ربما شحنتهما الذكرى بذلك البريق .

أخذ الحاج يدي اليسر ، بكفه اليمنى القادرة على الحركة ، وأخذ يهزها بفرح طفل ، وهو يسألني :

- بتتذكر لما حملتك ع ظهري واحنا مهاجرين ، يوم ما كان لي ظهر يحمل ؟

- بتذكر انه حدن حملني على ظهره ، أمي قالت أنت اللي حملتني ، بس ما بتذكر وين .

- وشو قالت لك كمان ؟ .

وسردت حكايات أمي على مسامع الحاج الذي ظل منصتاً . قلبت الوضع وبدلت الأدوار والمواقع ، كنت مثل عجوز يسلي حفيده الصغير . وفجأة التفت إليّ

الحاج . حرك شفتيه بتثاقل ، كأنه يطلب مني الكف عن الكلام . يريد أن يقول شيئاً . كأن كلاماً لم يقله أخذ يداعب لسانه . كأنه لم يحتمل الإنصات لي طويلا . لم يحتمل ضعفه وسماع حكاياته تروى عن غير لسانه . طلب مني أن أسنده ، أسندته . أجلسته ووضعت وسادتين خلف ظهره . شعرت به يستعيد الحاج القديم فيه ، الحاج الذي عرفته قبل أن يقتطع المرض نصف أعصابه .

التفت الحاج إليّ . عاد يهز يدي النائمة على بطن كفه . شعرت بدفء قلبه في باطن كفه .

قال :

– هالمرة أني اللي بدّي أحكي لك . صحيح الساني ثِقل يابا ، بس بيحمل ألف قصة وخرافيّة .

وحدثتني الحاج حسين عن الأقمشة وعلاقته بالغزل والنسيج بلهجة راعشة . أسمعني كلمات متقطعة ، وجملاً ممزقة ، اضطرتني في مرات كثيرة ، إلى إعادة حياكة كلماتها ، وتقطيب حروفها . قال أنه ، بعد استقرار الوضع في المخيم ، اشترى بضع أمتار من الأقمشة ومقياساً من الحديد بطول ذراع ، اسمه ، أيضاً ، ذراع . وأخذ يدور في المخيمات وقد حمل على كتفه اليسرى بضع أثواب من قماش البفتة والمالطي والتوسا . كتفه التي صارت الآن مشلولة حملت ، في ما مضى ، أقمشة ، أسندها بيده اليسرى التي ترتعش وحدها الآن . بيده اليمنى حمل الذراع . نادى على أقمشته كما ينادي باعة الخضار : بفتة . مالطي . معانا بفتة . معانا . . . وقال أنه كان يعود ، آخر النهار بقروش حلال يضعها في حجر عمتي ، قائلاً : «هذا ما قسم الله يا حاجة» . فتبتسم بسعادة وترد : «نعمة من الله يا حاج» .

أخبرني بما أعرف وما لا أعرف . تركته يحكي . لم أقل له أنني أعرف معظم ما يقول . منحته فرصة لرواية ما يحب أن يروي . أشفقت عليه ، فقد لا يستطيع أن يحكي بعد ذلك ، أو يجد من يستمع إليه لو رغب في استعادة بعض حكاياته . قال أن المجادلة ، عمليون . غالبيتهم إما تجار أقمشة ، أو صانعين لها . البسوا

فلسطين ثوبها «الجدلاوي» ، تاركين ، لكل قرية ومدينة ، الحق في اختيار طريقتها في تطريزه . واختيار ما يروق لسكانها من ألوان الحرير . وأنهم أبرع من عملوا على النول اليدوي في فلسطين ، منذ زمن العثمانيين ، زمن «يريط» و «السفربرلك» ، كما يطلق عليه . بعض المجادلة امتلك أكثر من نول يدوي ، اثنان أو ثلاثة ، وربما خمسة . نصبت في قاعات كبيرة . عمل فيها أجراء . كل نول يعمل عليه شغيل . يتلقون أجراً بقدر ما ينسجون من قماش خلال اليوم الواحد . المجادلة سمو ذلك مانيفاتورة . صاحب القاعة والأنوال سموه تاجر مانيفاتورة . العبد زوانة المدهون كان لديه عدداً كبيراً من الأنوال . كانوا يطلقون على قاعته مصنع نسيج . كان النول يعمل والنساء يجهزن المواسير على الدواليب ، وينقعن بعض الأقمشة تمهيدا لنشرها وصقلها . وحين هاجروا نقلوا حرفتهم معهم الى داخل المعسكرات . وأنشأ بعضهم قاعات نسيج في المدينة .

قال الحاج أنهم نصبوا المسديات ، بعدما نصبوا الخيام بأيام معدودة . صار منظرهم وهم يمدون خيوط الغزل ، على عصي من القصب ، جزء من مشهد المعسكر . عادوا ينسجون المالطي والبفته البيضاء من خيوط القطن ، والروزة من الحرير الطبيعي ، كأنهم ينسجون ماضيهم الذي ضاع ، يصنعون حاضرا من خيوط الغزل . عاد الثوب الجدلاوي إلى أيام عزه : هذا بلتاجي ، هذا جنة ونار ، هذا درزي ، وهذا أبو متين ، وهذا جلجلي . الحاجة رقية ، حماة عمي محمود ، وابنتها دلول ، تعلمتا خياطة الأثواب بالإبرة وتطريز الصدر والأكمام .

ثم سكت . وتوقفت أنا عن حياكة كلماته وتقطيب حروفها .

سألته :

– مالك يا حاج . اتعبت . ترجع تتمدد ؟

ضحك . والتفت إليَّ وقال بصوت واهن حزين :

– الروزة يابا .اتذكرت الروزه وأيام الشباب . الروزة لبس الغاوين . لبس العرسان يوم زفتهم . آخ يابا آخ ع هذيك الايام . لو شفت أبوك الحاج حسين وهو عريس بهنديقه الروزة والشال الحرير لمطرزع وسطه ، وحطة الشاش البيظة على

راسه ، وعليها لعقال الاسود المبروم .

ثم مال برأسه نحوي قليلاً :

- قرب ت قول لك .

قربت أذني من فمه . قال هامساً كمن يخشى أن يسمعه أحد :

- بقينا وحنا شباب نتعايق بالهنادي . وما نسدق بيوم يلعلع فيه الهوا ، ونروح نكسدر في شوارع المجدل . نتمشى من حارتنا لآخر شارع البوليس . وياعيني لما الهوا يطير الهندية ، ويبين طراف البساتنا . مهي طويلة يابا ، مش زي البساتكم للورك فوق . نتمختر . ونشوف عينين الصبايا تلعب بين الرجلين .

شعرت بالخجل . وأحسست بأن الحاج شعر بدوره بحرج ما نتيجة لما قاله . حاول إصلاح ذلك بقوله : «انت صرت زلمة يابا وأني بحكيك زلمة لزلمة» .

لم أعقب .

شدني من كتفي محذراً ومازحاً :

- إوعى تقول لعمتك . . .عمتك قوية مثل الزلام ، ومش بعيد ترمي علي يمين الطلاق !

أضحكني . وضحكنا معاً .

ووجدت الجو مناسبا لسؤاله عن شائعة ملأت المعسكرات زمناً ، تقول أن المجادلة بلعوا ليرات ذهبية في أثناء رحيلهم عن المجدل ، حتى أن بعض أقربائي من النساء ألمح إلى احتمال أن تكون عمتي بلعت بعضها .

احتفظ الحاج بنصف ابتسامة ، ثم قـه ـ قـه بصعوبة وقال :

- عمتك ما قالتليش . يمكن خبَّت علي . بس ، بيني وبينك ، وما تقول لها الحاج حكى لي ، أول ما وصلنا خان يونس أجاها مغص . قالت : يا جماعة أني مغوصة وبطني بتجعني ومعدتي رح تتفتك . وراحت تركظ ورا السافية . بعد شوية رجعت مرتاحة ، ووجها إِبيظ واحمر ، بتظحك ومبسوطة . صحيح الواحد لما بيعملها بيرتاح ، بس أني متاكد إنه راحتها هذيك غير شكل .

قلت في سري ، يعني عمتي عملتها ، بلعت ليرة ذهب ويمكن أكثر ، ونزلتهن

ورا سافية الرمل . وأكيد غسلتهن بالسر من غير ما حدا يشوف . يعني الحكي عن المجادلة وعنها صحيح ، ومش حسد للمجادلة زي ما بيقولو .

التفت إليّ الحاج . التقطتُ نظرة لؤم تطل من طرف عينيه اليمنى . أول مرة أرى الحاج لئيماً . أدرك هو ذلك فسارع يقول مستعيداً قه ـ قهـ ته المتقطعة التي تساوي نصف قهقهة عادية :

– ما تصدقش يابا اني بتمسخر . في واحد بس من المجدل بلع خمس عسمليات . خاف اليهود ياخذوهن منه وهو مهاجر . ظلّن في بطنه طول الطريق . ولما وصل ع غزة ، هو ومرته ، حس بمغص . قال لمرته ، يا مره مصاريني قاعدة بتتقطع . راح على جنب الطريق وعملها ، ونزلن الليرات . بس المسكين ما لحق يفرح بالذهبات ولا يتهنا . أتاريه متسمم وهو مش عارف . بعد خَرِيْتُه بأكمن ساعة مات .

ضحكت .

وفجأة أحسست بيده تنسل بهدوء من بين أصابعي ، وبالتعب في صوته وهو يطلب مني أن أساعده ليمدد جسده . سحبت الوسائد من خلف ظهره ، وأبقيت واحدة تحت رأسه . بدت عليه الراحة . فقد أخذ يشرح لي فكرة قماش السكوتش ، المربعات ، المأخوذ عن التنورة الاسكتلندية التقليدية التي يلبسها الرجال ، ويؤكد أن أحداً لم يهتد إلى صناعته قبله . وحين انتهى ذكرته بمن أطلق عليه لقب الحاج سكوتش :

– يومها قال لك عمي اعليم ، والله واعملتها يا حاج اسكوتش . ومن يومها صاروا المجادلة ينادوك حاج سكوتش .

ضحك الحاج بنصف فمه . صار صدره يعلو ويهبط . وأخذ يقهقه بطريقة مفلوجة . أسعدني ذلك ، وإن لم أتوقع أن يطلق الحاج هذا القدر من الفرح في فضاء الغرفة . ولم أفهم إلا حين قال موضحاً :

– عمك ما بيقولش اسكوتش يا با ، ما انت عارف ، عمك بيقول اثكوتث .

وجدد نصف ضحكته ، كأنه يجمع أنصاف ضحكاته ليصنع ضحكة كاملة .

وضحكت بدوري .

***

عادت عمتي بعد الظهيرة في سيارة أجرة ، أنزلت منها ، بمساعدة السائق ، كمية كبيرة من الأقمشة . أنا ساعدت في إدخالها الى البيت . قمت بعدها بترتيب لفافات القماش على الرفوف ، وأنا أنظر إليها بإعجاب . أرى فيها محل بيع أقمشة يولد . يحبو فوق الرفوف الخشبية . يكبر على وجه الحيطان . يرى شبابه في ابتسامة عمتي المريحة .

كانت قد وقفت وسط الغرفة . يداها حول خاصرتيها مرتاحتين . عيناها تتجولان في الغرفة ، تتأملان الأقمشة التي لونت رفوفا ظلت مجرد رفوف لسنوات . «هات ثوب المراييل قدام يا عمتي . حُط قماش التناتير كله مع بعظه . أقول لك ، جيب الكاكي هان ، وخوذ حط البوبلين مطرحه ، خللي البفتة والمالطي تحت عشان يظلو تحت ايديّ ، عشان الطلب عليهن اكثر» .

ظلت تقول وأنا أنفذ ، إلى أن شعرنا معاً بأننا نقف وسط دكان حقيقي مكتمل ينتظر زبائنه . لقد اكتمل حلم عمتي .

أخذت نفسًا عميقاً ، ثم التفتت إليّ كأنها تراني للمرة الاولى . تذكرت فجأة : «وين الـ . .» ! وقبل أن أكمل كانت قد فكت عقدة حزامها القماش عند الوسط . أخرجت بعض الفكة . ناولتني ثلاثة قروش .

طرت فرحاً .

– «اذا بتظلك تيجي عندي ، بظل اعطيك» . قالت .

طبعا رح أظل آجي وآخذ مصاري . قلت لنفسي وأنا أدس القروش الثلاثة في جيبي .

ولها قلت : «كل جمعة رح آجي» .

وركضت خارجاً .

***

هأنذا انتظر عودة عمتي . الوقت تجاوز الظهيرة بكثير . الشمس بدأت تميل نحو بحر المدينة . في البحر تسقط جسدها الشفقي عند المساء . أستطيع أن أتأكد من ذلك في تمدد ظل الحائط الفاصل بين بيت عمتي وجيرانها . يتقزم عند الظهيرة . يطول تدريجياً بعدها . يصير جزءاً من ظلال زاحفة في كل مكان . تتكاتف ، تتعانق عند المساء لتعلن حلول ليل المدينة .

راجعت دروساً عدة . سرحت مرات عديدة . قلبت حكايات أمي . استعدت شطحات الحاج حسين وطرافات قصصه وحوارته نصف المحكية . غربلت القصص والروايات . أعدت تصحيح وترتيب ما سمعته عبر السنين ، من هنا ومن هناك ، . دون أن أتوقف عن انتظار عمتي . تماماً كما انتظرناها ، الحاج حسين وأنا ، قبل ثلاث سنوات .

اليوم أنتظرها بلا حاج حسين ولا سكوتش . بلا ابتسامات ناقصة وحكايات تساقطت منها الحروف . مات الحاج حسين العمصي ، رحمه الله . مات بعد جلسة الحكايات تلك ، بأسابيع معدودة . رسم بنفسه جنازته في الدقائق الأخيرة من حياته ، كأنه أراد أن يمشي في جنازته ، يرقب المشيعين ويراقبهم ، يعدهم واحداً واحداً ، يشكر الحاضر ويعاتب من تخلف عن المشاركة ، يراقب نعشه ، يرى فيه سطوة الموت وهالته توقف حركة السير في الطريق ، تجبر الجالسين على كراسي القش في المقاهي ، وفي الدكاكين ،على الوقوف احتراما لميت يمشي فوق رؤوس المشيعين : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ، يجلسون . يعود الحاج إلى نعشه مرتاحاً مطمئناً إلى خلوده الأبدي .

أوصى الحاج حسين بفرقة دينية تتقدم النعش . ترافق جنازته من أمام باب البيت إلى باب المقبرة . تعبر شارع البحر . تقطع خان يونس المدينة من وسطها . تتجنب الأزقة والممرات ، حتى لا يضيق نفس الميت . الحاج حسين لا يطيق ضيق النفس حتى وهو ميت . طول عمره صدره واسع ، لا يريده مثل قفص العصافير . أصر الحاج على اتباع وصيته دون تحريف ، وأنهاها قائلاً لعمتي : «أمانة الله يا حاجة ما تدفنوني إلا جنب المداهنة . عشت معهم في الدنيا ،

خليني أعيش معهم في الآخرة» . ومات .

الحاجة نفذت الوصية كلمة كلمة . ومشت الجنازة كما أرادها الحاج . خلفه سار المشيعون من الأقارب والجيران ، وبعض الأصدقاء ، وأبناء الحلال ، ممن يؤاجرون في حمل النعش ، لكي يؤاجرهم الله . «آجرني آجرك الله» . يتبادلون حمل النعش بالأكتاف . مشت الجنازة تحت مظلة من خشوع وصمت ، تزحف فوق أكتاف المشيعين . الطبول تقرع ، تطلق في السماء إيقاعاتها الحزينة . الأبواق تنعي الفقيد ، والرايات الخضر ترفرف فوق نعش الحاج حسين مثل هنديته الروزة في يوم زفافه . تلوح فوق رؤوس المشيعين بعبارة التوحيد ، مخطوطة بلون الكفن الأبيض : وحدوا الله : «لا إله إلا اللـــــه محمد رسول الله » .

وتمضي الجنازة . تتلاطم الصناجات ، تبعث رنينها النحاسي يبقي الميت يقظا طيلة وقت الجنازة . ويتكامل النشيد . جاز الموت الصاخب . النشيد الذي يصير لعبتنا حين نمل العاب الحياة . نحمل نعشاً وهمياً ونمضي . نطوف به الحارة على إيقاعات موسيقى الموت . نضحك لجنازات نلعبها بلا ميت ولا مقبرة . مشهد تصحبه موسيقاه : تش امْ بِلّم . تَتِش امْ بِلّم . تتش ام بلم .

«أشهد أن لا إله إلا اللـــــه وأن محمدا رسول الله» .

ودفن جثمان الحاج حسين ، أبي الثاني ، في مقبرة خان يونس ، قريباً من موتى آل المذهون . شيعتُه مثل الكبار . رافقته حتى أهالوا على جسده التراب . عدت من المقبرة وخلفي مقرىء وصل الى قوله : «وإليه راجعون» .

عدت وفي مقلتي دموع .

عادت عمتي بعد الظهيرة وعلى وجهها فرح . ظهيرة تفصلها ثلاث سنوات عن ظهيرة ميلاد دكانها «اللي من غير ابواب» . عادت الحاجة دلول ربعي ، بائعة القماش . عادت في صورتها التي ولدت يوم جلسة الحكايات . يومها أطلقت خان يونس واحداً من أكبر تجار الأقمشة فيها ، عمتي الحاجة دلول . المرأة التي كسرت المحاذير والمحرمات . غيرت المعايير وبدلت المقاييس بسرعة تبديل الثياب . عمتي التي لم تجمع ، في يوم من الأيام ، حروف اسمها في كلمة واحدة ، جمعت

حولها المعسكرات . سحقت سطوة الرجال على السوق . جعلت شارع عمر المختار التجاري ، في غزة ، يقف كله ، بمن فيه ، على رؤوس أصابعه ، ما أن تطأ أقدام الحاجة دلول المدهون الأرض ، هابطة من السيارة التي أقلتها .

الجزء الثالث

في السيدة زينب ، في القاهرة ، حيث نزور المرأة الطيبة ، أم محمد دبق المدهون ، والدة صباح خطيبة نعيم ، وحماته المستقبلية . أراد نعيم أن يمضي أياماً مع خطيبته ، التي لم يرها منذ شهور . ولم أمانع من جانبي خصوصاً وأن شقيقها محمد عزيز علي وقضاء بعض الوقت معه سيكون ممتعاً . ثم أننا قد نعود جميعاً إلى غزة في عربة قطار واحدة فتكون رحلة من رحلات العمر .

حين راجعت هذه المقطوعة من الكتاب ، وجدت أن ما ذكرته لم يكن سوى ما فكرنا به نعيم وأنا ، بصوت عال ، وأن ما شعرنا به كان غير ذلك تماماً . فقد كنا بحاجة إلى تلك الاستراحة القصيرة في السيدة زينب ، لاختبار إمكانات العودة في ظل تلاحق التطورات السياسية في المنطقة ، وتزايد احتمالات اندلاع حرب بين العرب وإسرائيل .

فقد بدأت رياح الحرب تجتاح المنطقة ، منذ حشدت إسرائيل بعض ألويتها العسكرية على الحدود السورية . واضطر الرئيس المصري ، والزعيم العربي الكبير ، جمال عبد الناصر ، إلى الرد على التحدي الإسرائيلي بقوة ، مؤكداً أن مصر لن تقف مكتوفة الأيدي تجاه أي عدوان يقع على سوريا ، ولن تسمح لإسرائيل بضرب أي بلد عربي . وكانت القوات المصرية واصلت ، منذ الرابع عشر من مايو ، تدفقها على صحراء سيناء . وازداد التوتر حدة ، بعد أن طلب ناصر ، رسمياً ، من منظمة الأمم المتحدة سحب قوات المراقبة التابعة لها ، والمرابطة في سيناء منذ العدوان الثلاثي الإسرائيلي - الفرنسي - البريطاني على مصر عام ١٩٥٦ ، وقوامها ثلاثة آلاف وأربعمائة رجل ، موزعين في قطاع غزة ومنطقة شرم الشيخ ، جنوب سيناء . ثم جاء إعلان القاهرة عزمها على غلق مضيق تيران جنوب خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية ، ومعه بلغ التحدي العربي - الإسرائيلي ذروته ، وصارت الحرب حديث الشارع الذي بات ينتظر الهجوم ، والانتقام العربي ، وتلقين إسرائيل درساً لا تنساه .

دخلنا إلى القاهرة من نهاية الطريق الصحراوي الذي يربطها بالإسكندرية ، لكي نواجه بدهشة من مضيفينا في شقة السيدة زينب ، خصوصاً بعد أن عرفوا

أن في نيتنا العودة إلى غزة . وبدلاً من أن نجد أم محمد ووالديها وابنتها ، وقد جهزوا حقائبهم استعدادا للسفر ، وجدنا شقة السيدة معسكراً لتجمع عدد من الأقارب : أم سليم سلمان المدهون ، وكان معها ابنتها الجميلة ابتسام ، وناصر ابن سلفها المقيم في السعودية ، وهو ابن شقيقة نعيم أيضاً . وكانت أم سليم حضرت إلى القاهرة لتلتقي ابنها البكر سليم ، الذي يعمل مدرساً في السعودية ، وقضاء عطلة الصيف معاً ، إلى جانب عدد آخر من أقاربنا الشاب . وبوصولنا بلغ عدد من في الشقة ثلاثة عشر شخصاً ، أرجأ غالبيتهم سفره بانتظار التطورات ، وانضممنا نعيم وأنا ، إلى قافلة المنتظرين .

يوم الثامن والعشرين من الشهر علمت بوجود دلول أرملة عمي محمود في القاهرة . جاءت مثل العديد من سكان قطاع غزة الذين يقومون ب «نقل» بضائع مستوردة وبيعها في القاهرة ، بأسعار تحقق قدراً عاليا من الربح ، يقل كثيراً ، إذا أجبروا على دفع ضرائب جمركية عليها . وقد يلجأ بعضهم ، في حالات كهذه ، إلى تقديم رشوة لموظفي الجمارك لتقليص الضريبة إلى الحد الذي يبقي لهم قدراً معقولاً من الربح ، وكان مثل هذا النوع من التجارة مقبولاً اجتماعياً ، في قطاع غزة ، ولم يكن يصنف في خانة التهريب .

التقيت أم حمدي في فندق فلسطين القريب من سوق الموسكي وميدان العتبة وسط القاهرة . طلبت مني دلول التريث وعدم السفر . أبلغتني بعزمها على العودة صباح اليوم التالي ، لكنها نصحتني بالبقاء ، خوفاً من نشوب الحرب ، واحتجازي في غزة وفقدان مستقبلي الدراسي . وأكدت لي أن تلك هي وصية عمتي ، علاوة على انطباعها الذي تكون بعدما شاهدت آلاف الجنود المصريين والشاحنات والآليات تملأ المنطقة على امتداد الطريق الذي يقطع سيناء ، من رفح حتى مدينة القنطرة ، وعلى ضفتي قناة السويس .

قبل أن أودعها ، وداعاً يعلن فراقنا الأخير ، حيث أتبلغ ، هاتفياً ، نبأ وفاتها بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من ذلك ، استوقفتني المرأة الطيبة التي نافست أمي فيّ ، لتعتذر عن عدم تقديم مبلغ مالي لي ، ولتبلغني بأن عمتي حولت لي مبلغ سبعة

وعشرين جنيهاً مصرياً ، عن طريق «البنك العربي» . وهي المرة الأولى التي تلجأ فيها عمتي إلى تحويل عملة عبر البنوك ، فقد اعتادت أن ترسل لي مصروفي الشهري من خلال حوالات بريدية . أدخل هذا التغيير الكثير من القلق إلى نفسي ، إذ يعني أن الخدمات البريدية بين غزة ومصر لم تعد مضمونة ، وربما أوقفت تماماً ، ويعني ، أيضاً ، أن غزة باتت معزولة إلا من الروابط العسكرية ، وخط السكة الحديد عبر سيناء ، ويعني أخيراً أن حوالة عمتي باتت على كف عفريت ، ودخلت سباقاً مع التطورات المتسارعة في المنطقة .

عادت دلول إلى خان يونس ، وأظن أن القطار الذي نقلها كان الأخير ، وانخرطت أنا في شلة السيدة زينب من الأقارب الشباب ، حيث أمضينا أوقاتاً ممتعة في لعب الورق وطاولة الزهر ، والاستماع إلى غناء السيدة أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ، غير عابئين كثيراً بالتطورات ، مطمئنين إلى قدرة مصر على رد الصاع لإسرائيل صاعين .

***

استيقظنا صبيحة الخامس من يونيو/حزيران على أصوات المدافع والقاذفات تدك تجمعات العدو الإسرائيلي ، وعلى مشاة قواتنا المسلحة تخترق الحدود عند النقب ، وطائرات إسرائيل تتساقط من سماعات الإذاعات ، وأخبار صوت العرب ، والمارشات العسكرية تسابق البيانات وتلحق بها . لم أشهد في حياتي يوماً أعظم من ذلك اليوم . يوم أفقت على حلم بدأ أثناء الرحيل عن المجدل ، وأنا متعلق بكتفي زوج عمتي الحاج حسين العمصي ، يوم ذاك حملني الحاج ومعي حلمه بالعودة القريبة إلى المجدل . لم أعرف أن حلمه كان مثل تركة ثقيلة ، إلا عندما مات الحاج حسين ، كف عن الحلم ، وحملني إياه مثل وصية ، صار الحلم وصية كبرت مع السنين ، صارت جبلاً . اليوم أستعد للعودة ، لإنزال الجبل عن ظهري . أقف وسط حارتنا قبالة البيت الكبير لجدي . أمي قالت أن بيتنا هو البيت

الصغير ، الذي تركناه لخليل سلامة . أضحك ، وأقفز في تنورتي المزركشة . لم تفسر لي أمي لماذا ألبستني تنورة مزركشة ، وأنا في الثالثة من العمر . لكنها أكدت لي أن عمي اعليم هو الذي دعا القرداتي إلى الحارة لكي نتفرج عليه . رأيت عمي يعطي الرجل نقوداً ، فينقر على الدف الكبير ، ويرقص القرد سعيداً ربما بألوان تنورتي . والقيزان مثل كرة من نار ينزل من السماء وينفجر . ويصعد دخان من بيت قريب من زاوية الشارع العام .

أعيد تركيب الحكايات الصغيرة المتناثرة في ذاكرتي ، ألصقها ببيانات صوت العرب . والسيدة زينب تمشي في شوارعها ، وتقف في بلكوناتها ، تتطلع إلى السماء ، تلاحق بنظرات شامتة طائرات إسرائيلية تحاول عبثاً الانقضاض وضرب مواقع في القاهرة ، تشير إليها بأصابع ساخرة ، تؤكد أن الجبانات يهربن أمام مدافعنا اليقظة . وباعة العربات المتنقلة يبيعون بيانات النصر بدل الفواكه الخضار . والقلل من على عربات الترمس تنشر دلعها في الطرقات ، ترش ريق الصبايا والشباب ، تروي العطش إلى مزيد من الأخبار . والإذاعات تطلق أخبارها السعيدة من فوق تلال الترمس المكدس على العربات ، تُسقط عشرة طائرات أخرى من سماعاتها ، يرتفع صوت تكبيرنا في البيت ، ونتبادل التحيات : صباح النصر . .صباح النصر . في الشارع نتعانق كأننا نعرف بعضنا ، لا بل أصبحنا نعرف بعضنا . نحن من أمة واحدة يرفع رايتها عبد الناصر ويقودها نحو النصر . فول أخضر حِريتي ، ينادي بائع مطمئن . والدبابات الإسرائيلية محاصرة على أبواب سيناء . الله الكبر والقاهرة لم تعتدي ، تركت لإسرائيل الضربة الأولى ، وقالت بالفم الملآن : نتحمل الضربة الأولانية وبعدين نوريهم . وبائع العرقسوس يوزع مجاناً شرابه : اشرب وما تدفعش . . . اليوم يوم النصر ، ونجاح سلام تغني :

اليـــوم اليـــوم اليـــوم النصـــر
عـــصـــرنا قلب الاعـدا عـــصـــر
فـــجـــر جـديد وعـــهـد جـديد
وكل العـــرب اتأيـد مــــصـــر

والطائرات الإسرائيلية تتساقط ، والتهاني تتطاير بين الشفاه ، يعبق جو القاهرة برائحة التهاني . الله أكبر والقوات المصرية تعبر صحراء النقب في أول اختراق عربي رسمي كبير للحدود منذ عام ١٩٤٨ . رأيت القاهرة تحتفل بنصر الخامس من حزيران ، تتزين على شط نيلها العظيم ، تكحل عينيها بدخان القذائف ، تلف رأسها بمنديل أبو أويه ، وخرز البرق الصغير يتلألأ فوق جبينها الأسمر الواسع العريض ، مثل طائرات فضية صغيرة تتشقلب ، تقوم بألعاب بهلوانية في فضاء تلون بزرقة النصر . رأيت جسد القاهرة البض يتمايل داخل ملاءتها اللف ، يتمشى على كورنيش نيلها ، حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي ، عليه الصلاة والسلام .

عدنا جميعاً إلى الشقة بعد أن لممنا المزيد من الفرح من زوايا الحارة وأطراف الميادين . أحضر ناصر خارطة كبيرة لمناطق القتال في سيناء ، وأخذ يرسم لنا باللون الأحمر مواقع تقدم قواتنا . قال هذا دمنا ، به نخط الطريق إلى فلسطين . والمواقع تتقدم على خارطته ، تتغير بسرعة تحقيق الانتصارات ، وقوات أعدائنا تتراجع . وتولى إسماعيل تدوين أرقام الخسائر . وإذاعة إسرائيل تكذب القلم والأرقام ، بصوت شادية تكذب قناعاتنا الجميلة :

قولولعين الشمس ما تحماشي
لحسن حبيب القلب صابح ماشي

تغطي هزيمتها بالأغاني المصرية . تتخفى وراء صوت شادية . وإذاعاتنا تتسلح بالأناشيد والمارشات العسكرية التي تليق بالمناسبة .

يا هذه الدنيا أطلي واسمعي . . . . تررتتتتا
جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي . . . . تررتتتتا
بالحق سوف أرده وبمدفعي ي ي ي ي ي
وإذا فنيت فسوف أفنيه معي ي ي ي
قولوا معي ي ي

قولوا معي ي ي

ونردد خلف المذياع بصوت واحد :
الله الله الله أكبر

ونشرب شاياً سيلانياً نقياً أحضرته أم سليم معها من غزة . وندخن سجائر بلمونت . وبيانات إذاعة إسرائيل تؤكد تدمير قوة الدفاع الجوي المصرية على أرض مطاراتها ، بدءاً من الساعة السابعة وخمسة وأربعين دقيقة بتوقيت القاهرة ، وتشرذم القوات المصرية في سيناء ، وانسحابها بصورة عشوائية ، ومقتل آلاف الجنود وأسر آلاف آخرين . ويونيو يشوي جلود الجنود التائهين في الصحراء ، وشادية من إسرائيل تغني :

قـــولولعين الشـــمس مـــا تحـــمـــاشي
لحـــسن حـــبـــيب القلب صـــابح مـــاشي

في اليوم الثاني تثور أعصاب ناصر : سكرو الراديو ، غيروا المحطة ، خلوه ع صوت العرب .يُخلّونه بناءً على رغبته في الوصول إلى الحقيقة عن لسان أحمد سعيد ، يوزعها على مائة مليون عربي ، فنسمع عن تواصل سقوط الطائرات الإسرائيلية .

أم سليم تقول : انشالله بيطلع هالحكي صحيح ، الله يفرجها ونرجع ع لبلاد ، والله المجدل بتستاهل نرجع إلها .

إسماعيل يؤكد : طبعاً الحكي صحيح . مالك يا مرت عمي مستخفة بقوتنا ، عبد الناصر رح يمحيهم محي ، بكره بتشوفي .

وفي اليوم الثالث ، لا نصدق ما تقوله إذاعة العدو ، لأن العدو ، عادة ، يكذب ، ولكن تخالطنا شكوك . في اليوم الثالث تخالطنا شكوك حين تتضارب

البيانات ولا تصدق بعضها . ويشك ناصر في فرحته . نعيم ساكت . وأنا أسأل إسماعيل ، الذي يكبرني بسنوات ، عن رأيه ، فيؤكد أن الموقف لم يزل بأيدينا ، استناداً إلى أرقام الخسائر الإسرائيلية التي دونها حتى الآن . لكنه لم يعد يمسك قلمه لأن الأرقام لم تعد تتغير .

في اليوم الرابع تعاونت أم محمد وأم سليم وطبختا لنا عدساً ، وتخلى إسماعيل عن مهمته ، كف عن التدوين . وشكك ناصر في أهمية معطيات خريطته ، وصحة خطوط سير المعارك التي رسمها بقلمه . وفي اليوم الخامس من الخامس من حزيران تاه إسماعيل في أرقام الطائرات التي سجل عددها ، ولم يعد يعرف نوعيتها . إسماعيل الذي تهيأ له أنه سجل ، منذ اليوم الأول ، أرقام الطائرات الإسرائيلية التي سقطت وأنواعها ، وحتى أسماء طياريها الذين أُسروا ، والذين فروا أو سقطوا على أرض فلسطين المحتلة ، خلف خطوط العدو ، لم يعد قادراً ، على التمييز بين المستير والهوكر هنتر والميراج ، تاه وتهنا معه . العدو يكذب ، لكننا بدأنا نرى الدموع في أعين بعضنا ، تقترب من جفوننا . تستريح للحظات ، ربما تقصر أو تطول ، قبل أن تقرر الانفجار مرة واحدة . في نهاية النهار الذي لا نهاية له بكينا . علناً بكينا ولم نستطع حبس الدموع . مزق ناصر الخريطة وبكى . وبكت القاهرة ، وهي تنصت بخشوع إلى آي الذكر الحكيم من إذاعة صوت العرب ، الذي ختم منه أحمد سعيد بياناته بثلاث كلمات لخصت نتائج الحرب : «لكم الله يا عرب» .

يكتب عبد الرحمن الأبنودي ، وعبد الحليم يغني :

عدى النهار
والمغربية جاية
تتخفى ورا ضل الشجر
وعشان نتوه في السكة ، شالت ، من ليالينا القمر
وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها

جانا نهار ما اقدرش يدفع مهرها
يا هل ترى الليل الحزين
أبو العيون الدبلانين
أبو الغناوي المجروحين
يقدر ينسينا النهار
أبو شمس بترش الحنين
وتفوت على باب كل دار

***

وصلت إلى حلمية الزيتون . أذكر أنني التقيت صديقاً اقترح علي الذهاب إلى بيت قريب له هناك لديه جهاز تليفزيون . من هو الصديق ، من هو صاحب البيت والتليفزيون . .لا أدري . كل ما أذكره أننا وصلنا البيت الذي يقع في الطابق الأول ، في حارة لم يعد لها مكان في الذاكرة ، قرابة الخامسة مساءً . وكان هدفنا الاستماع إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، ومشاهدته وهو يلقي بياناً ، أُعلن أنه سوف يوجهه إلى الأمة والشعب العربي يتحدث فيه عما جرى منذ خمسة أيام . تحلقنا حول جهاز التليفزيون ، حتى كدنا نحاصره لكي نبقى الرئيس بيننا حين يظهر على الشاشة الصغيرة . من نحن الذين تحلقنا ، لا أذكر سواي . وأحمد الله أنني ما زلت أذكر ذلك ، فما حدث في ذلك اليوم محا كل ما سبقه . محا جلستنا وأسماءنا ، وحتى ملامحنا فلم نعد نعرف بعضنا ، لأننا ذبنا في الحدث الذي أعاد تشكيلنا من جديد ، ودفع بنا إلى الشوارع ، تدفقنا مثل جداول صغيرة أخذت تنحدر وتلتحم في النهر الكبير الذي جرى تلك الليلة . كانت المارشات العسكرية تتقدم الرئيس . تؤكد لنا إيقاعاتها الثابتة أنه في طريقه إلينا . سوف يأتي إذن : « بعد قليل ، تستمعون سيداتي وسادتي إلى بيان هام يلقيه السيد الرئيس جمال عبد الناصر على الأمة» . سوف يقول إذن . يخبرنا بصراحة ،

كعادته ، عن كل ما جرى . نحن لم نزل لا نعرف ما جرى . نشعر بهزيمتنا فقط دون أن نعرف السبب . هو سيقول لنا حتماً لماذا هزمنا . ومن هزمنا ! هو رئِّس ويعرف كل حاجة . سوف نسأله . لقد أعددت له سؤالاً يليق بهذه المناسبة سوف ألقيه عليه فور انتهائه من إلقاء بيانه .

توقفت وأنا أراجع هذه المقطوعة . وغبت في تفكير بعيد يمتد إلى تلك الليلة في بيت ذلك الرجل الذي لم يزل غريباً مجهولاً . هل كان يكفي ، حقاً ، طرح سؤال لمعرفة ما جرى في تلك الفترة ؟ سؤالين ! مائة ! ألف ؟ وهل كنا سنحصل على إجابة فعلاً ، غير تلك التي قدمها عبد الناصر عبر شاشات التلفزة المفتوحة على مأساتنا من محيط عقولنا إلى خليج أرواحنا المهزومة ؟ المارشات العسكرية تزداد سخونة . وخطوات الرئيس الثابتة مثل موقفه قبل الحرب بدأت تسمع في استوديوهات التليفزيون في ماسبيرو . ووقع أقدام الجنود بدا أعلى بكثير . كانوا يركضون ، يأخذون رمال سيناء بين أصابع أقدامهم العارية ويركضون نحو هزيمتهم . كانوا حفاة تشوي الصحراء أقدامهم وتمزقها الحجارة ، وبصاطيرهم التي حملتهم أثناء الاستعراضات العسكرية في مدينة نصر في أعياد الثورة خانتهم ، وهربت بعيداً . وكانت دباباتهم التي أخلوها نتيجة قصف الطائرات الإسرائيلية ملقاة على امتداد عشرات الأميال عبر الطريق الذي لم يعبره موسى النبي ، ولا قومه ، لا في حياتهم ، ولا في التيه ، ولا في الأسطورة . كانوا عرايا وكانت دباباتهم تتطلع إلى السماء فلا تجد ما يستر عريها . وشادية تلقي الرجاء تلو الرجاء من إذاعة إسرائيل :

قولو لعين الشمس ما تحماشي . . .

وسيناء تحترق مثل أحلامنا تحت شمس لا ترحم .

ووصل الريس . أخذ يتقدم محمولاً على مارشات حزينة . احتبست أنفاسنا . جلس على مقعد عادي أمام كاميرا التلفزيون . لم أتعرف عليه في البداية ، كأنه ليس الريس ، ذلك الزعيم الذي رأيته عشرات المرات بقامته التي تطاول قامة رمسيس الثاني ، وقدميه الأكثر رسوخاً من قدمي أبو الهول . أول مرة رأيته كانت

في منشية البكري ، قادماً من المطار في سيارة مكشوفة ، مرافقاً ضيفه الكبير ، مثله ، الزعيم الجزائري ، أحمد بن بيللا . مرت سيارتهما قريباً مني . ابتسم جمال حين لوحت له بيدي ، كأنه كان يعرفني ، بل هو يعرفني ، تعرف علي من فلسطينيتي : كنا نقول أنك تستطيع أن تعرف اللاجئ الفلسطيني من جبهته ، إذ ترى خارطة فلسطين مرسومة عليها . والبعض يقول أن النكبة هي المرسومة على جبهته . نظر عبد الناصر إليّ طويلا . هل كان يرد إليّ كرم استقبال المجادلة العسقلانيين للجيش المصري عام ١٩٤٨ ! أم كان يذكرني بمعركة عراق سويدان تحت قيادته ! أم بصموده الذي انتهى خسارة وانسحاباً من الفالوجا ، وتفرغه ، بعد ذلك للإعداد لثورة ٢٣ يوليو لكي يعود إلى فلسطين ، كما يذكر محمد حسنين هيكل بعد عشرات السنين . قام بالثورة ، وبدلاً من أن يأتي إلى فلسطين جاءته إسرائيل إلى قاهرته تهزمه بضربة في القلب . وجئنا نحن نستمع إلى تفسيره للهزيمة . كنت أحدث نفسي ، وكانت لفرط سذاجتها تصدقني : هذا مارد عربي ، مارد فلسطيني . .هذا غولياث . .أخاف على غولياث الفلسطيني من الأسطورة . أخاف على عبد الناصر ، لأن الذين لم يقووا على هزيمة الفلسطينيين استحضروا الأسطورة ، لكي تنقذهم نصوص الخرافة . انتصروا في الأساطير بمقلاع . رأيته اليوم على الشاشة الصغيرة ، كان مجرد رئيس لديه كلام أراد أن يحكيه لمن أحبوه من المحيط إلى الخليج . . . تلفت حوالي ، كان جميع من تحلقوا حول جهاز التلفزيون يحبسون دموعهم . كانوا مثلي يتأرجحون معلقين على دمعة ، لأنهم لم يكونوا يعرفون من منا سيبكي أولاً ، عندما يتحدث : نحن الذين سنرى في المهزوم بطلاً ، أم المهزوم الباحث عن بطولته فينا !

فتح الريس شفتيه . فتحنا أعيننا . غطى صوته القاهرة كلها ، غطى المنطقة العربية ، غطى العالم . لا بد أنه كان الصوت الوحيد الذي غلف الكرة الأرضية في تلك اللحظة :

بسم الله الرحمن الرحيم :

أيها الإخوة والأخوات . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . . .

. . .

قال أن ما حدث كان «نكسة» . .

وتنحى . . .

تجمد دمنا في عروقنا . احتبست أنفاسنا . أخذنا نبحث عن أنفسنا ولم نجد أنفسنا . صرنا دمعاً سال على درجات البيت ، نزل إلى الشارع . تدفقنا في نهر الهمس الكبير : طب ليه ! تسيبنا وتمشي يا ريس ! سايبنا لمين يا جمال ! ناصر . .ناصر . . لأ . .ناصر . . . صار الهمس هتافاً . تجمع الناس حول الهتاف ، صاروا تظاهرة من هتاف ، دخلت في تظاهرة عانقت تظاهرة ، صرنا بحراً من مسيرة هادرة لا أذكر من أين مرت ، لأن القاهرة أخذت تتدفق في القاهرة ، وتمحو خريطة ملامحها فتتوحد الشوارع مثل ساحة مفتوحة ، والموج يتدفق موجة تلو الموجة ، تختلط وتشكل تلالا بشرية زاحفة نحو استعادة رئيسها ، الذي ضاع منها في الساعة الخامسة والنصف ، مساء التاسع من يونيو/حزيران ١٩٦٧ . ولم تنم القاهرة حين استعادته ، لأنها سهرت تحتفل بتحول الهزيمة إلى نكسة .

***

طالت إقامتنا في بيت السيدة زينب . شحت نقود أم سليم . رأيت الضيق يتسلل إلى صدر أمرأة بدأت تشعر بتراجع قدرة الآخرين على المساهمة في المصاريف ، واحتمال تحملها القسم الأكبر . كان نعيم وابن اخته ناصر قد ساهما بقسط من المصروف ، وكانا قادرين على تعويض ذلك لاحقاً . فقد كان لنعيم شقيقان يعملان مدرسين في السعودية ، وكان نعيم كريماً في حدود المقدرة . أما

ناصر فقد حصل والداه على الجنسية السعودية منذ الخمسينات ، وتعيش عائلته في بحبوحة . أما أنا فقد بدأت أشعر بالقلق ، وبتحولي إلى عبء على الآخرين ، بعد أن احترقت جميع سفني في سيناء ، ومعها احترقت حوالة عمتي المالية . بدأت أشعر بالخجل من مد يدي إلى رغيف الخبز الساخن الذي لم أساهم فيه ، ومن مزاحمة الآخرين صباحاً في طابور الحمام والمراحيض . بدأت الهزيمة تصبغ جوانب في حياتي اليومية . كان لا بد من إيجاد حل ، حل لمشكلة لا تقتصر عليّ وحدي . بدأت أنا ونعيم نبحث عما يفعله الآخرون . لم نكن وحدنا ، كان ثمة آلاف الطلاب القادمين من غزة ، والذين قطعت مصادر رزقهم ، ولا بد أنهم يبحثون مثلنا عن حل .

***

عاد نعيم مساء اليوم ، يحمل الينا آمالاً كبيرة . قال أن طلاباً فلسطينيين ، التقاهم في مقر الأتحاد العام ، الواقع وسط القاهرة ، يرددون أخبارا مشجعة . يشيعون أن إدارة التعليم العالي ، اتخذت قراراً يقضي بإسكان الطلاب الفلسطينيين ، من قطاع غزة ، في المساكن الجامعية ، الخالية حالياً بسبب العطلة الصيفية ، وتقديم ثلاث وجبات غذائية لهم ، يومياً ، إلى أن يتم إيجاد حل لمشكلتهم التي قد تتفاعل نتيجة انقطاع صلاتهم بذويهم .

تنفست بارتياح ، ولا بد أن الآخرين في شقة السيدة زينب تنفسوا ارتياحاً مماثلاً . ها هم مقبلون على التخلص من عبء نفرين . ولا بد أن الأمور ستحل بطريقة أو بأخرى مع الآخرين ، وعلى الأخص إسماعيل الذي يستطيع العودة ، بعد انقضاء العطلة الصيفية ، إلى أسوان لمتابعة وظيفته كمدرس في مدرسة إعدادية هناك . وتتكفل الأيام بحل أوضاع البقية ممن لا يعدمون حلولاً أصلاً .

اتفقت ونعيم على العودة إلى الإسكندرية للالتحاق بالمدينة الجامعية . حزمنا حقائبنا شبه المحزومة أصلاً ، وعدنا في اليوم التالي . فور وصولنا توجهنا مباشرة

إلى المدينة الجامعية في منطقة سموحة شرق الإسكندرية ، وهناك ، لم نجد صعوبة في الحصول على غرفة مشتركة للإقامة فيها ، وكان ذلك بداية تحول حياتي .

المقطوعة الثانية
بحر الهوى .. شط الغريب

مـثل جـسـدين في روح تكونان . تفـتح قلبـيكمـا رنة قـبـقـاب على السطح وتعشقان . الحب الأول مثله أبداً لا يكون لمساته الأولى تشعل الروح القبلة الأولى تأخذ الجسد في غفو لا يشبه الغفو سكر العاشقين ليـل وسهر مثل نهر يجري في عروق من دم ساخن بكلمات الحب مثل موسيقى الروح ملائكة لا تعرف الخطيئة كذبة لا تصدقان وتعشقان رنة قبقاب فوق السطح مثل نبضات قلب دقاته توقظكما عاشقين مثـل يمامتين تطيران في فضاء هواؤه الغربة صعبة تفترقان مثل حكاية قديمة مخطوطة على الرمل لا تحتمل تسلل الموج تذوب الحكاية مع أن البحر يشهد التفاصيل وتروي سركما الأمواج تتلاشى عند الشواطئ تنكركما الإسكندرية تكذب بحرها يروي الحكاية كانت على الشواطئ مكتوبة على المقاعد المرايا الأمواج أرصفة الشوارع المقاهي السلالم القباقيب الظلال تغمركما وتدفن في غربتكما تفاصيل الحكاية تسافر في الذكرى تعود ، بغير موعد ، بغير موعد تعود الذكرى ، ويكون لقاء .

لم أنم في المساكن الطلابية أكثر من ليلتين . ففي صبيحة اليوم الثالث التقيت تيسير ، مصادفة ، في باحة السكن الجامعي . أخبرني بأنه يأتي إلى هنا ، لتناول بعض الوجبات ، ويترك المكان ليبيت في شقة تقع في منطقة كليوباترة ، تركها له صديق سوري . وأنه سيواصل الإقامة فيها إلى حين عودة صاحبها السوري من قضاء إجازته الصيفية في بلاده . وقد يستغرق ذلك شهراً منذ ألآن ، على الأقل . وقال إنه ينتظر وصول حوالة مالية من أخيه الأكبر ، الذي يعمل مدرساً في الكويت ، بعدها يتوقف عن التردد على المكان .

دعاني تيسير إلى الإقامة معه في الشقة ، ووجدت في دعوته فرصة لإعادة لملمة صداقتنا التي طالما قربت بيننا إلى حد الاختلاف ، وباعدتنا إلى حد الإشتياق إليها ولملمتها من جديد .

ورأيتها هناك . . .تتفتح داخل بلكونة غرفة نومها مثل زهرة . التقت عيناي الزهرة ، ومنذ النظرة الأولى أدركت أن كيمياء الحب سرت في جسدينا ، وأن تلك اللحظة لم تفتح أربع عيون على جسدين ، بل فتحت أبواب الكون كله ، هتفت . . .هي ذي فتاتي ، بحثت عنها في وهم صباي في خان يونس فلم أجدها . وفي القاهرة سقطت في نصف حضن فيفي الشغالة ، التي كانت تعمل لدى خمستنا : تيسير وإسماعيل ، وأحمد كلخ ، ومحمد الأسطل ، وكان

اسماعيل يحتل مكانه في نصفها الثاني . أما ناني الصغيرة ، ابنة جيراننا في شقة سبورتنغ ، التي ضمتني ومصطفى كتّوع ، فلم تكن أكثر من سحابة صيف . أما هذه . . .

بنية مثل لوح شيكولاته بلجيكية . طويلة إلى حد يرتاح فيه رأسها على كتفي . ممتلئة إلى آخر حدود النحافة . ورفيعة إلى حافة الامتلاء . شعرها الأسود فاحم مثل ليل مخيم . عيناها واسعتان مثل فتحات فناجين القهوة . وشفتاها تكفيان لإرواء ظمئي الدهر كله .

أربكني حضورها غير المتوقع ، مثلما أربكني حضوري في حضورها . لم أجد ما أقوله لها . عيناها تعلقتا بي . عيناي تعلقتا بها كلها ، احتويت وجودها كله ، احتوت هي عيني المثبتتين بخيوط سحرية إلى حضورها . خرج لساني مداعباً ولم يكن يحمل كلاماً ، أو حتى حروفاً ، وربما هرب من حرج المفاجأة . زمت شفتيها في اعتراض طفولي لذيذ . قالت ، بعد ذلك ، أن ما فعلته قلة الأدب ، استغربت ، كانت بداية غير موفقة ، لكنها لم تكن قادرة على الفكاك من أسر عيني ، فتقبلت نزوات أفعالي الأولى .

٢٣ يونيو ١٩٦٧ . . .

رنت قباقيب الفتاتين فوق السطح ، رأينا الصوت يمشي فوق رأسينا .

قال تيسير :

– أجن البنات يا بو الأرباع .

ركض إلى البلكونة الأمامية . يعرف أن فتاته التي تعرّف إليها منذ انتقل إلى الشقة ستتوقف هناك ، فوق رأسه تماماً . ركضت أنا إلى البلكونة الخلفية . رفعت رأسي إلى السماء . من السماء هبطت فتاتي ، نثرت عليّ تحيتها مثل باقة فل : ص ب اح ال خ ي ر . وهربت . لملمت الصباح بكفي ، وأخذت أتنفس روائحه ، وعيناي معلقتان بسماء أخذتني بعيداً ، ورنين القباقيب يموت بطيئاً خلف درجات السلالم . وأغلق بابا الشقتين في الطابق الرابع على آخر رنة قبقاب سمعتها ، ولم تعد تسمع .

رن جرس الهاتف .

رن صوت تيسير منادياً :

- الحق أبو الربوع الجوْعَ الخط .

رفعت سماعة الهاتف ولم أضعها ثانية إلا بعد مرور أكثر من ساعة . تيسير قال ذلك ، لأن الزمن ذاب في طعم الكلام ، ولم نقو أنا وهي على احتسابه . ملأنا الزمن بالكلام ، تذوقناه . مثل موسيقى صار الكلام تجريداً للمعنى فتذوقناه موسيقى . لهثت أصواتنا برغبات غامضة فسكرنا بالكلام المجرد إلا من موسيقاه ، يتدفق في الاتجاهين يتقاطع ، يتداخل ، يشتبك ، يتعانق ! كيف رتبنا توزيع ضحكاتنا الأولى معا بين الكلام ! كركرنا الحروف ورقصنا الكلمات ، ضحك الكلام من الكلام .

وضعت سماعة الهاتف كأنني لم أضعها ، في رأسي استمر تدفق جداول الكلام بقية النهار .

في اليوم التالي ، خلط تيسير بعيد الظهيرة بصوت عبد الحليم حافظ ، شارحاً ومعاتباً قدمين لم يعزف قبقابهما لحنه الصباحي :

جبار جبار
في قسوته جبار
في رقته جبار
وما كنتش أعرف أن الكلام ده يقدر يخون بالشكل دة
ولا كنت أفكر أن الكلام ده يقدر يهون بالشكل ده
جباااااااااااااااااااااااااااااااار جبار

نمت تلك الليلة التي لا تنسى ، فوق فراش من أغاني وكلمات قلناها على الهاتف .

***

أزور نعيم ، صباح اليوم التالي ، في بيت عبد القصود جبر ، بيت أم مكرم الكائن في ٥٧ شارع بني نوفل في سيدي جابر المحطة . أسمعه قاموس عواطفي

الجديدة ، يطير فرحاً . هو عاشق قديم يقدر قيمة الكلام المأخوذ من قاموس العواطف . منذ فتح عينيه على الحب لم يغلقهما . دخلتهما صباح ، قريبتنا ، سكنت بين رموشه ولم تخرج . ناعمة صباح مثل ورقة النعناع ، ارتاحت في قلبه ، فاحت من قلبه رائحة نعناع .

أمضيت معظم النهار عند نعيم . سيجارة ورا سيجارة والكلام يحلوْ . بعد الظهيرة عدت . صعدت السلالم منهكاً من كثرة الكلام . وجدتها في شباك غرفة بيتهم المطلة على المنور ، المفتوح على سلالم البناية :

- كنت فين ؟

تسألني دون أن تعلم أنني أمضيت الوقت كله معها عند نعيم ، وبحضور خطيبته صباح . صباح شاركتنا الجلسة والحكي كله بلسان نعيم ، حتى أنها عاتبته بلسانه . رأيته يحكي معها ويستمع إليها منه . استمعت إليه يحكي له عنها ، قال له أمامي ، أنها اشتاقت إليه ، وأنه ما كان يجب أن يعود إلى الإسكندرية بتلك السرعة ، لأنه لم يبق لها في السيدة زينب غير أجواء الحرب ، ورائحة الهزيمة ، قالت أن الحب يغير تلك الرائحة .

معها حق صباح ، أنا غبت بضع ساعات فقط ، أحست صديقتي أنني غبت الدهر كله ، غضبت ، وعاتبتني ، وفي النهاية حذرتني : «ما تبقاش تعيدها » .

***

رأيتها ذات مساء ورأتني . تبادلنا النظرات إلينا كما نتبادل التحية تماماً . ظلان يتحركان على حائط الجيران المقابل . أول مرة رأيت ظلها على الحائط لم أصدق عيني . أعرف ان ظلها يعكسها ، لكنني لم أتوقع أن يتحول إلى حضور حي . اكتشفنا في تلك الليلة لعبة الضوء والظل . صرت كلما اقتربت الساعة من الثامنة مساء ، وأشعل الجميع الأضواء في بيوتهم ، أخرج إلى البلكونة الأمامية . أراقب ظلها متحركاً على الحائط المقابل باحثاً عن ظلي . أشعل اللمبة المعلقة

خلفي تماماً ، أدخل المشهد أمامي ، أصير ظلا . لا أراها ولا تراني لكن الظل يرى الظل ويعشقه . أتسلل من عتمتي . يلعب ظلانا لعبة عاشقين . نتحاور . . . ظل يحاور ظلاً . بأصابعها تحدثني ، بمداعبة خصلات شعرها تقول كلاماً أفهمه . على الحائط نكتب حواراً لا يقرؤه أحد ، بالظل نكتب حواراً مرسوماً بحركات . كدنا ذات مرة أن نفعلها ونختطف قبلة ، من كان سيشك في ظلين ؟ أخذنا نقترب من بعضنا حتى تلاصق كتفانا على الحائط ، أملنا رؤوسنا في اتجاهين متعاكسين ، وقربنا ظل شفاهنا حتى تلامست ، ثم مددت يدي ألمس كتفها ، استدارت فجأة ، يدي تعلقت في الهواء . بعد ثوان عادت ولم تزل يدي معلقة في الهواء . وضعت يدها عليها ، ثم سحبتها . لوحت بيدها مودعة . أطفأت النور . اختفت . ظلي بقي وحده على الحائط ، وشبح ابتسامة مضيئة في الظل . انسحبت إلى الداخل ، وأخذت معي كل شيء طبعناه على الحائط .

***

انتهى شهر العسل الثنائي الذي تعرفنا خلاله تيسير وأنا بابنتي الجيران الصديقتين . تركنا الشقة لصاحبها الذي عاد من سوريا ، . وافترقنا مجدداً . هذه المرة أقمت مع النعيمين : نعيم زوانة المدهون خطيب صباح ، ونعيم زهرة المدهون ، الذي أطلقت عليه أم مكرم لقب «نعيم التخين» وكان كما وصفته ، وصار الآخر تلقائياً « نعيم الرفيع» . أقمنا ثلاثتنا ، في بيت عم عبد المقصود جبر ، الفلاح الطيب الذي صار اسكندراني منذ هجر قريتهم في الأربعينات وأقام في منطقة سيدي جابر ، ولم يكف ، منذ جاء إلى السكندرية ، عن الترحم على أيام الخواجات اليونان «الغريك» الذين عمل معهم ، وغادرت غالبيتهم البلاد بعد تأميم ممتلكاتهم أوائل الستينات .

يتكون البيت من غرفتين وصالة للجلوس ، يطل شباكها على الشارع ، وتتنفس منه عيون الجميع . ومدخل ، «انتريه» ، صغير يقابل الباب مباشرة ، وضعت في

زاويته طاولة للطعام مستطيلة متوسطة الحجم وكنبتان قديمتان . على حائطه المواجه لصالة الجلوس ، وضع راديو قديم ماركة فيليبس على حامل خشبي ، ظل وسيلة التسلية المتوفرة إلى حين امتلكت العائلة في وقت لاحق جهاز تلفزة أبيض وأسود .

أما العائلة نفسها فتتكون من أم مكرم ، زوجة عم عبده ، البيضاء القصيرة المكتنزة ذات الملامح الريفية الغارقة في الفرحة على امتداد النهار ، وأولادهما الثلاثة محمود ، الوحيد الذي ورث عن أحد أجداده عينين زرقاوين ، والعربي ، الأسمر النحيف ، الذي يعمل ميكانيكياً ، وعبد القادر ، أو «شكوكو» ، الكهربائي ، النموذج المصري ، الشعبي صاحب النكتة الطازجة التي لا يفوت أوانها ، ومن ابنتيهما صباح وماجدة ، بالإضافة إلى الصغير عادل ، آخر العنقود . ولعم عبده وزوجته ابنتان أخرتان متزوجتان تعيشان في الحارة نفسها .

كان البيت الذي يموج ليل نهار بالضحك وتعبق في أركانه روائح الابتسام ، يصمت أحياناً إلى حد الموت ، وتسمع في أركانه الأربعة أصوات نواح خافت يتسربل من داخل النفوس . كان ينقصه مكرم ، البكر الذي حملت الوالدة اسمه . استدعي مكرم عبد المقصود جبر ، مثل آلاف الشبان المسجلين في قوائم الاحتياط في الجيش ، للخدمة قبيل اندلاع الحرب . وحين انتهت الحرب لم تحصد العائلة الهزيمة وحدها ، بل أضاعت مكرم . تحول الرجل الذي ترك زوجته حاملاً ببكره إلى رقم في عداد المفقودين . ولم يظهر اسمه لا في قوائم شهداء الحرب الذين سقط منهم ألفان ، خلال القتال في سيناء وعشرة آلاف آخرين خلال عملية الانسحاب العشوائي من سيناء ، ولا في قوائم الأسرى . صار مفقوداً . ومنذ ذلك الحين ، صارت أم مكرم أكثر سكان البيت علاقة بالشباك . تقف هناك ، لعل مكرم يطل من إحدى الزوايا ذات يوم . أراها ، أحياناً ، تستدير مبتعدة عن الشباك وهي تردد : يا ترى انت فين يا مكرم . . . يا ترى انت فين يا قلب أمك . وتختفي دمعات تظل عالقة بعينيها النهار كله . كثيراً ما رأيت قلب أم مكرم معلقاً بالشباك ، وسمعت صوت ابنها قادماً من بعيد :

الأوِّلى آه ع الحرب ودَّاني
أجيب لأمي النصر وارجع لها تاني
الأوِّلى آه ع الحرب وداني أجيب فلسطين أ ما تضعش من تاني
والتانية آه وِقعت ولا حد سمّاني
والتالتة آه م الحرب . . . وآه مِ اللي وداني

تقاسمنا أولاد العم الثلاثة أجرة الغرفتين . أقمت ونعيم الرفيع في غرفة ، واستقل نعيم التخين بالغرفة الأخرى . أما عائلة عبد المقصود فتنام في صالة الجلوس . البعض ينام على الدوشكين الخشبيين ، والبعض الآخر على فراش يمد على الأرض بعد انتهاء السهرة . عم عبد المقصود لا يعمل ، كبر في السن ، تجاوز الستين ، ولم يعد قادراً . صار يجتر ما قام به من أعمال في الزمانات ، يتحسر ، يبتسم ، يحزن ، يمسح بكفيه الحزن عن وجهه ويقول : أيوه يا . . .كنا بنقول إيه ! .

تعتمد الأسرة في معيشتها اليومية على ما ندفعه لها من أجرة ، مبلغ لا يتجاوز ، شهرياً ، العشرة جنيهات ، بالإضافة إلى القليل الذي يقدمه العربي بعد حفلة خناق مع والدته . أما شكوكو فلا يجد ضرورة لخناقة تبدد القيمة الأخلاقية لما يساهم به في مصروفات البيت .

عشنا كعائلة واحدة حتى اختلطت همومنا . صرنا ثلاثتنا ، وعلى الأخص نعيم ، أقدمنا في البيت ، جزءاً من العائلة ، وحتى من أوضاعها التي كثيراً ما تداخلت مع أوضاعنا . كنت بدأت أتلقى مساعدة من الجامعة العربية مقدارها عشرة جنيهات ، أصبحت توزع على المحتاجين من أمثالي من الفلسطينيين الذين فقدوا مصادرهم المالية ، وليس لهم أقرباء في بلدان الخليج يقدمون لهم دعماً ثابتاً . أدفع منها ثلاثة جنيهات بدلا لأقامتي ، وأعيش بما تبقى على حافة الاحتياج .

في تلك المرحلة تعززت علاقتي بحبيبتي ، وصرنا أقرب إلى خطيبين معروفين علناً ، لطرفين على الأقل : أم مكرم التي استقبلت صديقتي ، وسمحت لنا

باللقاء في بيتها مرتين ، وعايدة أحمد ، التي اعتبرتني شقيقاً لها ، وسوف تلعب دوراً كبيراً في تمتين علاقتنا ، وتأمين اتصالاتنا الهاتفية شبه اليومية ، عبر هاتف دكان والدها الطيب عم أحمد .

عرفتني على عم أحمد وعائلته ، المكونة من زوجته وابنته عايدة ، سجائر كليوباترة ، التي أكثرت من تدخينها وشرائها من دكانهم الواقع وسط شارع دارا . يعمل عم أحمد ، منذ الساعات الأولى للصباح وحتى الثانية ظهراً طاهيا في مطبخ أحد فنادق الدرجة الأولى في الإسكندرية . وقد أحبني عم أحمد كثيراً ، ورأى فيَّ ابنه الذي لم يرزق به . في غياب عم أحمد كانت عايده تدير الدكان . خلال ترددي اليومي على الدكان ، استخدمت الهاتف في مكالماتي شبه اليومية مع صديقتي . وقد توثقت علاقتي بعايدة كزبون ، ثم كغريب بحاجة إلى عائلة ، وصرت صديقاً لها تسر له بما لا يعرفه والداها أو سواهما . وكنت أفتح لها قلبي ، أسمعها نبضاته فتستمع ، وتراقبه يتحدث على الهاتف ، وترى أنفاسي وهي ترش المكان بانفعالات الحبيب .

تطلبني صديقتي ، أحياناً ، في مواعيد نتفق عليها على رقم هاتف الدكان . تتظاهر بأنها تطلب صديقة لها . تحول لي عايدة المكالمة . أوفر بهذه الطريقة ما كنت سأدفعه أجرة مكالمات تزيد ، أحياناً على ربع الساعة . بعد فترة بدأت أمل الانتظار قرب الهاتف ، قررت التمرد على المكالمات المسيجة بالمواعيد . أخذت أحاول الاتصال في أوقات أرغب فيها بالحديث . وصارت عايدة تلحظ فشلي في أحيان كثيرة ، وترى الحزن على وجهي وأنا أكرر المحاولة تلو المحاولة ، وفي كل مرة أغلق الهاتف دون أن أنطق بكلمة واحدة . ذات مرة وكان خط غرامياتي معطلاً تماماً سألتني عايدة :

- مين بيرد عليك يا استاذ ربيع ، أمها والا أبوها ؟

كانت عايدة مثل بقية من عرفني في سيدي جابر ، تناديني ب«استاذ ربيع» .

أجبتها دون تردد :

- أبوها يا عايدة ، مش عايز يحل من جنب التليفون وانا لازم أكلمها بأي

طريقة .

– طب روق انت بس وما يهمكش . أطلبهالك ؟

– اعملي معروف .

طلبتها . . .

جاءت . تحدثنا طويلاً ، وجعلنا فواصل كلامنا ضحكات اخترقت ببراءة ذلك الحظر المفروض على اتصالاتنا بصورة علينة . ضحكنا حتى سمع والدها ووالدتها الضحكات التي ظنا أن عايدة هي التي تضحكها على الطرف الآخر من الخط . ولا بد أنهما ارتاحا لراحة ابنتهما في حديثها مع عايدة ، وعايدة هي أنا ، الضاحك من الموقف كله . لكني واجهت مشكلة أخرى ، إذ بدأت صديقتي تغار من عايدة ، واحتاج الأمر إلى أسابيع ، وإلى كثير من الشرح والتفسير لكي أقنعها بأن عايدة هي صديقة وأخت عزيزة ، لكنها لم ترتح ، ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن عرّفتهما على بعضهما ، بعد ذلك صارت تترك لي عند عايدة أكثر رسائلنا الغرامية سرية ، تنقلها عايدة بلا تعليق ، لكن بارتياح كبير ، صارت عايدة تشاركنا حبنا .

بعد عام عقدت عمتي في خان يونس اتفاقا وعمتها أم إبراهيم ، تدفع عمتي بموجبه سبعة وعشرين دولاراً لعمتها ، مقابل أن تحول لي ابنتها انشراح ، المدرسة في الكويت المبلغ نفسه ، فتؤمن عمتي مصروف بيت عمتها أم إبراهيم ، وتؤمن انشراح لي مصروفاً شهرياً ثابتاً . انتقلت في تلك الفترة من عام ١٩٦٨ إلى شقة في عمارة تقع في شارع كليوباترة ، شارع سوق الخضار . وكان نعيم الرفيع قد سبقني إلى العمارة . هو في الشقة الرقم ٣١ ، على الطابق الرابع ، وأنا في الشقة الرقم ١١ على الطابق الأول . ولم يلبث نعيم أن عاد إلى بيت أم مكرم فانتقلت أنا إلى شقته في الطابق الرابع .

بعد ثلاثة أعوام على علاقتي بصديقتي ، تقدمت لخطبتها ، غير أن والدها الذي تردد كثيراً ، لم يمنحني سوى نصف موافقة ، مكتفياً بقراءة الفاتحة ، مشترطاً أن يبقى كل شيء طي الكتمان إلى أن تتخرج ابنته من الجامعة التي لم تكن

التحقت بصفوفها بعد .

جاءت خطوبتي الناقصة ، مثل معول هدم جسور علاقتنا كلها . كنت أعتقد أن الخطوبة ستقربني من صديقتي ومن ذويها . كنت راغباً في الخروج بها إلى الضوء ، في أن أفرش منديل حبنا في الشوارع ، وأرفع قصتنا مثل معلقة شعرية فوق أبواب البيوت . مللت لقاءاتنا في الظل ، وأمامي ضوء النهار كله منثوراً على شواطىء المدينة . تهرب أصابعها من كفي في الشوارع المعتمة والمضيئة خوفاً من عينين ترقبانها . أقابلها في الترام صدفة ، ولا تجرؤ على تحيتي ولا حتى بعينيها خوفاً من أن تفضحها ذبذبة رموشها ، أو ارتعاش شفتيها .

لم يبد والدها ارتياحاً ، لعلي بقيت في نظره الغريب الذي لا أهل له ، ولا مكان استقرار محتمل يلمه .

وجاء اليوم الذي كشف لي أنني كنت منفياً داخل خطوبتي شبه المعلنة ، وأن الفاتحة التي قرأناها لم تحم حبنا من الانهيار . كانت شقيقتها سبقتها إلى الخطوبة من ضابط يقيم في القاهرة صار صديقاً لي بحكم علاقتنا بالشقيقتين . وكانت ليلة زفافه على شقيقتها في إبريل ١٩٧٠ ، المناسبة التي أخرجتني من قلبها وإلى الأبد .

***

داخل شقة على الطابق الأول في منطقة رشدي ، جلسنا معاً صبياناً وبنات ، نحتفل وحدنا بزواج الضابط وشقيقة صديقتي ، بعيداً عن جمهرة الرجال كبار السن الجالسين في صالة مجاورة . ولم تظهر ، وكانت جالسة بيننا ، أنظر إليها فلا أجدها ، كأنها غائبة وهي أمامي ، صوتها يوزع على صديقاتها كلمات ، وكلمة واحدة لم تصلني . صدمتني المفاجأة . همست لي بأنها لا تريد أن تعرف الأخريات أن بيننا علاقة . أحسست في تلك اللحظة أن الفاتحة التي قرأناها كانت سرية مع أن الناس كلهم يحفظونها .

انتقلت إلى جانبي فجأة . قلت لها أن تسريحة شعرها الأخيرة أجمل ، وأنني أحببتها كثيراً . كنت أريد أن أستعيدها من غيابها . التفتت إلى هانية ، زميلتها في المدرسة ، كأن كلماتي لم تصلها هي . نهضت من جواري . أخذت بيد صديقتها سامية واختفتا خلف ممر جانبي . عادت بعد قليل . حين عادت لم أجدني ، أخذت أرقبني والحيرة تغرقني في صمت لم أقو على الخروج منه . هذه حبيبتي . هذه ليست هي . كيف يصبح الإنسان في لحظة ما غيره . كلانا أصبح غيرنا . لم تلتق أعيننا مرة واحدة . تهرب مني ، ألاحقها راكضاً بعيني خلف سراب من دهشتي التي أخذت تكبر . الفرح يملأ البيت ، وصدري مغلق بالصدمة . وعيناها مليئتان بغموض لم ألمسه فيهما يوماً ، وعيناي بأسئلة لا أجوبة عليها . رأيت فرحاً حزيناً .

وانفجرت فجأة باكية ، أخذتها سامية من يدها مرّة أخرى ، وغابتا مجدداً .

عدت إلى شقتي الصغيرة ، بعد انتهاء الفرح ، الذي لم أفرحه ، دون أن أحمل معي أي تفسير لبركان الحزن الذي انفجر ، باستنثاء كلمات قليلة همست بها سامية في أذني : «معلهش يا رَبْعي . . . أصلها أول مرة تفارق أختها . . . معذورة برضو . عذرتها ، وتمنيت أن يكون ذلك هو السبب ، لكنني لم أكن مقتنعاً حتى بالتمني نفسه .

في اليوم التالي التقينا على الغداء ، في بيت أهل العروس : والدا العروس ، والد العريس ، كان العريس يتيم الأم ، العروسان ، صديق للعريس ، وهوضابط مثله برتبة ملازم أول يدعى إبراهيم ، وصديقتي وأنا .

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء ، دعتني صديقتي لمرافقتهم رحلتهم إلى القاهرة ، حيث يحتفلون بالزفاف في بيت أهل العريس . قالت إن العروسين سوف يستقلان سيارة أجرة إلى العباسية ، وتستقل البقية سيارة أخرى . ووجدنا أن لا مكان لي . لكن ذلك لم يفقدني الدعوة ، أو ينتقص من قيمتها .

قال أكثر من شخص : ندبرها .

قلت : انا ح اتصرف .

فاجأتني الدعوة حقيقة ، وبدا لي تفسير سامية ليلة أمس صحيحاً . وهكذا توقعت أن تستغل صديقتي فرصة وجودنا في القاهرة لكي تعتذر ، وتشرح لي أسباب ما حدث . وربما كان لديها أكثرمن ذلك لتقوله . سنسير وحدنا في شوارع مدينة كأنها بلا سكان . سنقول كلاماً تسمعه الدنيا ولا تسمعه ، لأنه سيكون كلاماً يخصنا وحدنا .

إستأذنت من الجميع وغادرت بعد أن وعدتهم بأن نلتقي بعد ساعات في العباسية .

توجهت مباشرة إلى دكان عم أحمد ، ولحسن حظي وجدت عايدة هناك . طلبت منها ستة جنيهات ، إلى حين عودتي ، بعد أن أخبرتها بكل ما جرى منذ ليلة أمس . بكت عايدة ، أسقطت لي خصيصاً دموعاً أختزنتها لحزني ، ثم فرحت لي وهي ترى الانفراج قريب . رأيت فرحاً لم أره على وجه شقيقتي . لا أحد يقدر أن يفرح لي كما تفرح عايدة . ناولتني المبلغ ، وابتسمت قائلة :

– ح تروح معاهم ع مصر . . . إبسط ياعم ، أديك خلاص صرت من العيلة . أخدت العنوان .

– أيوه ، أهه في جيبي .

وانطلقت نحو محطة قطارات سيدي جابر .

***

في العباسية لم ألحظ تغييراً في موقفها باستثناء توقفها عن البكاء . عاد القلق ينهشني . وبعد ساعتين من وصولي ، رشت لي الحقيقة ، أو ما بدا على أنه الحقيقة ، في شارع الجلاء حيث تمشينا ، يدي تحتضن يدها ، وقلبي يدق بعيداً عن قلبها وقد اعتادا أن يدقا معاً . كانت والدتها قد اقترحت علينا أن نتمشى قليلاً ، بعيداً عن ضوضاء الفرح . يمكن تقدرو تتفاهمو ياولاد ، هكذا قالت . كانت الدعوة مرتبة إذن ، وربما اقترحتها والدتها ، التي أرعبتني الإشارة الواردة في

كلامها حول التفاهم . كأننا غير متفاهمين . حقًا إننا كذلك منذ ليلة البارحة . هي تعرف كل شيء إذن . هي تعرف ، أمها تعرف ، سامية تعرف ، العروسان يعرفان ، إبراهيم يعرف ، كلهم يعرفون الذي لا أعرفه فدُعيتُ لكي أعرف .

- بقول إيه يا ربعي !

التفت إليها مطبق الشفتين . قررت أن تتحدث إذن ، أن تحكي قصة نهر الدموع الذي جرى ، منذ أمس ، من مقلتيها إلى قلبي وأغرقه .

- ايه رأيك نصير أصدقاء .

ارتعشت كفي في كفها ، خفت أن تفلت . شددت أصابعي عليها . هل قالت شيئا ما عن الصداقة ؟

- إنتِ قلت ايه ؟

- بقول يعني . . . يعني . . . إيه رأيك لو نصير أصدقاء .

- أصدقاء . يعني أيه ؟

- أصدقاء . . . نسأل على بعض ، نكلم بعض ، بس من غير ما نتقابل .

- آه . ننفصل يعني .

قلت ذلك وأنا في حالة من الذهول ، لم أصدق أنني يمكن أن أفقدها ، بعد أربع سنوات من حب عاصف ، غطى المنطقة كلها ، وسكن قلوب سكانها الذين عرفوا الأستاذ ربيع عن قرب .

أصدقاء ! لا معنى لهذه الكلمة سوى معنى وحيد ، هو تخفيض مستوى تمثيل الطرفين العاشقين لدى قلبيهما . من مرتبة العشق الإلهي إلى صداقة لا يعترف المجتمع بشروطها أصلاً . حتى صداقتي مع عايدة لم يعترف بها الآخرون ، وظلوا يعتقدون أننا عاشقان ، وأنني سأتزوجها ، إلى أن تقدم لها عريس وشاهدوه بأعينهم ، وحضروا فرحها .

"من غير ما نتقابل ، ولا نشوف بعض طبعاً» . كأ ننا كل الناس الذين لا نعرفهم . تريدني أن أسال عنها كأنني أسال عن مقدمة برامج الأطفال أبلة نظيرة ، أو السيدة آمال فهمي مقدمة برنامج على الناصية . تقف على الناصية ولا

أجرؤ على محادثتها ، أومصافحتها باسم الصداقة .

- انتِ عايزانا ننهي العلاقة ! إنت اتجننتي ؟

- مش يمكن أحسن لينا احنا لتنين .

- أحسن لينا ازاي ، إنت فيه حد اف حياتك ؟

- ما بلاش تخريف . . . أنا بس عايزة انتبه لدروسي ، عايزة أنجح وأروح الجامعة وبعدين أفكر في الخطوبة والجواز والحاجات دي .

- طب وطموحاتنا . . . والحب اللي بيكفي سكان سيدي جابر ويفيض منه ويتوزع على كليوبترة الكبيرة والصغيِّرة ، راح ! و الفاتحة اللي قريناها ، نمسحها ، ده لسة كلام ربنا علقان بين صوابع إيدينا اللي مسحنا بيها وشوشنا بعد ما قريناها وحرسنا الخطوبة بكلام ربنا .

سكت . فجأة سكت . جف لساني ولم أعد قادراً على جمع الحروف . حاولت هي أن تبدو متماسكة . لم تقو على النظر إليّ في تلك اللحظات ، بكت في الجهة الأخرى من الشارع ، سمعت صوت حزنها في تلاحق أنفاسها .

- أصلي ما أقدرش أعيش بعيد عن ماما وبابا . أنا اللي فاضلالهم يا ربعي . . أرجوك تفهمني .

أفهمك ، كيف ؟ أنا الذي اهترأت مؤخرته من كثرة الجلوس معك في كازينو ستانلي على شاطئ البحر ، وتركت بصمات أقدامي على امتداد شارع رشدي . أنا الذي فتح لك كل ملفاته الشخصية وقلبتيها بين يديك ، أتذكرين ؟ قلت لك أنني تلقيت برقية من عمي اعليم ، بأمارة أنك ضحكت من اسمه : «يعني ايه اعليم ، انتو كلكو اساميكو غريبة كده ليه . طيب ربعي وافهمنا ، انما اعليم ، يطلع إيه ده بقى ! . "يطلع عمي . وقلت لك أن اسمه الحقيقي هو محمد ، وأن اعليم مجرد لقب تعودنا عليه . وقلت لك صراحة ، أنه عرض علي الزواج من أديبة ، ابنة عمي محمود . في تلك اللحظة نقز قلبك ، أحسست به ينبض في ارتعاش عينيك . سألتيني مثل المجنونة : نع نعم . ورديت قلت له إيه ؟ إنطق ، قول بسرعة ، احسن ح تجنن . وتباطأت أنا في الكلام لأني لم أخَف الإجابة ، لا

أخشى ما قلته لعمي .

الآن لا أستطيع التراجع ، لن أتمكن من سحب إجابتي تلك التي مضى عليها أكثر من عامين . غرقت في حبك حتى نسيت طعم النساء ، إلا طعمك انتشر في كياني كله .

أرسلت لي روضة ابنة الجيران ، بطاقة على العيد الكبير السنة الماضية ، نقلتها نوال ، إبنة أم مكرم ، تركتها لي على طاولتي في الغرفة . حين عدت من الكلية ، وجدت روضة تنتظرني كعادتها على زاوية سطح العمارة . ترافقني نظراتها الحانية إلى أن أختفي في العمارة . كتبت لها كلمتين على بطاقة حملتها إليها نوال : «أشكرك على مشاعرك . تأخرت قليلاً . أتمنى لك التوفيق» . أتعرفين ، لا تزال روضة تنتظر ، يومياً ، عودتي من الجامعة ، وتختفي بصمت . كأن حياتها كلها صمت . كانت تريدني أن أملأ حياتها بالكلام فلم تحصل سوى على الصمت ، وعلى ثماني كلمات خرساء كتبت على بطاقة عادية محايدة عليها زهور بلا رائحة .

لم أحدثك عن الجامعة ، لم أقل لك أن زميلتي فايزة انتظرت مني أن أقوم بالخطوة الأولى ولم أفعل ، لأنني ادخرت خطوي كله لك ، لمشوار حبنا الطويل . ولاحقتني سهير بالأسئلة والاستنكارات : «يعني عايز تقول لي يا ربعي إنو ما فيش حاجة كدة واللا كدة » ! سهير من شلتنا ، شلتنا كبيرة يا حبيبتي . لم أحدثك عن تيسير لأنك تعرفنيه ، لكني لم أحدثك عن الآخرين : عن اللبناني الطرابلسي فاروق ، الذي أحب نظيرة ، والعراقي يوسف ، الذي انشغل بمعاكسة نجلاء ، يفرقع لها أصابعه بالطريقة التي لا يجيدها سوى العراقيين أمثاله ، ويغني لها ، بينما عيناه تلاحقان ماجدة ، الممشوقة مثل برج القاهرة ، وتصفّر لها شفتاه . لم أحدثك عن راوية الرقيقة ، التي تذوب حين تتحدث ، وتتحول إلى شفتين ناعمتين . تبقى إلى جواري في المدرجات ، تلتصق بي مثلما يلتصق اسمها باسمي في قائمة الحضور والغياب . تناولني حبات «البون بون» من تحت المقعد ، وأنقلها إلى بقية الشلة . راوية ، صديقتي التي تحفظ لي دائماً همسات صغيرة

أسمعها رغم صوت المحاضر . يسألونني «يعني ما فيش ويعني ؟» . راوية كانت مخطوبة لمحامي ، وكانت تحدثني عنه أحياناً . تيسير كان يعرف التفاصيل ، البنات كن لا يجدن في تلك الخطوبة عائقاً أمامي ، تيسير يعرف كل شيء . وفي النهاية عرف الآخرون أنني أحب فتاة من خارج الجامعة ، كفوا عن طرح الأسئلة ، والفتاة أنت . وحدك أنت الحب كله ، أما هم فأصدقاء . أضعت روضة بنت الجيران . أضعت فايزه زميلتي . أضعت عابرات في الطريق استوقفتني نظراتهن ولم أتوقف ، لأن دنياي امتلأت بك . والآن تحاولين إفراغها منك . تريدين الخروج من جسدي ، طب ليه ، وازاي ، وانا أروح فين ، ولمين . أنا مش بغني ولا بتنيِّل ، أنا عايز أفهم اللي بيحصل ، واللي بيحصل كتير . .كتير وما اقدرش استحملو . . . .

وأخذت أضرب رأسي في مرآة الشوفونيرة أمامي وأبكي . أنظر إليّ فأجدني أبكي فأبكي . رددت عبارتها الأخيرة : أنا ما أقدرش أبعد عن بابا وماما ، وأبكي حتى «خلصت البكاء كله» .

أفقت .

قررت أن أبتعد المسافة التي قررتها نفسها .

كانت امتحانات السنة الثالثة تقترب ، وكان أمامي أقل من أربعين يوماً فقط ، وكان عليّ أن أنجح ، إذ لم يكن ممكناً جمع فشلين معاً .

المقطوعة الثالثة
أخطاء صحيحة

أصر عوني السويركي على أن نرافق سعاد ، صديقة الرفيق سالم ، إلى بيته ، لكي نطمئن على وصولها . وسوف تقوم ، فور وصولها ، بجمع ما تبقى من حاجيات سالم الذي تأكد ترحيله عن البلاد فور اعتقاله أمس . وقد رحبت سعاد بالفكرة . وقالت إنها فرصة لكي تسلمنا عصفوري كناري يقتنيهما سالم . قالت أنها لا يمكن أن تتركهما يموتان وحيدين ، وكانت تتوقع اعتقالها وترحيلها . قالت أنه ما دام رجال المخابرات قد اعتقلوا سالم ورحلوه ، فإنهم لن ينتظروا طويلاً ، وسوف يأتون لاعتقالها في أي وقت . في الطريق اقترحت على عوني أن يأخذ العصفورين إلى شقته ، فأخأخ ، أطلق «أُخاً» غزاوية طويلة كعادته ، هكذا «أُوخخخخخخخخخ» . واعتذر بعدها قائلاً أنه يستبعد اعتقالي ، لحداثة عهدي بالتنظيم . وحتى لو حدث ذلك ، وهذا هو رأيه أيضاً ، فالأغلب أن يأتي بعد اعتقاله . كل هذا ليقول لي : خذ العصفورين عندك .

وصلنا ثلاثتنا العمارة المواجهة للبحر تماماً في حي الأزاريطة . اجتزنا الباب إلى الداخل . وجدنا المصعد معطلاً . اتجهنا صوب السلالم تتقدمنا سعاد . نظرت إلى أعلى ، ستة طوابق لا نكاد نرى نهاية لها . بدا لي صعودها مثل الهبوط إلى هاوية . تابعت صعود السلالم يغمرني إحساس بالتورط ، وبالسباحة في بحر سياسي أمني عميق قبل أن أتعلم العوم . وشعرت برغبة في التراجع ، وسحب

قدمي قبل الغوص عميقاً . حاولت إقناع نفسي بما قاله عوني . وزدت عليه أنني حضرت اجتماعاً حزبياً واحداً يتيماً عقده أعضاء تنظيم الجبهة الديمقراطية في شقتي . فلماذا أدخل بيت سالم المعتقل ، وأرافق صديقته التي ستلحق به حتماً ! أليس من الممكن أن يكون البيت مراقباً ، وقد تحول إلى مصيدة لزائريه ! لا بل إنه مراقب حتماً . سالم مسؤول التنظيم ولا يمكن أن يتركوا بيته دون مراقبة . من الأفضل لي إذن ، أن أعود إلى شقتي ، وأتوقف عن أية اتصالات من شأنها أن تؤكد للمخابرات أنني بت متورطاً بالكامل في التنظيم .

اقتربت أكثر من فكرة التراجع ، لكنني خفت اتهامي بالجبن من قبل الآخرين ، محمد سعادة وشعبان كريم وعوني السويركي ، وأخي راسم الذي يقيم معي بصورة متقطعة منذ أبعدته إسرائيل إلى مصر ضمن مجموعة ضمت أكثر من أربعة آلاف شاب ، بعد حرب يونيو ١٩٦٧ مباشرة . لن يرحمني راسم ، سيقول أنني جبنت عن خوض معركة التحرير ، تخاذلت بعد أول احتكاك بسيط . سيقول ، وحتما سوف يشاركه الآخرون القول ، أن سالم العراقي دفع ثمن انتمائه إلى تنظيم فلسطيني . صديقته العراقية توشك على دفع ثمن مماثل ، أيضاً . وأنت تفكر في التراجع والهرب . أنت ابن النكبة والهجرة والخيمات وحرب الستة وخمسين والسبعة وستين ، تتخاذل بهذه البساطة ، وفي أول مواجهة مع عدو سياسي . لم أجد حكمة في التراجع ، وزينت لنفسي الخيار السياسي الذي ارتضيته ، منذ قررت حضور الاجتماع الأول ، ورضيت أن يكون في بيتي ، ذلك الذي بدأ يعطيني الثقة في القدرة على امتلاك القوة والمغامرة معاً . صحيح أنني خفت حين بلغني نبأ اعتقال سالم ، واقشعر بدني لمجرد التفكير باحتمالات اعتقالي وتعرضي للتعذيب ، لكن ما سمعناه عن من تم اعتقالهم ، حتى الآن ، من الرفاق ، أزال تلك المخاوف . إذ لم يتجاوز الأمر الترحيل سراً وفي هدوء . لكن القلق حل مكان المخاوف . الرحيل يعني انتزاعي من الإسكندرية ، من نسيجي الاجتماعي والعاطفي الذي مددت خيوطه عبر السنين . لكنه ينقلني ، أيضاً ، إلى مجهول أعرفه ، أو أطمح إلى معرفته بصورة

أفضل . إلى نسيج أريد المساهمة في تمتين خيوطه . سألحق بمن سبقوني . سأتخلص مما تبقى لدي من أحزان تنتشر من صدري عبر شوارع كليوباترة ، التي لم تزل تئن تحت صدمة انفصالي عن حبيبتي . حين ننفصل مكانياً نصبح كمن يعيش في زمنين مختلفين . «البعد جفا» . و«البعيد عن العين ابعيد عن القلب» . وأنا بت بعيداً عن القلب ، فلماذا أبقى قريبًا من العين . من مصلحتي تحطيم المكان ، وتغيير الزمان . سوف ينقلني الرحيل بعيداً ، إلى عمان . إلى مكان آخر وزمان آخر . هناك أترجم انتمائي وأفكاري إلى لغة عملية . أعيش زماناً ينسيني أيام الزمان . لست أفضل من مئات ، وحتى آلاف تركوا جامعاتهم ومهنهم طواعية . مهندسون وأطباء ومدرسون انتقلوا إلى عمان وجرش وإربد ، أصبحوا مقاتلين في صفوف المقاومة التي بدأت تصعد في سمائنا الفلسطينية ، حاملة سلة آمالنا وهمومنا وطموحاتنا . علاوة على أنني أنتمي إلى طليعة ماركسية مؤهلة لأن تقود هذه الثورة ، بما تمتلكه من أفكار وبرامج . شجعتني تلك الفكرة على المضي قدماً في الخيار الثوري ، خلعت عني فكرة التراجع التي ألحّت عليّ للمرة الثانية .

كانت قدماي تواصلان تنقلهما على درجات السلم كأنهما غير معنيتين بما يدور في رأسي . رأسي الذي أدرته نحو عوني ، فوجدته غارقاً في لملمة أنفاسه المتقطعة على عتبة باب شقة سالم .

وقفنا على باب الشقة برهة . أخرجت سعاد من حقيبة يدها مفتاحاً وفتحت بيد ترتجف . لا بد أنها خافت من وجود رجال المخابرات في الشقة . وأشعرني إحساسي هذا بارتباك يماثل ارتباكها . دفعت الباب وتقدمت ، وخطونا عوني وأنا خلفها . كانت الشقة خاوية ، ورائحتها عطنة ، فسارعت سعاد إلى فتح الشبابيك . كانت غارقة في فوضى ، هي بصمات رجال المخابرات التي تركوها على كل ما لامسته أيديهم . رأيت صورة الاعتقال في تلك اللحظة . كانت سافلة وتافهة أكثر منها مخيفة . لملمت سعاد بعض ما جاءت من أجله بسرعة . ثم تناولت قفص عصافير كان على طاولة الطعام ، بداخله عصفوران ريشهما أصفر ،

وكانا صامتين، حزينين، مثل يتيمين في مخيم لاجئين، وقد أدار كل منهما ذنبه للآخر. كأنهما في خصام، أو جرد. لا بل هو احتجاج كناري على غياب صاحبهما سالم. لعلهما لم يعودا قادرين على التغريد بعد رحيل سالم عن البيت. ليس مثلهما من يعرف الحب، وكلام الحب، ويدرك لوعة الفراق. قالت سعاد: خطية تشانو أبد ما يسكتون.. شلون صار حالهم. تساءلت بدون صوت أو لسان: أيهما سالم وأيهما سعاد. لم أشأ ممازحة سعاد في تلك اللحظة، فوقع الكلام في هذه الظروف سيكون مغايراً، مع أنها فتاة قوية، ولديها شجاعة تكفي لتحمل مزاح يعرّي حزنها على فراق سالم، ومواجهة الاعتقال. لم تبك، ولم تسقط دمعة حين علمت بأنهم اعتقلوه، لكنها حزنت كثيراً، وأسفت أكثر لتصرف المخابرات المصرية الشنيع، وللنظام السياسي في البلاد الذي لم يتحمل عدداً من الطلاب الفلسطينيين خالفوه الرأي.

البعض قال أن ما يجري هو انتقام، مرآة تعكس ما يجري في عمان، والمدن الأردنية الأخرى هذه الأيام. وما يجري لم تخفه الصحف، وتناقلته الإذاعات، وتسلل عبر الهواتف، أيضاً، نقله وأشاعه كل من له اتصال بعمان.

فبعد تردد استمر شهراً، وافق الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، على مشروع وزير الخارجية الأميركي، وليم روجرز، لوضع حد للصراع العربي-الإسرائيلي، وتسوية نتائج حرب يونيو ٦٧. وبعث وزير الخارجية محمود رياض، بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٧٠، برسالة إلى روجرز يبلغه موافقة مصر رسمياً على مبادرته. وفي اليوم التالي، أعلن عبد الناصر موافقة بلاده، في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة ذكرى ثورة ٢٣ يوليو.

علم ياسر عرفات بموافقة عبد الناصر خلال وجوده في بغداد، التي انتقل منها إلى بيروت في اليوم التالي. وقد تجنب أبو عمار إظهار معارضة واضحة لعبد الناصر. ولهذا لم يشعر الطلاب الفلسطينيون الأعضاء في منظمة «فتح»، أنهم معرضون لملاحقة السلطات المصرية، كما هي حال الطلاب الأعضاء في تنظيمي الجبهتين الشعبية والديمقراطية في البلاد. فالمنظمتان عارضتا مبادرة روجرز بقوة،

وتزعمتا حملة معارضة قوية لها في عمان .

يوم ٢٥ يوليو ، اجتمع المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، في عمان ، وأصدر بياناً جدد فيه رفضه لقرار مجلس الأمن الدولي الرقم ٢٤٢ ، وجميع الصيغ الهادفة إلى تطبيقه . وسائل الإعلام المصرية ركزت هجماتها الغاضبة على المنظمتين اليساريتين ، الشعبية والديمقراطية . ويبدو أن عبد الناصر حاول أن يتجنب معركة مع فتح كبرى المنظمات الفلسطينية ، خصوصاً وأن الزعيم الفلسطيني سبقه إلى تجنبها . لكن عبد الناصر لم يتحمل أن تنطلق أية معارضة لسياسته من غرف بيته ، فأمر بغلق إذاعتي «صوت فلسطين» و «صوت العاصفة» اللتين تبثان من القاهرة . ولعل السلطات المصرية سعت إلى منع أي شكل من أشكال المعارضة الداخلية لسياستها ، حتى ولو جاءت ، هذه المعارضة ، من نفر من الطلاب العرب المتواجدين على أراضيها .

لم أصدق أن مصر عبد الناصر ، سوف تذهب في قمع المعارضين لمبادرة روجرز ، إلى الحد الذي شاهدته وعايشته ، خصوصاً ضد أمثالي من الفلسطينيين القادمين من غزة ، والذين لا مكان لهم يلجؤون إليه ، ويحملون وثائق سفر مصرية . لكن ذلك حدث وبسرعة غير متوقعة ، وترك بصماته على أول تجربة لي مع رجال في جهاز استخبارات عربي .

***

وصلت وأخي راسم إلى مقر الاتحاد العام لطلاب فلسطين في «سبورتنغ» ، بناءً على دعوة أطلقتها الهيأة الإدارية للاتحاد بعد تشاور مع مسؤولي المنظمات الفلسطينية ، بغرض التعبير عن الاحتجاج على قبول مصر مبادرة روجرز .

في مقر الاتحاد ، الذي يشغل جانباً من مكتب منظمة التحرير الفلسطينية الواقع على محطة «سبورتنغ الصغرى» مباشرة ، التقيت سالم وعوني وشعبان كريم ومصطفى السويركي ومحمد سعادة وعدداً آخر من الرفاق ، وآخرين من أعضاء

الجبهة الشعبية ، ومن منظمات مختلفة ومستقلين ووطنيين بدون أي انتماء . وقد عرفنا ، من خلال الهمس الكثير ، الذي دار داخل القاعة الواسعة التي جلسنا فيها ، والتي تتوسط المقر ، الكثير من تفاصيل ما يجري في الأردن وردود الفعل الشعبية هناك ، وبالذات ، ما وقع في مدينتي عمان والزرقاء ، وكذلك رد فعل عبد الناصر على تلك التطورات .

وطبقاً لروايات عدة ، فقد سار قرابة ثلاثة آلاف متظاهر ، في شوارع عمان ، خلف حمار وضعت على رأسه صورة عبد الناصر ، وعلقت في رقبته لافتة كتب عليها «خائن» . أما في مدينة الزرقاء ، فقد تظاهر أكثر من سبعة آلاف معارض لمشروع روجرز ، منددين بقبول عبد الناصر به .

أخذت مشاعرنا الغاضبة تزداد سخونة بمرور الوقت . وبدأ قادة الاتحاد ، وأذكر منهم أحمد عبد الرازق ، و«صبري الفرا» ، يعملون على تهدئة الأمور ، وتطويق الانفعالات لحصرها في نطاق معين . وفي الواقع لم يسع أي من القيادات الطلابية المتواجدة إلى الخروج عن المألوف ، في وضع محكوم أساساً لظروفه المحلية . فالجميع يدركون أن أحداً لا يستطيع تجاوز الاحتجاج ، ولا يقوى على مغادرة المكان إلى الخارج ، متوهماً إمكان جر مواطنين مصريين إلى الشارع للتضامن . وفي واقع الأمر فإن احتجاجنا لم يتجاوز الرقص في العتمة . غير أن ما ينطبق على الشعب المصري لا ينطبق على أجهزة أمنه ، ولا على رجال العقيد محمود مرزوق ، رئيس شعبة المخابرات المسؤولة عن نشاطات الطلاب الأجانب في الإسكندرية ، الذين لا ينصتون لموسيقى الراقصين وحسب ، بل ويستطيعون عد حركاتهم في العتمة . ولهذا بدؤوا يحومون في الشارع العام دون أن يقتربوا ، على الأقل قبل هبوط الليل . والأغلب أنهم فعلوا ذلك تجنباً للفت أنظار الشارع ، والمواطنين الذين ينتظرون قطارات المترو عند المحطة .

اقترح عليّ شعبان كريم ، بحماس كبير ، إحضار «المندولين» التي أملكها من البيت . مؤكداً ، أننا نستطيع بالموسيقى والغناء الوطنيين إطالة فترة الاحتجاج . فاندفعنا معاً وسط تشجيع الآخرين وذهبنا إلى شقتي في كليوباترة ، غير

البعيدة ، وعدنا بالآلة الموسيقية الصغيرة لكي توالف صوتها مع أصوات المحتجين .

في البداية «سلِّم عليْ» بصوت «محمود بكير» ، الذي يجيد تقليد فهد بلان . وقد صاحبته بالماندولين . ثم «وين ع رام الله» ، و«على دلعونا» بتلاوينها وكلماتها التي أخذ ينظمها بعفوية الملتفون حولنا .

هبط الليل ، ومعه أخذت عواطفنا تقود الغناء إلى مسارات سياسية واضحة . بينما كان رجال المخابرات يتسللون إلى المنطقة ، ويحاصرون المبنى من الخارج . ثلاثة منهم ظهروا فجأة ، خلف أحد شبابيك المكتب المطلة على الشارع العام ، أيقظوا فينا روح التحدي . طلاب سارعوا إلى غلق النوافذ من الداخل ، والباب الخارجي كذلك . في تلك اللحظة بدأ الاجتماع الاحتجاجي يتحول إلى اعتصام سياسي . رجال الأمن في الخارج ينتظرون أوامر العقيد مرزوق ، ونحن في الداخل نصيغ احتجاجنا بطريقتنا الطلابية .

ووجدت نفسي أعزف ، والطلاب يرددون الأغنية الشعبية المعروفة «غندرة مشي العرايس» ، التي راجت بين الفدائيين في الأردن . وقد غيروا كلماتها ، وصارت «غندرة مشي الفدائي» . لكن أحداً لم يكن قد حفظ تلك الكلمات كاملة . سالم ، الذي زار عمان مؤخراً ، حفظ من الأغنية نتفاً فقادنا خلف نتفه ، قبل أن يجتهد الآخرون في تأليف كلمات مناسبة . ووجدت الكلمات التي نبحث عنها تنطلق من حنجرتي وشفتي تباعاً . والآخرون يضيفون ويعدلون . وأصابعي تركض بحماس فوق أوتار الماندولين التي أخذت تزغرد كأنها أم شهيد ، تقف وسط مهرجان كبير يضم آلاف الفلسطينيين ، القادمين من مخيمات البقعة وجرش وغزة والوحدات ، تنشد وهم يرددون :

غندره مشي الفدائي غندرة
واللي يحب حسين بيعادي للثورة

***

يا شباب بلادي
يا زهرة في الوادي

لا تخلو الأعادي
يقطفو هالزهرة

***

شفت الفدائية
على نبع الميّ
في مجالس شعبيّ
وارض محررة . . .

تعبنا ولم تتعب خفافيش الليل . أنهكنا النعاس المعجون بالأغاني التي بدت خافتة تموت عند خيوط الفجر ، ليستيقظ زواره . زواره الذين جاءوا مبكرين كعادتهم ، يسبقهم إلينا وقع أقدام جنود يبدو أنهم احتلوا أماكنهم في الشارع قبالة مقر المنظمة . أيقظنا الإيقاع على إيقاعه فأنصتنا . وفي الصمت بدأنا نتنفس قلقاً . وفجأة تلاحق صوت طرق قوي على الباب . أحمد عبد الرازق وآخرون ، ارتأوا ضرورة تجنب الصدام مع رجال المخابرات . وقبل أن يعترضهم أحد ، سارعوا إلى فتح الباب لمنع قوات الأمن من اقتحام المكان بالقوة إن كان في نيتها ذلك ، والحفاظ على الطابع الهادئ للاعتصام . لكن رجال الأمن فاجؤونا باندفاعهم عبر الباب إلى الداخل ، حيث راحوا يجرون الطلاب ، ويخرجونهم بالقوة . البعض اندفع خارجاً من تلقاء نفسه ، كما فعلت أنا مثلاً تجنباً لضربة عصا أو ركلة لا مبرر لها . والبعض الآخر أُخرج محمولاً على السواعد القوية لرجال الأمن المدربين جيداً على مكافحة المظاهرات وأعمال الاحتجاج الأخرى . في الخارج وجدت المشهد مرعباً ، والأيدي تتلقفني وتمررني بين رجال القوة الأمنية . كانوا قرابة ستين جندياً مزودين بدروع وهراوات ، وكانوا يسدون عرض الطريق بين سكة المترو وحيطان مقر منظمة التحرير . في تلك اللحظات أدركت أننا تجنبنا كارثة بالفعل . وأن الغضب الرسمي المصري بلغ ذروته . وأن النظام الناصري غير مستعد للتسامح ، حتى مع طلاب لا يزيد تعدادهم عن أربعين ، لم يفعلوا أكثر من الاستماع إلى الشعر والغناء والنشيد ، وتبادل المعلومات والأخبار والتحليلات

السياسية الصائب منها والخائب ، في ساحة مغلقة ، محاطة بأربعة جدران . لكن رجال الأمن ، كانوا راقبونا جيداً ، رأوا ما يريدون رؤيته . وحدها المخابرات ترى في العتمة . هم مخابرات ، لذلك رأوا كل شيء ، حتى كلماتنا رأوها وسجلوها ، وقرروا التعامل معنا بالقوة .

أخذ الفضاء يشق طريقه إلى وجه الإسكندرية ، أجمل المقدونيات اللواتي حللن شعورهن على شاطئ المتوسط . يمسح بلونه الفضي ملامحها لكي تصحو . وسكانها ، «أجدع الناس» ، ينتظرون الشمس تصبح عليهم في مخادعهم . توقظهم من ليل لا يشبهه ليل . ليل تنام فيه حبيبتي ملء جفونها ، وأسهر أنا محاطاً برجال الأمن ، الذين تعجلوا إنهاء مهمتهم قبل استيقاظ المدينة . وقبل أن تغسل الشمس وجه البحر الممتد من سيدي بشر لابو العباس . قبل أن تفوح رائحة السمك في الأنفوشي ويرتفع غناء الصيادين في أبو قير ، ويملأ دبيب قاطرات الترام الفضاء ، يدق مثل منبه لاقتراب ساعات بدء العمل .

فرقونا ، افترقنا قبل أن يسيل منا دم على رمل الطريق . أصعدونا فرادى إلى عربات مترو ، صعدنا . فارغة وجدناها كأنما كلفت بنقلنا . جاءت من الاتجاهين خالية تماماً من الركاب ، وفي الاتجاهين افترقنا وصور رجال الأمن تركض خلفنا .

***

جهزت وراسم حقيبتين ، وضعنا فيهما الضروري من الملابس ، وتجنبناً وضع أوراق أو وثائق حزبية معينة كالبرامج السياسية ، أو التنظيمية مثلاً ، لثقتنا الكاملة ، بأن الشقة ، والحقيبتين سيتعرض جميعها لتفتيش دقيق من قبل رجال الأمن عند اعتقالنا . لقد بتنا متأكدين من مجيئهم ، ومن أن المسألة لن تتجاوز الساعات الأربع والعشرين المقبلة على أبعد تقدير . فمنذ اعتصامنا في مقر منظمة التحرير وحملة الاعتقال جارية على قدم وساق ، والرفاق يتناقصون عدداً . جمعت بعض الأوراق الخاصة ، التي أعرف أن لا أهمية لها ، وقد لا تعني

الكثير ، غير أن للمخابرات مفاهيمها ورؤيتها وقراءتها الخاصة لأية أوراق شخصية أو تحمل بصمات سياسية . سلمت الأوراق لأصدقاء لي في المنطقة . وقمت بزيارة سريعة لجارتنا العجوز الطيبة ، صاحبة الشقة ٣١ التي نقيم فيها . لأقدم لها اعتذاري عن دفع أجرة الشهر . تأخرت عليّ رسالة ابنة عمتي انشراح ، التي تحمل إلينا ، راسم وأنا ، شيكاً سياحيا بمبلغ ٢٧ دولاراً ، تعادل حوالي ١٧ جنيهاً ، بسعر الصرف في السوق السوداء .

رحبت بي المرأة حين دخلت . ودعتني إلى الجلوس في صالون بيتها المتواضع ، لكن الأنيق . ولم تسألني عن سر زيارتي المفاجئة ، بل بدأت حديثاً ودياً عاماً عن الكلية والدراسة وأخي ، سارعت إلى مقاطعتها ، وإبلاغها بعبارات واضحة وصريحة ، بأنني قد لا أتمكن من دفع الأجرة هذا الشهر ، ولا أي شهر آخر . وأنني وشقيقي معرضان للاعتقال في أية لحظة . سلمتها أحد مفتاحين للشقة نستخدمهما . وأبلغتها بأنني سأترك المفتاح الآخر فوق الحائط الرخامي الذي يفصل بين مدخل البيت وصالة الجلوس ، وسكتُّ دفعة واحدة أنتظر صدور حكمها الأول والأخير .

احتوتني المرأة بنظرات حانية لا تبثها سوى عيون أم ربّت أجيالاً . طلبت من حفيدتها الصغيرة سمية ، الممدة على الأرض ، وقد أنامت رأسها فوق ركبة «التيتة» الانتقال إلى داخل البيت . استأذنت الصغيرة بأدب يكبر سنها بكثير ، واختفت في الممر المؤدي إلى غرف النوم .

– زعلتني يا ابني .

قالت المرأة . وتابعت وعيناها ما زالتا تبثان ذلك الحنين :

– يا ابني الفلوس مش كل حاجة ، إحنا ح واخدين منها إيه . المهم سلامتك يا استاذ . ده من يوم ما اسكنتو الشقة ماحدش سمع لكو صوت . دي البناية كلها بتحلف بحياتكو ، وبحياة ابن عمك نعيم اللي سكن الشقة قبليكو . الحدعشر جنيه فداكو يا ابني . أنا بكره أأجرها وارجّع الفلوس . إنما انتو ألقى زيكو فين . طب ح تروحو فين يا ابني وأهاليكو في غزة . طب هي غزة مش مع اليهود . خد

بالك يا ابني من نفسك ، وأبقى زرنا أن جيت إسكندرية في يوم من الأيام . ربنا يجازي ولاد الحرام .

خرجت ، وأغلقت المرأة الباب خلفي . وفي الطريق إلى شقتنا ، عبر الممر الطويل ، قطعت على نفسي عهداً بأن أزور الجارة الطيبة في أول فرصة يسمح لي فيها بدخول الأراضي المصرية . سوف أعيد إليها حقها . وسأذهب إلى القاهرة ، إلى حيث أقمت في بنسيون الأمل ، لأدفع جنيهاً ونصف الجنيه لعم مصطفى ، صاحب محل الخردوات الذي عرفني عليه صديقي إسحاق وصرنا نشتري منه سجائرنا الكليوباترة وندفع له شهرياً . في الشهر الأخير غادرت القاهرة دون أن أدفع له ما علي من دين . أرجأت ذلك إلى حين عودتي من غزة خريف العام ١٩٦٦ ، لكنني حين عدت لم أجد الفرصة للذهاب إليه . وانتقلت إلى الإسكندرية . الآن بات في رقبتي دينان . يخطئ من يظن أن الماركسيين والشيوعيين لا دين لهم ، ولا دَيْن عليهم ، وفي رقابنا تعلقت فكرة تحرير الشعوب من الظلم والقهر ، اعتماداً على قاعدة من الفقراء الموزعين على بقاع الأرض . آمنت بتلك الأفكار بطريقة أخلاقية عمقت فيَّ حب الأمانة ، التي يأتينا حسابها مباشراً ، من ضمير نحمله معنا أينما نسير .

أغلقت باب الشقة خلفي . وجلست على الكنبة الكبيرة الموضوعة تحت الشباك في صدر البيت ، أتطلع إلى الحقيبتين اللتين تنتظران مثلي زوار الفجر ، الذين قد لا يتأخرون .

***

جاءوا في عز الظهيرة . زوار الفجر خالفوا القاعدة ، وجاءوا ظهيرة العاشر من أغسطس/ آب ١٩٧٠ . طرق أحدهم بأصابعه على الشراعة الزجاجية الصغيرة التي تتوسط الثلث العلوي من الباب .

قال راسم :

- أجو .

قمت بسرعة وفتحت الشراعة لأجد نفسي أحدق في وجه صبوح بشوش ، بدا مثل صورة ملونة داخل إطار .

- لحظة من فضلك .

التفت إلى راسم مؤكداً قوله :

- أجو .

فتحت الباب . ألقى علي شابان طويلان رشيقان وسيمان التحية ، واستأذنا في الدخول بعد أن أبلغني الأول الذي رأيت وجهه عبر الشراعة ، أنهما ضابطا أمن .

رحبت بهما بأدب . وقلت مبتسماً ومازحاً ، وهما يجتازان الحائط الرخامي إلى الصالون ، أننا في انتظارهما ، وأنهما تأخرا ، وأننا جاهزون لتسليم أنفسنا ، ويمكننا التحرك في أية لحظة .

لقد حاولت تجنب أية متاعب ، خصوصاً وأن الأمر مفروغ منه . والنقاش مع الضابطين اللذين ينفذان مهمة جاءا لأجلها لا معنى له ولا قيمة . حتى أنني وأخي لم ننم الليلة الماضية في غرفة النوم ، بل على أرض الصالون ، إلى جانب حقيبتينا ، تجنباً لسوء تفاهم أو تقدير يؤدي إلى نتائج سلبية . لقد توقعنا زيارتهم فجراً وقررنا أن يكون صباحاً خالياً من أية مشاكل .

طلب أحد الضابطين تفتيش الشقة ، ولم نعترض بالطبع ، لأنه لا يحق لنا الاعتراض أصلاً . فتشوها وقلبوا الكتب والمؤلفات المتراكمة على رفوف المكتبة . جمعوا بعض المؤلفات الماركسية ، المحظور بيعها بصورة رسمية . وسألوا إن كان بحوزتنا وثائق معينة . أبلغتهما أن لا وثائق لدينا ، وأنهما يستطيعا التحقق من ذلك إذا رغبا .

- الشنط فيها إيه ؟

سأل أحدهم .

- أواعينا .

أجابه راسم .
فتح إحداهما . قلب بعض ما فيها ثم عاد وأغلقها .
حمل الضابط الشاب الحقيبة ، وتناول زميله الأخرى بيده ، وطلبا منا الخروج .

للوهلة الأولى ظننت أن تصرفهما يعكس ظرفاً ولباقة تتناسب وشكليهما . بل هو لطف زائد منهما . لكنني تأكدت ، فيما بعد ، من أن الحقيبتين مصادرتان ليتم تفتيشهما بعيداً عن أعيننا .

كاد أحدهما يغلق الباب حين استدرت إلى الخلف بحدة معترضاً ذلك ، طالباً إليه السماح لي بدخول الشقة لأخذ عصفوري الكناري .

عندما خرجت وبيدي قفص العصافير ، أغلق الشاب باب الشقة التي لن أدخلها ثانية ، وسألني عما سأفعله بالعصفورين . ضحكت ، وأنا أهمس لي : صحيح الجماعة ما بيحبسوش العصافير . وله قلت : ح دّيهم لأي حد يطعمهم ويسقيهم .

غادرنا البناية . استأذنت الضابط الأقرب إلي دقيقة لكي أعطي القفص لصاحب دكان البقالة الواقعة أسفل العمارة . فلم يعترض ، بينما مضى زميله الآخر وبيده الحقيبة الثانية ، برفقة راسم إلى سيارة نصر بيضاء صغيرة كانت متوقفة عند طرف الشارع .

قدمت القفص لسليمان ، صاحب الدكان ، الذي استغرب كثيرا وبدت عليه الدهشة وهو يتناول القفص من بين يدي ، زوّرت ابتسامة ألصقتها بشفتي :

– أنا مسافر يا عم سليمان ، ومش ح أقدر آخد العصفورين دول معايا . خدهم ربيهم انت ينوبك سواب .

ومازحته :

– دول كناري يا سليمان . عصافير حب . تفاءلوا بالحب تجدوه .

قبل أن أستدير ، استوقفني عم مصطفى البواب ، الذي ظهر فجأة :

– على فين يا استاز ربيع ، سايبنا وماشي كده ، على فين انشاالله ؟

- مسافر ياعم مصطفى .
- وح ترجع تاني ؟
- ما افتكرش .
- ليه بس كده ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
- مع السلامة يا عم مصطفى .
- شد حيلك يا بني ، ربنا يكون في عونك .

ولحقنا بالآخرين راسم والخبر الثاني ، وأنا أفكر في عم مصطفى الذي خامرني الشك مراراً بأنه يتعاون مع أجهزة الأمن . آخر مرة رأيته فيها كانت في أعقاب الاجتماع الحزبي الوحيد إلى عقد أواخر الشهر الماضي في شقتنا ، يومها همس لي عم مصطفى قائلاً أن عدداً كبيراً من الشبان جاءوا يسألون عني ، وأنه قابلهم باحترام كبير ، بوصفهم ضيوفي ، ودلهم على شقتي . هل كان يحذرني ، أم يؤكد لي معرفته الكاملة بما يجري ، ومراقبته لي ! أم عمل معروفاً ، وقام بواجب يقوم به كل بواب نوبي طيب مثله ؟

لا أدري !

الجزء الرابع

المقطوعة الأولى
حريق الشعارات

إلى شهداء الأيام العشرة

هذه عمان . .غابة بنادق يتمشى في ممراتها لينين . ممنوع على الشرطي الأردني الذي خبأ رأسه تحت خازوق نحاسي اعتراضه أو تغيير إشارة المرور . هو في طريقه إلى مطعم أبي خليل لوجبة فول في الصباح . ساعداه خلف ظهره منعقدان . ذقنه الثابتة مثل قوانين المادية تسبقه إلى المكان . يمضغ الخبز الأردني ويطلق عشرات الجمل الثورية . يتابع خطا كاسترو ، ينصب صواريخ باليستية في حديقة مقهى المدينة ، يتفيأ تحت ظلالها الرفاق .على مقربة منه يقود شاب يساري هجوماً بالرشاشات على المصرف المركزي لكي يخط رفاقه بدهان أحمر شعارات المرحلة : لا سلطة فوق سلطة المقاومة . وترسم الجبهة الشعبية مدرجات مطار ثورتها في الصحراء ، تدفن أربع جثث لطائرات أميركية في قبر واحد ، وتعود إلى « ملاحقة الإمبريالية في كل مكان» .

وتفرخ حارتنا المسلحة خطفاً ومصادمات ، تتوقف على أبواب السابع عشر من أيلول لكي نشارك في معرض الجثث المحلي الذي افتتحته السلطة . لكل تنظيم جناح وللسلطة كل الأجنحة . ويعبر المدينة هوشي منه العجوز بلحيته المعيزية ، متأبطاً سلة أرز لأطفال في مخيم الوحدات يلعبون بالقنابل . وماو حائر لا يعرف

كيف يبدأ مسيرة ألف ميل في جبال عمان السبعة ، لأن اللجنة العربية تتولى الحصاد السلمي لإنقاذ الجميع من حريق عمان ، ومن موتها المؤقت .

يا عـــمــــان ويا عـــمــــان
ملو ســــمـــاكي بالدخــــان
تركـــو النهــــر لعـــدانا
نهــــر دمــــانا عليــــهم هان
يشــــهـــد الله جــــراحنا
من جــــراحك يا عـــمــــان

ها أنذا جالس فوق خيبتي تحت الحائط الصفيحي الصدئ لمكتب الجبهة الديمقراطية في جبل الحسين . لم يبق معي من شلتنا سوى نعيم ملفوفاً بقلقه مثل بقجة لاجئين لم يرض عنها صاحبها . لقد مضى أكثر من شهر على إبعادنا إلى مطار دمشق ، وانتقالنا إلى عمان في اليوم نفسه بعد هبوط المساء . وها نحن نحصد خسارتنا ، ونلم خيبات السنين . تلقينا دورة تدريب عسكرية في مخيم سوف . قضينا بعض الوقت في مدينة جرش شمال عمان ، ننفذ مناورات وهمية كأفراد مليشيا ، يتصدون لمحاولات لم تقع للجيش الأردني ومؤيديه الصامتين في المدينة . وجئنا إلى عمان لكي تعيدنا إلى دمشق لعلنا نستطيع إكمال دراستنا الجامعية فيها ، فلم نخرج من رحلة بحثنا سوى بكلمات غاضبة محت لدينا تعب السنين . كأننا جئنا من عدم وذاهبون إلى عدم . عدم يجر عدماً . فبعد انتظار أكثر من ساعتين خرج ياسر عبد ربه ليقول لنا : «مين قال بدنا طلاب . . إحنا بحاجة لمقاتلين» .

كانت المرة الأولى التي أرى فيها ياسر ، وإن سمعت عنه الكثير . وقف منتصباً بقامته الطويلة . كفه اليسرى على كعب مسدسه المرتاح على خاصرته . إنه كما قيل عنه ، خليلي أشقر ذو بشرة بلون العنب ، يتراقص في عينيه ذكاء قائد . كان ذلك كافياً لكي أصدق أن ليانة بدر الطالبة في الجامعة الأردنية وقعت في غرامه

بسهولة . قائد ، ذكي ، وسيم ، مثقف ، ويكتب شعراً ، هل كتب لها بعضاً منه ! كانوا جميعاً يتبعون خطا لينين ، وكان لكل منهم كروبسكاياه ، رفيقة تخرج من ثياب أمها ، تكسر قيود الخيم وتحفظات المدينة ، وتلبس الأيديولوجية الماركسية مثل غذاء للفكر وقلادة للروح ، تلك الروح المنبثقة من كلمات ماركس وتوجيهات لينين . أعجبت بليانة كما أعجبت بالكروبسكايات الأخريات . هذه صديقة أبو العبد ، وتلك صديقة ممدوح ، وهذه لأبي ، وأبي وأبي . . . .ما عدا الرفيق الأمين العام ، نايف حواتمة ، الذي لم يلاحقه همس كثير . الكل يطمح إلى معرفة الكروبسكايا الأولى في التنظيم ، لكن الهمس لم يدخل مخدعه ، ولم يضبطه بطريقة حاسمة . كان الهمس يتوقف دائماً عند أبواب مكتبه في جبل الحسين ليفرضه نموذجاً من نوع آخر ، نوع من الرجال تشغل وقته المهمات التي لا تنقطع ، وما يتبقى لا يكاد يكفي لمطالعاته التي تضعه في مقدمة المفكرين الماركسيين ، لا بل طليعتهم . ألا يحمل فكره بيد وبندقيته باليد الأخرى ! إنه المنشغل الدائم بالمطالعة والكتابة واستقبال الصحافيين ومندوبي وكالات الأنباء الذين ينتظرون ساعات للتحدث إلى قائد يساري حشا البنادق أيديولوجيا . صحيح أنني حين رأيته أول مرة في مكتب اللجنة المركزية في الحسين ، أخذت أتفرس ملامحه بتمعن وإعجاب كبيرين ، وأقارن بين ما أراه وبين الصورة التي نقلها لنا سالم العراقي ونحن في الإسكندرية قبل ترحيلنا بشهرين تقريباً ، وفي النهاية خلطت تلك الصفات بالأخرى ، ورأيت فيه القائد الذي توجب عليّ اختياره لو سمح لي بالاختيار . أما ياسر ، فقد خلطت مواصفاته الجيدة بما سمعته عنه ، وتحققت اليوم منه . ياسر «نرفوزع الآخر» ، مستمع سيء ، ينفجر غاضباً بعد الجملة الأولى في أية مناقشة لا تتوافق ورأيه ، كأنه مشروع مستحيل لاحترام الرأي الآخر .

أخأخ عوني ، وشخر شخرة غزاوية متواضعة لم تخرج من حلقه تماماً

–...أخخخخ .

ياسر قال :

–هاللا غفيق ما بنقدر نعملكم إشي .

هو يلفظ رفيق هكذا : «غفيق» .
شعبان نبّه :
-بس الجامعات بتبدي أول الشهر يا رفيق .
انتهى صبر ياسر وكان طويلاً ، إذ استمع إلى جملتين حتى الآن ، لذلك سارع يطلق صلية كلام حارق خارق متفجر مثل رصاص رشاش ٥٠٠ ملم :
- مين قال بدنا طلاب . . . إحنا بصراحة بحاجة لمقاتلين يا غفيق .
- أوخ ، إيش هالطريقة !
اعترض مصطفى مؤخئخا مثل بن عمه عوني .
عاد شعبان يشرح :
- يا رفيق ، إلنا إسبوع بنحاول نرتب حل لمشكلتنا . بنركض من رفيق لرفيق ، وفي الآخر . . . .
- لا في الآخيْ ولا في الأول .
قاطعه ياسر ، وانفرد بوضع خاتمة للحوار :
- ما عنّاش وقت انظيعو في مهاتغات .
وقرر ياسر أن الوضع متوتر في البلد . وكنا نعرف . وأن أوان حسم ازدواجية السلطة في البلد قد آن . كنا نؤمن . والناس سمعوا بذلك وقرؤوا شعارات حملت هذا المعنى . ورأوا وسمعوا اشتباكات حزيران ، بين الجيش الأردني والمقاومة . أنا سمعت بها حين كنت في الإسكندرية . سمعت أن قتالاً اندلع في عمان ، وأن السلطة حاولت اختبار قدرات المقاومة ، تجريب حرب محدودة عليها . وأعجبت بشجاعة المقاتلين الفلسطينيين الذين تصدوا لعناصر الجيش الأردني ، مؤكدين لهم أن التجربة لا تبشر بالخير . حين بحثت في مراجع تلك الفترة ، وجدت نفسي أمام رواية غريبة لم أسمع بها من قبل ، وقائع ربما لم يكشف عنها في حينه . وتقول الرواية التي أوردها أهارون بريغمان وجيهان الطاهري في «سنوات الحرب الخمسين» ، والمستندة إلى برنامج متلفز أعدته هيأة الإذاعة البريطانية بي .بي .سي . وصدر في كتاب عن دار «بنغوين» ، بمناسبة الذكرى الخمسين

للنكبة وقيام دولة إسرائيل ، أن اشتباكاً وقع في عمان يوم التاسع من حزيران / يونيو ، وأن الملك حسين ذهب برفقة مساعده المقرب زيد بن شاكر وبعض ضباطه لتحري الأمر . وحين وصلوا تقاطع طرق خارج العاصمة عمان ، فوجئوا بحاجز ، وبشاحنة لوري تسد الطريق . وينقل المؤلفان عن الملك قوله «توقفنا بعد أن وقعنا داخل حقل رماية كثيفة . قتل أحد حراسي وهو برتبة سيرجنت ، داخل السيارة التي تتقدمنا . قفز جميع من كانوا في سيارتي وصرخوا بي أن أفعل مثلهم . كنت غاضباً ، أخذت أسب وأشتم . وقلت : عيب عليهم ، كيف تجرؤوا على ذلك» .

وألقوا جميعاً بأنفسهم في خندق قريب .

ونقل المؤلفان ما يلي عن لسان الملك وزيد الرفاعي :

زيد الرفاعي : حاولت حماية جلالته ، كذلك فكر رئيس الحرس .

الملك : هجم الجميع عليَّ من الجانبين ليغطوني بأجسادهم ، لكنهم كسروا ظهري في أثناء تلك المحاولة . قفزنا إلى داخل السيارة . كان الصراخ يملأ المكان حولنا . وفجأة تذكرت أنني نسيت البيريه في الخندق .

الرفاعي : لقد رفض الملك مغادرة المكان قبل إحضار البيريه . قفز من السيارة وعاد إلى الخندق . التقط البيريه ووضعه على رأسه .

الملك : كان محرك السيارة يهدر بجنون دون أن تتحرك من مكانها . لقد نسي السائق في حمأة الانفعال تعشيق الغيار . وكان علي أن أنبهه إلى ذلك . ثم انطلقنا .

لو كنت قرأت هذه التفاصيل ، أو سمعت عنها حين كنت في الإسكندرية ، لكنت ازددت إعجابًا بعناصر المقاومة الذين تصدوا للملك الذي نادينا بإسقاطه . ولتمنيت أن تكون جبهتنا الديمقراطية وراء ذلك ، لنكون في طليعة من يمرغ أنف النظام في وحل عمان ومخيماتها . أما بعد مرور ثلاثين عاماً على تلك الحادثة ، وقراءتي لتلك التفاصيل ، فقد أصبت بشيء من الخيبة وبكثير من الخجل والقليل من الذهول ، وتأنيب ضمير لم يكن حاضراً وقت الحادثة . كان الملك قد

توفي ، وصارت وفاته خبراً توقف الإذاعات والتلفزة نشراتها لإذاعته ، وتفتح خطوطها مع مراسليها الأقرب إلى جثمان الفقيد . كنت في مكتبي في الأسوشييتدبرس في كامدن تاون في ذلك اليوم ، وشاهدت موت الملك متلفزاً . شاهدته يموت ملوناً على الشاشات عشرات المرات . صار الملك مادة إعلامية نتعامل معها . مؤتمراً صحافياً كبيراً يحاسب فيه الميت على أعماله الحسنة ، يكافئه الحاضرون ويطلبون له الرحمة . وحين يصلون إلى سيئاته يرددون العبارة الشهيرة : «لا تجوز على الميت سوى الرحمة» ، ويترحمون من جديد . يضعون الرحمة فوق الرحمة لكي يجمعوا له ما يكفي لغسل الذنوب . ونحن نبث الصورة تلو الصورة ، والتقارير المشمولة بعبارات الرحمة ودموع المراسلين الكذابين ، الذين ساهموا معنا في بيع وفاته إلى زبائننا الكرام في القنوات الفضائية العربية . حتى العواصم التي ظلت ترفض استقباله على أراضيها ، احتفت به ميتاً . ومشى مسؤولوها في جنازته أمام الشاشات الصغيرة . راقبت النعش يصعد إلى الفضاء عبر الأقمار الاصطناعية . استمعت إلى شيخ مقرئ ، ورأيته وهو يدخل التاريخ لأنه هو ، وليس غيره من اختير لقراءة بعض آي الذكر الحكيم على روح الملك . والملك يصعد عبر فضاء الفضائيات ، ملفوفاً بالعلم الأردني المغسول بدموع مئات الآلاف من محبيه . ثم وهو يهبط بينهم لكي يسيروا خلفه مودعين .

كانت أصابعنا ، في تلك اللحظة ، تشير إلى قصوره في الحمّر حيث وكر الرجعية الأولى في المنطقة .

-وين الحمّر اللي بتحكو عنها ؟

سألت ذات يوم وأنا اقف أمام مكتب الميليشيا في جبل الحسين . أشار لي أحد الرفاق الواقفين بإصبعه بعيداً إلى الشرق قائلاً :

– هاذيك اللي هناك القلعة . مليون مدفع منصوب هناك . على الشمال هناك بعيد الحمّر . .شفتها !

كنا صعدنا ثلاثتنا ، عوني وشعبان وأنا إلى المقعد الخلفي لسيارة أجرة ، صبيحة السادس من أيلول/ سبتمبر ، لكي تنقلنا إلى مخيم الحسين . وتبرع

السائق بلفت نظرنا إلى اختطاف طائرات أميركية وإنزالها في مكان من الصحراء على مقربة من مدينة الزرقاء، في مكان أطلقت عليه الجبهة الشعبية «مطار الثورة» . أعجبني الاسم ولم تعجبني العملية . كانت لهجة السائق ترقص على لسانه وبين شفتيه : الله أكبر يا عالم أربع طيارات . ايش رح تعمل أميركا . .ها ! حسدت الجبهة الشعبية على ما جمعته من شعبية نتيجة عمليات الخطف هذه، لكني قلت للسائق : بس هذي عمليات فردية بتضعف النضال الجماهيري . ولم أكد أنهي عبارتي حتى تبارى عوني وشعبان في دحض أفكار الرجل، مؤكدين له موقف لينين الصارم من هذه العمليات، ومعارضته شقيقه الكسندر الذي حاول اغتيال القيصر . كان يريدها ثورة شعبية بروليتارية، لا عملية تنتهي بمقتل قيصر لتسهل قيام قيصر آخر .

غير أن الإعجاب الذي لمته الجبهة الشعبية من الشوارع، لم يلبث أن تبخر حين تحولت الطائرات الأميركية الأربع يوم ٧ أيلول / سبتمبر إلى كتلة من دخان أسود وغبار تبدد في سماء المنطقة . في تلك اللحظة رأى كثيرون صورة الفتاة ليلى خالد تظهر من بين الغبار . أما أنا فلم أرها، ولا حتى بعد ذلك . فقد شكل الملك حكومة عسكرية، وأعلن حالة الطوارئ في البلاد، بكلمات واضحة له، قاسية علينا : «إنها لحظة الحقيقة، ما دام الأمر يتعلق بهذا البلد ومستقبله، وبإحساسي بالمسؤولية . أعتقد أننا نفقد السيطرة، فيما تقع علينا مسؤولية تجاه الشعب في الأردن . إنها مسألة قانون وإنقاذ هذا البلد» .

كان يريد إنقاذ البلد منا . وكنا نحن نريد تطهير البلد منه، فوصلنا معاً منتصف المسافة : تدمير البلد وقتل آلاف الأبرياء وغير الأبرياء . وسلمنا رقابنا للجنة العربية تتولى إحصاءنا وتعلن أسماءنا وأرقامنا ونحن نعبر الحدود إلى تجربة أخرى دون أن نأخذ معنا كراسة الدروس الأولى في الصراع .

– أُوخخ . طب احنا ما لنا ومال كل هالتحليلات يا رفيق . ينفجر الوضع واللا يتنيل، بدنا نعرف ح نكمل دراستنا واللا لأ . أوخ .

عقب أبو اصطيف على رد ياسر بانفعال، مؤخخا في البداية وفي النهاية .

غادر ياسر المكان دون أن ينظر خلفه . ولحق به مرافقوه المسلحون . وبقينا نحن شعبان وعوني ونعيم ومصطفى وأنا واقفين ، مشدوهين ، نجفف عرق خيبتنا التي خلفها الحوار . لم نتبادل كلمة واحدة لدقائق . رد ياسر صدمنا ، أفقدنا آخر أمل لنا في الالتحاق بالجامعات السورية . شعرت بي أهوي في داخلي ، مثل بناء انهار على نفسه . ألقيت برأسي إلى الخلف ، أسندته على جدار المكتب الصفيحي ، وفي رأسي انبثقت عبارة واحدة : «يا خسارة تعبك يا عمتي الحاجة بعد كل هالسنين» .

كانت عمتي تنفق عليّ طوال سنوات دراستي الجامعية . تفت النقود لكي تراني في صورة شقيقها . أخوها الذي قصف المرض شبابه في أول الطريق . تراه وقد عاد إلى الدنيا في شخص ابنه ربعي . أمي ، التي كانت نظرة خليل إليها بالدنيا كلها ، تنتظر هي ، أيضاً ، أن ترى فيَّ صورته . صورته التي لم ترها إلا معلقة على الجدار منذ وفاته عام ١٩٦٠ . أمي لم تزل تنتظر الفرصة لكي تعلن أمام الجميع بصوت قوي : «هذا ابني ، الخالق الناطق أبوه» . وتسمع أصواتاً متعددة تنطلق من خلف بيوت المعسكر تردد مثل جوقة : «صحيح اللي خلف ما مات» . تتطلع إليَّ ، تغسلني نظراتها : كل شي فيك زي أبوك يمّه . . . الخالق الناطق أبوك . ياسر لا يدرك ذلك . كل قيادة الجبهة تشاركه عدم إدراكه . لو كان هناك جيش فلسطيني وتجنيد إجباري لرفضت أمي أن يأخذوني إليه . وصاحت بأعلى صوتها : ابني معفي من التجنيد . ابني البكر . هذا ابني البكر ، والبكر معفي ، واللا انسيتو القانون ؟ لكن الثورة تختلف . حربها عن حرب الجيوش تختلف . حربها طويلة الأمد . حربها نار وبدها حطب ، والحطب نحن ، الوقود اللازم لتشغيل عجلة القضية . سياسيونا يتحدثون بلغتهم ، وأمي تحتفظ بلغتها . أمي لا تفهم عليهم . هي الفلسطينية ، من مولدها ، في حارة المداهنة في المجدل عسقلان ، حتى آخر غرزة تطريز ملونة في ثوبها المجدلاوي ، لا تفهم عليهم ، وهم لا يفهمون عليها . هي في الداخل ، هم في الخارج . كيف يتصلون ، كيف يتفاهمون ؟ حتى أنا ، أنا نفسي ، أصبحت بعيداً في الخارج ، لم أعد أفهم لغة

أمي ، ولا أعرف كيف أجعلها تفهم لغتي . ولا أفهم عليهم أيضاً . ولا أعرف كيف أجعلهم يفهمون علي . ضعت أنا بين لغتين . أمي تمنت تخرجي من الجامعة ، الجبهة خرّجتني من فوهة بندقية لكي أنطلق مثل قذيفة وأنفجر ، وقد أنفجر في الهواء !

جلست ، وجلس الآخرون . أسندت ظهري إلى جدار المكتب الصفيحي . تطلعت نحو رفاقي . رأس شعبان ساقط بين كفيه المعتمدتين على مرفقيه المرتكزين على ركبتيه المحنيتين بزاوية قائمة . نعيم سارح بنظره بعيداً ، وعالياً أيضاً ، نحو قمة جبل النزهة قبالتنا . عينا عوني اضيقتا ، صارتا مثل خرم إبرة . هكذا هو . عيناه تضيقان كلما تأسى وامتلأ صدره غماً . ما تبقى في عيوننا من نظرات خافتة تقاطع . مضى وقت قبل أن تتلاقى عيوننا . عوني شخر شخرة غزاوية حقيقية . عوني قطع صمتنا الطويل ، ووفر على عيوننا تبادل نظرات خائبة :

– اخخخخخخخ . طيب ايش رح نعمل ؟

نعيم ازدادا غماً على غمه الوراثي :

–يعني ايش رح نعمل . . . ناكل خرا ونسكت .

عوني عاد وأخأخ مكتفياً بأخأخته التي تشبه شخرة قصيرة . شعبان هز رأسه ، يريد أن يقول شيئاً . شفتاه ارتجفتا ، قلبه ارتعش ، أعرفه جيداً . عندما ترتجف شفتاه يرتعش قلبه . سوف يقول ما في قلبه إذن ، قال :

– مش معقول ، صار الكلام عن مستقبلنا مهاترات عند قيادة الجبهة . إحنا انطردنا من مصر بسبب الجبهة . والجبهة لازم تساعدنا لنرجع ندرس .

نعيم اعتدل بعصبية :

–ياخوي ما انت سمعت الجبهة ايش قالت لك .

– مجرد مزايدات مرفوظة .

عوني تحمس شاخراً بقوة :

–اخخخخخخ ، طول بالك يا خو ، مش هيك .

-لا هيك . المسألة بحاجة إلى موقف جذري فعلا .
-شعبان ، أبو الأشعاب ، إسمع مني ودخنلك سيجارة .
-حل عن ربي يا عوني ، وبلاش مسخره .
-أخخخ ، بمزح معك يا رفيق .
-هاذا مش مزح ، هذا كلام متخاذلين يا رفيق .
عوني استخدم طريقة شعبان لإغاظته وقد غمز لي بطرف عينيه :
-أُخ ، فعلاً إنك نزق ونفسك نفس برجوازي صغير .
نظر إليه شعبان بغضب :
أصلاً واحد زيك انتهازي متسلق لازم يسد بوزه ويسكت .
أخ أخ أخ .أخأخ عوني بتقطع ، هذه المرة وقال :
- متسلق شو يخو ، ماكونش تشعبطت على حيطت بيتكم .

التفت نحوه . أشرت إليه بيدي ليطنِّش . فهم ، طنش . تجاهل غضب شعبان . شعبان عندما يغضب يسارع إلى حشد مقولات أيديولوجية للرد على خصومه ، مهما بدا الخلاف عادياً وسطحياً . يغضب بطفولة . غضبه يتحول نزقاً ، ثم اتهامات بممارسة عادات برجوازية صغيرة . مزحة واحدة تكفي لتطوير انفعالاته . مزحة كالتي رماها عوني في وجهه تكفي ، فكيف والأمر جدي يتعلق بمستقبله ، وليس بمزاح عابر !

نحن أيضاً منفعلون مثله . كلنا تخيل ، حتى لحظات قليلة ، أننا سنكون طليعة مثقفة . تخيلاتنا مزقتها عبارات ياسر القاسية . صادرت منها دورنا المرسوم في الكتب ، التي صاغ كلماتها لينين . أسكت صوته فينا . صوته الذي دوى في عقولنا مع وقع عباراته سكت . صوته الذي وضع للغتنا موسيقاها الثورية الراهنة ، سكت . لينين هو الذي أكد لنا دورنا . هو الذي دعانا صراحة ، كمثقفين ، إلى نقل الوعي الطبقي إلى صفوف البروليتاريا . البروليتاريا تريد من يطور وعيها الجنيني بمصالحها . وعيها يأتيها من خارجها ، من عندنا . ألم يكتب لينين ذلك بوضوح في «مرض الطفولة اليسارية» . من منا اليساري الطفولي ؟ من

منا المصاب بالمرض إذن ؟ في النص جلسنا مرتاحين . منه تطلعنا طويلاً ، ثم عميقاً نحو البروليتاريا ، ودورنا ودورها وعلاقتها بالفلاحين ، وديكتاتوريتها . آمنا بها إلى حد النطق باسمها في حلقات النقاش . بحثنا عنها في كل مكان ولم نجدها . ما وجدناه ليس ما وصفته الكتب ، أوتجسد في بلاد أخرى ، في آلاف المعامل والمصانع الكبيرة . نحن لا بروليتاريا عندنا ولا ما يحزنون . لكننا نريدها ، نريد البروليتاريا من أجل برامجنا وصحة معتقداتنا . أدبيات الجبهة حلت المشكلة . قالت ، ورددنا وراءها بحرفية العبارات ودقة التعابير ، أننا نعتمد في كفاحنا على العمال وصغار الفلاحين واللاجئين المعدمين . هؤلاء هم بروليتاريونا إذن . ساحتنا التي نلقي فيها بما حفظنا من أفكار .

جاء الحاج سامي ، يسبقه إلينا تعاطفه . هكذا هو ، دائماً يسبقه تعاطفه . تحس به مثل نسمة حنان تهب على المكان . و ما أن يظهر أمامك ، وتنظر إليه حتى تحتويك طيبته وتشعرك بالأمان . كأنه يحمل قريته أبو غوش فيه . كأنه طفل يوزع براءته في طرقاتها . يتحدث بهدوء . يبتسم بتوازن . ابتسامته لا ترقى الى مستوى الضحك وتعكس فرحاً فائضاً لا لزوم له . ولا تنكمش الى ما دون التعبير عن نفسها ، فتبدو حزينة وتفقد قيمتها :

– ع العافية رفاق . اسمعت شو قالكو ياسر . شو رأيكم إطّولو بالكم شويي . هسة الوظع في البلد بالفعل متوتر زي ما قال الرفيق . وانتو قادرين تتفهمو الظروف .

رد نعيم :

–يا رفيق ، إحنا كل اللي طلبناه ، إنه يطلع واحد منا ع الشام ، يشوف امكانية الدراسة ويرجع ، لكن ياسر رافض حتى يسمعنا .

قال الحاج سامي :

– طب يا رفاق ، أنا بتكفل بالموضوع ، بس أصبرو علينا هاليومين .

واستدار واختفى بين صفيح المكتب .

شعبان نهض . أخذ يدور في المكان مثل جنرال يفكر في مخرج من طوق

عسكري محكم . انفعالاته ظاهرة . كلمات الحاج سامي لم تغسلها . درس شعبان الطب في جامعة الاسكندرية حتى بلغ سنته قبل الأخيرة . ترحيله من الإسكندرية قصم ظهر أبيه الذي تطلع دوماً إلى يوم يحتفل فيه بتخرج ابنه شعبان طبيباً ، ينقذ العائلة ويرفع رأسها عالياً «الدكتور شعبان أبني . آه ، آه ، أي نعم ، أنا أبوه للدكتور . شعبان ، آه شعبان إبني . نعم ، قصدك الدكتور ! طبعا ، طبعاً . هالحين بدري شوي ع العيادة . وع الجواز كمان . انشالله . كله بأمره ، وبمشيئته» .

شعبان نظر إلينا ، قلب نظرات غاضبة . أطلق كلاماً قاسياً . لعن القيادة ومن يقودون . قل إنه أصيب بخيبة إذ وجد القيادة مجموعة من البرجوازيين الصغار ، الذين لا يتمتعون بأي حس بروليتاري ، ولا يحترمون الفئات الاجتماعية التي يدافعون عنها ، ولا يقدرون هموم الناس وطموحاتهم ، وسكت . ولما لم يتلق تثنية ، أو جواباً ، أو تعقيباً على خطابه الأيديولوجي ، أخذ يطرحه من مداخل أخرى وكأنه يخاطب نفسه ، ويستمع إليها :

– يا أخي إيش رح إصير للثورة إذا كان بين صفوفها دكاترة ومهندسين ونجارين وبلاطين ومعلمين ! أنا إذا تخرجت طبيب بخدم الجبهة أفظل ألف مرة . الرفيق ياسر بدو مجموعات مسلحين ، نسي إنو كان طالب ، والحياة ما بتمشيش بالبنادق لحالها .

ضعنا بين تنظيرات شعبان التي تدغدغ أحلامنا الضائعة في استعادة دراستنا ، والتخلص من ورطة العمل المسلح الذي نحن أبعد الناس عنه ، وبين تنظيرات الجبهة وشعاراتها التي أخذت تغذي التناقض بين السلطة الأردنية والمقاومة ، وتزيد الشارع توتراً ، والنظام الأردني غضباً . أصدرت الجبهة جريدة «الشرارة» تيمناً ب «ايسكرا» لينين ، وترأس تحريرها وأشرف عليها ياسر عبد ربه الذي خصص لنفسه ، أيضاً زاوية خفيفة ساخرة غرضها السخرية من السلطة ، وإشاعة روح التحدي لها ، والحط من هيبتها التي كانت تحتضر خصوصاً في أوساط المخيمات الفلسطينية .

هكذا سارت مجريات الأمور في واد وطموحاتنا في واد آخر . وصار علينا أن نختار . أن نواصل التجربة ونبحث عن دورلنا داخل صفوف الجبهة ، في عمان . دور لا نعرفه ، ولا نجد من يعرفنا عليه . أو نبقى صامتين ، تاركين الظروف تعيد تشكيلنا على هواها . والهوا الذي بدأ يهب على عمان لا يوحي بغير الحرب . والحرب سوف تلبسنا بنادق وتعلق حول خاصراتنا جعب رصاص . أن نمتثل لما ستأتي به الأيام ، ويكون ذلك خيار من لا خيار لديه . أو نشد الرحال ، كل على مسؤوليته . نغادر إلى دمشق ، ويبحث كل منا عن جامعة تقبله ويكمل فيها دراسته . وهذا خيار آخر ، ترسمه الرياح ويشبه سراباً في مرايا .

طلاب أو مقاتلون ! مقاتلون أم طلاب ، دوختنا المعادلة . لم يقو أي منا على حسم موقفه سريعاً ، باستثناء شعبان . شعبان حدد خياره . الوحيد الذي استطاع ، في تلك اللحظة ، تحديد ما سيفعل . امتلك ناصية الفعل وفعل . قرر أن يغادر المكتب ولا يعود إليه . أن يذهب ، في الحال ، إلى أقارب له في مخيم الوحدات لبضعة أيام ، يسافر بعدها إلى دمشق ، ومن هناك يتابع ، عبر الرسائل مع والده في القاهرة ، إمكانية التوسط لدى سلطات الأمن المصرية لكي تسمح له بدخول البلاد ، والعودة إلى جامعته . وسوف يستفيد والده ، بالتأكيد ، من علاقاته داخل إدارة الحاكم العسكري لقطاع غزة ، حيث يعمل ، لكي ينجح في مهمته . هكذا قال شعبان ، الذي بدا سعيداً بخياره ، وبدا أنه استعد له منذ البداية إذ قال موضحاً ومبرراً :

– أنا ثلاث ترباع طبيب ، ولا يمكن أتخلى عن الربع الباقي عشان جملة حكيتها ، أو حماس مؤقت . ماركس نفسه لو طلع من قبره ما بيقنعني أتخلى عن دراستي وأظل هون .

أنهى كلامه ونهض . وقرر مغادرة المكان . قبل أن يمضي ، التفت إليّ ، وعرض أن يأخذ معه حقيبة ملابسي لتكون في مأمن في بيت أقاربه بدلاً من بقائها ملقاة في مكتب الحسين ، فوافقت .

أحضرت الحقيبة من داخل المكتب وسلمتها لشعبان ، وأخبرته أن يحرص

عليها ، وأن يحضرها معه قبيل رحيله عن عمان . لم يكن في الواقع ما هو مهم في الحقيبة باستثناء البومات صور احتفظت بها في كل تنقلاتي . لم أهتم أبداً لحلتي الخضراء المخططة الجميلة ذات الجاكيتة القصيرة ، التي أطلق عليها « cut» ، والتي شهدت مرحلة خنفستي أنا وتيسير عامي ١٩٦٥ و١٩٦٦ ، ولا لملابسي الأخرى ، خفت فقط على صوري ، وبعضها يحكي مراحل في حياتي ، أو يدل عليها . استوقفته . فتحت الحقيبة ، وأخذت أقلب ما فيها من صور بين يدي ، أتأملها كأنني أودعها . رأيت نفسي طفلاً في العاشرة من عمره ، يجلس على ركبتيه بين زملائه في الصف الرابع الإبتدائي . كانوا اثنين وخمسين تلميذاً ، طلب مربي الفصل ، الأستاذ عبده الأزعر ، من كل منهم ، إحضار قرش مصري معه غداً لكي يلتقط للفصل صورة تذكارية وسررنا جميعاً لذلك .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى لمدرسة دون أن أحضر معي القرش المطلوب . أمي اعتذرت . كادت تبكي ، إنها لا تملك قرشاً . قالت : «إيش بدنا يمّه في التصويرة ، هذي ورقة وبتطيع» .

وخرج غالبية طلاب الفصل يتبعون مدرسنا إلى الساحة ، وبقيت أنا وحدي . الأستاذ عبده لم يجدني بين الحاضرين . وفوجئت به يدخل غرفة الصف . ولما وجدني جالساً على مقعدي صاح مستغربا :

– ليش ما بدك تتصور يا رِبعي !

– ما معيش قرش يا أستاذ .

أجبته بخجل طفولي .

– قوم يللا ، لو واحد غيرك لسبته ، بس انت لأ ، أنا رح أدفعلك القرش يللا قوم .

نهضت والتحقت بزملائي الآخرين . وحصلت مثلهم على نسخة من الصورة بعد أيام .

أحبني الأستاذ عبده كثيراً لانتباهي في الفصل ، ولتفوقي في اللغة الإنكليزية التي أشرف هو على تدريسها ، لكنه أعجب أكثر بجمال خطي . وذات يوم ،

أجريت في المدرسة مسابقة لأجمل خط بالإنجليزية . اختار عبده ، من فصلنا ، خمس كراسات لخمسة طلاب يعتقد أن خطهم هو الأجمل ، وكانت كراستي للخط الإنجليزي واحدة منها . كذلك فعل المدرسون الآخرون مع فصولهم . وجرت عملية الاختيار . وفزت في المسابقة التي كانت معنوية فقط . وأعلن إسمي كصاحب أجمل خط بين جميع طلاب المدرسة . عبده صار فخوراً بي . عبده دفع القرش لي . القرش صار صورة وسطها يقف الأستاذ عبده . وسط أخرى يقف سمير المدهون . كبرنا معاً . صرنا في الرابعة عشرة . في واحدة من زياراته لخان يونس قادماً من مخيم جباليا ، التقط لنا مصور صورة في حديقة المدينة . أما أميل ، المصور الأرمني الأصل ، فقد التقط لي ولتيسير معاً واحدة من أجمل الصور التي جمعتنا . وهذه فيفي تتوسطني أنا وأسماعيل . اقتسمناها في اللذة يوماً ، وفي رحلة شم النسيم ذلك اليوم من عام ٦٥ ، الذي قضيناه ثلاثتنا في القناطر الخيرية .

تنفست ذكرى خائفة وأنا أعيد الصور إلى مكانها ، ثم أغلقت الحقيبة ، ووضعتها أمام شعبان .

حمل شعبان الحقيبة ومضى . أخذ معه تاريخي المضور واختفى بعيداً خلف بيوت جبل الحسين . نهض مصطفى وتبعه عوني بدوره ولحقا بشعبان . قالا أنهما سيذهبان إلى جبل الجوفة . ولم أعتبر ذلك قراراً يتعلق بمصيرهما ، وخصوصاً مصير عوني ، بل خطوة لتغيير الاتجاه من دون تحديد . فأنا أشك حقيقة في قدرة عوني على اتخاذ قرار ، وبالذات في مثل هذه الظروف ، فهو من النوع الذي يتخيل ما يريد أن يفعل ، لكنه لا يفعل ما يتخيله .

اختفى الإثنان ، وبقيت أنا ونعيم وحدنا . ظهورنا لصق الجدار الصفيحي . عيوننا مفتوحة على الفراغ ، ترى ما فيه ولا تستوعبه . تتسلق نظراتنا الطريق إلى أعالي مخيم النزهة المواجه لنا . نتابع ، صامتين ، الصاعدين والهابطين من الوادي إلى الجبل عبر الدرج الإسمنتي . أُدخل نفسي في نفسي . أقلب الملفات في ذاكرتي . الحاضر بماضيه الذي أسس له ، والماضي بحاضره الذي يستند إليه .

هذا شعبان ، حدد خياره ومضى . ومصطفى قرر أن يفعل شيئاً ومضى . حتى عوني صاحب اللاخيار ، شخر ومضى ، كأنه صنع بذلك خياراً . وراسم أخي ، سبق الجميع إلى الجوفة ، لم يكن طالباً جامعياً ، ولم تكن العودة إلى مصر تعنيه كثيراً . أما نعيم وأنا فما زلنا عاجزين عن تحديد أي خيار . ولا يوجد من يساعدنا على اتخاذ القرار ، لا أقارب لأي واحد منا ، لا في الأردن ولا في سوريا . نترك صفوف الجبهة ! إلى أين ؟ نتخلى عن الانتماء إلى صفوفها ، في لحظة نزق طلابي ، نضيع .

تركنا كلانا الظروف تحدد وجهتنا . لقد اخترنا إذن . . وهكذا وجدنا نفسينا متسكعين حول المكتب ، بلا عمل ، أو مهمة محددة . لم نعد طلاباً ، ولم نصبح مقاتلين . أحسست بأننا مقدمان على تدهور حقيقي في أوضاعنا عموماً . تذكرت كلمات قالها لي محمد سعادة ، الرفيق الذي كلفه فرع الجبهة في الإسكندرية مفاتحتي بمسألة الانضمام إلى عضويتها . قال لي إن انتماءنا للجبهة يؤكد تدهورنا الطبقي من صفوف البرجوازية الصغيرة إلى صفوف البروليتاريا ، لحظتها مازحته قائلاً : «هذا معناه أن انتماءنا يؤكد أننا أكلنا خرا» .

التفتُّ إلى نعيم الذي كان ما يزال غارقاً في تأملات غير مجدية على الأغلب . ابتسمت وقلت :

– بتعرف يا نعيم . .

التفت نحوي ، فأضفت :

– فعلاً أكلنا خرا .

قال معقباً :

– بدينا ورجلينا يا خوي .

وعدنا إلى صمتنا من جديد .

***

عادت إليَّ اسكندريتي . من وسط الصمت ، من عبارات محمد سعادة التي

أخذت أقلبها ، وأتذكر كيف قلبتني وقلبت حياتي ، وكتبت لي تاريخاً جديداً ، بدأ بالإنتماء إلى الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . وكيف أوصلتني إلى مقر المخابرات المصرية في الإسكندرية ، لكي يفتح لي العقيد محمود مرزوق مدير الفرع ، المتابع ، والملاحق ، النشط لتحركات الطلاب العرب في المدينة ، ملفاً رسمياً ، تضمن فقرة واحدة :

الاسم : ربعي خليل المدهون

المهنة : طالب /السنة الرابعة / كلية الآداب / قسم التاريخ / جامعة الاسكندرية .

الانتماء السياسي : عضو في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين .

تاريخ الانتماء : يوليو ١٩٧٠ .

النشاط : المشاركة في اعتصام طلابي .

الح لي سالم الساعدي ، مسؤول فرع الجبهة الديمقراطية في الإسكندرية ، بموضوع الانضمام إلى العضوية ، قبل الاعتصام بأسابيع فقط . قال لي أنني لا أحتاج إلى توعية ، أو تثقيف بأدبيات الجبهة . شهور صداقتي للرفاق ، ومطالعاتي الذاتية ، تكفي لأن أصبح واحداً منهم . وقال ، أيضاً ، أنه عرف أشياء كثيرة عني من شقيقي راسم . هكذا قال . هو مسؤول فرع ، ويقدر أكثر من غيره . وقد أبلغني بأنني سأكون عضواً كامل العضوية في فرع الجبهة ، إذا قررت ذلك .

سعدت بكلامه إلى حد إظهار الفرح في حضوره . سأنال شهادة رجولتي الفكرية إذن ، بعد مراهقة قصيرة العمر ، مع وجودية سارتر ، والعدم ، وغريب كامو . والعبث ، واللامعقول ، وانتظار غودو ، وقراءاتي المتفرقة والمتنوعة ، وبينها اطلاعاتي العابرة ، وغير المبرمجة على الفلسفة المادية ، بشقيها التاريخي والديالكتيكي ، ومصادرها الأربعة .

سالم كلف محمد سعادة ، بمفاتحتي في موضوع الالتحاق بتنظيم الجبهة . وكنا نناديه بالدكتور . فقد حصل على اللقب قبل بلوغ التخرج ، على الطريقة المصرية التي تمنح لقب باشمهندس لكل طالب التحق بكلية الهندسة ، في اليوم التالي

لالتحاقه ، وتضيف إلى لقبه دون أن يطلب ذلك ، صفة «قد الدنيا» . الدكتور محمد لم يتأخر ، دعاني في اليوم التالي للقائي بسالم ، إلى شقته ، الواقعة في ستانلي . هناك جلسنا على السطح نشرب شاياً قدمه لي . كان ذلك في تموز / يوليو . وكانت حرارة الجو قد مالت نحو الاعتدال الذي يمهد لليل اسكندراني لطيف مع اقتراب الوقت من حافة المساء . أطال محمد التردد قبل الدخول في الموضوع ، الذي لم يعد بحاجة إلى دخول في مقدمات . راقبته بصمت يسرح بعيداً ، يمسح بعينيه العمارات الموزعة في المنطقة أمامنا ، يتمشى بنظره فوق أسطحتها المتباينة المساحة والإرتفاع . وفجأة استدار وعلى وجهه مسحة انتصار :

- انت ، منذ الآن يا رفيق ، واحد من جيش البروليتاريا العالمي الكبير .

قال دفعة واحدة .

ما شاءالله ، فكرت . ما شاء الله ، أنا الآن بروليتاري ، وعضو في جيش كبير . أنا الذي لم يزل طالباً برجوازياً صغيراً ، بحسب التصنيفات الطبقية ، أصبحت بروليتاريا من أول عبارة حزبية تصل بيني وبين محمد ، لتكون جسر تفاهم .

عقبت :

- يا سلام يا رفيق محمد ، بس إحنا طلاب ، برجوازيين صغار يا رفيق .

محمد تململ . تهيأ لمواجهتي . اعتقدت أنني ارتكبت خطأً ، أو قلت معلومة مغلوطة . وأنه أمسك بي من نقطة ضعفي في فهم الصراع والتصنيف الطبقي . أدار جسده القصير الممتلئ كله فوق الكرسي في مواجهتي وقال :

- برجوازيون صغار ! نعم . هذا قبل الإنتماء يا رفيق . أما الآن ، فقد تدهورنا فعلاً .

-ايش !

-نعم . تدهورنا إلى صفوف البروليتاريا .

-يعني أكلنا خرا ؟

ضحك بفتور . شعرت بإحراج مؤقت . سارع يضيف :

- نعم يا رفيق ، تبنينا للأيديولوجيا الماركسية فكراً وممارسة ، وحملنا أفكاراً ثورية ، معناه بوضوح الانسلاخ عن طبقتنا ، معناه ارتماؤنا في أحضان البروليتاريا وعموم الكادحين .

ثم نظر في عيني متحدياً :

- لينين كان برجوازياً صغيراً يا رفيق ، صدقني ! بالفعل كان برجوازياً صغيراً ، من حيث الإنتماء الطبقي ، لكنه انسلخ تماماً ، منذ أصبح ثورياً وقاد أعظم ثورة بروليتارية في العصر الراهن !

واصل محمد إلقاء محاضرته من دون توقف . وجدته شغوفاً بالتنظير الثقيل ، على خلاف سالم . كان سالم يضفي على تنظيراته مسحة رومانسية . هكذا هو حين تستمع إليه مناقشاً في قاعات اتحاد الطلاب ، مجادلاً الفتحاويين اليمينيين . مفاخرًا بإطلاق الجبهة ، في الأردن ، الدعوة إلى إقامة لجان شعبية في المخيمات . وسعيها الدؤوب لإقامة سوفيتات العمال والفلاحين . متصدياً ، بهدوء شديد ، وبثقة عالية لأعضاء الجبهة الشعبية ، الذين يرفعون الماركسية فوق سارية القوميين العرب . والذين لا يزالون أمناء مخلصين لأفكار ساطع الحصري . يمثلون يساراً قومياً في أحسن حالاتهم .

عرفت سالم شاباً أسمر قمحياً ، وسيماً ، بسيطاً وطيباً . لا حاجة به إلى انسلاخ طبقي . الأيام وفقر ذويه تكفلت بذلك . سلخته عن كل شيء . كان ينحدر من عائلة فقيرة إلى حد العدم . مسلوخة من كل ما يتمتع به عباد الله . سالم ولد ، بطبيعة الحال ، مسلوخاً ، متدهوراً جاهزاً . مرمياً في حضن والدته ، المرتمية في أحضان اللاجئين الفلسطينيين ، المرتمين في مخيم الطوبجي ، في بغداد . لن يحتاج إلى التنكر لأصوله الطبقية ، أو إخفائها . أصوله كانت مطلوبة للثورة ، إنها مصدر فخره واعتزازه . لقد جاء إلى ثورة الفلسطينيين من أوساطهم . خرج من بين صفوفهم في الطوبجي . انتمى إلى الماركسية لأنه وجد فيها حلاً لأمثاله ، في حين رفعته أفكار الجبهة إلى مستوى البروليتاريا . سالم لاجىء في وطنه ولاجىء مع الفلسطينيين .

أما محمد سعادة ، الرفيق الدكتور ، فطراز فريد من المنظرين ، خليط لينيني ماوي ستاليني ، هكذا يقولون . لطالما أثار أعصاب الآخرين بفرض هذه الخلفية تحت مناقشاته . كان لا ينتهي من جلسة حوار إلا وقد حول المشاركين فيها من زملائنا في اتحاد الطلاب إلى أعداء فكريين وطبقيين . لذلك توقعت ، سلفا ، أن يحول أجواء الجلسة الجميلة ، فوق السطح ، في ذلك المساء الهادىء ، إلى حرب ألفاظ كلامية . قررت أن الجأ إلى المزاح والسخرية لتخفيف الموقف ، إذا ما زلزلت عباراته الفصيحة تهز الكراسي تحت مؤخرتينا ، وتتجاوز السطح الذي نجلس عليه . وجدت ذلك ضرورياً بالفعل ، فقد اختتم محمد محاضرته بعبارات لها وقع لا ينسى :

-اسمع يا رفيق . . تقع على عاتقنا ، منذ الآن ، مهمة تحرير بروليتاريا العالم وفلاحيه وعموم الكادحين ، من نهب الرأسمالية واستغلالها الجشع لعرق الكادحين واضطهادها للشعوب ، لنقيم دكتاتورية البروليتاريا .

لطشته مزحة من نوع ثقيل بوزن عباراته وتليق بها :

-الله لا يعطيك العافية يا رفيق . كل هذه المهمات على ظهري . والله لو كان واحد ثاني غيري لرماك ورمى حاله من السطح عشان يتخلص من المهمة ويرتاح .

ضحك بكبرياء أيديولوجي ، لكنني تابعت :

- اسمع لقول لك ، بس يكون فيه اجتماع إبعت لي باجي على طول . وهلقيت ، خلينا من هالحكي ، وروح صب النا شاي جديد . محسوبك خرمان ، بدي أدخنلي سيجارة مع كباية شاي .

وشعرت في تلك اللحظة أنني أنتزع محمد من داخل كتاب للينين . أشده من بين كلماته وقد تمسك بالحروف . أطلق ضحكة منهكة ، خارجة من بين آخرعباراته الثقيلة .

سألني نعيم فجأة :

-وين اوصلت في سرحانك ؟

- اتذكرت أول لقاء تنظيمي لي ومفارقاته .

- إسمع . . بتعرف ! رغم كل شي حصل ،ما تنسى إنو عقلنا تغير ، ثقافتنا

اتطورت ، معرفتنا .

وأخذت أروي له ما حدث بعد ذلك اللقاء مع محمد ، ولم أحاول التأكد ما إذا كان منصتاً لي أم ذهب هو الآخر إلى رحلة في البعيد . اعترفت له كيف أنني عدت إلى البيت ، بعد مغيب شمس ذلك اليوم ، مرتاحاً وقدأسعدني انتمائي الجديد . لم تكن الأفكار جديدة علي . انتمائي إلى الماركسية ليس جديداً ، أيضاً ، وإن لم أقولبه فلسطينياً . رؤيتي النظرية للبرجوازية الصغيرة بلورتها قراءاتي لبعض أعمال لينين ، التي توفرت لدي ، منذ نقل راسم مكتبة فرع الجبهة إلى شقتنا قبل شهور . راسم كان قد سبقني إلى الانتماء الحزبي بسنوات . بدأ عضواً في حركة القوميين العرب ، ثم عضواً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش ، ولحق بصفوف المنشقين عن الشعبية في فبراير/ شباط من العام الماضي ١٩٦٩ .

عمقت مؤلفات لينين وخطاباته المدونة ، حقدي على البرجوازية بشرائحها المختلفة . فالانتماء إليها لعنة كررها لينين شتماً وبهدلة ، بين السطور وخلفها وتحتها ، وفي كل المؤلفات ، ولم يرحمها حتى في بعض العناوين . حتى صرت أخجل من أن أضبط متلبساً برجوازيتي الصغيرة . صرت أخشى أن أكون إبناً لها ، يحمل ملامحها ويرث تقاليدها . لقد بت ، فعلاً ، بحاجة إلى من يؤكد لي انني غادرت صفوفها ، وأنني أنتمي إلى صفوف الكادحين والفقراء . كل ما في حياتي كان فقيراً بطريقة أو بأخرى . ومنذ تلك اللحظة التي حملتها في قلبي ، أخذت أستعد لدفع ثمن هذا الانتماء . أنتظر عقوبتي التي جاءت بأسرع مما توقعت . فقد قادتني تلك الجلسة مع محمد سعادة ، من سطوح عمارة في ستانلي إلى اجتماع حزبي وحيد ، عقد في الشقة الرقم ٣١ ، في الطابق الرابع في بناية في شارع كليوباترة ، في حي سيدي جابرالمحطة . اجتماع لم يتكرر ، وقادني إلى مبنى الأمن العام في محرم بك ، بعد أقل من أسبوعين . وتحقيق سريع لم يستغرق خمس دقائق ، قذف بي بعيداً إلى دمشق ، التي سلمتني إلى عمان ، إلى معسكر سوف ، إلى مدينة جرش ، إلى عمان ثانية فجبل الحسين ومكتب الجبهة

الديمقراطية ، والملك حسين ، ونايف حواتمة ، وأبو شهاب ، والجيش الاردني ، وممدوح نوفل ، والحاج سامي ، وأبو طارق ، وياسر عبد ربه ، والمقاتلين الفلسطينيين ، والتوتر القائم ، واحتمالات الانفجار ، ونعيم ، الباقي إلى جانبي من شلة الرفاق المبعدين ، والذي اكتشفت أنه غفا طيلة الوقت رغم الفوضى المحيطة بنا ، وأصوات المقاتلين يعبرون من كل الاتجاهات .

أيقظته . فتح عينيه .

-تروح نتغدا .

سألته .

- بنروح عند أبو يوسف قريب من هان ، بيعمل صودة جاج مقلية بالبيض ، إيش رأيك ؟

- يللا . .

نهضنا ، مشينا غرباً . مررنا برفيق ينظف رشاش الهاوزر المنصوب على مقربة من الزاوية الشمالية للمكتب ، وبسيارة أبي نظمي . ضحك نعيم حين مررنا بها . استفسرته فاستفسرني :

- مش عارف ليش بظحك ؟

- لأ .

-امبارح أجا يطلع في سيارته الفوكس ما لقيهاش .

- أكيد سرقتها الجبهة الشعبية !

- يا ريت .

- ها مين ؟

مر بالصدفة ع مكتب للجبهة في المخيم لقي الشباب بدهنوها وبيغيروا لونها . صرخ عليهم : ولكو كيف بتسرقوها من قدام بيتي ؟ رد أحدهم قائلاً : وايش عرفنا إنها سيارتك يا رفيق . قالو لنا روحو جيبو سيارة وما ترجعوش إلا ومعاكم فولكس ، إلقيناها ، سقناها وجبناها .

ضحكت ونحن نتابع سيرنا مبتعدين .

الساعة ٤٥ :٥
١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠

أفقت على أصوات المدافع والانفجارات . فتحت عيني على عمان تقصف عمان . نهضت مذعورا ، ولم يكن نعيم الذي أخرجته الأصوات من بين البطانيتين اللتين نام بينهما ، أقل ذعراً مني ، رغم أننا ، مثل الجميع تقريباً ، توقعنا الانفجار في أية لحظة ، منذ أن أعلن الملك حسين عن تشكيل حكومة عسكرية برئاسة زيد بن شاكر . هكذا أخذت عمان الملكية تلقي بحممها على عمان الثورة ، وهذه لم تكن سوى مخيمات اللاجئين وبعض المناطق التي يتمركز فيها الفدائيون ، أو لهم مكاتب فيها .

افتتحت المدفعية الرابضة في منطقة القصور الملكية والقلعة الحرب . وشاركتها مدافع الجيش الأردني المحيطة بالمدينة ، ومدافع دباباته من طراز باتون الأميركية الثقيلة . فيما الدبابات الصغيرة ، التي أُطلق عليها «سكاوت» ترمح في الطرقات ، توزع رصاص رشاشاتها الخارقة الحارقة المتفجرة ضد الأفراد أينما ظهروا .

خرج جميع من في مكتب الحسين يتراكضون حاملين أسلحتهم الرشاشة وجعب الرصاص وانتشروا في طرقات المنطقة وزواريب المخيم . وبعضهم لجأ إلى الخنادق القريبة التي حفرت قبل أيام فقط حول المكتب ، على مسافات . فجأة ظهر بباب المكتب الرفيق الحاج سامي . صرخ بنا ما أن رآنا أن ندخل ونلتقط سلاحين لنا مثل بقية الرفاق . وخرج في تلك اللحظة مقاتلان يحمل أحدهما

قاذف آر-بي-جي-٧ ، الشهير ب«بي- سڤن» والمضاد للدبابات ، وكان الآخر يحمل جعبة بانت منها نهايات القذائف الخاكية اللون .

في الركن المخصص لوضع البنادق لم نعثر نعيم وأنا ، إلا على بندقيتين من طراز سيمونوف نصف الآلية . اختفت بنادق الكلاشنيكوف تماماً . تلقفها المقاتلون المحترفون ، وكذلك أعضاء الميليشيا التابعة للجبهة في المخيم . تناولنا البندقيتين وجعبتي رصاص في كل منهما عدد من أمشاط الرصاص ، وأسرعنا خارجين . في تلك اللحظة سقطت قذيفة في مكان غير بعيد جعلتنا نلقي بأنفسنا ، دون وعي منا في خندق قريب ، تعرفت فيه على رفاق آخرين سبقونا ، كان بينهم أبو محمود الدولة ، الذي سيكون وأخوته الثلاثة عسكريين في صفوف الجبهة لسنوات طويلة ، ويتوفى خامسهم ، أنيس ، بعدها بأكثر من ثمانية عشر عاماً ، داخل أحد السجون الإسرائيلية .

القصف تواصل دون انقطاع . الانفجارات تتالت . والدخان بدأ يصعد إلى سماء عمان . صار باستطاعة من يرفع رأسه منا ، التأكد من أن عمان بأكملها أصبحت تحت رحمة انفجار قد لا ينتهي في وقت قصير .

غادرنا الخندق بعد وقت لم أستطع تقديره ، لكنه يكفي للتأكيد بأن عدداً كبيراً من القتلى قد سقط خلاله . فقد بدأت أصوات سيارات الإسعاف تتقاطع قوية وضعيفة ، متلاحقة وبطيئة ، مما يشير إلى أنها أخذت تنقل قتلى وجرحى في عشرات الأماكن في جبال عمان السبعة . اقترح أبو محمود أن نترك الخندق . قال أن موقعه خطير نتيجة قربه من المكتب الذي سيكون مستهدفاً ، ولن يطول الوقت حتى يقصفونه . وظهر الحاج سامي ثانية . توقف عند حافة الملجأ لاهثاً . وفوجئت به يكرر تحذير أبي محمود حرفياً . في تلك اللحظة قفزنا جميعاً وتفرقنا في الحارة ، لكني تفرقت ونعيم معاً . وأخذنا نركض محنيي الظهر نزولاً عبرالطريق المؤدي إلى الوادي ، الذي يفصل بين مخيمي النزهة والحسين ، إلى أن وصلنا فرن أبي محمود ، ولم ندر أين ذهب الآخرون . ألقينا بجسدينا على الأرض ، تحت الحائط قرب باب الفرن الذي بدا مغلقاً . وفي تلك اللحظة وقع انفجار قريب .

كان ذلك انفجار قذيفة وقعت أمام المكتب مباشرة .

بعد الظهيرة ، بدأنا نستشعر حجم المأساة في جثث القتلى ، التي صرنا نسمع عن تزايد أعدادها ، ونرى بعضها محمولاً على نقالة أو قطعة خشب لكي تلقى في الساحة الخلفية للمدرسة الابتدائية في الجهة الأخرى من المخيم .

مر أبو علي «نص غولد» ومعه مقاتلان ، يحمل أحدهما آر-بي-جي . تعرفت عليه قبل أن أراه . لأن كل من مر بنا ، منذ جلسنا هنا ، ذكر اسمه ، وتحدث عن شجاعته ، ونعيم أكد ذلك أيضاً . عبر أبو علي نص غولد ، ورفيقه ، الممر فوق العبارة الصغيرة ، أمام باب الفرن ، مسرعين . وقال رداً على نعيم الذي سأله ، إنهما متوجهان الى منطقة الحَمارْ لاصطياد الدبابات ، التي تحاول التقدم باتجاه المخيمات . المجموعات المسلحة المزودة بمضادات الدروع الآر-بي-جي ، كانت الوحيدة القادرة على العمل بفعالية . فالقاذف ، السوفياتي الصنع ، قادرعلى اختراق الدبابات القوية ، بما فيها دبابات باتون الاميركية الأحدث ، التي يزلزل هديرها مخيماً بأكمله ، ويوزع صوتها الرعب والخوف على جميع سكانه ، والمتواجدين فيه . وحده الآر-بي - جي ، الذي لا يزيد على ماسورة فارغة بزناد ، ولا يزيد طول قذيفته على ستين سنتيمترا ، يتحدى الباتون . يذيب جسدها المصفح بحرارته التي يطلقها وتقارب الثمانية آلاف درجة مئوية . لكنه يحتاج إلى شجاعة عالية حتى حافة المغامرة ، إذ يتطلب حركة سريعة ، وحذراً شديداً ، وإطلاق قذيفته من مسافة قصيرة ، ومن موقع أقرب الى المواجهة . فالباتون سريعة الحركة ، على الرغم من ضخامتها وتصفيحها السميك . ويزيد من خطورتها الرشاش ٥٠٠ ملم المثبت على برجها . يدور ، في حركة سريعة مع دوران البرج ، في جميع الاتجاهات . هو العدو الأول لرماة الآر-بي-جيه ، الذين يضطرون للعمل من مكان شبه مكشوف ، في مواجهة الدبابة العملاقة .

دافع الشباب بقوة عن المخيم ، وحالوا دون تقدم قوات الجيش الأردني من محاورها خلف النزهة في المنطقة الجرداء الطينية . كما خاضت قوات جيش التحرير الفلسطيني معارك ضارية عند دوار مكسيم لمنع الجيش الأردني من

اختـراق المحور الذي يفتح الطريق إلى المخيم . كـانت أصوات قـذائف المدفعيـة والرشاشات والبنادق والانفجارات تختلط بعشوائية مع صوت الثورة الفلسطينية يردد :

أنـا حـــــــــالـف يمـين الـلـه
عـن أهـدافـي مـــــــا بـرجـع
فــــدائي مــــا بكلمــــهم
بـغــــيـــــر الـنـار والمدفـع
يـا إمّـــــــا أرفـع الـرايـة
يا إمــــا في الوطن أصـــرع
بـرشـــــاشي أنـا مـــــاشي
في عـــرس النصـــر والتـــحـــرير

همشتنا المعارك ، أنا ونعيم ، منذ البداية . ومسختنا الأغاني وبهدلتنا . سلاحنا حدد ماهية مهماتنا . بندقية سيمينوف التي يحملها كل منا ، لا تصلح لحرب كالتي تدور ، منذ الصباح ، في جميع مناطق عمان وحول مخيماتها . ولكن هل كنا سنواجه دبابة لو حمل أي منا بي-٧ ؟ هل كنا سنلحق بالشباب وننضم إلى مجموعات الفدائيين الذين يفرغون مخازن رشاشاتهم باتجاه مشاة الجيش الزاحفين خلف الدبابات ، لو حمل كل منا رشاش كلاشنيكوف ؟ أم كانت أسلحتنا ستغفو بين أيدينا ، تنام ولا تطلب من يوقظها حتى يعلن النصر أو الهزيمة !

لقد وجدنا في المكان الخطأ ، في الزمان الخطأ أيضاً . كنا خطأين في زمان ومكان واحدين . لم نكن جزءاً من أي تشكيل قتالي ، ولا نصلح لأن نكون . اندلعت الاشتباكات ونحن لم نزل نفكر في العودة إلى الدراسة . كنا أقرب إلى ميليشيين ، تم تنظيمهما على عجل لحظة اندلاع القتال . هكذا وجدنا نفسينا ،

نعيم وأنا ، ميليشيين رغماً عنهما . مقاتلين بلغا سن التقاعد القتالي فور تسلمهما البندقية الأولى . الخوف يعترينا . الانفجارات تتواصل . وصوت الثورة يتحدث عن مئات القتلى والجرحى . والمقاتلون يتناقلون أخبار تقدم الجيش في محاور عدة . الموت يطل من كل الزوايا ، ونحن وحيدان لا رابط بيننا وبين كل ما يجري سوى الإذاعة والأناشيد ، وربما الخوف الذي لابد أن له أنصار كثيرين . الحاج سامي يعرف أننا نفتقر إلى الخبرة العسكرية ، وربما لاحظ ارتعابنا وهلعنا ، ولذلك تركنا وشأننا ، نمضي وقتنا متنقلين بين الخنادق المحفورة ، حول المكتب ، وبيوت المخيم ، قبل أن نلجأ في آخر الليل ، حيث يكون القصف قد خف تماماً ، إلى فرن أبي محمود ، هناك نغفو ، وننام مثل أي مشردين .

***

أفقت في الصباح متعباً ، بلا رغبة في الاستيقاظ . لكن الاشتباكات ، التي صارت تؤذن للفجر لم تترك لي خياراً آخر . قلبتني على وقع أصواتها طيلة ساعات الصباح الأولى إلى أن استيقظت ، واستيقظ نعيم ، سمعته يقول ، وقوله دل على أنه فتح عينيه وأذنيه : «يا فتاح يا عليم ، هاظول صبحو يحلمو بالطخ م الصبح ، على ايش مستعجلين» .

قلت معقباً :

– حرب مجانين يا رفيق ، وما حدا عارف راسها من رجليها .

– طب احنا ايش اللي ورطنا في هالمصيبة ! لا عارفين نقعد ولا عارفين نقاتل .

باب الفرن فتح فجأة . أطل الحاج سامي وقد علق بندقيته الكلاشنيكوف على كتفه الأيسر :

– ع العافية رفاق . امنيح اللي لاقيتكم . فيه فطور جبنة وشاي وزيتون عند أبو نظمي . وفيه سجاير كمان .

قال الحاج مالديه وخرج . أحسست بأنه يقوم بعملية وصل بين الرفاق الذين مزقت الاشتباكات صلاتهم ، وشتتهم في أزقة المخيم وحاراته .

غادرنا الفرن إلى بيت أبي نظمي ، الذي لا يبعد أكثر من دقيقتين مشياً على الأقدام . هناك وجدنا بعض الرفاق يتناولون فطورهم . أبو نظمي كان يقوم على خدمة الجميع ، وقد لفت نظرنا الى أننا نستطيع العودة عند الظهيرة ، لتناول الغذاء ، سيكون هناك الكثير من الرز واللحم .

تناولنا فطورنا على عجل . وتناولت علبة سجاير من كرتونة سجاير ريم ، ملقاة على طاولة الطعام ، وخرجت برفقة نعيم ، توأمي وشريكي في عدم القتال وانتظار الفرج . وكان انتهى بدوره من الطعام ، حيث عدنا إلى مجلسنا المفضل في الوادي ، قريباً من باب الفرن .

١٩٧٠/٩/١٩

اليوم هو الثالث منذ تفجر الأوضاع . قبيل الظهيرة اشتد القتال ، ولا يبدو في الأفق ما يشير إلى أي انفراج من أي نوع كان . غير أن أخباراً مثيرة بدأت تتردد بين المقاتلين عن تدخل سوريا والعراق في المعارك إلى جانب المقاومة . أخبار لها وقع الفرح ، بثت شحنات الأمل في صدور الذين باتو يخشون اقتحام القذائف لصدورهم . كان راديو الثورة الفلسطينية قد أذاع ، أمس ، نداءات باسم أبي عمار ، الذي اتخذ من جبل الحسين مقراً له ، لكل من القيادتين السورية والعراقية ، يطالبهما بالتدخل وإنقاذ المقاومة الفلسطينية . أبو عمار تحدث عن سقوط آلاف القتلى منذ بداية المعارك . اليوم تم تحريك القوات العراقية المتواجدة في بلدة المفرق الحدودية ، غير أن الإذاعات التي تناقلت الخبر لم تشر إلى تقدمها ، مما أثار الكثير من الاستياء في صفوف المقاتلين وكوادر المقاومة . فيما تأكد عبور قوات سورية ، ضمت عشرات الدبابات من طرازي تي-٥٤ ، وتي-٥٥ ، الحدود السورية - الأردنية ، من جهة الرمثا ، وتقدمها نحو مدينة إربد حيث اشتبكت ، عند محاور عدة ، مع دبابات اللواء أربعين ، الذي يعد أقوى ألوية الجيش الأردني ، وتمكنت من التقدم باتجاه المدينة . الإذاعة الفلسطينية أوردت النبأ ، لكنها لم تذكر

شيئاً عن خسائر القوات السورية . وكررت الحديث عن تفكك اللواء أربعين ، وعن انضمام بعض قادته إلى الثورة الفلسطينية ، وذكرت العقيد بادي عواد ، وحسن خريس ومحمود الروسان . كما أكدت استقالة الفريق مشهور حديثة من رئاسة الأركان ، ورفضه القتال ضد قوات المقاومة .

مع هذه التطورات بدأنا نتطلع عميقاً ، وبعيداً نحو جمهورية الثورة ، التي ستقام انطلاقاً من إربد المحررة . حسن خريس رشح للرئاسة . نسينا القذائف والقتلى والجرحى . نسينا أنفسنا . شيء واحد صار يتردد في جنبات المخيم : اسم هانوي التي تقترب منا . حلم الثورة في قاعدة ارتكاز قوية . صورة فيتنام الشمالية أخذت تهبط علينا . ترسم حدود الجمهورية من أطراف الأردن الشمالية ، من إربد . الشمالات دائماً ثورية . إربد جمهورية شمالنا ، وشمال جمهوريتنا . من هناك تبدأ التفاصيل . تزحف حدود الجمهورية ، تلتهم المسافات ، تضمها إلى أحضانها . تمر بمخيم البقعة ، يعلن لاجئوه الانضمام . تدور حول جرش ، يعلن مخيم غزة انضمامه ، تخفق راياتها فوق اسطح البيوت وفوق رؤوس البشر . تصل عمان . عمان لم تزل مشتعلة بالحرائق ، ترفع من أعدادها المدافع المنصوبة في القلعة . عمان تشتعل بالانفعالات ، تتزايد على وقع مارشات صوت الثورة الفلسطينية . تنفصل فرقة القرب التابعة للجيش الأردني . تصدح أغنياتها من صوت الثورة : وين ع رام الله . ولفي يا مسافر وين عا رام الله . رام الله تقترب من عمان . أحلامنا تستعيد الضفة على صوت هدير الدبابات السورية . فرقة القرب تطلق روائعها . معزوفاتها تسبق مشهد الجنود المشاة إلى إربد . أقدامهم تفرض الإيقاعات العسكرية المناسبة . قادة المقاومة يحتلون المنصة ، يراقبون موكب المنتصرين من جيش الجمهورية الآخذة في التشكل . خلفهم كتائب من جيش التحرير ، ومقاتلون ساهموا في عملية التغيير الثورية . هذه فتح التي جُرَّت إلى القتال ، وكانت عارضت شعاراتنا ، تدفع باتجاه ترسيخ أعمدة الجمهورية . أما نحن اليساريون ، فلن نكتفي بذلك ، سندع البرجوازية الوطنية تحكم أولاً لكي يجرب الشعب حكمها قبل أن ينتفض عليها . لن ترهبنا حكومة كيرنسكي إذ سيكون

لنا ثورتنا مثل لينين ، الذي انقض بجيش البروليتاريا على قصور الرجعية . سوف نقيم سلطة العمال والفلاحين والجنود الثوريين ، الذين رفعنا باسمهم شعارات «لا سلطة فوق سلطة المقاومة» . ثم «كل السلطة للمقاومة» . ثم «كل السلطة للمقاومة والعمال والفلاحين والجنود الثوريين» .

عمان تحترق بجبالها السبعة . في الشمال أراض محررة . في المخيم قصف لا يرحم . مررنا نعيم وأنا بمدرسة المخيم في طريقنا إلى بيت ابي نظمي لتناول ما يتوفر من طعام . وصلتنا رائحة جثث لم نراها . اقتربنا من المدرسة . الساحة الخلفية صارت مقبرة مؤقتة . أطفال هنا كانوا يلعبون . جثث أُلقيت على عجل للذباب . أدرت وجهي . المشهد فظيع . لا يمكن النظر مرتين . ابتعدنا سريعاً . دخلنا بيت أبي نظمي ، لم نستطع تناول الطعام . تناولت علبة سجاير وخرجت . لحق بي نعيم تاركاً الأكل خلفه . عدنا إلى قواعدنا أمام الفرن سالمين .

بعد الظهر جاء الحاج سامي . قال أن مجموعة فلسطينية أخلت موقعها عند المحور الأمامي ، في مواجهة محور هجومي أردني يضم عدداً من الدبابات . وأننا ينبغي أن نسد الفراغ ، نمنع تقدم الجيش نحو المخيم بأي ثمن . . . علينا أن نكون في الطليعة .

جاءتني الفرصة ، أو الموت ، لا أدري ، إلى حيث أجلس . لم أسع إليها ، بل جاءتني بنفسها حتى باب الفرن ، محمولة على ظهر كلمات الحاج سامي ، التي تشبه الأوامر . الآن صار باستطاعتي المشاركة في قتال فعلي ، واختبار شجاعتي التي لم يظهر سوى نقيضها حتى الآن . تخيلت الموقع ، لكنني أبداً لم أرسم ، ولو صورة تقريبية له .

حملنا ، نعيم وأنا ، بندقيتينا السيمينوف ، وجعبتي الرصاص الذي لم ينقص طلقة واحدة ، رغم ملايين الرصاص الذي أطلق في عمان وغيرها . ومضينا برفقة الحاج سامي الذي عرفنا على رفيقين آخرين ، زود الأول برشاش براونغ ، والثاني بقاذف بي - ٧ . معنا ملتهم الدبابات إذن ، إطمأننت قليلاً . مضينا باتجاه الموقع المطلوب التمركز فيه ، بعد أن ودعنا الحاج سامي . لم يكن

الموقع المطلوب بعيداً . فقط أمتار قليلة قبالة آخر بيت في المخيم ، يقع على حافة المنطقة الجرداء المعروفة بالحَمار . هذا هو آخر بيت . وصلنا . إنه البيت الأول للداخل إلى المخيم . أقرب البيوت إليه ، يقع على يمينه على بعد حوالى عشرين متراً . إلى يساره بيوت متلاصقة . تجنبنا المرور عن يمينه خشية الانكشاف . تسلقنا الجدار الخلفي للبيت . الأول الذي عرفنا عليه الحاج سامي باسم سليم ، قفز دون سلاحه البي-٧ . تناوله لاحقا من يد نعيم . هكذا فعلنا ، واحداً بعد آخر . صرنا في الداخل . تسللنا من الباب الأمامي بحذر ، ولكن بسرعة . طلينا على فضاء بدا لا نهائياً لولا وجود ذلك الموقع الذي تمركز فيه عدد من الدبابات والسيارات الأردنية التي بدت بعيدة نسبياً . ثمة خندق أمام البيت يبعد مسافة عشرة أمتار . إنه المكان الذي أخلته المجموعة الفلسطينية وجئنا لنشغله . ألقينا بأنفسنا في الخندق تباعاً . اتخذنا أوضاعاً قتالية . النظرة الأولى كشفت لنا عن وجود ثلاث دبابات ، وعدد غير واضح من الشاحنات والسيارات المصفحة ، على مسافة تزيد على كيلومتر . الدبابتان على اليمين واليسار ، انفصلتا عن التجمع فجأة وابتعدتا . الدبابة الوسطى تحركت ، سمعنا هديرها بوضوح . هل هذا وضع قتالي؟ جئنا ننصب كميناً وقعنا في كمين منصوب . يستطيعون سحقنا الآن بسهولة . البي-٧ يستطيع الإجهاز على الدبابة ، حين تصبح في مرماه تماماً . إذا كانوا كشفونا ، فعلاً ، فلن يغامروا بالاقتراب والدخول في مرمى نيراننا . إنهم جيش قوي محترف ، ويستطيعون العمل ضدنا من موقعهم الحالي . خفت .

الهدير يقترب . قلقنا يتزايد . سليم متحمس للانتظار ، يعتقد أن الدبابتين لا بد أن تتقدما نحونا ونصطادهما الواحدة تلو الأخرى . تقدمت الدبابتان فعلاً . شد سليم قبضته على سلاحه ، وأخذ يهتف : أجت بنت الكلب والله لألعن سماه . سليم يريد أن يصبح بطلاً . صحت به : إنت مجنون ، هم مش هبل عشان يستنوك ، خلينا ننسحب قبل ما يسحقونا . الدبابتان توقفتا فجأة . توقفهما أثار قلق سليم ، الذي قال : ولاد الكلب ليش وقفو . سليم خاب أمله . نعيم قال له : ايش مفكرهم رح يوقفولك لترمى عليهم . هذي قلة عقل ، محسب حالك

عنتـر بن شـداد يا رفـيق ! سليم لـم يجب ، ورابعنا لـم ينطق منذ تمركـزنا في الخندق . انفجرت قذيفة فجأة . صوتها كاد يلقي بنا جميعاً في الهواء خارج الخندق . بعض الغبار حط فوق رؤوسنا . تنشقناه ممزوجاً برائحة البارود . تلفت خلفي ، صحت : صابوا زاوية البيت فوق ، اتطلعو . التفت الثلاثة خلفهم . القذيفة أصابت حافة زاوية سقف البيت الجنوبية وهدمته . الدبابة تحركت مجدداً . قطعت مسافة باتجاهنا . علينا أن نخلي المكان بسرعة ، قال سليم . سليم اقتنع بأننا وقعنا في كمين . وأن أفراد المجموعة التي أخلته ، من قبل ، لم يكونوا أغبياء ، بل أدركوا استحالة استخدام المكان كموقع دفاعي متقدم . دخلنا قبراً جاهزاً بانتظار أن تهيل قذيفة ثانية التراب فوقنا . سليم لـم ينتظر . قفز بسلاحه من الخندق . قفز من حفرة الموت . دخل البيت بسرعة البرق . لحقت به . ثم نعيم . ثم الصامت ، الذي لم أتعرف على اسمه . أصبحنا داخل البيت . تسلقنا الجدار الخلفي الذي اجتزناه عند قدومنا . تساعَدْنا على نقل الأسلحة . شعرنا للحظات ببعض الطمأنينة . تبادلنا النظرات . نريد تحديد طريق انسحابنا . قطعت أفكارنا صليات متواصلة من رشاش ٥٠٠ ، انطلقت من مكان غير بعيد إلى يميننا . ركض الجميع في وقت واحد . اختار كل منا اتجاهه حسب تقديراته . أخذت أعدوا بين البيوت . هبطت مرتفعاً لم أمر به من قبل ، انزلاقاً . ولم أشعر بنفسي إلا وأنا بين المقاتلين ، المنتشرين في جماعات صغيرة ، في الوادي . القيت بنفسي أرضاً . أسندت ظهري إلى الجدار . بعد قليل وصل نعيم . جلس إلى جانبي . وأخذنا نلهث معاً كما لم نلهث من قبل ، مثل كلبين ركضا عشرات الأميال .

***

اليوم هو الاربعاء ، الثالث والعشرون من أيلول/ سبتمبر . السابع منذ اندلاع القتال . الأخبار ليست مشجعة . الكل يتحدث عن الانسحاب السوري الذي تم ظهراً . وزير الدفاع حافظ الأسد عارض التدخل ، وأصدر الأوامر بالانسحاب . الولايات المتحدة الأميركية استنفرت قواتها في المنطقة ، بعد طلب رسمي من

الملك حسين بالتدخل . الملك سمع نداء قادة أركانه وطلب التدخل . استدعى السفير الأميركي في عمان دين براون ، ودار بينهما الحوار التالي :

الملك : ماذا تستطيعون أن تفعلوا أيها الأميركيون ؟ يجب أن تأتوا إلى هنا . يجب أن تجسدوا حضوركم في الأردن .

براون : أستطيع أن أنقل رسالة جلالتكم .

دين براون مرر الرسالة إلى وكيل وزارة الخارجية ، جوزيف سيسكو . سيسكو تشاور مع مستشار مجلس الأمن القومي ، هنري كيسنجر . كيسنجر استدعى الملحق السوفياتي ، يوري فورونتسوف ، إلى مبنى الخارجية :

سيسكو : نحن نحملكم المسؤولية . . . والنتائج . باستطاعتكم دفع السوريين إلى الانسحاب .

فورونتسوف : وماذا لو توقفوا حيث هم الآن ؟

سيسكو : مرفوض بالمطلق . عليهم الانسحاب إلى ما وراء الحدود .

واشنطن بعثت بحاملات طائراتها إلى المنطقة . وحدات سلاح الجو وضعت في حالة تأهب . دمشق لم تتراجع . كيسنجر أقنع الرئيس نيكسون بضرورة الإيعاز لإسرائيل لكي تلعب دوراً «فهي الأقرب» . مجلس الوزراء الإسرائيلي عقد جلسة طارئة وأعلن : «إذا حاول جارا الأردن ، سوريا والعراق ، اقتسام المملكة بينهما ، فإن إسرائيل قد تقدم على اتخاذ موقف» . إسرائيل دعمت تحذيرها بتحليق طيرانها فوق الدبابات السورية وقوات المشاة . وزير الدفاع السوري حافظ الأسد استدعى قائداً عسكرياً على مستوى عال وأبلغه : لقد اتخذنا القرار بالانسحاب من الأردن .

ظهر اليوم ١٩٧٠/٩/٢٣ ، انسحبت القوات السورية ، بعد أن خسرت في المواجهة مع الجيش الاردني مائة دبابة ، ومائة وسبعين عربة مصفحة . الأردن خسر تسع عشرة بين دبابة ومصفحة . ونحن أفقنا من حلم يقظة ، شاهدنا خلاله الأردن جمهورية ، وسوفيتات للعمال والفلاحين والجنود الثوريين . شاهدنا الحلم يصعد مثل بخار الماء فوق سطح المخيم ، ويتبدد في سماء عمان .

الإعلام السوري أوضح بلسان رئيس الأركان مصطفى طلاس ، أن الاجتياح ليس ضد الأردن ، بل لمساعدة الفلسطينيين . طلاس قال : «نحن نقوم بحماية الفلسطينيين من القوات الأردنية . الأردن حليفنا بالطبع ، والأردنيون عرب» . أما زيد بن شاكر فعبر عن الموقف الأردني قائلاً : «البعض عندنا ، وأنا بضمنه ، لم يصدق أن يهاجم بلد عربي بلداً اخر . لكننا تأكدنا أننا أخطأنا ، فقد دخل السوريون الاردن في ١٩ ايلول-سبتمبر» .

بدا المخيم حزيناً . الروح المعنوية للمقاتلين في تراجع . جمهورية الشمال انهارت ، رغم بقاء اربد بأيدي قوات الثورة . الجمهوريات المحلية بدأت بالانهيار . الضغط العسكري المسلح على المخيم يتزايد . الافتقار إلى قذائف الآر-بي -جي ينشر يأساً في كل الزوايا ، ينبىء باقتراب النهاية .

قرابة الثامنة مساءً تم تجميع قرابة مائة مقاتل من مختلف التنظيمات . انضممنا نعيم وأنا إلى العدد الكبير . الحاج سامي أبلغنا أن جميع التنظيمات المتواجدة في المخيم اتفقت على شن هجوم شامل على دوار مكسيم ، مستهدفة ، تدمير رشاش ٥٠٠ المنصوب فوق بناية البريد . تم تقسيمنا الى مجموعات تحركت وسط الظلام من محورين ، وتقدمت تدريجياً نحو الهدف . الفوضى سادت الحركة . وعدم الخبرة وغياب القيادة الواحدة والتجميع الذي تم على عجل ، بدا أيضاً في التنقل المتشرذم . أنا لم اكن أعرف أين نسير ، ولا موقع الهدف . ثمة قطيع يسير متسللاً ، وأنا واحد من أفراد القطيع .

وفجأة بددت السكون فرقعات رصاص ال٥٠٠ المنصوب على سطح البريد ، هدفنا الأول الذي لم نبلغه أصلاً . الهدف ألقى بحممه على مستهدفيه . خلال لحظات كان المقاتلون المائة قد تفرقوا دون أن يطلب أحد منهم ذلك . تراكض القطيع من دون أن تلحق به الذئاب . لحقته أصوات الرصاص الخارق الحارق المتفجر . مرة أخرى وجدتني عند الفرن . نعيم سبقني إلى هناك . لا أدري كيف وصلت ، لكني وصلت . بيدي بندقيتي السيمينوف ، على خاصرتي جعبة رصاص لم تنقص رصاصة واحدة أبداً ، منذ بدأ القتال .

اجتمعتا الليلة ، وعلى غير العادة ، داخل قبو في المخيم . مجموعة من الرفاق والرفيقات . القلق باد على وجوه الجميع . لقد بدؤوا يدركون أن المخيم موشك على السقوط بيد الجيش ، ولا بد من الرحيل . لكن أحداً لم يقدر ما تبقى من ساعات الصمود . القصف توقف ، لكنه ليس دليلاً على انتهاء الصراع حول المخيم ، فإطلاق النار يتراجع ، عموماً ، ليلاً ، ويكاد يتلاشى بعد منتصف الليل ، خاصة في اليومين الأخيرين حيث بدا واضحاً ضعف المواجهات وتراجعها . تناولنا بعض السندويتشات ، شربنا شاياً ودخنا كثيراً . الحاج سامي أصر على إعادتنا لحقائق ما فوق الأرض . اقترح أن نقوم بمرافقة الرفيقتين ليانة بدر ، خطيبة ياسر عبد ربه ، ورفيقة ألمانية الجنسية . غادرنا القبو بعد دقائق ، وأخذ أربعتنا يصعد الدرج المؤدي إلى جبل النزهة ، حيث يوجد مقر للجبهة تعرفه الرفيقتان اللتان سارتا أمامنا تتحادثان فيما تبعناهما بصمت غالباً . ارتحت كثيراً للمهمة . أحسست بأنني أفعل شيئاً ما مفيداً . أحرس بنات الجبهة . احميهن من عيون القناصة . منتصف المسافة صعوداً داخلني القلق . لاحظت أننا كلما صعدنا ازداد انكشافنا لمرابض رشاشات الجيش . وأن أي التفاتة إلى الخلف سوف تكشف لي أننا جميعاً أصبحنا تحت رحمة الرشاش المنصوب فوق سطح البريد . قلقي صار خوفاً . ترجمت خوفي حواراً لكي أتغلب عليه ، قلت لنعيم :

– صرنا مكشوفين يا نعيم !

تلفت خلفه ، استدار نحوي :

–الجو هادي ، والرشاش ساكت .

–طب لو فتحوا علينا النار فجأة .

–بنموت واكلين خرا .

– يا رفيق انت كل ما واحد يسألك بتقولوش الا ناكل خرا ، صرت مأكلنا خرا ميت مرة .

–يعني ايش بدك اقول لك .

–ولا اشي . خلاص . انسى الموضوع .

الرصاص الأحمر الخطاط كان يمر بين حين وآخر يعطي إشارات متبادلة بين وحدات الجيش ، فلا ننسى الموضوع لكننا لا نملك سوى مواصلة صعود الطريق ، خلف رفيقتين لم تهتما لحظة لما نقول ، وربما لوجودنا كله . ولم نحاول من جانبنا الاستماع إلى ما كانتا تقولان أو نتعرف على لغة الحديث . قذيفة إنارة انفجرت في السماء فوق رؤوسنا ، سقطنا أربعتنا أرضاً . بقينا كذلك إلى أن انطفأت وعاد الظلام ، في الظلام استعدنا الأمان نسبياً . نهضنا . تابعنا سيرنا إلى أن بلغنا القمة . من هناك سرنا بضع عشرات الأمتار فقط . دخلنا البيت الذي قادتنا إليه الرفيقتان . كانت هناك مجموعة من قياديي الجبهة بينهم ياسر وأبو العبد الذي حرص دائماً على تعليق مسدس على خاصرته ، فأطلق الرفاق عليه لقب «رنغو» تشبيها بكلينت استوود في فيلم الويسترن «Ringo and his golden pistol» على ما أظن . تلقينا شكر الرفاق على المهمة . كان هذا كافياً لإعلان انتهائها . عدنا . في طريق العودة إلى الوادي في الحسين لازم الخوف خطانا . وجوهنا الآن في مواجهة موقع الجيش في مبنى البريد . لم تطلق باتجاهنا طلقة واحدة . هل قرر الجيش إسكات بنادقه ومنح المقاتلين فرصة التحرك والخروج ؟ لا أدري . لم يبلغنا الرفاق شيئاً كهذا . كل ما في الأمر أنني خمنت وحسب . خفت أن اسال نعيم فيجيبني بشيء من «اكل الخرا» الذي صار جزءاً من عباراته المنفعلة . مضينا نهبط صامتين . عندما وصلنا الوادي توجهنا نحو القبو مباشرة . فوجئنا به وقد خلا تماماً من الرفاق . لقد رحلوا إذن ، ولا بد وأن الذين أوصلنا الرفيقتين إليهم ، قبل قليل ، قد رحلوا بدورهم ، أو هم في طريقهم الى الرحيل . في تلك اللحظة فقط أدركت أن نعيم استشعر بحواسه المائة ما نحن فيه . التفتُّ اليه وقلت :

-معك حق يا نعيم ، فعلاً اكلنا خرا .

عدنا باتجاه الفرن . لا نعرف طريقاً للخروج من المخيم نهاراً . من الواضح أننا الآن أكثر عجزاً وضياعاً . دخلنا إلى الفرن صامتين . ألقينا على الأرض سلاحينا والعتاد وجسدينا المتعبين . غفونا . وعندما أفقنا ، في صباح اليوم التالي ، اكتشفنا أن الغالبية رحلت عن المخيم . الحركة قليلة وكذلك المقاتلون ، الذين

شاهدناهم كانوا يركضون . الذين سألناهم كانوا يجهلون . واحد فقط أشار إلينا بيده ، رداً على سؤال نعيم عن أفضل طريق للخروج ، مكتفياً بالقول : من هناك ظلوا ماشيين على طول .

نعيم اقترح أن نتسلل عبر الطريق الذي أشار إليه المقاتل . نعيم يعتقد أنه الطريق الذي سلكه الآخرون . علي أن أوافقه على مجرد اعتقاده ، فاليقين كان صعب التحقيق . قررنا المجازفة . اجتزنا عدداً من الازقة في طريق يفترض أن يقودنا إلى وسط عمان . مررنا من زقاق ضيق لا يتسع لمرور أكثر من فرد واحد . نعيم في المقدمة ، أتبعه أنا . سقطت قذيفة فوسفورية . شظية منها وقعت على طرف الحائط الذي أسير تحته . أطلقت أشعة صفراء ، ثم خبت وهي تتدحرج في المسافة بيني وبين نعيم . شعرت بالموت يقترب لحظته ، ولم يفارقني الشعور إلا عندما تأكدت أنها مجرد شظية ، لكنها أدخلت الرعب ، الى قلبينا . نتقدم أم نتراجع ، تراجعنا . أرغمتنا الفسفورية على العودة . عجلت القذيفة بتغيير مسارنا مائة وثمانين درجة . عدنا إلى الفرن لنجد أم محمود واقفة عند الباب ، تمسك بيد صغيرها الوحيد . صبحنا عليها . ردت وأضافت على الفور :

–الناس بقولو النزهة سقط . والجيش رح ينزل بعديها لهون ويفتشو .

–وأبو محمود وين ؟

سألها نعيم . أجابت :

–والله ما انا عارفة . من امبارح ما شوفتوش . يمكن طلع مع اللي طلعو . بس انشالله ما يكونو مسكوه .

–والله ما عارفين ايش بدنا نقول لك .

–ولا اشي ، بس الله يحميكو لشبابكو ، ويخليكو لاهاليكو تبعدو عن هالفرن ، لحسن إذا الجيش اجا لهون بيتهموني انني مخبية فدائيين . الله يرضى عليكو .

نعيم سكت . أنا توليت الرد على كلامها . قلت لها إننا سوف نمضي في طريقنا ، لن نسبب لها أو لعائلتها أي مكروه ، بل سنحفظ لهم معروفهم إلى الأبد .

قالت ، وأحسست بالقول يخرج من جوات قلبها «الله معكو» .

استدرنا وتابعنا سيرنا في اتجاه معاكس لطريق المدينة . ابتعدنا عن الفرن وعن أم محمود . وفجأة ظهرت قبالتنا دورية للجيش الأردني ، على مسافة غير بعيدة ، يتجه أفرادها نحو شرق مخيم النزهة . استنتجنا أنهم انتهوا من تفتيش غرب تلك المنطقة . قررنا التوجه إليها على الفور . على قاعدة «خير مكان يختبىء فيه اللص مكان فتشته الشرطة من قبل» . مضينا قدماً . كان علينا التخلص من السلاح اولاً . عبرنا أول زقاق واجهنا إلى يميننا . بضع جثث تسده يتطاير فوقها ذباب . عدنا إلى الشارع الرئيسي . استدرنا وعبرنا زقاقاً آخر . هناك دفن كل منا بندقيته . غطاها بالحجارة أولاً ، ثم ببعض قطع من الخيش المتوفرة في المكان ، قبل أن يهيل عليها التراب . صنعنا قبرين صغيرين لبندقيتين ماتتا لحظة ولادة الحرب ، ومضينا . ثمة تجمع عائلي أعلى التل المقابل . صعدنا باتجاهه بحذر وخوف . بضع رجال ونساء يتحادثون . تلفتوا نحونا تباعاً . اقتربنا . ارتياح ما ينعكس في ملامحهم . وصلنا . ارتياحهم أراحنا ، أحسسنا بالأمان . بادرنا أحدهم إلى القول : ما تخافو يا شباب ، الجيش فتش المنطقة وراح . وقفنا نتبادل الحديث معهم فوق التل . صار باستطاعتنا التأكد من أن الجيش بدأ تفتيش مخيم الحسين ، الذي تركناه قبل قليل . ارتحنا لنجاح خطة الهرب من قبضة الجيش . أمضينا وقتاً طيباً مع سكان المنطقة . شاركناهم جلسة بعد ظهر فوق الرمال الناعمة . شربنا شاياً قدموه لنا . حل المساء ، فقررنا العودة إلى قاعدتنا في الفرن ، وإقناع أم محمود بأن تغض النظر عن وجودنا ولو ليلة واحدة فقط .

تحركنا قبيل غروب الشمس . ساقتنا أقدامنا الى حيث دفنا البندقيتين ، وجعبتي الرصاص . لماذا نريدهما ثانية وقد سقط المخيم . العثور عليهما في أيدينا يقود إلى إطلاق النار علينا فوراً . عرجنا نحو الزقاق بلا تردد . أن تلقي بسلاحك يعني أن تسير بمؤخرتك عارية ، أن تترك ظهرك مكشوفاً ، ونحن تركنا مؤخراتنا عارية لبضع ساعات . أخرجنا السلاح . نفضنا عنه التراب جيداً ومضينا نحو الفرن . الظلام انتشر سريعاً . المخيم صار موحشاً . الأزقة خانقة . والسلاح بات

معضلة كبيرة . لا نقوى على التخلي عنه ، ونخاف التخلص منه . قررنا أن نخبئه في الفرن . أن يبيت معنا ، إن بتنا في الفرن ، وغداً نقرر ما نفعله به . وصلنا فرن ابي محمود . تسللنا إلى الداخل بكثير من الحذر . أغلقنا الباب من الداخل . وضعنا خلفه عدداً من شوالات نشارة الخشب التي تستخدم في اشعال النار ، وخبأنا البندقيتين وجعبتي الرصاص تحت الشوالات الباقية ، المكدسة على الحائط الأيمن . ورمينا بجسدينا أرضا مثل شوالين من تبن . غفونا ، ولم نستيقظ الا قرابة الحادية عشرة صباح اليوم التالي ، لنواجه الحقيقة الصعبة . لا ماء . لا طعام . لا رفاق . لا أصدقاء . لقد بات علينا أن نرحل سريعاً عن الفرن وعن المخيم ، أيضا ، ولكن إلى أين ؟

قررنا ، نعيم وأنا ، تسليم أنفسنا للجيش الأردني . الخروج من جحرنا في فرن ابي محمود . الجيش اختفى من المنطقة ، وآثار المقاومة الفلسطينية ، وبصمات ميليشياتها ، أيضا اختفت ، لم يبق شاهداً على زمنها سوى نعيم وأنا ، والجثث التي لم تدفن بعد . الوضع الجديد ملامح تتشكل من بقايا البيوت التي دمرها القصف ، ومن مئات الأرامل ، وأمهات لا يعرفن مصائر أبنائهن الذين اعتقلوا في حملات التمشيط التي قام بها الجيش . في الوضع الجديد نحن غريبين على خارطة المخيم ، لا نعرف من تفاصيلها إلا القليل : جحرنا داخل الفرن ، وطريق الوادي ، الذي يفصل جبل الحسين عن النزهة ، والطريق العام ، الذي جئنا منه أول مرة ، ولم نعد إليه . تعرفنا على دوار الحسين ، على مقربة من المخيم ، وكذلك على دوار مكسيم من الإذاعات فقط . باعتبارهما نقطتين تحددان مواقع الجيش المتقدم نحو المخيم لاحتلاله . اسماهما موقعين عسكريين قتاليين . في دوار مكسيم ، قاتل الفلسطينيون من أفراد جيش التحرير الجنود الأردنيين طيلة أكثر من أسبوع . سقوط الدوار بيد الجيش مهد لسقوط المخيم ، فتح إليه أوسع بوابات العبور . الجيش قام بتنظيف المخيم مما علق به من زمن المقاومة : من شباب المقاومة نظفه . من ميليشياتها نظفه . من صخب الكلمات ، التي كانت تجد طريقها بلا استئذان ، نظفه . من حق النطق باسم فلسطين نظفه . وعلى مداخله ،

أبوابه ، نوافذه الصغيرة فرش سجادات الصمت . من الصمت ، من تحت سجادته قررنا الخروج . من الجوع قررنا الخروج . من العطش ، من البرد ، من اليأس ، من الضياع قررنا الخروج ، ومغادرة الفرن مرة واحدة وإلى الابد . قرار لم يستغرق سوى دقائق ، اتخذناه وخرجنا .

اجتزنا باب الفرن . خلفنا وراءنا بندقيتي سيمينوف مستسلمتين لنوم عميق تحت أكياس نشارة الخشب ، متعبتين من حرب لم تخوضاها . لو كانتا جسدين حيين لانتفضتا ، لأحرقتا الخشب ، لاحتجتا على غياب وظيفتهما ، على الاستهتار بكيانيهما . نعيم وأنا جسدان حيان . كيانان لكن لا نقوى على الانتفاض . صرنا بندقيتين بلا ذخيرة . في الخارج كان المخيم صمتاً وبقايا بيوت . هنا الوادي الصغير . هنا لا تجري سوى الدموع . كان قبل أربع وعشرين ساعة يضج بالرجال . على جنباته أقام المقاتلون حلقات انتظارهم ، استراحاتهم القصيرة من اشتباك طويل . ينامون على حيطان البيوت بلا موعد أو قرار . يستيقظون على نكهة الشاي تطرد من الوادي رائحة الدخان . هنا لا واد ولا مقاتلون . شعرت بوحدتي ، كأن نعيم ليس بجانبي . كأن نعيم مثلي وحيداً فيَّ ، وأنا وحيد فيه . واحد في واحدين بلغنا زاوية البيت المجاور للفرن . سمعنا همساً . الهمس وسط الصمت يشبه الصخب القديم . لعله صوت بعض أفراد دورية للجيش ، عادت إلى المخيم لسبب ما . أول مرة نتمنى عودة من خفنا أن يقبض علينا ويقتلنا ، ويلقي بجثتينا في جورة الفرن . عودة الجنود صارت بوابة خروجنا من المأزق . صارت ميدان استسلامنا الذي قررنا البحث عنه لنستريح فيه . سوف نعترف لأفراد الدورية ، علناً ، أننا كنا مقاتلين فاشلين ، مهزومين . لن نخشى الاستسلام إذن ، لقد جربناه قبلاً ، استسلمنا قبل أن يبدأ القتال . الآن نستطيع ان نحصل على شهادة براءة كاملة من الحرب ، بعدالتها وبظلمها ايضاً . نتسلمها من دورية للجيش تعتقلنا . نعم ، نبحث عن دورية تعتقلنا . ترفع اعداد المعتقلين ، الذين سمعنا أنهم أدخلوهم إلى براكسات للجنود ، رقمين إضافيين . لن يبخل علينا أفرادها بذلك . أم محمود بخلت . لم تعد قادرة على تحمل بقائنا بعد سقوط

المخيم . خافت على محمود الصغير . أبوه اختفى فجأة . هي خافت انتقام الجنود ، إذا اكتشفوا أنها تخفي في الفرن مقاتلين . مع أننا لم نقاتل . اشفقنا عليها وعلى الصغير ، لكننا أشفقنا أيضاً على حالنا فاتخذنا القرار . كنا آخر من يتخذ قراراً . الجميع تسلل إلى خارج المخيم ، القادة قبل المقاتلين . كانوا يعرفون التفاصيل . اشتموا رائحة الجنود ، قبلنا ، فقرروا الرحيل . المقاتلون تبعوهم ، استشعروا عبث البقاء بلا قيادة ، بينما وقع أقدام الجنود يدق عند تخوم المخيم . الجميع رحل ، منذ أربع وعشرين ساعة ، ولم نكتشف الأمر إلا عندما شعرنا بوطأة الصمت . الصمت ليس من طبع المخيم الذي عج بالمقاتلين طيلة الفترة الماضية . لا نعرف طريقاً نسلكه يقودنا إلى الانسحاب من المخيم . الذين يعرفون المسالك والدروب نسونا . لم نسجل في قوائم المقاتلين . لم تضم أسماءنا سجلات الميليشيات . أو حتى وكالة غوث اللاجئين ، التي تحتفظ بأسماء أبناء المخيمات . كأننا نبتة غريبة ظهرت مثل عش الغراب . الآن نحن الغراب نفسه لا العش . غرابان أسودان لن يرغب أحد في رؤيتهما .

شاب واقف عند باب بيته . خلفه تقف صبية جميلة ، عيناها تلمعان من وراء كتفيه . سيدتان عجوزان تقفان أمام البيت المجاور . إلى جوارهما عدد من الأطفال . ثمة حياة هنا خرجت بعد موت . المخيم لا يموت . «ويلي على شبابكم» . صوت إحداهن نعى موتنا قبل الأوان . ويلي على شبابكم وين رايحين ، يا اولادي ، يا حبة عيني ، وين رايحين ؟ إذا شافوكم رح اطخوكم . يا حسرتي على شبابكم ، وعلى اهاليكم .

صوتها أفزعني . أدخل الرعب إلى قلبي . في نبرة صوتها بحة صوت أمي . أمي ترقبني من بيتها في مخيم خان يونس . تنظر في مرآتها تراني . تتساقط الأخبار من الراديو . تسمع صوتي يصرخ مستغيثاً . قلبها يقفز . فجأة يقفز . يحس بشيء ما غامض فيقفز . قلب الأم دليلها ، «يمّه والله لو رحت اخر الدنيا لاحس فيك ، وإن صابك إشي ، لا سمح الله ، قلبي بينكزع طول» أمي ليست بعيدة . أمي هنا في صوت هذه المرأة : ويلي على شبابكم !

نعيم التفت إليها متسائلاً بعجب :

- طب ، وين بدنا نروح يا خالتي ! احنا مش من هان ، وما بنعرفش حدا .

الشاب الواقف بالباب نصحنا :

-دبروا حالكن يا شباب ، بسرعة .

الصبية الجميلة ، الواقفة خلفه ، تحسرت علينا . عيناها ضاقتا قليلاً . شفتاها ارتعشتا . لم تقل شيئاً ، عيناها قالتا : «انتوا زي اخوتي . والله لو بأيدي لاخبيكم في عيني ، وغطيكم برموشي ، عشان ما يشوفوكم لجنود» .

الصبية لا تدري أننا نبحث عن الجنود .

الشاب عاد يقول :

-اخدوا اولاد عمي لاتنين . اجوا يتخبوا عنا ، مسكهم الجيش واخدهم ، وداهم على . . . في البراكسات .

سحبت العجوز الثانية طرف منديل راسها . غطت فمها . مررت جزءاً من المنديل على عينيها . تقدمنا . خطواتنا ثقيلة ثقيلة .

-دبروا حالكن يا شباب ، ما في حدن بقدر يخبيكن عنده .

عاد الشاب يكرر .

طمأنته :

- ما رح نتخبى عند حدا ، بس الله يخليك ، فيك تشربنا جرعة مي .

الفتاة سالت :

-جعانين يا شباب !

تبادلنا نظرات خجولة .الفتاة فهمت . استدارت . اختفت داخل البيت . وعادت ، بعد قليل ، برغيفين وقطعة جبن بيضاء كبيرة . وجاء الشاب يحمل لنا طاسة حديد مملوءة بالماء . شربنا حتى قتلنا الظمأ في أحشائنا . تناولت رغيفاً من يد الصبية . نعيم تناول رغيفاً . تقاسمنا قطعة الجبن أمام الناس ، مثلما تقاسمنا عرق خجلنا الذي راح يسيل . قبل أربع وعشرين ساعة ، وزع الأكل بمختلف أنواعه على المقاتلين وأفراد الميليشيات ، التابعين للتنظيمات ، دون تفريق . عدد أباريق

الشاي ، التي تعبر طرقات المخيم ، وأزقته ، والكؤوس التي تدور ، تجاوز عدد القنابل التي سقطت عليه . الأكل والشاي صارا مثل العيش والملح ،لا يجرؤ الناس على خيانتهما . كأنهما ميثاق شرف بين الجميع ، كتب برائحة النعناع . قبل أربع وعشرين ساعة فقط ، لم أجدني غريباً . الآن عدت غريباً مثل أول يوم دخلت فيه المخيم ، حين استقبلني أبو محمود برفقة نعيم ، وقدم لنا الفرن ملجأ ومنامة . الآن صرت عبئاً على المخيم . صرت شحاذاً . الحرب علمتني شحدة الرغيف .

تقدمنا باتجاه الشارع الرئيسي :

– فكرك بيطوخونا اذا شافونا يا رفيق . . . يعني . . . اذا شافونا ؟!

نعيم يسألني . هو الذي شجعني حماسه على قبول فكرة الاستسلام ، يسألني : بيطخونا يا رفيق ! سؤاله مثل كلمات تلك العجوز : اذا شافوكم رح اطخوكم . هي حاولت تحذيرنا ، أما هو فيكاد يحول التحذير إلى حقيقة ، يسعى لكي نستعد لمواجهتها . لقد بدأ نعيم يستسلم لفكرة الموت ، يتقبل احتمالات وقوعه كحدث لا نملك القدرة على رده . أنا رأيت الأمر من زاوية أخرى ، رافضاً قبول فكرة أنني سأموت . صحيح أننا بتنا أعزلين ، مع أننا أعزلان منذ حملنا بندقيتينا ، لكنني على قناعة بأن الجنود لا يقتلون جثثاً ، حتى وإن شاهدوها تتحرك كما نتحرك الآن بسبب تقاعس عزرائيل عن أداء مهمته . وقد يكون ذلك لانشغاله طيلة الأيام الماضية ، ولكثرة ما تراكم أمامه من بشر توجب عليه قبض أرواحهم لصالح الحكومة . كما أنني وجدت ، وهذا مخالف ، أيضا لفكرة نعيم ، أنه لو ساور الشك أحد الجنود ، بعد القبض علينا ، بالطبع ، بأننا مقاتلان ، مع أن شكلنا لا يقدم أي دليل على ذلك ، فإنني أشك في أن يطلق علينا النار . هكذا فكرت . لكنني نقلت أفكاري لنعيم بطريقة تحليلية لا تخلو من فكاهة . قلت له إن الجيش يلتزم وقف إطلاق النار المعلن يا رفيق ، ولا أعتقد بأننا نستحق أن يُقدِم الجيش على خرق وقف إطلاق النار من أجلنا ، وينقض بذلك اتفاقاته التي رعتها الجامعة العربية ، وفي أسوأ الاحوال ، سوف يعتقلنا الجنود ، و يرموننا في براكس حقير مع آلاف المعتقلين .

ضحك نعيم . نعيم ، الذي لا أذكر أنني عرفت شكل فمه أثناء الضحك يوماً ، جعلني أتعرف عليه .

أوقفني نعيم فجأة كمن تذكر شيئاً نسيه . مد أصابعه في كمر بنطاله وأخرج بضع دنانير ورقية وقال :

- يا رفيق ، معي سبع دنانير أخذتها من الحاج سامي ، لازم نقسمها بيننا ، الدنيا حيا وموت ، وما بنعرف رح نظل سوا والا نتفرق .

مد يده لي بالمبلغ الذي سارعت ودسسته في جيبي . في تلك اللحظة بالذات شعرت بمعنى الموت . لقد تعرضنا لمخاطر عدة . افترشنا الأرض سوياً . جعنا وعطشنا . اقتسمنا الفرحة ، والأمل والطموح والأفكار والمخاطر ، وحتى كدنا نقتسم القذيفة الفسفورية التي تدحرجت بيننا . ليس هيناً أن نفترق . ليس سهلاً أن يأخذ الموت أحدنا فالآخر لن يحتمل افتراقا يفرضه الموت عنوة علينا .

شكرته . قلت له إنه رفيق درب حقيقي . علق بطريقته الخاصة ، التي تجعل كلماته ذات نكهة طيبة المرارة :

-يا رفيق هذي مش مصاري ابويا .

واصلنا طريقنا . صعدنا منحدراً صغيراً . صرنا على قارعة الطريق .

ها هو الطريق العام ، يمتد في الاتجاهين مثل جثة فدائي قتيل . رأسه باتجاه مخيم النزهة ، قدماه نحو وسط عمان . صار لا يختلف عنا . الطريق صار مثلنا ، مدنياً تجرد من السلاح . خالياً تماماً من المارة ، وحتى من الدجاج ، والكلاب . سرنا فيه باتجاه المدينة . قررنا عبوره . فإما أن يعتقلنا الجيش في نهاية الأمر ، في مكان ما من الطريق ، أو نجتازه إلى وسط عمان . استوقفنا تجمع يضم شابين وامرأة صغيرة السن وسيدة عجوز . نادوا علينا . تقدمنا باتجاههم . تقدم الشابان باتجاهنا . تقابلنا . سألنا أحدهم عن وجهتنا . شرحنا لهم الأمر . غضبا بشدة . الأصغر ترك ملامحه تعبر عن ذلك . كان متوسط القامة ، ذو بشرة سمراء مثل القمح المحمص . يعرج قليلاً . قال من دون تردد :

- انتو مجانين . بتنامو عنا الليلة ليفرجها الله . كلها يوم والا يومين وتهدأ

الأمور .

قبلنا العرض بعد تردد قصير . تردد مغسول بالخجل . خجل من الحاضر الذي يريد إحراج الماضي والسخرية منه .

قبل شهر واحد ، فقط ، عشنا حياة طالبين جامعيين في سنة التخرج . نظيفين مثل ملاءة بيضاء . هو في دمنهور ، الأستاذ نعيم . أنا في الاسكندرية ، الأستاذ ربيع . ينادونني بأستاذ ربيع . حضوري يملأ الحارة حضوراً ، من محطة سيدي جابر حتى كليوباترة ، مروراً بشارع بني نوفل . أدير الدكان الصغيرة لعم أحمد في شارع دارا . أبيع لساعات طويلة . أجمع النقود آخر النهار . أودعها صندوقاً صغيراً سرياً ، لا يعرف مكانه سوى عم أحمد وزوجته وابنته عايدة . «انت زي ابني يا استاز ربيع» . أعطي المشورة في زواج بنات الحارة . اعترضت على خطوبة صباح على شاب أردني من أصل فلسطيني ، أرادها زوجة ثانية له ، يأخذها إلى عمان ، يفتح لها بيتاً . يبقي زواجه منها سراً مطوياً بعيداً عن زوجته الأولى وأهلها . لم يتفوه بحرف من ذلك أمام والدتها أم مكرم ، لكنه أسهب في شرح الأمر لي ، وتقديم تبريراته . لقد أكثر من تكرار كلمة «بلديات» ، و«احنا فلسطينيه مثل بعظ» . دخل مساحة الحوار الخطأ ، المنطقة المحظورة تماماً لدي . وجدته ساذجاً نصاباً ، ونصاباً ساذجاً . لم يفهم أن صباح مثل شقيقتي رحاب . وأن النيل يجري في عروقي . لذلك اعترضت .

أم مكرم قالت بعد ما فضينا السيرة : «ربنا يستر عليك وعلى اخواتك يا استاذ ربيع . ده لولا نصيحتك لتورطنا يا ابني في جوازة البنت . عايزني اديهالو على ضرة . ليه ؟ عشان احنا فقرا يا استاذ ربيع . والا اكمنو جايب معاه شوية دنانير ! ما فشر . صباح عمرها ما اتباعت ، ولاّ ح تتباع بالدهب . ايوووه يا عالم . حقة فيه ناس ما بتختشيش .

مات الكومي . . . صاحب محل الفول والطعمية الواقع عند أول سوق الخضار في شارع كليوباترة . نصبوا السرادق . ذهبت لتقديم العزاء برفقة الأستاذ فاروق . صديقي الأستاذ فاروق ، مدرس الابتدائية ، المسيحي القبطي ، المقيم في حارتنا

سيدي جابر المحطة . جلس فاروق خاشعاً إلى جانبي يستمع لآي الذكر الحكيم . يتمايل بصمت . يهز رأسه هزات خفيفة على وقع الكلام العظيم . «والله ناقص الاستاز فاروق يصوم معانا رمضان» . نضحك ، ويضحك الأستاذ فاروق .

الكومي مات . سيدي جابر لا تموت . صاحت ام مكرم في ابنتها :

- بت يا صباح ، تعالي يا بت خدي الكاسارولا وهاتي لنا بتلاته صاغ فول من عند الكومي .

-فول . . .فول ايه يمّه ع الصبح ، هو كل يوم فول ؟

-قومي يا بت وبلاش لماضة .

تدخلت :

-جرى ايه يا خالتي أم مكرم ، الكومي مات ، ولسة العزا قايم . فول ايه ومصيبة ايه . تفتكري المحل فاتح ؟

استدارت رافعة صدرها الثقيل عن حافة الشباك . منذ عرفتها وهي تريح صدرها الثقيل على حافة الشباك . من الشباك تستطيع سماع صوت المقرىء ورؤية المعزين في السرادق :

- يا استاز ربيع ، لو محل الكومي اتقفل ، عشان الراجل صاحبه مات ، نص سكان سيدي جابر ح يلحقوه .

أخرج من سرادق الحزن إلى صالة الفرح . اطلب الرحمة لروح الكومي ، وللعائلة التي يقتصر عزاؤها على وجبتين إحداهما ، في الغالب ، فول . اذهب لحفل زفاف عايدة . عايدة بنت عم أحمد صارت عروساً . صمدوها في مدرسة سيدي جابر الابتدائية المجاورة للدكان . عايدة في الكوشة يا جدعان أيوووووووه ، زغرتي يا خالتي ام عايدة ، تزغرد : لولولولولولولولولو . . .عايدة وانا تخطينا المحظور . تحدينا سيدي جابر ، ورمينا التقاليد في الزبالة . صديقان أعلنا صداقتهما على رؤوس الأشهاد . كل الحارة ، كل سيدي جابر المحطة ، ظنوا أن الاستاذ ربيع سوف يخطب عايدة ، في يوم من الأيام . لا أحد يفهم أننا أصدقاء «بنت وشاب يتصاحبو . . . طب ازاي» . إلى أن ظهر محمود . التحري محمود .

التحري الطيب . أوّل مرة اشوف تحري طيب . مع أن مهنته تماثل الوشاة والدساسين . ألا يقوم بالدس ونقل أخبار المواطنين ؟ لكن محمود طيب . يجمع النكات من المقاهي لعبد الناصر ، مثل آلاف تخصصو في لمها من المقاهي والدكاكين . ثم صار يلاحق مجرمين هاربين . يمضى نهاره في المقاهي يتسمع ويترصد الأخبار . الآن صار هو العريس . وأنا صرت أعزّ صديق . نبه الحاره كلها : «ربيع ح يبقى اصدق صديق ، اخويا الاستاز ربيع ، ده اصيل اصيل» . قال ذلك للجميع ، لكل من تعرف عليه ، منذ أعلن خطوبته على عايدة . محمود يتركني أنا وخطيبته في الدكان ، وفي البيت وحدنا ، لا شيطان ثالثاً لنا . قال لي : انتو خوات يا استاز ربيع . قلت له : طول عمرنا بنقعد مع بعض ساعات وساعات يا محمود . وبنسهر لوحدينا يا حودة . الشيطان ده ، اللي بيقولو عليه ، ما نسمحلوش بالدخول . نكسر رجله لو خطا العتبة . الشيطان بيخاف مننا يا محمود ، الشيطان جبان ، بيخاف من الشرفا والطيبين .

قدمت جنيهاً ورقياً . رفعته بين أصابعي عالياً فوق رؤوس الجميع . علقت كل العيون ، شبحتها بالجنيه العالي . دفعته نقطة ، جنيهاً كاملاً ، حتة واحدة ، وأنا لسة طالب . عشان خاطر عينين عايدة ، وعشان صحبة محمود . محمود همس في أذن رئيس الفرقة . مقدماً له المعلومات لزوم الفرح والنقطة . هتف الجدع ، وسط قرع الطبول ، وصيحات الشباب السكارى بالسعادة والطرب :

-الاستاذ ربيع .

ردوا بصوت واحد هز الحارة ، ورقص قلوب عذاراها في القاعة ، وفي الشوارع ، والبيوت :

-الاستاذ ربيع .

-وغزة .

- غزة .

- واهل غزة .

-اهل غزة .

-الطيبين .

-الطيبين .

وتابع هتافه وهم يردون وحماسهم يتزايد سخونة :

وفلسطين . . . . والفدائية . . . . وياسر عرفات . . . . اجدع ناس . . . .اجدع ناس . ودقي يا مزيكة . . . تدق :

ط ااط ، ط ااااط.. تربتة . ط ااااط ، ط ااااط . تربتة . طااااط ، طاااا . . . .

منذ قليل علمتني الحرب الشحادة على الأبواب ، الان سنعزز خبرتنا في الشحاتة ، في ملجئنا المؤقت الجديد . دخلنا برفقة الشابين إلى بيتهما الصغير ، الواقع أعلى منحدر يصل بين الطريق العام والواد اسفل بطن المخيم . ليس بعيداً من مقر الجبهة الديمقراطية في جبل الحسين . بيت من ثلاث غرف متوسطة الحجم ، وساحة صغيرة تتقدمها ، ومرحاض تركي . في غرفة أبوسمرة ، كما تناديه أمه ، وشقيقه المتزوج ، جلسنا نتبادل الحديث . التحفظ سيد الحوار . علينا أن نخفي الكثير من أفكارنا ، أخفينا ما استطعنا إخفاءه . لا نعرف نوعية مضيفنا . كرمه يؤكد طيبته . كرمه لا يحدد موقفه السياسي ، خصوصاً وأن الناس تميل ، بحكم الواقع ، إلى التعايش مع الوضع القائم ، الآن حل فيه الجيش محل الفدائيين ، واستعاد سلطاته السابقة . سهرنا تلك الليلة ، بعد أن تعشينا بعض اللحوم المعلبة والجبن . وشربنا الشاي مرات عدة ، ودخنا هو وأنا كثيراً . ابو سمرة ، الذي لم يفصح لنا عن اسمه الحقيقي ، ولم نسأله بدورنا عنه ، أخبرنا بأنه جندي سابق في الجيش الأردني ، أصيب في قدمه في حادث لم يذكر تفاصيله . فغادر صفوف الجيش . يأسف للأحداث . تمنى لو تفاداها الطرفان . لو فعلوا لأنقذوا آلاف الأرواح ، وتعاونوا كأخوة . كلام يقال في غير زمنه عادة . علينا أن نؤيده ، أيدناه . فضيافته لنا تستحق تنازلات كثيرة .

لم نخرج طيلة يومين أمضيناهما مع أصحاب البيت ، نستمع إلى الراديو ، ونتجاذب أطراف الحديث حيناً آخر . تحدثنا عن ماضينا بوصفه تاريخاً محايداً : طالبان يدرسان في الجامعات المصرية ، جاءا إلى الاردن للزيارة والتعرف على

المقاومة التي سمعا عنها الكثير . هل صدقنا مضيفنا ؟ من يعلم ! كل ما أعرفه أن كلامنا جميعا يقع بين المجاملة والعزاء .

حاضرنا يموت ، وسوف يصبح ماضياً يثير الحسرة حيناً ، والغضب حيناً آخر . ماضينا يموت ، والضرب في الميت حرام ، ولا تجوز عله سوى الرحمة . الرحمة على ماضينا في المخيم . الرحمة جعلت من إقامتنا لمدة يومين امراً لا يثقل على تلك العائلة الأصيلة حقاً .

رحبنا باقتراح ابي سمرة ، بعد يومين ، الخروج من البيت ، وتدبر أمرنا . فكرنا مثله في الرحيل ومغادرة المكان ، والتوجه صوب مركز المدينة . الحالة العامة باتت تسمح بقيام مثل هذه المغامرة الصغيرة .

خرجنا . أصر أبو سمرة على مرافقتنا إلى أن نجتاز حاجزاً للجيش ، أقيم عند تقاطع الطرق ، على مدخل المخيم . غادرنا البيت برفقة ابي سمرة ، بعد أن ودعنا شقيقه وزوجته ووالدته بحرارة وود . قادنا أبو سمرة عبر الطريق العام . سرنا جنباً إلى جنب ، إلى أن اقتربنا من الحاجز . الآن علينا ان نستعد للاستسلام لجنديين مسلحين يقفان عند الحاجز ، يدققان في هويات المارة ، والعابرين . قلبي بدأ يدق . قلبي أخذ يرتعش . رعشاته الصغيرة تكبر مع خطاي . مع تقلص المسافة بيننا وبين الجنديين . قال أبو سمرة بصوت خفيض ، إنه سوف يسبقنا ويقوم بترطيب الأجواء مع الجنديين . حث خطاه مترنحاً في الاتجاهين . وبدأ يهيىء لاستسلامنا ، الذي سوف يبدأ حال وقوفنا أمام الجنديين .

ألقينا بالتحية بصوت واحد . الجنديان ردا علينا منفردين . الأول ، وهو ، الأقرب إلينا ، سألنا :

–من وين الشباب ؟

–من غزة .

– انتوا لاتنين من غزة ؟

–نعم .

كررنا الرد معاً كأنه واجب الزامي .

-غزازوة . . يعني جايين تساندو الفدائيه .

رد نعيم :

- لا والله اجينا زيارة عند قرايبنا وانحشرنا في الخيم .

-وين قرايبكو؟

- ساكنين قدام ، تحت شوي ، مش ابعيد من هان .

- احنا طلاب جامعة .

قلت وكأن ذلك يهمهما ، ثم أننا لم نعد طالبين ، لكنه عذر ، مجرد معلومة بريئة ذات لون مدني يخفي عسكريتنا الباهتة ، هل كنا ، نعيم وأنا ، عسكريين حقاً ! أبو سمرة تدخل :

- الشباب طلاب جامعة يا زلمة شوف جوازاتهم .

أخرج كل منا جواز سفره . قدمناهما للجندي . تصفحهما . قدمهما إلى زميله ، الذي تحدث بلهجة بدوية :

- من شان عيون أبو سمرة بس ، روحوالله معكم .

مضينا . قطعنا بضع أمتار . ابتعدنا قليلاً . تطلعت خلفي . لوحت بيدي لأبي سمرة مودعاً ، من بعيد . من بعيد رأيت أبو سمرة مثل هالة من فرح . كدت أراه جسداً شفافاً ، يصعد إلى السماء مثل ملاك . تحمله اجنحة من ريح خفيفة . ابتعدنا . حين تطلعت خلفي ، مجدداً ، لم أر أبا سمرة . اختفى ، تحول إلى صفحة بيضاء نقية . الى رأيت مرآة فيها ، خلال يومي إقامتي ونعيم في بيته ، صورة الفلسطينيين ، بعد خروج المقاومة من المخيم .

هبطنا المنحدر الجبلي . تابعنا طريقنا إلى أن دخلنا وسط المدينة ، فإذا بنا وسط غابة من بنادق ومسلحين . ألقينا بأنفسنا في مياه الغابة الدافئة ، ولم ندر ، أبداً ، أننا لن نسبح فيها طويلاً .

***

أمضينا نعيم وأنا ليلة واحدة في فندق قريب من الوسط التجاري في عمان ، لم نسأل عن اسمه ، وصفه لنا بعض من التقيناهم من رفاقنا في الجبهة . كنا

حقاً بحاجة إلى تلك الليلة نأكل من صحن ندفع ثمنه . ندخن سجاير ليست من علب الآخرين . ننام في سرير لم يصمم لشخص بعينه . استيقظنا قبيل الظهيرة بقيل . تناولنا طبقين من الحمص والفول ، وغادرنا الفندق إلى الوسط التجاري ، حيث نستطيع الالتحاق بالرفاق المقاتلين . كم بدا الأمرمضحكاً حقاً . لقد أمضينا أيام القتال ، في عز القتال ، متنقلين بين فرن أبي محمود والوادي ، الذي انتشر على جانبيه الكسالى والجبناء من المقاتلين ، فلماذا نعود لطلب السلاح مجدداً ؟ لكن وسط المدينة كما رأيناه أصبح غابة بنادق . يستحيل علينا ألا ندخلها . ونصبح شجرتين وحيدتين غريبتين وسط الغابة . وعندما دفنت بندقيتي في الخيم سرت المسافة بين قبرها والفرن عارياً بلا هدوم . احسست حينها بمؤخرتي مكشوفة للجميع . الآن أريد من يغطيني وكذلك نعيم . السلاح يعطي طمأنينة . يمنح الثقة بامتلاك قدرة الدفاع عند اللزوم . الدفاع ، نعم ، لأننا لا نقوى على القتل ، أصلاً ، حتى لو كنا نخوض حرباً عادلة .

تسكعنا لساعات بين المسلحين ، الملونين برموز تنظيماتهم وبقايا الحجارة وقطع الحديد والتراب والورق والأشياء الصغيرة والدكاكين المغلقة وإشارات المرور المحطمة . تنقلنا . تجادلنا . تناقشنا مع كثيرين . هنا لغة واحدة تسود ، تلخصها جملة واحدة : ما زال قلب عمان في أيدينا . لم نزل لم ننهزم . لكن المفاوضات للتوصل إلى اتفاق تدور في مكان اخر بعيد ، في القاهرة حيث يجتمع الزعماء العرب ، وحقيقة الأمر أن الجميع ينتظر ليعرف أي طريق يسلكه لاحقاً .

بعد الظهيرة التقيا مجموعة من رفاقنا وبين هؤلاء أبوشهاب ، الذي استقبلنا بترحيب بالغ . طلب من نعيم الانتظار ريثما يعود ، وقادني عبر عدد من الأزقة إلى زقاق فرعي يقف عند زاويته أحد اشبال الجبهة لا يتجاوزعمره الثانية عشرة ، وقد جلس خلف رشاش «ديكتريوف» .

-سيكون موقعك هنا يا رفيق إلى جانب الرفيق الشبل . تستطيعان تنظيم أوقات الحراسة بينكما . أعطى أبو شهاب تعليماته ومضى .

اتفقت والشبل على تناوب الحراسة كل أربع ساعات واختار أن يبدأها هو . لم

يكن ثمة ما أفعله فتمددت على بطانية ووضعت جعبة الرصاص تحت رأسي وسرعان ما غفوت .

استيقظت قرابة السابعة مساءً . المساء هبط . الظلام لم ينتشر بعد . دخنت سيجارة ريم . تبادلت كلمات قليلة مع الشبل الذي انتهت نوبة حراسته . أبلغني أنه سوف يذهب في مشوار قصير ويعود سريعاً . جلست خلف الدكتريوف باسترخاء ، فوقف إطلاق النار ما زال سارياً والوضع هادىء بصورة عامة باستثناء طلقات متفرقة بعيدة . كل ذلك دفعني إلى التساؤل عن مهمتي هنا ولماذا أقوم بحراسة هذه الزاوية من الشارع الذي ينتهي بحائط . وما إذا كنت ساقاوم غزواً أو محاولة لعبور الشارع المقابل مثلاً . لم انشغل كثيراً بالتساؤل على أية حال ، بل إن غياب الشبل ، الذي غادر الكمين ، منذ لحظات ، أثارني بطريقة ما . كان عليه أن ينام خلال ساعات حراستي لكي يتمكن من مواصلة نوبته حتى لا يغفو فوق سلاحه . لكنه لم يفعل . مضى الوقت بطيئاً . العتمة صارت موحشة . وهج سجائري صار الضوء الوحيد لسهرتي الإجبارية . ودخانها أصبح ناقلة أفكاري المتضاربة ومخاوفي إلى الفضاء الممتد أمامي ، يصعب علي رؤيته . أسمع وقع أقدام يقترب . يظهر شبح أمامي :

-من هناك ؟

– هاظا انا يا رفيق ما تخفش .

جاء الشبل ، ما يشبه كيس الخيش كان على ظهره . أنزله ، ووضعه على مقربة مني وحرص على إخفاء ما به ، ثم خاطبني بارتباك زاد حيرتي ورغبتي في اكتشاف ما يقوم به :

– يا رفيق ، ممكن توخذ بالك شوي بس ، بدي اجيب هالغرظ .

-شو عم بتجيب يا رفيق؟

-لا ولا شي . ،ما تخاف ما في شي ، بعدين بخبرك رفيق .

مضى . عاد إلى حيث ذهب في المرة الاولى على الأغلب . بعد قليل مر الرفيق أبو شهاب . سأل عن الحال . كل شيء على ما يرام يا رفيق . قلت له

فواصل سيره . يبدو أنه يتفقد الكمائن الأخرى . لم يمض على غياب الشبل أكثر من عشرين دقيقة ، عاد ، وعلى ظهره حمل كالذي أنزله في المرة الاولى ، شيء ما لف ببطانية .

سألته مجدداً ، اعترف :

-كنادر ، يا رفيق .

-كنادر ، شو عم تسرق؟

-لا رفيق ،لا ولا تحط في بالك ، هذا محل برجوازي ، أكبر محل في البلد والسرقة فيه حلال .

قديش مقاس رجلك ؟

– انا ما بلبسش مسروق يا رفيق ، بعدين لو شافك قائد المحور ، كيف رح يكون موقفك ؟

– ما تخفش بدبر حالي ، بس انت ما تخبره .

عدت أراقب الشارع الغارق في العتمة . صورة الرفيق أبو شهاب لم تفارق ذهني . كان قائد المحور ، مرشدي ودليلي في الليل الموحش ، صاحب تجربة متقدمة بالنسبة لي ، يأتي ليكتشف أننا أصبحنا لصوصاً ! أضعت مستقبلي كله لكي أنتهي حارساً للصوص باسم الثورة . كنت أبحث ، قبل قليل ، عن سبب وجودي في هذا المحور ، عن الذين أدافع عنهم في شارع مغلق . أجلس رابضاً خلف رشاش ثقيل ، أتبين في النهاية أنه للدفاع عن كمية مسروقة من الأحذية . لكمية مما يسميه الرفيق الشبل «كنادر الثورة» ؟ . أنا الماركسي اللينيني الذي جرته الماركسية من سنته الدراسية الجامعية الأخيرة ،لكي تلقي به في صفوف الثورة ، يحرس كنادر . قررت أن أفاتح أبو شهاب . أصرخ في وجهه بقوة الانتقاد الثوري الذي تمنحنا إياه الأعراف والتقاليد الحزبية . ثقتي بموقف حاسم يتخذه قوية . فهو مثلي عضو في تنظيم ثوري ولن يقبل ما يجري . طمأنت نفسي وانتظرت . لم أشأ أن أفتح معركة مع صبي مراهق يعتبرونه «شبلاً» في صفوف الثورة . جاء أبو شهاب . كان يتابع جولاته ، يتفقد الكمائن . لاحظ حركة الشبل

في العتمة وهو ينسق ما سطا عليه من أحذية . تقدم نحوه مباشرة ، صرخ :
ايش بتسوي يا رفيق؟
- ولا اشي .
- وريني شو مخبي رفيق .
ارتبك الشبل . أخذ يدور في المكان . احضر قطعا من كيس ورقي . ابو شهاب واصل صراخه مؤكداً أنه لن يغادر المكان قبل أن يرى ما يخبئه الشبل . قلت لنفسي : لقد جاء وقت العدالة الحزبية ، عدالة الثورة التي بدأها لينين . وجئنا نحن أحفاده ، من أم عربية ، لكي نكمل طريقها ، نقوم بدورنا الأممي ، نحققه في نموذجنا الفلسطيني .
تناول الشبل ورقة كبيرة ، سميكة ، من كيس اسمنت ممزق ، وأشعلها عند طرفها . علت ألسنة لهب صغيرة نشرت ضوءاً يكفي لأن يدفع ابي شهاب إلى الصراخ غاضباً حانقاً :
-شو هذا يا رفيق ؟
- رفيق ، مثل ما انت شايف ، كنادر .
أمسك أبو شهاب أذن الشبل اليسرى بين أصابعه . لو كان الضوء كافياً لكشف عن لونها الجديد . انحنى أبو شهاب ومعه انحنى الشبل مجروراً من أذنه ، بيده الورقة لم تزل تشتعل ، لهبها الصغير يتمايل حمرة على وجهيهما . فجأة استقام أبو شهاب مثل جنرال حقيقي ، واعتدل الشبل فيما اللهب يخبو حتى انطفات الورقة ، تناول الشبل ورقة أخرى ، أشعلها . تطلع إليه أبو شهاب ، تفرس ملامحه على ضوء الورقة المشتعلة ، صمت قليلاً ، ثم همس :
-هات لي جوز كنادر ، بني فاتح ، مقاس ٤٢ ، بنص لميع .
-حاضر . لعيونك رفيق .
-بنص ، فاهم ! لميع ، ما بحبش لا البويا ، ولا الكنادر اللي برباط .
ومضى يواصل مهمته ، لا أدري ما الذي سوف يعثر عليه في الكمائن الأخرى .

المقطوعة الثانية
شقيقتي التي تزوجت

وتحب أديبة وتحبك . تحبو عواطفكما على أربع . تتخطيان معاً عتبة الطفولة . تمشيان نحو الخطيئة الأولى ولا تخطئان ، من الشجرة لا تأكلان . تستوعبان آيات القبيلة . تحفظان التابوات والمحرمات جميعاً ، مثل آيات مقدسة تحفظان : ممنوع أن . ممنوع من . ممنوع عن . ممنوع على . ممنوع فوق . ممنوع تحت . ممنوع بين . ممنوع في . ممنوع إلى . ممنوع من الممنوع إلى الممنوع ، تتشربان المعاني .

وأديبة لحمك ودمك . غشاء حمراء مثل رمانة مثل مشمشة في الصيف تكون . خصبة مثل الأرض في شتاء تكون . شرايينها وديان . جسدها جبال كنعان . شعرها سوافي الرمل الناعمة . هي الأرض أمكم ، هي العرض تكون . تختارون يوم تحشرون . ويكون العرض معكم تأخذونه أينما تذهبون . هكذا قالت كتب القبيلة منذ جدكما السابع شاهين .

في سفر آدم وحواء أنت من ظهر أبيك ، هي من ظهر أبيها ، والداكما شقيقان ، من ضلع ، من بطن جبل المدهون ، من جزيرة العرب يأتيان . جدكما عرف المسيح ، وإلى الإسلام يصير . يسكن أحفاده أرض الفلسطينيين ، لأن والده إلى هناك يرتحل ، إلى أرض الفلسطينيين يرتحل ، يسكن أرض كنعان ، وتعرفه عسقلان .

مكتوبة لك ، مكتوب لها ، وينعقد قران . على ابنة عمك ينعقد قران . مثل

خيط في ثوب مجدلي يربط بين المسافات ، يلملم أطراف الجسد ينعقد قران . من لحمك تصنع لك فراشاً لا يرتاح عليه غريب ، ولا تنامان . لأن الرب جعل بينكما منفى . مثل الفلسطينيين ، من أبناء قومكما ولا تلتقيان ، لأن المنفى يكون .

حارس أبواب كروم القبيلة أنت . لا يقرب فتاتك من نسل آدم إنس ولا جان . محروس أنت بآيات أسفارنا . أنت لها وهي لك ، ولغيرك لا تكون .

صلاة :

أنا لها وهي لي وشقيقان نكون . هي حب طفولتي ، وطفولتي بريئة تكون . طفولتي حفظت الأسفار . شبابي توزّعه التاريخ في المسافات ، ابتلعته دروب المنافي ، ومدن الفراق . أضاعت أديبة بين مسارات الشتات ورغبات القوم . أديبة ضميراً صارت ، لم يزل يركض في شوارع المعسكر . يبحث عن طفلة ضاعت صبية بين رمال غربتي وعوسج آل مدهون .

وصل خليل الشيخ سلامة ، ابن عمة أبي ، إلى دمشق . اتصل بي في فندق «روضة البقاع» في الحريقة . حضوره فاجأني ، فقد ترك غزة في أواسط الخمسينات هارباً من جريمة قتل ارتكبها قبل النكبة ، وبرأته منها المحكمة . أقام في طولكرم ، والبعض قال في الخليل . آخر مرة رأيته فيها ، كانت قبيل رحيله بأسابيع . قررت عمتي الحاجة دلول ، زيارة عمتها رقية ، أم خليل ، وأصرت على أن تأخذني معها . رفضتُ الذهاب ، لكنها أصرت على ذلك ، وأخذت تشجعني بقولها :

«بتتفرج ع المنجرة واحنا في طريقنا لبيت عمتك أم خليل ، وبتشوف المنشار اللي بدور على ماكينة ، وكيف بيعملو القباقيب» . توقفنا أمام باب المنجرة ، تفرجت . سمعت أزيز المناشير . . . تززززززســـــــــــــززززتاطشت ، تززززززســـــــــــززززتاطشت . رأيت نشارة الخشب تتطاير ويخرج من وسطها قطعة خشب تشبه القبقاب . قالت عمتي : «الزايبيهزهطالكلؤااب» . لم أفهم قولها لأني لم أسمعه جيداً بسبب قوة أزيز المناشير . ابتعدنا . سألت عمتي عما قالته ، فكررت قولها : «الزلمة بيزبط القبقاب» . فهمت .

في بيت عمتي أم خليل رأيت تحفة ، شقيقة خليل الصغرى ، فرحت . صحت لنفسي فقط : «يا الله قديش حلوة بنت عمتي» . وغمرتني سعادة لا

توصف ، حين أخذتني من يدي إلى الحارة ، لاعبتني تحفة بكرة إسفنجية صغيرة ، أخذت تقذفها لترتطم بالحائط فتلم كفيها وتلقفها قبل أن تسقط . ثم تطلب مني أن أقلدها ، أفعل . حين يأتي دورها لا أرفع عيني عنها . «هذي بنت عمتي !» أهمس لي بفرح طفولي ، وأتابعها تقفز ، تلقى بالكرة ، ترمي ذراعيها خلف ظهرها وتصفق ، ثم تسرع وتلتقطها . مثل تقاطيع وجهها وبشرتها لم أر من قبل . ولم تكن شقيقتها دلول تقل عنها جمالاً . ألم يكن جمالها سبباً في ارتكاب شقيقها جريمة القتل تلك ؟! لم أر تحفة منذ أقاموا في الضفة الغربية . خالي محمد ، أبو زياد ، سبقهما إلى الضفة وأقام في الخليل . فتح للعائلة فرعاً صغيراً هناك . خالي تزوج خليلية منذ كنا في الجدل . بعد الحرب لحق بعائلة زوجته . هاجر إلى الخليل بدلاً من غزة . لم أر خالي في حياتي ، لكني رأيته في حكايات أمي . حكاياتها رسمت له صورة جميلة تشبهها ، لا بد أن الحنين أضاف إلى الصورة الكثير ، لونها بمشاعر أمي . لم أر خالي أبداً ، خالي حكاية مروية على لسان أمي ، مع أنه يعيش في الخليل ، والخليل مدينة فلسطينية .

لم أر خليل الشيخ سلامة ، أيضاً ، منذ لعبتي الأخيرة مع تحفة . خليل يصغر أبي ببضع سنوات فقط . وسيم وعاشق لا تكفيه امرأة ، مثله مثل الشيخ صبحي المدهون والمختار محمد خليل المدهون ، اللذين لم يكتفيا بامرأة واحدة ، وتزوج كل منهما من امرأتين .

كاد يطير فرحاً حين التقينا به شقيقي راسم وأنا في فندق الأندلس بساحة المرجة . لم يصدق خليل عينيه كما قال . تغاضيت عن سؤاله كيف توصل إلى معرفة مكاننا ، لأنه حتماً ، سوف يقول لي : «اللي بيسأل يا خال ما بيتوه» . ولم أستفسر عن حادثة القتل تلك ، فقد تجرحه الذكرى ، وقد يكرر كلمتين سبق وقالهما أمام المحكمة قبل أكثر من عشرين عاماً : «ما قتلتوش يا خال ، هوّ اللي طخ عليّ في الأول ودافعت عن نفسي» . لم أسأله عن بيتنا الذي لجأ إليه بعد الحادث هو وذووه . سوف يشهق ويقول : الله يطول عمرك يا خال ، ما إنت عارف اليهود أخذو كل إشي ، لا ظل بيتنا ولا بيتكم . وأقول له : عارف يا خال ، من

حد وأني عمري أربع سنين وأني عارف ، بس حبيت أسألك لأنك آخر واحد شفته .

الآن ، وقد جلسنا ثلاثتنا على مقعد في حديقة زكي الأرسوزي في منطقة السبع بحرات ، قال لي خليل كلاماً كثيراً له علاقة بالماضي الذي حضر ، وبالحاضر الحاضر ، وبالمستقبل الذي لم يحضر بعد . كلاماً أصعب من الكلام مع أنه يشبهه . قال أن عمتي مثل أمي ، لا بل أكثر منها ، تبكي كلما أتى أحد على سيرتي ، أو سيرة أخي . تقول : «يا من درى بشوف لولاد قبل ما أموت» وتبكي .

ولم تتحقق أمنية عمتي ، فقد ماتت في أوائل التسعينات . رحلت دون أن تراني أو ترى أخي . قبلها رحل جدي . قال لعمتي قبل وفاته بأيام :«نِفسي يا حاجة أشوف ولاد ابني» . وقبل أن يفارق الحياة أعاد إحياء أمنيته في لحظة انتهت ، ومات وصورتانا أخي وأنا في عينية ، أغلقهما بصمت على صورتينا ، فراحتا بعيداً ، بعيداً ، كأنهما قطعة من روحه . جاءني رحيله عبر الهاتف . بعده رحل عمي اعليم ، مثله عبر الهاتف رحل . كلهم يموتون عبر هواتف الغربة . لا نراهم ولا نسمع أصواتهم . يأتينا موتهم في نعي ، في صوت قريب ، أو صديق ينقله عبر الهاتف .

لم أهاتف عمي منذ احتلت إسرائيل قطاع غزة ، عام ١٩٦٧ ، ولم أسمع صوته . أتذكره أحياناً ، أستحضره مكوراً ، بجسده النحيل ، أمام بابور الكاز . إبريق شايه على النار . سيجارته اللف تحترق بين أصابعه ، يملأ دخانها غرفة بيته الوحيدة ، يختلط بصوت أم كلثوم تجود به الإذاعات ، تمد عمي بأسباب السهر ، تسنده بيقظة مسطولة . ألقي عليه التحية ، يردها بسعادة عابرة سرعان ما يبتلعها دخان سيجارته . سمعت همساً في سهرات الأقارب ، قالوا «سجاير عليم محشية حشيش والا وين بيظيّع مصاريه !» . استغربت استغرابهم ، وتساءلت بطريقة مضادة : وهل يملك عمي مصاري يمكن الاستفسار عن سبل إنفاقها . يتلقى شهرياً قرابة خمس جنيهات مصرية من«السناتيشن» التابع للأونروا ، بالكاد تكفي الحد الأدنى من المعيشة . ولولا تموين الأونروا لمات من الجوع هو وعائلته

المكونة من زوجته وابنته حليمة والصغير عبد الرؤوف . يشطف مراحيض المخيم ، ينظفها من خرا الجادلة وأهل القسطينة واليافاوية والقريب والبعيد ، ويستكثرون عليه خمس جنيهات . ثم يستغربون كيف يمزج الدخان بالكيف ، بصوت الست الطالع من صدر القصبجي أو السنباطي ، يرتشفه مع الشاي الذي يبقى حاراً يغلي أمامه فوق بابور الكاز على امتداد ليل السهر ! هكذا عمي ، يتكون عالمه نهاراً منه ومن مكنسة المراحيض والجردل والمطهرات وخرقة التنشيف ، وليلاً من بابور الكاز وإبريق الشاي وعلبة الدخان والراديو ، ومن الممكن أن يضم إلى عالمه بعض الكيف ، الله أعلم ، عدا عن كانون الفحم الذي يضاف إلى عدة السهر شتاءً . عمي كرر أمامي مرارا قوله «بابور الكاز هذا أعظم اختراع في العالم» . حتى ابنه عبد الرؤوف ، الصغير الذي جاء بعد انقطاع زوجته عن الحمل لأكثر من ثلاثة عشر عاماً ، عرف قيمة البابور . حاول إشعاله حين بلغ العامين من عمره .«ايش بدك تعمل يا عبد ؟» . تسأله أمه هنية في حضوري . يرد بدون تفكير : «تاي» . ويزحف على مؤخرته ليصل البابور ، يمسك بمكبس الهواء ويأخذ في تحريكه بأصابعه الصغيرة مقلداً والده . نضحك ، وأعلق : «طالع لأبوه» . ألتفت نحو هنية وأسارع إلى القول : «ولأمه كمان» . هنية ليست أقل ارتباطاً من عمي بالبابور ، ولا تقل عنه حباً للشاي ، بالنعناع ، بالمرمية أو بدونهما . هنية امرأة شايية تماماً ، أصرت على العودة إلى المجدل بعد الهجرة بأيام لكي تحضر بابور الكاز الذي نسيته . قيل لها : «انت مجنونة يا ولية ، تروحي ع المجدل عشان البابور !» . ردت : «طبعا رح أروح ، والله لو مسكوني اليهود وقطعوني ما بستغني عنه ، رح أجيبه يعني رح أجيبه» . كل الناس حاولوا إقناعها بالعدول عن رأيها ولم يفلحوا . تدخل عمي ، ومع أن البابور يعنيه مباشرة ، فقد نهاها عن العودة :«يا ولية اقعدي واسكتي بلا قلة عقل !» . ردت عليه بقوة : شوفو مين بيحكي ، إنت يا عليم بتقدر تقعد من غير كباية شاي ساعة واحدة في النهار ، واللا في الليل ! والا بدّك ايانا نظل مولعين النار والحطب طول النهار عشان نشرب كباية شاي ؟! عمي سكت . حين بلغني نبأ وفاته ، عبر الهاتف ، تخيلته مكوراً أمام

بابور الكاز ، بخار الماء يتصاعد من بعبوز الإبريق . غطاء الإبريق يرتجف برنين عشقناه صغارا ، يختلط بصوت البابور هادراً ، بصوت الست يتردد في أركان الغرفة ، يقطع ضوء سراج الزيت الأصفر الضعيف ، وسيجارة عمي تحترق بين أصابعه ، لا يلحظ توهج زهرتها الخفيف ، ولا يستشعر حرارتها . يسقط عمي مستسلماً أمام كوب شاي بالنعناع ، وأم كلثوم تصرخ في أركان البيت الصغير «فات الميعاد» . يتبدد صوتها في المسافة بين قبر عمي وصالون بيتي في نيقوسيا . يتصاعد صوت أختي على الهاتف قادماً من الدمام بعزاء متأخر . عمي صار كلمة عزاء متأخر تقال على الهاتف .

مات عمي مثل غيره عبر الهاتف . وماتت عمتي قبله عبر الهاتف . رحاب أخبرتني . هاتفتني من الدمام ، حيث تقيم وزوجها أحمد البراجنة ، وأولادهما الستة ، منذ سنوات . رن جرس الهاتف وأنا أدير المفتاح في باب الشقة . لقد وصلنا ، زوجتي سناء وطفلينا وسام ورامي ، للتو من بروذاراس ، القريبة من أيا نابا ، شاطئي القبرصي المفضل ، حيث أمضينا نهاراً تموزياً جميلاً . دفعت الباب بسرعة ، ورفعت سماعة الهاتف الأحمر الموضوع على الحامل الخشبي ذي اللونين الأسود والرمادي ، القريب من الباب ، وأنا ألهث . رحاب خافت حين وصلتها أنفاسي متقطعة عبر الهاتف ، طمأنتها ، وحدثتها عن رحلتنا . قلنا كلاماً كثيراً على الهاتف ، سألتها عن عمتي مصادفة ، فأبلغتني أنها ماتت ، قالت أنها ماتت منذ ستة شهور ، يا إلهي ، منذ ستة شهور ! صار علي أن أحزن على عمتي بأثر رجعي ، حزنا يعود إلى الوراء صعوداً نحو لحظة موتها الأولى ، لكي أبكيها قبل تشييع جنازتها ، وقبل أن يوارى جسدها التراب . أُسقط دمعاً قبل ستة شهور . كيف ؟ لم أستطع أن أبكيها كما ينبغي ، فأنا لا أعرف أصلاً متى ماتت بالضبط ، وإن أدركت سريعاً أنها ماتت بعد قرابة ثلاثة وعشرين عاماً على آخر لقاء لنا في خان يونس . بدت عمتي ، في تلك اللحظة شخصاً ما عرفته منذ زمن بعيد ، لكنه عزيز مثل قطعة من الروح . يا إلهي كم من أجزائها فقدت أرواحنا في الغربة .

العبد زوانة ، يعطيك عمره مات يا خويا من زمان . آه ، مين ، بتسأل عن الحاجة رقية ! ماتت هي الثانية ، كبرت يا خويا . وإم إبراهيم حلفص ، إم صاحبك سعيد ، بعد لحتلال بأكم سنة ، ماتت في السعودية . لأ ، لأ ، محمد صفية المدهون ، أبو باسم ، توفى في لكويت . لأ يا خويا قبل غزو العراق . ومين بدي أعد لك لأعد . كل واحد بيعيش عمره .

رحاب اعتذرت كثيراً لأنها لم تخبرني بوفاة عمتي في حينه . قالت : «راح الموظوع من بالي يا خويا وانسيت . سامحني» . هكذا قالت رحاب .

عمتك حملتني ألف ، شو ألف يا خال ، مليون سلام الك ولخوك .

قال خليل الشيخ سلامة ، الذي صار باستطاعته السفر إلى غزة بعد أن صار القطاع والضفة أراض محتلة .

وأبلغني خليل الشيخ سلامة ، أيضاً ، أنه جاء يحمل إلي رسالة شفوية من عمتي ، وكذلك أمانة . أخرج من جيبه خاتماً ذهبياً رفيعاً ، وصورتين فوتوغرافيتين . حين وقع نظري على الخاتم ، فهمت فحوى الرسالة التي ظهر عنوانها واضحاً . لم يبق سوى التفاصيل . خليل لم يبخل بها ، لقد جاء خصيصاً ليسمعني إياها :

اسمع يا خال ، عمتك خايفة تموت وما تشوفك ، ونفسها تفرح فيك قبل ما تموت . بدها تشوفك عريس . أجا لبنت عمك أديبة عرسان أشكال وألوان . عمتك رفضت . قالت ما بياخذها غير ابن عمها . أديبة لربعي . من يوم ما ولدوا وهوَّ إلها وهيَّ إلو . ابن عمها وأبدى فيها . وقبل ما أنسى يا خال ، هذول الصورتين لبنت عمك ، هذول منها ، اتصورت مخصوص عشان تبعت لك إياهن . واطمئن يا خال من ناحية الواجب ، ما يكون لك فكر أبداً . عمتك قامت باللازم وما قصرت يا خال . اشترت ذبلتين لخطوبة وذهب للعروس . عزمت كل العيلة . وصَّت على كرت دعوة ، طبعناه ووزعناه على الجميع . وبصراحة ما حدن قصر ، الكل حظرو فرحك ، (إلا أنا طبعاً) . كلهم بيحبوك . من محبة الوالد الله يرحمه . عمتك طارت م الفرح كأنها هي إم العريس . إللا صحيح ، ما هيَّ إم

العريس والعروس ،هيٌ الكُل في الكل ، مش انتو لاثنين ولاد اخواتها . لو انك هناك يا خال وشفتها يوم التلبيسة . ما شفنالك إياها الا فزت ع طولها . وقفت مثل النخلة . عمتك طول عمرها مثل النخلة . وراحت لبّست العروس . قالت والله ما بيلبسها غيري . حطت الأساور في إيد أديبة ، ولبستها الخاتم في إصبعها ، وقالت قدام كل الناس وبصوت عالي : أجا اليوم اللي أفرح فيه وما تروح تربايتي خسارة . كأنه خليل ما مات يا ناس . كأن أخويا أبو ربعي ، أبو العريس ، وأخوه محمود أبو العروس ، كإنهم اثنيناتهم اليوم عايشين ، ومعانا في الفرح . شايفاهم أني بعنيٌ الثنتين هاذول أشكرا خبر . وزغرتت . زغرتت يا خال لحتى طفرت الدمعة من عينيها ، وغرقت في البكا لحتى خفنا عليها . وما اطمأنينا الا تَ مسحت وجهها ، استغفرت ربها وابتسمت من بين دموعها ، وهي بتقول : م الفرح يا ناس ، فرحتي اليوم بالدنيا . قلنالها ألف مبروك . ألف مبروك يا حاجة ، وخير ما عملتي .

قبل ما أسافر قالت لي : أمانة الله يا بو سلامة يا ابن عمتي ، ما ترجع الا وجايب لي الخبر اللي يفرحني . دوّرع ربعي ابن خالك ولاقيه . أعطيه الذبلة ، وقول له هذه هدية عمتك . والصورتين ، ما تنساش الصورتين . خليه يشوف عروسته كيف صارت زي الوردة اللي شكلتها في شعرها في الصورة . وأمانة الله تقول له ، لربعي ، ما يزعلني ولا يكسر بخاطري . حلفه . قله بلسانك ما تزعلش عمتك يا ربعي ولا تكسر بخاطرها . ربعي فرحتي اللي باقيالي قبل ما أموت يا خليل . ما تدشره إلا لّما تشوفو بعينك . حط الذبلة في أصبعه ، وهات منّه توكيل عشان كتب الكتاب .

وقدم لي خليل الخاتم والصورتين وسألني :

– شو قلت يا خال ؟

– ايش بدي أقول يا خال ! بعد كل هلحكي ايش بدي أقول يا خال !

أقول لك يا خليل أنني تخليت عن أديبة قبل سنوات . قبل أن تكبر عبر سنين الانتظار . لماذا انتظرتْ كل هذه السنين حتى كادت فرصتها في الزواج

تضيع ؟ لماذا لم تتزوج ؟ من الذي رفض جميع الذين تقدموا لطلب يدها ! ألم يخبرهم عمي اعليم؟ ألم ينقل إلى عمتي رأيي في الموضوع . رأيي الذي أوضحته للجميع في ردي على رسالته التي تلقيتها عام ١٩٦٩ ؟!

توقفنا ، سمير ، قريبي ، وابن ابن خال أديبة ، وأنا ، قبالة دكان عم أحمد . أخرجت من جيبي رسالة زهرية اللون . فوجىء سمير لغرابة لونها :

– ايش هذي ، رسالة غرام ؟

ضحكت :

– نعم ، غرام عبر الصليب الأحمر الدولي . واللا أقول لك ، سميه «غرام من نافذة محتلة» . وضحكت وحدي .

تابعنا سيرنا .

شرحت لسمير الأمر بتفاصيله ، كنت أريد الاستعانة برأيه في الموضوع . أخبرته أنني تسلمت الرسالة منذ يومين ، قبل يوم واحد من حضوره إلى الإسكندرية لقضاء أسبوع معنا . لقد قطعت الرسالة آلاف الأميال حتى وصلت . استغرقت شهرين لتصل من خان يونس إلى الإسكندرية عبر جنيف . وساطة جنيف ضرورية إذ لا يوجد تعامل بريدي مباشر بين مصر وإسرائيل .

لم تتضمن الرسالة سوى ثلاث جمل وتوقيع عمي ، كأنها برقية يا ابن عم :

«ابن أخي الحبيب ربعي

ابنة عمك كبرت . هل تريدها أن تنتظرك ؟

الرجاء إبلاغنا بسرعة .

عمك محمد سليم ربعي المدهون – خان يونس

قطاع غزة» .

وطبعاً تمنى عمي الحصول على ردي بسرعة . ضحكت بمرارة ساخرة على قوله «إبلاغنا بسرعة !» . أي سرعة يا عمي اعليم ، سرعة بريد الصليب الأحمر الدولي ! قد يصلك ردي بعد شهرين أو ثلاثة ، وقد يضيع العمر كله والرسالة لم تصل» .

وصلنا نهاية الشارع ، عند دكان الكومي بائع الفول والطعمية الواقعة إلى اليسار . استدرنا يميناً . دخلنا شارع كليوباترة حيث أقيم . ظل سمير مصغياً لحديثي وأنا أواصل بث انفعالاتي بمضمون الرسالة ، انفعالات تتبدد في فضاء السوق ، ولا يلتقط سمير مغزاها .

حين وصلنا إلى البيت ، كتبت أسفل الرسالة ، في المكان المخصص للرد ، ما يلي :

«عمي العزيز أبو العبد . . .

زوجوا أديبة على بركة الله .

ابن أخيك

ربعي خليل المدهون» .

طويت الرسالة ، وحملتها صبيحة اليوم التالي إلى حيث ينبغي أن أعيدها لتعاد إلى خان يونس .

هل وصلت ؟ هل ضاعت في المسافات . هل ابتلعتها تفاصيل الاحتلال . هل زوجوا أديبة . هل ما زالت تنتظر ؟!

لا أدري .

مضت الأيام والشهور والسنين ، وأهلي وأنا في قطيعة . المسافات بيننا تتزايد ، والفراق شبح لا نهاية له . ونحن لم نعد نحن . نذوب تدريجياً في المسافات . تمحو الغربة ملامحنا الأصلية . وبريد الصليب الأحمر يثير القلق ، يصل ولا يصل . مثل بريد جحا ، كما تقول أمي حين تتأخر رسالة انتظرها : «يمّه ما تشغلِش بالك ، البريد في هالبلد صاير زي بريد جحا واظرط» . كأن جحا عرف البريد وإلصاق الطوابع أيضاً . مسكين جحا ، لا أدري لماذا اعتاد الناس على تحميله ذنوبهم وخطايا أيامهم ! أضحك بمرارة من أمي ، ومن جحا ، الذي يقحم في قضايانا ، ومن بريد الصليب الأحمر الدولي الذي نشط بعد احتلال إسرائيل لأراضينا . بريد يصل ولا يصل ، يرد ولا يرد .

أضاعتني أديبة في المسافات ، وأضعتها في البريد . ضاعت مني حبيبتي

الإسكندرانية في الحقيقة . ومعها ضاعت إسكندرية عمري ، عمري الذي وزعته على شوارعها وترماياتها ومحطاتها وجامعاتها وبيوتها ونسائها ومومساتها وعذاراها وشواطئها ، من مينا البصل لمحطة الرمل للشاطبي لسبورتنغ وستانلي لبولكلي لسان ستيفانو للمنتزه . من الانفوشي لسيدي أبو العباس لكوم الشقافة لكرموز لمحرم بك للإبراهيمية لكليوباترة لسيدي جابر ، شي لله يا سيدي جابر . في اللحظة الحاسمة خذلتني . إسكندرية عمري خذلتني . لم تنقذني من براثن مخابراتها ، من «رجالة» العقيد محمود مرزوق ومعاونه نظمي لعنهما الله معاً أحياءً أو أمواتاً . طردتني الإسكندرية لكلمتين في السياسة لم يتحملهما عبد الناصر ، طردتني . حرقت عمري الدراسي كله ، ورمتني في دمشق بلا شهادة ابتدائية . كلمتان في السياسة خربتا بيتي «لا لمشروع روجرز» .

ووجدت نفسي في دمشق . دمشق ألقت بي في حضن عمان . قاتلت في حربها الأهلية دون أن أقاتل . في أيلولها الأسود قاتلت ولم أقاتل . هزمت منتصراً ، وانتصرت مهزوماً . وأخرجتني اللجنة العربية ، لجنة الوزير التونسي ، الباهي الأدغم . أعادتني إلى دمشق مكسور الخاطر مكسور الشعارات ، لكي ألتقي خليل سلامة . بعد أكثر من عشرين عاماً جاء يبلغني نبأ خطوبتي لأديبة ، أولاً . وليكشف لي ، بعد ذلك ، أنه تم كتب كتابي عليها ، على سنة الله ورسوله .

سلمت خليل سلامة توكيلاً استخرجته من المحكمة الشرعية في شارع الحجاز بدمشق ، سلمه بدوره لعمي . حين اطلع عليه القاضي قرر أنه شرعي . حتى أنه تحمس وقال أن هذا الزواج ، الذي نعقده بين عريس في الخارج وعروس في الداخل ، هو تحد للاحتلال الذي يحول دون حضور العريس . أناب عمي اعليم عني في يوم عقد القران ، ووقع باسمي أمام المأذون والشهود .

تزوجت عبر المسافات . . . زوجتني كلمات خليل . أديبة إذن ستكون زوجتي على سنة الله ورسوله فور عودة خليل سلامة ، من دمشق .

ماذا لو لم يصل خليل إذن ! ماذا لو مات في الطريق إلى خان يونس لسبب

ما ، والموت لا يحتاج إلى سبب مهم أحياناً ! هل يتدخل الصليب الأحمر الدولي؟ هل يبحث عن زوج لم يتأكد من زواجه . وكيف سيدلّون مندوب الصليب الأحمر عليّ لو سأل عني؟ هل يدور في حواري الشام ينادي مثل أهل زمان : يا ساااامعين الصوووووت صلو على مُحمد . يا مين شاااااااف . يا مين دريييييي ، عريس متجوِّز ومش متجوز . عارف ومش عارف . إتجوز من غير ماحدن يقل له . اللي بيعرف عنه إشي يبلغ مكتب البوليس أو المختاااار ، والأجر والثواااب على اللــــه . . . يا ساااامعين الصووووت صلو على . . .

خليل التقاني دون حاجة إلى منادٍ «اللي بيسأل ما بتوه يا خال» .

الفدائية يملؤون الشام منذ خروجهم من عمان بعد أيلول . مكاتبهم معروفة . يكفي أن تعرف التنظيم الذي ينتمي إليه من تسأل عنه حتى يدلوك ، والتنظيم يعطيك اسم الفندق الذي ينزل فيه .

– ايش قلت ياخال ؟

أحسّ أبو سلامة بحيرتي وبترددي . عاد يسأل :

– مالك يا خال . سمعني صوتك . أني إجيت مخصوص عشان أخبرك واسمع منك . بدّي أرجع لعمان اليوم وأني مطمئن . عندي أشغال بدّي أخلصها قبل ما أرجع ع طولكرم . ما رح أرجع إلا ومعي موافقتك . عمتك مستنياني . إحكي لي عشان أروح لعندها واطمنها وافرّحها .

– ايش قلت يا خال !

– ايش رح أقول يا خال ! كل شي صار وانتهى الأمر ، وقولي ما رح يغير ولا يبدل . وما دام هذي رغبة عمتي وبتحقق اللي في نفسها ، يبقى ما فينا إلا نقبل وما نزعّلها .

– يعني نقول مبروك ؟

– الله يبارك فيك يا خال .

ووضعت الخاتم في بنصر يدي اليمنى .

ودعنا أبو سلامة ومضى ، عاد إلى عمان في اليوم نفسه .

عدت إلى فندق «روضة البقاع» لكي أتلقى تهاني جميع من أبلغتهم الخبر والتفاصيل ، المنطقي منها وغير المنطقي . المضحك ، أيضاً ، وهو كثير ، والجدي غير المضحك . وهؤلاء هم ، أبو عادل صاحب الفندق ، وشريكه أبو بسام صاحب محل لبيع أدوات كهربائية ، في شارع الحجاز ، ورفاقي عوني ومصطفى ، وبعض من تعرفت إليهم من الفلسطينيين نزلاء الفندق .

صعدت إلى غرفتي ، وجدتني مع حقيقة أخرى ترتسم أمامي ، حقيقة غير تلك التي تبدت لي وأنا أستمع لكلمات خليل سلامة كأنني أستمع لعمتي . كأن الحاجة أمامي بجسدها الهائل الذي يفرض حضوره ، وعينيها القويتين اللتين تنشران سلطة ومحبة في وقت واحد . حقيقة جعلتني أهيل على نفسي أسئلة أصعب من الأسئلة . أغوص فيها كغارق في رمل تلال خان يونس . أسئلة لم أستطع طرحها في حضور خليل . حضوره استمد قوته من مكانة عمتي في نفسي ، ومن احترامي لابنة عمي ولرغبتها في الارتباط بي . أسئلة أحاطتني مثل حصار مخيم . أنا الماركسي اللينيني ، كيف زوجتني عمتي بإشارة منها عن بعد . لعل طريقة زواجي هذه هي أول محاولة جدية للتحكم في الأشياء ، ومن ثم البشر عن بعد . عمتي زوجتني عبر كلماتها ، بثتها من مسافة آلاف الأميال لكي تجعلني زوجاً بالمراسلة ، زوجاً مع وقف التنفيذ .

كيف حدث ذلك ؟

لماذا وافقت ؟

الغريب والمدهش حقاً ، أنني فرحت بالخاتم . تحسسته ألف مرة . نظرت إليه مراراً بإعجاب : «أنا مخطوب» . فركت الخاتم بإبهام كفي اليسرى . رأيت خطيبتي تخرج من ومضات بريقه الأصفر . مثل حورية شقراء غشاء تخرج . تبتسم كما في صورتيها الهديتين . أتأمل الصورتين . أنقل بصري بينهما . أثبته على إحداهما . أديبة جالسة ترتكز على كف يدها اليسرى . عقصت شعرها فوق رأسها . شكلته بوردة حمراء . تتطلع إلي بأمل . في عينيها أمل . تنهض بهدوء . تغادر الصورة . تتمشى أمامي . تقترب . تتوقف قبالتي باسمة . كبرت أديبة ،

صارت امرأة . ما زالت نمشاء مشمشية جميلة كما عرفتها . أستفيق على أديبة جالسة كما هي في الصورة . أضم الصورتين إلى بعضهما . أدسهما تحت وسادة ليست لي . تنام أديبة تحت وسادة ليست لي ، على سرير في فندق من الدرجة الألف ، امتلأ بعشرات النزلاء القادمين من هزيمتهم في عمان ، من هزيمتنا التي لم نر فيها حتى الآن هزيمة ، رأيناها صموداً وضحايا ، تجربة وشهداء ، قللنا من الصمود وأكثرنا من الضحايا . وها نحن نعيش مجموعات من مقاتلين وكوادر ، على الحوار والجدل الصاخب المعجون بصحون الحمص والفول ، المزيَّنة برؤوس البصل الأخضر وعروق النعناع . نجادل انتصاراتنا في الشعارات ، على كبايات الشاي طالعة نازلة طيلة النهار . نتحاور . ننفث خلافاتنا السياسية والأيديولوجية مع دخان سجائرنا المالبورو والكنت . وحين تغرب شمس دمشق ، ويدخل مساؤها بطن الليل ، وتنام المدينة في حضن جبل قاسيون ، ألتجىء أنا إلى زوجتي . أختار إحدى الصورتين . أوقظ زوجتي من نومها في الصورة . أحاورها وأعيدها إلى مخدعها تحت المخدة .

أمضيت شهوراً أحاور المتحاورين نهاراً ، ضمن موجات حوار لا يستحق الحوار . يتواصل بمعنى وبلا معنى . وعند منتصف الليل ، وأحياناً بعده بقليل ، أذهب إلى سريري الذي ليس لي . لحواري ، إلى حواري الآخر أذهب . فأجدني وحيداً مع ذبلة خطوبة وصورتين .

لقد تزوجت الصورتين . على سنة الله ورسوله تزوجت صورتين .

صرت مثل من تزوج من امرأتين . تزوجت امرأة واحدة ، ولكن من نسختين .

أغفو على وجه أديبة في الصورتين .

في الصباح أستيقظ . أوقظ زوجتي من تحت المخدة :

صباح الخير يا مشمشتي

صباح الغربة التي تلد غربتها في الغربة

فراقاً يمتد في زمن المسافات

من مدن الولادة الأولى إلى مدن الفراق

يذيب ملامحنا القديمة
نكبر غرباء
غرباء نكبر
نكبر
في مواسم الفراق

***

بدأ زواجي الذي لا يشبه الزواج يؤرقني . الأيام تمضي ولا شيء يتحقق من مراهنات عمتي وخطيبتي . لا كلية الآداب في جامعة دمشق قبلتني ، ولا أنا بقادر على خلع رداء المقاومة الذي لبسته واستحليته ، بل وأشعر بالفخر بالتمشي به ولو على أرصفة حياة الناس العاديين . بدأت أشعر بأن الخروج من مأزق زواج ليس بالزواج يقترب يوما بعد يوم . عندما التقيت خليل سلامة ، قبل شهور ، لم أستطع إلا الموافقة على ما أقدمت عليه عمتي . لم أقو على تدمير حلم عمر امرأة لا تشبه النساء ولا الرجال ، امرأة تقع في مكان ما بين الإنس والملائكة ، تدخل الجنة في موكب الأنبياء والقديسين . إنهم يعرفونها . لا شك في أنهم يعرفونها ، مثل عمتي الحاجة دلول ، بائعة القماش ، التي تكسب بعرق جبينها أقل مما حللته الأديان ، لا بد وأن يعرفها القديسون والأنبياء ، يشيرون إليها يوم القيامة : هذه ابنتكم حواء بنت حواء ، من ضلع أبيها حسن المدهون . مرت بشجرة المعرفة . صادفت بدلاً من الحية مائة ، تعاملت مع كل الثعابين . عرفت فنون الحياة دون أن تأكل من الشجرة ، أو تغري زوجها الحاج حسين . لم ترتكب الخطيئة أو تعرف المعصية . زوجتني من ابنة أخيها . زواجي حلم عمرها ، تركتها تحلم . تمد حلمها ليغطي مساحة عمرها الباقي . يدفيء صدرها الذي عرّته السنين من أحضان أعز الناس إليها ، زوجها الحاج حسين ، عمي محمود ، وخليل أبي . يخفف عنها جراح الغربة التي سحبتنا أخي وأنا من حبات عينيها . تركتُها تحلم . وصار عليها أن تستيقظ وحدها من الحلم ، وتكتشف الحقيقة . صرفت عليَّ دم

قلبها حتى كاد قلبها يضخ هواءً ، خفت عليها . هي القائلة «أني عايشه عشانهم . . . تعبي وشقا عمري كله الهم . . . لولاد أخويا» .

عندما نكف عن أن نكون سبباً لاستمرار حياة عمتي ، تموت . وافقت على الزواج . خفت على عمتي من الموت . خفت على نفسي من الضياع . أردت امرأة ترتاح في قلبي الذي خرجت منه حبيبتي الإسكندرانية صيف العام ١٩٧٠ ، قبل عام ونصف فقط . جرحي لم يزل نازفاً . جاء خليل الشيخ سلامة دون أن يعلم أنه وعمتي ، اختارا لحظة تاريخية في حياتي ، لن تكلفه شرحاً طويلاً لكي ينال موافقتي علي الزواج . جاء وأنا مهزوم في الحب ، مهزوم في المال ، مهزوم في السياسة ، مهزوم في الحرب . من قلبي خرجت عمان التي أردناها هانوي فطردتنا . جاء خليل وحاضري مهزوم في الماضي ، ومستقبلي مهزوم في الحاضر . وافقت . تركت للأيام تحسم خلافاتها ، تقرر طريق المرأة فيّ . في تلك اللحظة جاء خليل سلامة يطلب موافقتي على زواج لا يشبه الزواج . زواج يرضي عمتي ، يمزق قلب أمي ، ينعش قلب مرت عمي ولا ينعشه . يجدد فيَّ عواطف تأرجحت العمر كله بين الحب والأخوة ، ولم تستقر في معنى منهما . هي الحب والأخوة معاً . أبتعد عن أديبة أجد نفسي بحاجة إليها . أقترب منها فأستشعر في أنفاسها حرارة قلب شقيقتي . كأنها شقيقتي التي تكبر شقيقتي . أمي قالت أنها شقيقتي في الرضاعة . أمها نفت . تجادلتا مراراً . أمي لم ترغب في زواجي من أديبة . وأكدت أنها أرضعتها بما يكفي لأن نصبح شقيقين بالرضاعة . أمها لا تعارض ولم تعارض فكرة الزواج . أكدت ، مراراً ، أنها لم ترضعني سوى مرة واحدة ، وربما مرتين .

سمعتهما مرة تتحاوران . تضعاني وأديبة بين أثدائهما ، تقذفان بنا بين صدريهما . ضعت أنا بين صدرين :

- انت ناسية يا لطيفة ، أني رظّعت ربعي مرة واحدة بس .

- انت حرة ، بس أنى رظعت أديبة أكثر من عشر مرات .

ولم ينته حوارهما أبداً ، وظل يتجدد عبر السنين . يجدده كل حديث عن الزواج . وكلانا ، أديبة وأنا ، ضائع بين صدري امرأتين تقيسان الحقيقة بمعايير

علاقات السلفات والكناين والحموات .

هل أديبة شقيقتي في الرضاعة حقاً ؟

عمتي لن ترتكب خطيئة كهذه وتسعى لزواجي منها .

هي الآن زوجتي التي تضع رأسها تحت المخدة لا فوقها . صورة أخرجها إلى النور بين الحين والآخر .

مضت شهور وعلاقتي بأديبة محميّة بصورتين . وزواجي بها يتأرجح بين الممكن والمستحيل . وعاد خليل . جاءني إلى فندق روضة البقاع ثانية . جاء يحمل لي ، هذه المرة رسالة مغايرة . لا بل جاء يسحب رسائله السابقة ، يستعيدها تاركاً لي هدية عمتي ، خاتم الخطوبة والصورتين .

أبلغني خليل بطلاقي من أديبة . وقال أن عمي اعليم هو الذي تولّى إجراءات الطلاق ، رسمياً . استخدم التوكيل نفسه عندما أناب عنّي ووضع توقيعه على عقد قراني بأديبة . هذه المرة وضع توقيعه نفسه على ورقة الطلاق . في المرة الأولى ردد عني خلف القاضي : زوجتك وأنكحتك ابنة عمك . . . هذه المرة قال لابنة عمي إنتِ طالق . كأنني أنا الذي قال ، مع أنني لم أقل . التوكيل الذي حصل عليه عمي جعله ينطق باسمي ، يزوجني ، ويطلقني على سنة الله ورسوله ، وما على خليل سلامة إلا البلاغ .

جاءني خليل سلامة هذه المرّة وأنا مطلق . التقيته وأديبة مطلقتي . متى طلقت بالضبط ، متى طلقوني ؟ لا أدري . لو لم يأت خليل ، لو مات في الطريق لسبب ما غير مهم ، والموت لا يحتاج إلى سبب مهم ، أحياناً ، لظننت أنني لم أزل متزوجاً . ولاستمر ارتباطي بالصورتين فترة أطول . لكنه جاء وأعلن نبأ الطلاق في حضوري . انتابتني مشاعر مختلطة . حزنت على نفسي . حزنت على أديبة . شيء ما سقط من قلبي . أنا لم أرفض أديبة هذه المرة . لا بد أنها رفضتني . انتظرتني ، في السابق ، سنوات طويلة ولم أحضر ، وحين تزوجتني اعتقدت أنني سأطلب حضورها لنتزوج فلم أفعل . الآن جاء دورها لترفضني . هل رفضتني

بقسوة لا تشبه رفضي الزواج منها عام ١٩٦٩ ؟ ذلك الرفض الهادئ الذي نقلته إلى عمي في رسالة الصليب الأحمر الدولي . لا بد أنها قالت : «ما دام ربعي صايع مع الفدائيين ، أني مش مستعدة اتجوزه» . هناك كثيرون اعتبروا الفدائية دشارة وصياعة وإضاعة للعمر والمال والمستقبل .

سناء لم تقل ذلك ، أعجبت بي لأفكاري . دخلت عالمي من موقع انتمائنا المشترك إلى التنظيم نفسه انتمينا . عبرنا المسار الواحد . لم يسألني والدها الحاج درويش قبلاوي عن أصلي ولا عن فصلي . اكتفي بجنسيتي . جنسيتي جنسيته التي لم تكتمل . من النادر أن لا تتسبب فلسطينيتي بتعقيد الأمور ، هذه المرة حصل . في زواجي من سناء سهلت فلسطينيتي الأمور . صارت عكا أقرب إليّ من المجدل عسقلان . وجدت الشيخ في الحاج درويش قبلاوي ، البالغ من العمر ثمانين عاماً ، ماركسيا مثلي . لم يأت على سيرة المهر وتكاليف الزواج . لم يسمعني كلمة واحدة حول الموضوع .

قال لي الحاج درويش على إفطار رمضاني ، بعد شهور من خطبتي لابنته سناء :

– اسمع يا ابني . أنا بعطيك بنتي . أنا ما بحط في جيبي مهر ولا ببيع بناتي . البنت يا ابني مش بقرة للبيع والشرا . البنت بني آدم . بيني وبينك شرع الله ورسوله . . . بتدفع لي ليرة دهب . معك ليرة دهب ؟

وضحك الحاج درويش . وضحكنا جميعا ، الحاجة أم سليم وسناء وأنا .

أم سليم علقت ، بعد أن اكتملت ضحكاتنا :

–كول يا بو سليم واسكت . من وين اجيبلك ليرة دهب هلأ .

لم يستسغ الحاج درويش هجوم زوجته المباغت . فرك رأس فلفل حار في صحن البامية الذي أمامه وهتف :

– طيب ، بلاش ليرة دهب .

– الحمد لله . هيك الناس بتحكي .

عقبت أم سليم .

أبو سليم أضاف :

- شرط بتصوم عشرتيام .

احمر وجهي واصفر واخضر . لو طلب خمس ليرات لدبرناها بأية طريقة ، لكن أصوم ! أي مشكلة هذه التي وضعني فيها الحاج درويش . يعرف أنني عضو في الجبهة الديمقراطية . ولا بد أن يكون سمع بكوننا شيوعيين ، لا نصوم ، ولا نعترف بالأديان أصلاً . هل كان يتغاضى عن ذلك احتراماً لوطنية الشباب ؟ ولهذا لم يعارض انتماء ابنه الثاني ، سهير لثقته بأخلاقياته ، وحسن تربيته له . في الجبهة سموه الرفيق الشيخ . لا بد أن الحاج درويش ظن أنني ، أيضاً ، رفيق شيخ مثل ابنه سهير . وتأكد من أن إيماننا الوطني واحد . يعتقد الحاج أن ابنه لا يمكن أن يكون على خطأ . احترم وجهة نظره وخياره وانتماءه التنظيمي . إذن لماذا طالبني بمهر من صيام ؟! الأغلب أنه حاول أن يجرب إدخالي إلى دائرته لعله يكسب عند الله ثواب هدايتي .

-ها . . . شو قلت ؟

أم سليم تدخلت لتخرجني من المأزق :

-هلأ شو بدك فيه ، يصوم ولا ما يصوم . عمرك صمت أو صليت وانت في عمره ؟

سكت أبو سليم فجأة . أربكته حماتي التي واصلت هجومها مستغلة حراجة موقفه ، ومعرفتها بسلوكه أيام الشباب :

- عمرك ما عرفت الصلاة ولا الصوم إلا بعد ما اتجوزنا .

- الحمد لله والشكر لله .

قال الحاج أبو سليم منهياً إفطاره ، ونهض عن كرسيه بتثاقل واتجه نحو المطبخ ، مغيرا ، بذلك ، مشهد الحوار كله ، معلناً أنه سيعد لنا القطايف .

سناء قالت : البابا كان حلواني في مصر .

قلت لخليل سلامة :

- بنت عمي معها حق يا بو سلامة . أنا طريقي صعبة ومعقدة . خلي أديبه

تشوف مستقبلها .

في اليوم التالي ، سافر خليل سلامة عائداً إلى الضفة من طريق عمان ، وذهبت أنا إلى سوق الذهب في الحميدية . كان علي أن أدفع بعض ما هو متأخر من أجرة الفندق لأبي عادل ، ولم يكن معي ثمن علبة دخان . بعت خاتم الخطوبة . بعت رابطة الزواج ، واحتفظت بالصورتين .

دفعت لأبي عادل بعض ما علي من دين ، ودخنت بما تبقى تفاصيل علاقتي بابنة عمي .

لم تعد أديبة زوجتي . عادت إلى وضعها قبل الزواج . طُلقت ، مثلي ، دون أن تتزوج . وعادت تحتل مكانها في قلبي كشقيقتي التي تكبر شقيقتي بسنوات . شقيقتي التي رضعت من ثدي أمي ورضعت من ثدي أمها . شقيقتي التي علمتني ألعاب الطفولة . كبرت معي وكبرت معها ، ولم يفصل بيننا الجدار الذي فصل بين بيتينا . فصلت بيننا مسارات الحياة . مزق روابطنا الاحتلال الإسرائيلي . تغيرنا ، ولم نعد نحن . محت الغربة ملامحنا الأصلية . ملامح أديبة ، التي عرفتها ظلت واضحة في صورتين ، تنامان تحت مخدة ليست مخدتي ، في فندق من الدرجة الألف . أغفو على ملامح في صورتين ، وأستيقظ :

صباح الخير يا أختي
صباح الغربة التي تلد غربتها في الغربة غربة
تلد الغربة منفى
يصير المنفى فراق
يكبر
ونكبر في دهاليز الفراق

المقطوعة الثالثة
مدينة المدن

إلى العراق . . .
شعباً بين نهرين

والمدينة بغداد ، إليها تسافرون . تدخلونها نهاراً مثل أرغفة طابون . تجدونها قمراً وقهراً وفجراً وشعراً ونثراً وعهراً وطهراً وخمراً وسهراً وبرداً وجمراً وزهراً وسحراً ونهراً ، ومسقوفاً مكلبش بالعرق ونساء في ساحاتها ، مظاهرات من شبقين بالمؤخرات يتفحصون اللحم المكور يطرحون بالكلمات غزلاً عراقياً : خوش قفة .

وبغداد تلبس ثوب كربلاء مرة في العام «تظرب قامة» ، في طرقاتها يسيل دمها ، بحد السيف دمها هي الذي يسيل .

وتكون بغداد مثلما عادة تكون ، تاريخاً وحضارة منثورة بين نهرين ، وجثثاً وانقلابات ، وسجوناً ب«نهايات» وبلا نهايات لا يرتاح حاكم فيها ولا محكوم . وبغداد محجبة في الخمار الأسود ، سافرة فاجرة بكل أنواع الأدب ، تسقي الفرات شعراً ونثراً . تذهبون إلى البصرة ، تعبرون الشط تعودون ، اسألوا المدينة كم أنجبت منذ السياب ، منذ ما قبل السياب ، منذ ما بعده . مثل سمك النهر لا يعد ، شعراؤها لا يعدون .

وصلنا إلى بغداد . وقفنا في ساحة السعدون مشدوهين ، لا نعرف أي الاتجاهات نسلك . أدرنا ظهورنا للسعدون ، رجل صغيرالحجم تجمَّع في تمثال معدني يرقب ساحة لا تهتم له . لم يتعرف علينا ، لكنه لم يقل لنا أننا غرباء . على يسارنا جدارية جواد سليم ، لم تعرفها المدن الأخرى ، وحدها بغداد جعلتها إحدى معالمها . رأينا أنفسنا في لوحة جواد سليم مع أننا غرباء وإن لم يقل لنا السعدون ذلك . استدرنا ثلاثتنا ، ثم تبادلنا الاستدارات ، إلى أن استقرت عيوننا على عناوين تهمنا ، على الأقل الآن ، وإلى حين نتدبر أمورنا . وجدنا أنفسنا أمام سلسلة فنادق ، تتلاحق أسماؤها أمام أعيننا دون أن نتمكن من تصنيفها ، أو وضعها ضمن درجة معينة . ولعلها دون التصنيف أساساً ، فهي رخيصة ، كما يبدو من منظرها الخارجي . لا واحد معيناً نختاره على وجه الخصوص . تركنا الأمر لأعيننا تقرر وهي تتجول على الاسماء . اخترنا فندق سومر . من منا اختاره لا أدري . وخلال أقل من ساعة ، انتهينا من ترتيب حاجياتنا في غرفة تضم ثلاثة أسرة . وسرعان ما جاءنا الكباب المشوي الذي طلبناه . أردنا أن نتذوق مشاوي بغداد بعد أن تعرفنا على التمن والمرق ، اللغز المحير لمن لم يزر العراق أو يقابل عراقيين . لغز لا يستحق اسمه حين يتم حله ، ويكشف عن خضار مطبوخة وأرز . وحدهم المصريون يحتفظون بألغاز مشابهة . لكنهم يقصرون استخدامها على المطاعم ، ليس كل المطاعم أبداً ، بل تلك التي تعمد إلى إضفاء قدر من السحر على ما تقدمه من مأكولات . في مطعم صغير متواضع في حي باب الشعرية في القاهرة ، سمعت النادل يعلن عن طلبي : واحد كهرمان ، ولم أطلب في الواقع سوى شوربة عدس . في مطعم العائلات في الإبراهيمية ، القريب من سينما لاغيتيه اطلب ملوخية ورز ، يصل طلبي إلى المعنيين : واحد حبش مع الصنوبر . العدس دخل عالم الجوهرات والرز عالم الصنوبر النادر والملوخية حبش .

سألنا الفتى في مطعم استراحة الرطبة ، التي تبعد عن بغداد مسافة خمس ساعات بالسيارة ، عما نرغب في تناوله . سألناه بدورنا عما يقدم ، فعدد قائمة

طويلة ، لم نفهم منها شيئاً . لكن التمن والمرق استوقفنا وطلب التعرف إلينا ، ورحبنا به . جاء بعد قليل ، وتعرفنا إليه ، ولم يكن سوى فاصوليا ورز ، المرق الوحيد المتوفر في المطعم .

دخل غرفتنا ، رجل طويل القامة ذو شاربين كثين . بدا غاضباً ، أو هكذا خيّل إلى ثلاثتنا ، اذ تبادلنا نظرات استغراب . فقد هاتفنا الاستقبال في الفندق معربين عن رغبتنا في تناول وجبة طعام . توقعنا أن يرسلوا لنا نادلاً ، لا رجل أمن . خفنا . هل ثمة خطأ وقع ؟ هل أبلغ عنا صاحب الفندق الجهات الأمنية فأرسلت من يقبض علينا بغير سبب ؟

نظر إلينا الرجل بشيء من الحقد والغضب ، دون أن يقول كلمة واحدة . قلب نظراته بيننا كمن يوزع شكوكه بالتساوي على الجميع . وفجأة نطق :

- ايش تريدون ؟

بعد تشاور غذائي سريع طلبنا تِكّة وكباب لثلاثة .

غادر الرجل الغرفة ، ولم تغادرنا شكوكنا ومخاوفنا إلا بعد أن دخلت علينا رائحة الشواء وتبعها الرجل الذي وضع أطباق اللحم المشوي على الطاولة بأدب ، وإلى جانبها عدداً من أرغفة الصمون ، الذي تعرفنا عليه في الرطبة ، والذي تزيل رائحته المخاوف الحقيقية .

صباح اليوم التالي ، لم أجد الدنانير التسعة التي أحضرتها معي . وجدت حافظة نقودي وبها ورقة الإجازة العسكرية ، التي سهلت دخولي إلى البلاد ، ولم أجد النقود . ولم استطع تقديم شكوى بغير إثباتات ومتهمين محددين ، لا بل خفت إن فعلت ، أن تنتهي شكواي إلى علقة ساخنة ، أو بسطة عراقية .

غادرنا الفندق . اتفقنا على أن نقيم في مكتب الجبهة . أخذتنا إلى هناك سيارة أجرة أنزلتنا أمام منزل كبير ، يقع خلف مبنى بريد كرادة مريم المقابل لمطعم هامبورغر وكباب أبو يونان .

يتكون المنزل من طابقين ، يضمان خمسة غرف وقاعة فسيحة ومطبخاً وحماماً وحديقة واسعة ، تدور حول المبنى من اتجاهات ثلاثة . وهو واحد من سلسلة

منازل تقع على جانبي الشارع رقم «٥» ، امتلكها يهود غادروا البلاد في نهاية الأربعينات ، وفي السنوات الأولى من الخمسينات .

رحب بنا الرفيق حسن الكاشف «أبو علي» كثيراً . شعرنا جميعاً باطمئنان كبير حين التقيناه ، فهو من قطاع غزة مثلنا ، وسوف يضفي ذلك ألفة على علاقاتنا الرفاقية ، ويقلل من شعورنا بالغربة في بلد تبدو لنا مثل صحراء . ولعل الكاشف أحس بتلك الألفة في وقع ذلك اللقاء الذي أشعرني بأنني أعرفه منذ زمن بعيد . وقد سهلت شخصيته المرحة وطابع علاقاته الانفتاحي عبورنا السريع إلى صداقة حميمة ، أزالت مخاوفنا من العيش في بلد نزوره للمرة الأولى . ولعل ابا علي وجد فينا بدوره ، عزاءً لوحدته . فقد كلف بقيادة فرع بغداد منذ وقت قصير . جاءه مثلنا غريباً زج به وسط مجموعة من الرفاق لا يعرف أحداً من أفرادها ، ولا تربطه بهم سوى عاطفة حزبية ناتجة من التوافق الفكري والسياسي الذي يعززه الانتماء المشترك إلى التنظيم الواحد .

وقد واجه أبو علي صعوبات كبيرة في توحيد عمل الفرع منذ توليه مسؤوليته . إذ وجد نفسه محاطاً بأغلبية من رفاق فلسطينيين ينتمي قسم منهم إلى لاجئي العراق ، إلى جانب عدد من الفلسطينيين -الأردنيين ، وأردني الأصل واحد هو سلامة «أبو سلام» ، الذي استقر في بغداد بعد أن أنهى دراسة جامعية في تركيا ، عمل بعدها في القسم التركي في هيأة الإذاعة العراقية .

منذ البداية لم تظهر غالبية الرفاق حماساً للعمل مع الرفيق الكاشف . ولم تر في وجودنا نحن أيضاً ، عوني ومصطفى وأنا ، سوى عامل داعم للكاشف ويمثل تحدّياً لواقعها السابق . وقد أدى ذلك إلى ظهور إشكاليات عمل وانقسامات عانى منها الجميع على أكثر من صعيد حتى بتنا فرعين للجبهة داخل فرع واحد . مجموعة أطلق عليها رفاق العراق وأخرى رفاق الخارج . والبعض لم يتردد في إطلاق صفة «الغرباء» . ولم ينج من ذلك سوى رفيقين هما فيصل الذي أقمت معه صداقة حقيقية ساعدتني كثيراً ، فيما بعد . ورياض أبوغوش ، الذي احتفظ على الدوام بمسؤوليته عن قسم المالية ، وبعلاقات متوازنة مع الفريقين .

تزعم أبو سلام ، ذو الميول الماوية فريق العراق المحلي ، والتففنا نحن حول حسن الكاشف ، الذي حاول عبثاً أن يكون فوق الخلافات ، وإلى جانبنا انضم فيصل ورياض اللذين احتفظ كل منهما بدافع مغاير لهذا التقارب . كنا نحن ممثلوا المثلث الغزي ، عوني ومصطفى وأنا ، وجدنا في أصولنا المناطقية ما يعزز التقارب مع الكاشف . صحيح أن أحداً لم يفكر في ذلك بصورة علنية ، لكن التفافنا الكامل حول بعضنا ، رغم ما بيننا من خلافات ووجهات نظر متباينة في مسائل عديدة ، كان انعكاساً واضحاً لأصولنا والمناطق التي جئنا منها . وربما لعبت المعرفة السابقة ، منذ الاسكندرية ، والإبعاد من مصر ، وحرب أيلول ، دوراً في ذلك أيضاً . وكانت شرعية الكاشف الحزبية ، بوصفه معتمداً لفرع بغداد من قبل قيادة الجبهة ستاراً آخر حامياً لنا من زحف الكتلة الأخرى التي قادها أبو سلام ، دون أن يحظى بإعجاب جميع من ساروا خلفه رافعين لواء ، إعادة قيادة الفرع إلى أبنائه الأصليين . وتابع أبو سلام معركته ، بلا هوادة زاحفاً نحو طموحه في تزعم الفرع . ناشراً قناعاته المطلقة ، بأنه الأحق في ذلك . ونادى بإجراء انتخابات اعتقد أنها تضمن غالبية الأصوات لصالحه . ودفعه طموحه هذا إلى تعميق الشللية ، التي عمقت شلليتها النقيضة داخل التجمع الآخر . لم تكن الظروف تسمح بعقد مؤتمر حزبي وإجراء انتخابات بسبب من حداثة التغييرات التي أدخلتها قيادة الجبهة على الفرع ، ووجود قادمين جدد هم ، أبو علي أولاً ثم ثلاثتنا عوني ومصطفى وأنا ، وشاب من قطاع غزة هو منسي سلامة ، «وليد» ، انضم إلى الفرع لاحقاً ، فتعايشنا مع الخلافات في مراحل صعودها وهبوطها .

***

استيقظنا ذات ليلة جميع من في المكتب عوني ومصطفى وأنا والرفيق . . . على صوت إطلاق نار قرابة الفجر . وانتابتنا جميعاً مخاوف من وقوع انقلاب عسكري في المدينة . وبقي الهاجس يقلبنا ، في الفراش الممزق الذي ننام عليه حتى طلوع النهار ، حين علمنا من أبي علي جارنا الميكانيكي ، الطيب ، أن

الحكومة أعلنت تأميم شركات النفط العراقية .

عمت الفرحة بغداد والمدن العراقية الأخرى . وفتحت تلك الخطوة الطريق أمام انفراجات أخرى في العلاقة مع أحزاب المعارضة وبالذات الحزب الشيوعي العراقي ، الذي عاد يعمل في صورة علنية . ثم صدر بيان ١١ آذار الذي منح الأكراد حكماً ذاتياً في مناطقهم في إطار الجمهورية العراقية . وأصدروا صحيفة «التآخي» اليومية . فيما أصدر الشيوعيون طريق الشعب والثقافة الجديدة ، الفصلية السياسية الثقافية الفكرية .

الشهور الأولى من إقامتي في بغداد تميزت بفراغ نضالي كامل . فقد اقتصر عملي على متابعة إصدار نشرة شهرية ، بوصفي مسؤولاً للجنة الإعلام . وقد شارك في تحريرها عدد من الرفاق ، وكتب لها الافتتاحيات السياسية معتمد الفرع حسن الكاشف .

ذات صباح وقد جلست أعد المواد الخاصة بالعدد الثاني من النشرة ، خطر في بالي أن أنشر قصة قصيرة كتبتها . وجدت الأمر مناسباً ، وقلت إن ذلك قد يشجع آخرين ، وخصوصاً طلاب الجامعة ، الذين استهدفناهم بنشاطنا ، على المساهمة بمواد أدبية . جلست خلف الآلة الكاتبة أدقق بعض المواد قبل النشر ، وبينما أنا كذلك رن جرس الباب فجأة . تركت مقعدي خلف المكتب وخرجت لاستطلاع الأمر . دخل شاب يقارب الثلاثين من عمره متوسط الطول قمحي اللون ، واضح من ملامحه أنه عراقي ، سألني عن المسؤول عن المكتب . أبلغته أنه لم يحضر بعد . فقال إنه جاء يسأل عن قريب له قيل له أنه تطوع مقاتلاً في صفوف الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، وأن أهله قلقون عليه .

دعوته إلى الدخول ، وجلسنا سوياً في الغرفة المخصصة لي ، حيث أكتب . عرفني على نفسه :

– أنا غازي العبادي .

وقفت وصافحته مجدداً :

– اهلاً أستاذ غازي بالطبع قرأت بعض قصصك .

- أشكرك أخي .

- أنا مهتم بالقصة واقرأ عادة لك ولجمعة اللامي ولأحمد خلف ، ولكثير من الأدباء العراقيين .

- فقط هواية .

- في الحقيقة ، بدأت أكتب من فترة قصيرة ، لكن بعدي في البداية . ناشئ كما يقولون .

- ايش كتبت لهسه ؟

- واحدة بعنوان المدرسة . نشرتها في صحيفة «فتح» الأسبوعية بتصدر في دمشق .

- تريد تنشر قصة كاتبها ؟

- ايوة ، بس ما ادري اذا صالحة للنشر . على كل حال عندي نسخة هون . يا ريت لو تعطيني رايك .

قدمت له نسخة من القصة مطبوعة على الآلة الكاتبة ، وذهبت لإعداد كوبين من الشاي . حين عدت وقدمت له الشاي ، التفت إلي باسماً وقال :

- خوش قصة ، الهسة كلشي ما بيها ، وصالحة للنشر تماماً .

واصل غازي قراءته للقصة ، وواصلت أنا مراقبة تعابير وجهه ، ممزوجة برشفات الشاي . ومر الوقت ثقيلاً متعباً . كان يقرأ وكنت أشعر بأنه يغوص في داخلي ، يكشف قدراتي الكتابية ويعريها ، يتفحصها في كلماتي ، ويمتحنها في تقنيات كتابتي .

عندما سلمت قصتي الأولى «المدرّسة» لأخي راسم ليعطيها بدوره لرشاد أبي شاور لنشرها في أسبوعية فتح ، لم أشعر بالرهبة . صحيح أن رشاد أصبح قاصًا معروفاً ، لكن إعجابه بالقصة ، بعد ذلك ، قد يكون ناتجاً عن الرغبة في تشجيع كوادر الثورة على الكتابة . مع العبادي شعرت أن تقديره للقصة يأخذ معنى واحداً ، وقيمة رأي كاتب قصة محترف . ثم إنه يؤكد لي بالفعل ، تقدير رشاد أبي شاور ، بأن نشره للقصة الأولى جاء عن خبرة حقيقية وتقدير لقيمتها

وليس مجرد تشجيع .

أخيراً ، رفع غازي رأسه ، لا بد أنه انتهى الآن من القراءة . لم يعلق على القصة ، بل سألني مباشرة ، وابتسامة تشجيع خفيفة تظلل وجهه :

- تحب تنشرها اخ ربعي .

- يا ريت يا استاذ .

- زين ، أني أدبرها ، أنت ما عليك عيني . رح دزها للأستاذ صلاح خالص رئيس تحرير مجلة الثقافة ، خوش مجلة أدبية فصلية .

شكرته ، وأخذت منه اسم قريبه المتطوع ، ووعدته بمتابعة الأمر .

وقرأت ، بعد حوالي شهرين ، أول قصة تنشر لي في بغداد في مجلة ثقافية ، أعطتني الثقة بفتح باب القصة القصيرة واسعاً . ومنذ تلك اللحظة غيرت طريقة حياتي .

تعززت علاقتي بفيصل ، المولع بالأدب عموماً ، والقصة القصيرة والرواية خصوصاً . لديه مكتبة لا يمكن الاستهانة بمحتوياتها . شجعني فيصل على الكتابة ، وفتح لي كنز القراءة الثمين ، الذي سيزودني بأهم الإبداعات الروائية العالمية .

قررت أن أقرأ كل ما يتوفر في مكتبة فيصل الخاصة . أخذت ألتهم الكتب تباعاً . لا أدري من أين بدأت ، لكني بدأت ولم أتوقف . قرأت بمعدل ثماني إلى أربع عشرة ساعة يومياً لأكثر من ثلاثة شهور وبانتظام . وكتبت ونشرت في ألف باء الأسبوعية وفي وعي العمال . هذا كازانتاكي ، اليوناني ، و«الإخوة الأعداء» ، والمسيح يصلب من جديد ، وهذا تولستوي والحرب والسلام ، وأم غوركي ، وهذا هو الشيخ وذاك هو البحر . القلعة او المحاكمة ، والصرصار لكافكا ، الدون الهادىء لتشيخوف ، والغريب لكامو . . . غصت في القراءة ، وفي بغداد الثقافة ، سعدي يوسف ، حسين مردان ، غائب طعمة فرمان ، فوزي كريم ، خضير عبد الأمير ، صادق الصايغ ، خليل شوقي ويوسف العاني والمسرح الصغير . سمعت الأغاني ، إلهام المدفعي ، ومائدة يونس ، والارمنية ، سيتا مانوكيان ، فاضل عواد ، حسين

نعمة ، سمعت بغداد تغني في شوارعها غنيت :

نخل السماواا يقووووول طرّتني ي ي ي سمْره تررتتتتا

سعف ونخل ظاآاليت ما بييّاَ تمْره تررتتتا

أحببت بغداد وخفت منها . أحببت العراقيين وخشيت انقلاب أمزجتهم وعواصف عواطفهم الصحراوية المتقلبة بين الحنين الذي يبعثه حس مرهف يقطع نياط القلب ويغرق الفرات دمعاً حتى يفيض ، وبين غضب بلا نهايات ، وعنف يلد من رحم المفاجآت . من عيني واغاتي وروحي وقلبي ، وهلا بالوردة هلا بعيونيي هلا بيك هلا ، إلى أخ القحبة أخ القواد ، أبو لعيوره التي تنتهي ، وربما تبدأ ، أو يرافقها ، كسر زجاج مشروبات تذهب بالسكرة وتأتي بالنكرة ، وتمر بمراحل عراك بالألسن والأيدي والأقدام والضرب الذي قد يأتي بنتائج خطيرة ، ولا يكاد ينجو من هذه الازدواجية إلا قلائل .

جالست أدباء يتناقشون بجدية بالغة ، يرفعون الأدب إلى مستوى الحياة ، وينقلون الحياة إلى مستوى الأدب ، ثم يختلفون وينزلون إلى ساحات الوغى . يستلون سيوفاً من شتائم ، ويوقعون بينهم ضحايا . رأيت «أبو علي» ، جارنا الميكانيكي الطيب ، صبيحة عاشوراء ، معصوب الرأس سعيداً بوقائع ليلة البارحة : «ظرب قامة» حتى أخرج الدم المحبوس في رأسه ، نقلته سيارة إسعاف حيث جرى تضميد جرحه . رأيت الارتياح يلون عيني «أبوعلي» بالدم الذي تشربته العصابة ، وعلي يرد الصباح صباحاً إلهياً «الله بالخير» ، ويواصل عمله فخورًا بلقاء الحسين والاعتذار له عن ذنب لم يرتكبه . رأيت شباناً خلف نساء القليلات في السعدون يلتهمون «القفف» الماشية فوق سيقان على الرصيف .

***

جئت بغداد وقد فرغت لتوها من طلي سيقان الفتيات بالدهان لمنع انتشار الميني جيب . ثم جاءها وزير الداخلية خير الله طلفاح مسلحاً بقرار مجلس قيادة

الثورة في العراق بقص السوالف الطويلة التي تعيق الشباب عن الانخراط في مهماتهم الوطنية . عرفت أن البعث العراقي أضاف سبباً آخر لهزائمنا حين استخلص الدروس القومية ، ووجد أن سيقان البنات و«زوالف» الشباب هي أبرز أسبابها . سمعت العراقيين يسخرون من وزير داخليتهم الذي يحمل في جيبه مقصاً ، يطوف بغداد بسيارة رسمية ، يشرف بنفسه على حملة تطهيرالبلاد من الانحلال الزوالفي الخطير . رأيت الحكومة مشغولة بالسوالف فاختفيت في المكتب ، مخفياً سوالفي عن الأنظار شاغلاً نفسي بعيداً عن أنظار الشرطة ومقص ظلفاح ، إلى أن تخلت الحكومة عن القرار ، ربما لأنها لم تجد «زالفاً »يستحق المطاردة ، وربما وجدت موضوعاً آخر تجدد به انشغالها وإشغال مواطنيها . لكن شرطة الحكومة لم تنه الحملة إلا بعد أن حققت إنجازاً قومياً ، ألقت القبض على الرفيق بشير زقوت . أسرته بطريقة خادعة مع نهاية حرب السوالف ، أثناء محاولته الصعود إلى سيارة أجرة تعيده من جولة قام بها إلى المكتب . وهذا ما حدث بالضبط :

هاتفني بشير ذات صباح من خارج المكتب . فاجأني بقوله إن الشرطة قبضت عليه ، وأخذه أفرادها إلى دكان حلاقه لقص شعره عقاباً له على مخالفته القانون وإطلاق سالفيه بما يتنافى مع الأعراف والتقاليد الدينية والقومية . وأنه تمكن بعد جدل طويل من إقناع الضابط المسؤول عن «دورية الزلف» بأنه فدائي تابع لقوات الجبهة الديمقراطية .

طلب مني بشير التحدث إلى الضابط وتأكيد انتمائه لعله يطلق سراحه ويعيده إلى المكتب غير حليق وبسوالف سليمة ، ففعلت .

جاءني صوت الضابط مرحباً : «هلاو» ، اقشعر بدني . تخيلته بشاربين كثين ووجه خشن الملامح صلب القسمات ، وجسد ضخم يلتصق بخاصرته مسدس ، وفي عينيه نظرة باحث عن ضحية . تخيلته ينفذ سياسة الحكومة خفت منه ومن الحكومة . لكنني قررت مواجهة الامر بشجاعة ، طالما أن المواجهة ستتم من دون مواجهة ، وما علي سوى ضبط إيقاع صوتي والحفاظ عليه قوياً متوازناً ولا بأس من

ادخال نبرة آمرة إليه إذا تطلب الأمر .

رديت تحيته ب«هلاو» عادية ، ولكنها جادة لا تخلو من صرامة مفتعلة .

ثم دار بيننا الحوار التالي :

- عيني ، مونو ده يحتشي وياي ؟

- آني الملازم ربعي . . . من مكتب الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين .

- تحياتي سيدي . اقول سيدي .

- نعم ، أسمعك . .

- اكو شاب هنانِه الزمناه اسمه بشير . . سيدي ده يقول انو من يمكم ، نريد فقط نتأكد سيدي ؟

- اي عيني . الرفيق بشير مقاتل في صفوفنا ، مسافر بالليل على بيروت . ده يشترك في عملية عسكرية ، رجاء لا تأخروه . إذا تعطل سفره آني رح ابلغ مكتب فلسطين في القيادة القومية مال حزب البعث ، واحتشي مباشرة لمسؤوله . . .

قاطعني :

- سيدي ، أقول . .

تابعت بلا توقف :

- الرفيق ابو جبار ، وتتحملون انتو في الشرطة كامل المسؤولية .

- سيدي ، احنا كلش آسفين ، إحنا بس مثل ما قلت نريد نتأكد ، رفيقكم ده يرجع الكم هسة .

عاد بشير ، ونقل إلي المشهد من الجهة الأخرى ، من الزاوية التي لم أرها . حدثني كيف انتفض الضابط أمامه وفي حضرة جنوده . وكيف رأى شاربيه يرتعشان مثل جناحي عصفور . وكيف اغتسل بعرقه وهو يعتذر له أمام الجنود وأمام الحلاق . قال لي إنه شعر بسعادة لم يعرفها في حياته . أول مرة يرى رمزاً من رموز الدولة في حالة ضعف أمام مواطنين عاديين . أول مرة يرى الدولة تهز الدولة . قال إن مجرد سماعه اسم القيادة القومية لحزب البعث جعله ينسى ما يسمع وما يجري حوله . صار يصرخ . سيدي سيدي ، اقول . يريد الخروج من

المأزق بأية طريقة . أردت ان أضحك ، قال بشير ، خفت أن أفسد العملية كلها .

قلت له :

- إضحك على الضابط زي ما بدك ، بس لوشفت حالتي لفطست من الضحك . صرت اصرخ ع الضابط وركبي سايبه ، وقلبي من جوه بيرجف . بيني وبينك لو اني قدامه لخريت ع حالي .

وضحكنا معا كما لم نضحك يوماً ، فلأول مرة نرى ، من زاويتين مختلفتين ، كيف تخاف السلطة من سلطتها .

***

انتهت الحملة على سوالف الشباب ، أو «حرب الزوالف» ، كما أطلقت عليها ، ودخلت بغداد حرب تحرير المواطنين من فوضى المرور ، وتنظيمه في شوارعها ، كأنها تدخل حرباً أهلية . الإذاعة تتابع التطورات ، وتطلق البيانات عن سير المعارك . والصحافة وجدت في الحرب الجديدة متنفساً للسخرية . وأبدع رسامو الكاريكاتير العراقيون في تغطية المناسبة ، وعكسوا بخفة دم ما جرى في شوارع العاصمة . نزل رجال الشرطة إلى الشوارع الرئيسية . احتل أفراد الجيش الزوايا والطرقات لمراقبة المواطنين ، وتعليم الشعب كيفية السير في الشوارع ، وإلزامه العبور أثناء ظهور الإشارة الخضراء . والتزام العبور من المناطق المحددة للمشاة ، وتجنب الأماكن المحظورة . وضعت الدولة غرامة مقدارها ديناران لكل من يخالف التعليمات . وتمت إعادة تخطيط الطرقات بالدهان الأبيض وتحديد أماكن لعبور المشاة . جرى الأمر بصورة سريعة ومن دون إرشادات وتوعية مسبقة كافية ، وأخذت الدولة تجمع الغرامات من المواطنين كما تجمع ضرائب متأخرة .

تحولت بغداد إلى مسرح مفتوح . على أرصفتها أدى المواطنون وأفراد الشرطة وقوات الجيش أدواراً مألوفة وأخرى غير مألوفة . وجدنا عوني ومصطفي وأنا في حكايات المرور تلك ، تسلية يصعب تفويتها . ذكرتني بنكتة أهل الخليل التي شاعت في بداية الاحتلال الاسرائيلي ، والتي تقول ، أنه عندما أعلنت سلطات الإحتلال الإسرائيلي منع التجول في المدينة لأول مرة ، خرج جميع سكان الخليل

يتفرجون عليه . لكننا ، في الواقع ، وجدنا في تطبيق أنظمة السير ما يجعل نكتة الخلايلة بسيطة وعادية . وجدنا الحكومة العراقية برجال جيشها وشرطتها تتصرف مثل الخلايلة . تفرجنا على الدولة وقد أدخلت المواطنين مدرسة المرور ، ووضعت الجيش والشرطة لمراقبة قدرتهم على تعلم الدروس . ذهبنا لنتفرج ، وقعنا في المصيدة مثل آلاف المواطنين ، لكننا دفعنا معاً غرامة مخالفة واحدة وليس مخالفتين ، فقد قرر المعنيون بالأمر خصم خمسين بالمائة لصالحنا بوصفنا فدائيين فلسطينيين .

***

بعد أكثر من ثمانية شهور على وصولي بغداد تدهورت أحوالي المالية بصورة مفاجئة . انشراح ابنة عمتي ، التي تعمل مدرسة في الكويت ، توقفت عن إرسال المبلغ المتفق عليه بين عمتي الحاجة ربعي ووالدتها صفية ، أم ابراهيم ، والذي واصلت إرساله بانتظام في السنوات الثلاث الأخيرة من وجودي في الإسكندرية ، واستعدته لبضعة شهور في دمشق بعد خروجي واخي من عمان عام ١٩٧٠ ، ثم خلال الشهور السبعة الأخيرة . تغيرت أحوال عمتي ، وتراجعت تجارتها بعد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧ ، وتزايد الإقبال على الملبوسات الجاهزة ، وكسدَ سوق الأقمشة الذي كانت عمتي من أهم بائعيه في خان يونس .

التفرغ للعمل في صفوف الجبهة غير ممكن ، والحصول على منحة دراسية لم ينجح ، والعمل في بغداد شبه مستحيل إلا في وسط ثقافي فلسطيني ، وهو غير متوفر . وهكذا أمضيت شهراً قاسياً ، لم أتلق خلاله مصروفاً من أي جهة ، لكني حصلت على أربعة دنانير مكافأة عن قصة نشرتها في أسبوعية «وعي العمال» التي أشرف على صفحاتها الثقافية القاص جمعة اللامي . وقد صرفت نصف المبلغ مساء يوم تسلمه ، حيث أمضيت سهرة ممتعة في نادي وكالة الأنباء العراقية ، برفقة فيصل وجمعة اللامي . كما حصلت على أربعة دنانير أخرى عن قصة نشرتها في أسبوعية ألف باء . ثم فتح علي باب رزق لم أحلم به . جاء

الرفيق حسن الكاشف بعد اجتماع عقد في مقر منظمة التحرير الفلسطينية يبلغنا باتفاق المنظمات العاملة في بغداد ، وهي فتح ، والجبهتان الشعبية والديمقراطية ، والقيادة العامة ، وجبهة النضال الشعبي وجبهة التحرير الفلسطينية ، على صيغة عمل إعلامية موحدة . وتقرر مشاركة عدد من الكوادر الإعلامية للمنظمات في تحرير المادة الإخبارية والتعليقات الخاصة بصوت فلسطين الذي يبث ، من بغداد يومياً ، ولمدة ساعة . وضمن الاتفاق تقرر ، أيضاً ، إصدار جريدة أسبوعية باسم «المقاومة» يرأس تحريرها مدير الإذاعة ، عزمي خميس ، ويحررها الطاقم الإعلامي الجديد .

تم اختيار ثلاثة كوادر للالتحاق بالتشكيل الجديد : عوني وحسن البطل الذي انضم إلينا ، في بغداد قبل فترة وجيزة وأنا . وتحدد لنا راتب مقداره ثلاثون ديناراً عراقياً ، تدفع لنا من ميزانية مكتب منظمة التحرير .

بدأنا عملنا الجديد بحماس كبير . وأحببنا العمل الجماعي ، الذي سمح لنا بإقامة علاقات صداقة مع عدد من كوادر المنظمات الأخرى ، والخروج من حالة الانغلاق على الذات التي عشناها . وبين من توثقت علاقتي بهم الرفيق أبو عادل «محمد عادل» من جبهة النضال الشعبي ، وراجح من فتح وعزمي خميس الشاعر الذي لم يعتن كثيراً ببذرة الشعر النابتة في تربته .

في هذه الفترة تعرفت إلى صبري البنا «أبو نضال» ، معتمد حركة فتح في العراق ، ومدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد . الرجل الذي يثير الغيظ والحقد عليه والإعجاب به في آن . منذ التقيته أول مرة شعرت بأنه شخصية قوية ميالة إلى الكثير من العناد . وحين اقتربت منه اكتشفت ، ما تخفيه شخصيته من سرعة انفعال وروح فردية وتمسك بالرأي ، ربما يوافق إعجابه الغريب بشخصية ماوتسي تونغ ، لكنه لا يتفق مع محاولاته تشجيع العمل الفلسطيني المشترك ، ودعواته الوحدوية . ولم يكن صعباً عليّ ، تفسير ذلك ، بمرور الأيام ، وتطور علاقتي به . فاستعاراته المتكررة لمواقف ماو واستشهاداته بأفكاره استخدمها لتأكيد ميل يساري مطلوب في الساحة الفلسطينية . ولمساعدته ، على ما يبدو ،

في مناكفة الماركسيين في الجبهتين الشعبية والديمقراطية . أما دعواته الوحدوية ذات المرجعية البعثية التي احتفظ ببقايا منها ، فهي وسيلته لتوسيع نفوذه ، وإخضاع المنظمات الأخرى العاملة في العراق لقراراته وتوجهاته ولو في إطاراتها العامة . لكن تلك خلاصة لم أتوصل إليها إلا بعد شهور من العمل معه .

فبعد شهرين من العمل في الإذاعة ونشرة المقاومة ، اقتربت من أبي نضال إلى مسافة متر واحد فقط . فقد قرر تشكيل لجنة تضم مسؤولي المنظمات الست ، أطلق عليها تسمية «اللجنة السياسة» . وقد توليت ، بتدخل وتزكية من حسن الكاشف سكرتيرية اللجنة . في أول اجتماع عقدته اللجنة برئاسة أبي نضال تقرر وضع نظام عمل ولوائح تحدد آلية عمل اللجنة ، والقوانين التي تنظم هذا العمل وعلاقات المسؤولين فيها ، والواجبات المترتبة على التنظيمات المشاركة وبنوداً خاصة ، أيضاً بالعقوبات المتوجبة على مخالفة أنظمة العمل أو التقصير في اداء المهمات . وقد قدم الكاشف مشروعاً متكاملاً لنظام العمل تمت مناقشته وعدلت بعض بنوده ، ليصبح فيما بعد ناظماً للعلاقات بين جميع أطراف .

بدأت اللجنة السياسية ، فور تشكيلها تستقطب اهتمام المنظمات الفلسطينية في بيروت ودمشق ، وطرحت أسئلة كبيرة ، وعلامات استفهام حول أهداف أبي نضال من ورائها ، وما إذا كان ذلك تم بتشجيع من السلطات العراقية التي أقام معها علاقات متميزة ، بهدف تطويق استقلالية المنظمات الأخرى ؟

سوف يمر عليّ بعض الوقت قبل أن ألمس دلائل وإجابات على هذين السؤالين ، وقت يكفي للتعرف على شخصية ابو نضال ومواقفه بصورة اوضح .

في أول اختبار لتجربته الوحدوية ، قرر أبو نضال استغلال انعقاد دورة المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة ، ١٩٧٣ ، وتقدم باقتراح وافقت عليه المنظمات المؤتلفة في اللجنة السياسية ، يقضي بإرسال وفد مشترك إلى المجلس يمثل اللجنة السياسية لتأكيد حضورها المستقل ، ولشرح أبعاد تجربتها الوحدوية التي لم تمنع الاستقلال التنظيمي في إطارها . وقد ساهم الجميع في إعداد مذكرة ، إلى المجلس ، تحمل وجهة نظر مشتركة . وكان هدف أبي نضال الأول هو وضع اللجنة

كواحدة من حقائق الوضع الفلسطيني وتأكيد وجوده وزعامته المطلقة للعمل الفلسطيني على الساحة العراقية .

اختيرت للمهمة مجموعة من الكوادر ضمت مسؤولي المنظمات والاتحادات الشعبية والمهنية ، اتحاد المهندسين ، اتحاد العمال ، الاتحاد العام لطلاب فلسطين ، وكوادر إعلامية ، وتم اختياري عضواً في الوفد باعتباري سكرتيراً للجنة السياسية .

في تلك اللحظات ، لم أفكر في أبي نضال أو اللجنة السياسية ، أو حتى المجلس الوطني الفلسطيني نفسه ، ولا في الفرصة المتاحة لي للاطلاع على عمل أعلى سلطة فلسطينية من الداخل لأول مرة في حياتي ، فقد ملأت كياني وعقلي فكرة واحدة محمولة على رغبة لا تقاوم في العودة إلى مصر . هجمت علي القاهرة وأنا لم أزل في بغداد أنتظر الرحيل اليها . ملأت تفاصيلها كياني . وشعرت بي هناك ، أقف على ضفة النيل ، أرقب المياه تجري بلا توقف . يجف ريقي . أشتاق إليها ولا أقدر على ملء كوب منها . على مقربة مني بائع ترمس خلف عربته الخشبية ، يرش الملح على كمية من الترمس في قرطاس أعده لشاب وصديقته يقفان إلى جواره . ازددت عطشاً . مددت يديّ إلى القلة ، فدفع البائع عربته بعيداً عني ومضى . القلة أخذت تصغر ، ويتضاءل حجمها إلى أن اختفت . في تلك اللحظة طاف صوت فوق النهر . مثل روح هام على سطح الماء : اللي يشرب من مية النيل يرجع لها تاني . اللي يشرب من مية النيل يرجع لها تاني . اللي يشرب من مية النيل يرجع لها تاني . سوف أرجع . من أجل جرعة ماء تروي عطش السنين سوف أرجع . أعود بعد ثلاث سنوات من طردي من البلاد التي أحببتها أكثر من الحب نفسه . أنتقل إلى الاسكندرية «مسقط رأس» شبابي الأول ، ومراهقاتي الغرامية والفكرية . اسكندرية التي جعلت لرأسي مسقطين . كيف يسقط الرأس من البطن مرتين . رأسي أنا سقط مرتين . في الأولى حين نزلت من بطن أمي إلى فراشها في المجدل عسقلان . وفي الثانية حين حملت بي الاسكندرية تسعة شهور وولدتني على رمال شواطئها الناعمة ، فأرحت رأسي على صدر حبيبتي . الآن لدي فرصة سانحة للعودة إلى القاهرة .

للشرب من النيل أمام أنظار الذين حرموني منه في لحظة عطش قاسية . الآن بإمكاني العودة إلى الأماكن الأولى وتقليب صفحات عمري ، ربما لكي أسترد ذكريات أخذت مني تفاصيلها على عجل . ربما لكي أعيد وضع التفاصيل في أماكنها السابقة ، فربما لا تتوفر لي فرصة ثانية لأن أفعل ذلك كله . سوف أفعل إذن ، سوف أفعل .

***

بدأت الاستعدادات للسفر ، أعددت الملفات ، وتابعت عملية طباعتها ، بينما تابع المعنيون في مكتب المنظمة استخراج جوازات سفر عراقية رسمية للمجموعة المسافرة ، وقد أنجزت خلال أسبوع . تسلمت جواز سفري الجديد : عصام كاظم عبد الجبار الحديثي . اخترت الاسم بنفسي .قمت بتركيبه لكي يبدو عراقياً مائة بالمائة ، ويخفي شخصيتي الحقيقية ، ضماناً لعدم إعادتي من المطار ، فيما لو دخلت باسمي الحقيقي ، الموضوع على القائمة السوداء مثل المجرمين والمطلوبين وغير المرغوب في دخولهم أرض الكنانة . ولم أكتشف أن التركيب خاطىء من أساسه ، إلا بعد أن حقق معنا ضابط مخابرات مصري في مطار القاهرة : سألني عن اسمي فأخبرته . سألني عن رفيق لي في الوفد كان خرج من مكتبه للتو ، ارتبكت ، وأدركت أنني وقعت في فخ كبير . فلم يكن أي منا يعرف اسم الآخر المدون في جوازه العراقي . لم نتوقع أن نسأل من قبل أمن المطار ، ما دامت أسماؤنا تركت في المطار على قائمة المراقبين الضيوف . لكن الذي ترك أسماء عراقية ، ونحن فلسطينيون ، ضيوف على مؤتمر فلسطيني . أدركت أن ما حدث لي مع الضابط ، هو تكرار لما حدث مع رفيقي الذي سبقني . اضطررت إلى الاعتراف باسمي الحقيقي كاملاً . بدأ الضابط التحقيق من جديد بعد أن أعرب عن ارتياحه قائلاً : اهه كدة ، نبتدي م الاول بقى . ابتدينا ، من آخر مرة تركت فيها الاسكندرية ، قبل ثلاث سنوات إلى اليوم ، والمهمة التي جئت من أجلها . أخبرته باختصار شديد أنني ذهبت إلى الاردن وشاركت في الحرب الأهلية عام

١٩٧٠ . ثم انتقلت إلى سوريا بحثاً عن جامعة لاتمام دراستي . وأخيراً إلى بغداد التي أرسلتني اليوم . لم أقلق أبداً لما كشفت عنه من معلومات ، إذ ليس في ما قلته سراً واحداً على أية حال .

فيما بعد أخذ أفراد وفدنا يضحكون ، ونحن نستعيد تفاصيل مقلب الاسماء . قال لي أحدهم ساخراً ، إن اسمي مستحيل في العراق ، لأنه مركب من اسم أب شيعي وعائلة سنية مؤكداً أن جمعهما مستحيل . فضحكت بدوري ، على سذاجتي ، وسذاجة الآخرين أيضاً ، وقلت له : لا بد أن ضابط المطار سيقوم بدعوة مجموعة من أصدقائه إلى سهرة خاصة ، يسميها ليلة الأسماء ، يحكي لهم فيها أعجب ما رأى ، ويقص عليهم كيف جاءه تسعة فلسطينيين يحملون تسعة جوازات سفر عراقية صادرة في يوم واحد ، خارجين من مصنع القيادة القومية لحزب البعث ، وقد أعطوا أرقاماً متسلسلة ، كانهم عملات طبعت حديثاً .

نزلنا في فندق امباسادور في شارع ٢٣ يوليو (شارع فؤاد سابقاً) . صباح اليوم التالي ذهبت إلى مكان انعقاد المجلس الوطني في غاردن سيتي . حضرت الجلسة الافتتاحية فقط ، وتركت القيادات تقرر مصير الشعب الفلسطيني وحدها في الجلسات التالية ، أما مصيري أنا ، فقد حملته معي في حقيبة صغيرة جمعت فيها بعض حاجياتي وصعدت إلى القطار السريع المتوجه إلى الاسكندرية قرابة الواحدة ظهر اليوم التالي . كان القطار يقطع الطريق الزراعي الطويل ، وكانت ذاكرتي تقطع مسافات الفراق لكي توصلني بماضي الذي أجبرت على الرحيل عنه . خمس سنوات قضيتها في اسكندرية عمري رافقتني الطريق ، وقطعت معي المسافة إليها . اقترب القطار من مداخل المدينة ، حلت المشاهد الأولى للمدينة بدل المتخيلة . وها هي اسكندريتي تطل برأسها مثل وليد ، تنشر جسداً عبر الشباك . يتخلى القطار السريع عن سرعته مقترباً من المحطة . لقد اخترته لكي آخذ من وقت اسكندرية ما أستطيعه . ألتهم أيامي فيها مستعادة بالحلوة والمرة . أنتقل إلى الشباك الآخر ، الغربي . ألمح نافذة بيت أم يوسف زقوت ، الذي ينام ويصحو على دبيب عجلات القطارات . لم أزر البيت منذ مدة طويلة . لم يعد في

البيت من أزوره . الجميع يعود صيفاً من الكويت . ولم أر يحيى منذ ثلاث سنوات ، منذ سافر إلى الكويت ولم يمنحني فرصة وداعه . خطأ ما في حسابات الأقوال وقع . ظننت أنه أراد إنهاء علاقته بي . يحيى عمل مهندساً في الكويت . زوج أخته مريم رتب له الأمور وساعده ، على ما أعتقد . وأنا لم أزل أنا ، طالب في الجامعة . هل خاف يحيى مترتبات الصداقة . حين يصبح العمر كله صداقة يصعب الهرب من التبعات . لكن يحيى هرب . لم يخبرني بموعد سفره . ذهبت بعد يومين إلى بيتهم على نياتي . أمه فتحت لي الباب . لم أر على وجهها ، الذي لم يزل يحتفظ ببراهين قوية على جمال صبا خارق وغير مألوف ، علامات رضا . ومع ذلك سألتها ، ولم أكتف بما رأيت على وجهها ، أعادت إليّ السؤال استنكاراً فاجأني :

- يحيى سافر ، ليش معكيش خبر ؟

- سافر ! لأ ما معيش خبر . يحيى ما خبرنيش .

- قال لي انو حكى لك وانت اللي ما اجيتش تودعه ، سافر زعلان وواخد على خاطره منك .

وقع التباس في الكلام إذن . خلط في المعاني . عدم تنسيق في حوار تعلقت مفرداته بالهواء .

صوته جاءني واضحاً وقوياً . صوته صعد من الشارع إلى غرفتي في شقتنا ، أنا وتيسير ، في شارع دارا . حمل لي اسمي معه عبر البلكونة . طليت برأسي ، رأيته هناك . بقامته الطويلة التي تكاد تصل الطابق الاول ، مع أنها لا يمكن أن تصل . تبادلنا الكلام . أعطاني وأخذت منه ، وأعطيته فأخذ . أخذنا وأعطينا دون أي التباس . لقد حدث ذلك فعلاً ، وقد أكد لي أنه ود أن يلقي علي بالتحية طالما مر من شارعنا . ولم ينس أن يذكرني بضرورة المرور على البيت للزيارة كالعادة . وعدته بالمرور . لم يقل أنه مسافر . هل سقطت منه عبارة بهذا المعنى ، خلال تبادلنا الكلام من تحت لفوق ، وبالعكس . عادة ما تسقط كلمات في مثل هذه الحالات . إلا إذا عجز صوته ، فعلاً ، عن حمل عبارة لها وزن ثمانية حروف : أ

ن ا م س ا ف ر . هذا احتمال ، فقد حمل يحيى إلي ليلتها أكثر من كيلو حكي . وثمة احتمال آخر ، وهو أن تكون أذني عجزت عن تلقي عبارة لها وزن ثمانية حروف . لقد بت متأكداً ، على أية حال ، بأن ثمة عبارة سقطت بالفعل . ولا بد أنها «انا مسافر» . وأظنها سقطت في الدقيقة السابعة بعد التاسعة مساءً ، مع أنني لم أسمع صوت ارتطام الحروف بالأرض .

حين أخبرتني أم يوسف بأن يحيى سافر ، أدركت أن الذي سقط في تلك اللحظة ليس مجرد عبارة ، بل صداقة عمر . استدرت ، حاملاً في مقلتي دمعاً ساخناً حبيساً ، أطلقته فوق الدرجات الثلاث الصغيرة عند مدخل البناية ، وابتعدت وأنا أبحث عن جواب لسؤال لم أزل أطرحه ، كلما تذكرت يحيى : كيف تسقط صداقة عمر قبل أن ينتهي العمر نفسه ؟!

دخل القطار إلى محطة سيدي جابر . تنسمت فرحاً غامضاً ، يشبه تعابير المنتظرين على المحطة ، الذين بدؤوا في دخول المشهد المتحرك أمامي كغرباء . فهم لا يعرفون بعضهم ، ولا يعرفونني طبعاً . ومع ذلك ارتحت لقراءة ملامحهم المتناثرة التعابير الغامضة .

هكذا استبقت الوصول إلى الوصول . أردت الدخول إلى الاسكندرية قبل قطارها . الهبوط منه قبل أن يتوقف ، لكي أستقبل نفسي بنفسي ، وأحمد الله على سلامتي ، وأرحب بي كثيراً ، بعد غياب دام ثلاث سنوات .

أمسكت بحقيبتي الصغيرة بيدي جيداً . وتقدمت نحو باب القطار ، والقطار يتهادى . وبمتعة غير مألوفة أخذت أقرأ ملامح المستقبلين ، في دهشة لحظات الانتظار قرأتها والقطار يتهادى . في أيدي الركاب تلوح من بعيد ، تستبق العيون ، وترسل إشارات الوصول قرأتها والقطار يتهادى . في تلاقي العيون يدفع الأقدام إلى الركض خلف القطار لملاقاة الأحبة قرأتها والقطار لم يزل يتهادى . عينان سوداوان واسعتان قويتان جسورتان وتائهتان ، أيضاً ، تعلقتا بعيني ، كادتا تسحبناني من عربة القطار وهو يتهادى . كدت أسقط والقطار يتهادى . دق قلبي بسرعة ، عيناي ظلتا مشبوحتين إلى العينين المعلقتين بوجهي والقطار يوشك

على التوقف . رأسي استدار خلفي ، ورأسها أصبح خلفها بعد أن تجاوزتها عربة القطار التي أقف ببابها . توقف القطار ، قلبي لم يوقف ضرباته . هبطت . استدرت عائداً باتجاه السلالم الأرضية المؤدية إلى باب الخروج . ماذا لو تلاقينا وجهاً لوجه ، خفت أن تنكرني . فكرت في الإختفاء عن أنظارها . وجدت أن من السخف الهرب من لحظة لحقت بي طوال السنوات الثلاث الماضية . لحظة جذبتني من بغداد لكي أراها . الفتاة الوحيدة التي احتفظت لها بسجل خاص في ذاكرتي . إنها الوحيدة التي جاءت لاستقبالي . وقفت على الرصيف تنتظر قدومي وهي لا تعلم بقدومي . تستقبلني دون أن تعرف انها تستقبلني . أما أنا فقد عرفت أنها جاءت لاستقبال شقيقتها القادمة من القاهرة لزيارة الأهل . فقد ظهرت الشقيقتان فجأة قبالتي . رأيت طفلاً صغيرًا على يدي شقيقتها ، إنه ابن الضابط الذي حضرت زفافه المليء بدموع حبيبتي ، والذي انتهى في القاهرة بطلبها الانفصال ، وإنهاء علاقتنا . هي التفتت إلى شقيقتها ، قالت كلاماً يشبه الإشارات ، قبل أن تتقدما معاً ، من الاتجاه المقابل نحو مدخل السلالم الأرضية . عينا شقيقتها تعلقتا بعيني في تلك اللحظة . رفعت هي عينيها نحوي بشيء من الارتباك والخجل . ووجدتني محاصراً بأربع عيون . تصافحنا ونحن نرى أنفسنا في ظروف مغايرة . نحن الذين التقينا من زمان ، وصرنا غيرنا .

قالت شقيقتها تحاول ملء فجوات السنين التي فصلت بيننا :

– مش تبارك لها يا ربعي ، مش اتخطبت .

أعرف ذلك ، لم يتطلب الأمر مني أكثر من حدس . مجرد حدس ، فابن العم وابن الخالة وأمثالهما جاهزون دائماً . ولعلهم مكتوبون لبعضهم ، أيضا . ابن خالتها مكتوب لها ، وهي مكتوبة له . تماماً مثلماً انكتبت أنا لابنة عمي أديبة وانكتبت لي . التقاليد تكتبنا بدون حبر أو أقلام . بحكي من قرّ وتميمة ورغبات محكية يكتبوننا . منذ قررت هي تغيير طابع علاقتنا ، في الواقع قررت تمزيقها وذر فتاتها مثل رمل السوافي في شوارع العباسية ، أدركت أن عائلتها قررت ، بعد زواج شقيقتها ، فض المكتوب وقراءته علناً . هي له وهو لها . وعوضاً عن زواجها

بي ورحيلها معي ، وضياعها في صحراء غربتي ، ياتي ابن خالتها إلى بيت العائلة . ينتقل بها من بيت الأم - أمها - إلى بيت خالتها ـ أمُه . وهكذا يبقى الزيت في البيت ، ويذهب الغريب ، أي أنا ، إلى غربته . وسوف يقال بعدها : راح وخد سيرته معاه . وحتى لو ظهرت ثانية ، كما يحدث في هذه اللحظات بالذات ، فلن أظهر بصورتي القديمة ، بل في شكل سائح غير مصري . لن اظهر في حياتها ثانية ، بل في عرض شارع ، وازدحام محطة قطارت . في مقهى ، في لحظة عابرة ، في زمن عابر ، كما يحدث في هذه اللحظة بالذات :

- مبروك الخطوبة ، أكيد ابن خالتك .

- مش بقى زابط ، ح نتجوز قريب . عقبالك يا ربعي . . . الا بصحيح ، انت تجوزت ؟

أأقول لها كما يقول عرفات : أنا متجوز الثورة .

لم أقو على المزاح .

- ما حصلش نصيب .

هبطنا السلالم . سرنا في الممر الداخلي . تناولت حقيبة شقيقتها من يدها وسارت إلى جانبي ، كادت تلتصق بي كأنها لم تزل هي ، فتاتي الأولى . كأن الفراق فارق الفراق ، فعدنا ، تتلاطم كتفانا كما تلاطمت بحب عبر السنين ، وأصابعنا تنز عرقنا من طول الاحتضان . الآن أصبح لمس الأصابع ممنوعاً . ما أن ننفصل عن أحبابنا حتى نصبح غرباء :

- قبل شهرين شفتك ع محطة الاتوبيس . . . جريت عشان اسلم عليك ، لقيتك مش انتَ !

لثوان أحسست بفرح يشبه الحزن . أو لعله حزن سعيد . لعله اللقاء الذي جاء في لحظة افتراق ، لعله الفراق الذي نلتقي فيه .

تبادلنا نظرات خاطفة ، خجولة مثل النظرات الأولى ، ثم عبرنا طريق الحرية .

استأذنتني بطريقة مألوفة :

- معلش يا ربعي ، أحسن حد يشوفنا .

ارتجف قلبي . تعالي ، خلينا نروَّح من هنا بس . لأ بخاف حد يشوفنا . طب نتمشى هنا . لأ اكيد حد حيشوفنا . ارتجف قلبي برعشة أعنف . سقطت منه لحظة فرح بحجم العمر كله . ناولتها الحقيبة . صافحت شقيقتها أولا ، ثم صافحتها كأنما أردت أن أبقي بعض دفء أصابعها هي في كفي .

افترقنا .

تحسست كفي ، لم يعلق بها سوى أثر خاتم خطوبتها .

اجتزت محطة مترو سيدي جابر ، هبطت السلالم المقابلة سريعاً ، واختفيت داخل ماضي الاسكندراني كله .

***

أشياء كثيرة أخذت تتغير منذ عودتي من القاهرة إلى بغداد . الخلافات التنظيمية تتزايد . أبو علي يدخل أزمة تنظيمية حادة ، ويطلب من قيادة الجبهة إعفاءه من مهماته التنظيمية والحزبية وإنهاء تفرغه . وقيادة الجبهة تعد بمعالجة الأمر وإرسال مندوب جديد للفرع يأخذ مكان الكاشف . ويتأخر الوعد . ونتوغل أكثر في مستنقع الخلافات التي بدأت تأخذ طابعاً شبه علني بعد أن قام عدد من الرفاق القدامى بممارسات صبيانية . كان الكاشف هادئاً ويحاول تفادي المزيد من الاستفزاز ، لكنه وعلى ما بدا لي كان ينتظر مجيء الفرصة للخروج من المستنقع كله .

وجاء المعتد الجديد للفرع . . . الرفيق أبو العبد هللو ، الذي التقيته أول مرة في جرش الأردنية ، واعتبرني وعوني طالبين مشاكسين ينبغي تعليمهما درساً في الانضباط الحزبي ، وتعميق التزامهما الثوري . قرر نقلنا إلى عجلون . وحملنا رسالة تنظيمية إلى أبو خالد ، مسؤول المنطقة . فتحنا الرسالة أثناء انتقالنا بسيارة أجرة إلى عجلون . وجدنا محتواها قاسياً ، فقد ملأها أبو العبد بتوصيات وتحذيرات ، وبضرورة إلحاقنا بالميليشيا المحلية . في تلك اللحظة قررنا ، معاً ، التصرف بطريقة تفشل خطة ابي العبد تماماً . ونجحنا في إجبار أبي خالد على

إعادتنا إلى جرش خلال أيام فقط .

كانت تلك هي الصورة التي حملتها ل«ابي العبد» حين وصل ، وتسلم مهماته . وكان أول ما فعله هو الشروع في عملية توحيد الفرع الذي مزقته الخلافات . عقد مؤتمراً للفرع ، انتخب قيادة جديدة ، ولم أكن من بين أفرادها .

لم أستطع التآلف مع أبي العبد ، أومع الوضع التنظيمي الجديد . وبدأت تظهر بيننا فوارق كثيرة في وجهات النظر جعلت الاستمرار غير ممكن .

ووجدت نفسي في عزلة . القادم الجديد الذي أخذ مكان ابي علي ، كان يتعامل مع المهمات النضالية بروح أرثوذكسية . وكنت أطلق عليه خفية «الرفيق الماركسي الأورثوذوكسي» ، الذي سيسرع وجوده في مغادرتي العراق نهائياً .

***

لمعت عينا أبي نضال الصغيرتان الحادتان فور التقاطه مؤشرات خلافاتنا ، فدخل ملعبنا محاولاً تسجيل أهداف . بدأ أولاً بمطالبتي بإبداء الرأي في المناقشات ، الأمر الذي يخالف نظام اللجنة السياسية . لكن أعضاء اللجنة تغاضوا عن ذلك ، أحتراماً لي ، ولتفادي مواجهة لا ضرورة لها مع أبي نضال طالما أن الأمر يقتصر على مجرد إبداء الرأي . وبقي الأمر كذلك لبضعة اجتماعات . غير أن أبا نضال بدأ فصلاً ثانياً من لعبته التي لم تكن قد اتضحت ملامحها بعد . إذ طلب من أعضاء اللجنة منحي حق التصويت ما دمت أشارك في الاجتماعات ، التي أكون قد رتبت لقضاياها التي ستطرح على النقاش مسبقاً . وقد عارض اثنان بقوة هما مندوب الشعبية ومندوب النضال الشعبي الذي أكد احترامه البالغ لي كسكرتير للجنة ، لكنه قال أنه لا يستطيع أن يفهم منحي حق التصويت ، ووضعي على قدم المساواة مع أعضاء اللجنة السياسية ومخالفة أنظمتها بهذا الوضوح . في ذلك الوقت طلبت من أبي نضال سلفة مالية تقتطع من راتبي في بداية الشهر ، كنت بحاجة ماسة إلى نقود ، فلم يعترض . لكنني

حين طلبت منه أن يخبرني بمقدار راتبي الشهري لكي أحدد ما أستطيع أن آخذ منه وما أبقيه حتى موعد تسلم الرواتب في نهاية الشهر رفض ذلك وقال لي : أخي خـود اللي بدك اياه . . عندك أبو أسـامـة أطلب منه اللي بتـريده . ثم رفع سماعة الهاتف فجأة وتحدث إلى أبو أسامة مباشرة قائلاً على مسمع مني : الأخ ربعي جاي لعندك اعطيه اللي بيريده . وكان ذلك بالنسبة لي مؤشراً من أبو نضال على أمكانية مالية مفتوحة ، ثمنها تقارب أكبر معه ، تكون نتيجته قطيعة تدريجية مع الجبهة الديمقراطية . لكن الرجل أخطأ حساباته ، فمهما كانت وجهة نظري في أبي العبد هللو ، إلا أن ذلك لا يمس التزامي العميق بصفوف الجبهة الديمقراطية . صعدت إلى غرفة المسؤول المالي ، أبي أسامة وطلبت عشرة دنانير قدمها لي بكل احترام . وفي نهاية الشهر طلبت راتباً يعادل ما يتلقاه زملائي الذين عملت معهم في الإذاعة ، ثلاثين ديناراً ، وهو مبلغ محترم في ذلك الحين . .

حاولت تفادي المشكلة الناشبة داخل اللجنة السياسية ، بأن طلبت إعفائي من التصويت ، والاكتفاء بمشاركتي في المناقشات وإبداء الرأي . لكن أبا نضال أصر على مطلبه ، وفض الاجتماع على خلافات كثيرة . خرج أبو نضال غاضباً . وبقيت أنا أسير مأزقي الخاص ، إذ لم أكن على قناعة دائما بمواقف أبي العبد ممثل الجبهة في الاجتماعات . لكن التزامي التنظيمي يفرض علي تأييد وجهة نظره ، صائبة كانت أم خائبة . مما يخرجني من حيادي المفترض كموظف في اللجنة ، ويسيء إلى علاقتي بالآخرين . وحين تعمق مأزقي ، وجد أبو نضال طريقه للتخلص مني ، وكان في الواقع يرد على رفضي غير المعلن التقارب معه ، والابتعاد عن الجبهة كما راهن ، وإن لم يقل لي ذلك صراحة . وجاءته اللحظة التي وضعت خاتمة لهذا المسار كله :

في اجتماع لاحق للجنة السياسية انقسم الأعضاء إلى فريقين خلال مناقشة القضية المطروحة للنقاش . قرر أبو نضال ان يضرب ضربته الأخيرة ، وطلب مني إبداء الرأي لكني اعتذرت عن ذلك ، تفادياً للتورط في مشكلة تكسبني طرفاً

وتثير حقد آخر عليّ . لكن أبا نضال أصر على موقفه وسط ترقب الآخرين . وتحدثت ، وكان موقفي كافياً لتفجير غضب ابي نضال ، فقد أيدت الغالبية المعارضة له . في تلك اللحظة ، تقدم أبو الحكم ، مسؤول جبهة النضال لتوجيه ضربة صاعقة لأبي نضال ، وطلب التصويت . قفز أبو نضال من مقعده ، ضرب وجه الطاولة بقبضته وصرخ :

- أخي أنا ما بقبل يكون للجبهة الديمقراطية صوتين في الاجتماع .

أبو الحكم رد بقوة :

- أخي . . .نحنا م البداية عارضنا مشاركة الرفيق ربعي في التصويت ، وانت اللي أصريت على مشاركته ، وهلأ نحنا قبلانين رأيه .

تحدى أبو نضال الجميع بطريقة انفعالية غير متوقعة :

- أخي يا أنا هوّ في الاجتماع .

رددت عليه مباشرة :

- ما في داعي لكل هالخلاف ، أنا رح أترك الاجتماع وأريِّح الجميع .

وخرجت . وفي اليوم التالي ، استدعاني أبو نضال ، وحين أصبحت داخل غرفة مكتبه ، بادرني إلى القول :

- أخي . . .خود راتبك من المحاسب ، والله معك .

وبالفعل ، أبلغت المحاسب بما جرى ، وكان شاباً طيباً خلوقاً ينتمي إلى جبهة النضال الشعبي ، أبدى امتعاضه لقرار أبي نضال ، وسارع إلى إعطائي راتب الشهر ، وشهراً إضافياً دون علم أبي نضال .

وغادرت المبنى للمرة الأخيرة وفي ذهني مسألة وحيدة : مغادرة العراق نهائياً ، والتخلص من كل ما علق بي من تلك التجربة ، وبدء تجربة جديدة .

طلبت من الرفيق أبي العبد الانتقال إلى بيروت للعمل في أسبوعية الحرية ، فلم يعارض . بعث برسالة تنظيمية إلى قيادة الجبهة في بيروت ، ولم يطل الوقت حتى جاء الرد ترحيباً بهذه الخطوة . وخلال أسابيع كنت أعمل ضمن لجنة الإعلام التابعة للجبهة ، في المكتب التابع للعلاقات الخارجية الواقع في نهاية

شارع أبي سهل في منطقة الطريق الجديدة . لكن ذلك لم يطل كثيراً ، إذ رشحت للمشاركة في الدورة الحزبية الأولى في موسكو ، حيث أمضيت قرابة العام ، عدت بعده إلى العمل في لجنة الإعلام ، التابعة للجبهة في دمشق ، لأواجه التجربة الأسوأ في حياتي .

المقطوعة الرابعة
قلب العروبة

الحادي عشر من آب/ أغسطس . الساعة تقترب من الحادية عشرة . بعد دقائق تتطابق مع وقت وقوع الجريمة التي يكون قد مرّ عليها اثني عشرة ساعة . أربعة عشر مسلحاً يشطرون الباب نصفين . يقتحمون الشقة بمسدساتهم وبنادقهم الكلاشنيكوف . يستكملون فصول الجريمة التي لا تشبه الجريمة . ليلة لم تنته رغم ضوء النهار الذي يفترش المساحة خلف رأسي مؤكداً اقتراب الوقت من الظهيرة . أقاوم النعاس بصعوبة ، يهاجمني النوم بلا رحمة . منذ اثنتي عشرة ساعة ، لحظة وقوع الجريمة ، لم أغمض عيني نوماً ، بل فعلت ذلك بعد الاعتقال وتحت التعذيب ، والأصح أنهم هم الذين أغمضوا لي عيني ، عندما عصبوهما بفوطة حمام . على سرير مواجه لي تماماً اضطجع جندي أخذ يهددني بأفظع الويلات . عيناه تبث النظرات تحذيراً وشفتاه تمارس بالكلام أسوأ أنواع التعذيب : «اصحا ولاه . .بكسرك إزا بتنام» .

لماذا هو متحمس لأذلالي وتعذيبي إلى هذا الحد ! إنه لا يعرف حتى اسمي ، ولا كيف جيء بي إلى هنا . لو كان هذا الأمي يقرأ لكان عثر علي تحت عنوان قصتي «الخطيفة» المنشورة في الملحق الأدبي الأسبوعي لجريدة الثورة الرسمية الأولى . ولأدرك ما هو مشترك بين عنوان القصة والعنوان الذي جرى تحته تعذيبي . تذكرت وأنا أقضي استراحة بين جولتي تعذيب ، وهي تمنح عادة

للجلاد وليس للضحية ، إذ يكون متنه قد كلّ ، ويستفيد من الوقت المتاح ليدخن سيجاره مهربة لمصلحة بعض أجهزة الدولة ، ويشرب شاياً ، ثم يعود بفكرة جديدة لإذلال المتهم ، أي شخصي ، الذي تذكر ، في تلك اللحظات ، مقالي النقدي المنشور في دورية «المعرفة» السياسية الفكرية الأدبية ، حول رواية يحيى يخلف «نجران تحت الصفر» ، وسألت نفسي : من منا حقيقة تحت الصفر نجران أم أنا ؟ كلماتي متداولة بين القراء ، وربما هناك من يقرؤها الآن ، في هذه اللحظة بالذات ، بينما يتم تداول جسدي بين دولاب الكاوتشوك وخرطوم المياه في يد الجلادين . لكن الجندي المتمترس قبالتي يبدو أمياً . ولو كان الأمرغير ذلك ، فإنه لن يطالع ، على الأغلب ، سوى أسبوعية «حزبه» . إنه يقضي هنا مدة خدمته العسكرية ، غير المحددة على أية حال ، مقابل راتب ثابت يتلقاه بشكل روتيني يشبه إيقاع الهزائم العربية . وهو لم يتلق ، منذ جنِّد علاوات ذات صلة بمعارك حربية ناجحة خاضها ضد العدو ، لأن التاريخ ، حتى الذي تعترف به الحكومة رسمياً ، لم يسجل أية معارك مع العدو ، منذ هزيمة ١٩٦٧ . وينطبق الأمر نفسه على من تلقوا علاوات وترفيعات في مناصبهم العسكرية ، لأن هؤلاء حصلوا عليها بسبب أنشطة محلية .

هذا الصباح وجدوا للجندي القابع قبالتي وظيفة لم تكن متضمنة في الإخطار الذي تسلمه يطلب إليه الالتحاق فوراً بأقرب معسكر للتجنيد لأداء الخدمة الوطنية ، إذ كلِّف بمراقبتي . لم يسأل عن اسمي ، أو يكترث له ، أو حتى لسبب وجودي هنا . والأغلب ، وهذا متعارف عليه في الجيوش عامة ، أنه محروم من السؤال أو الاستفسار ، لكنه تبلغ المهمة الجديدة ، وهذا واضح من طريقة تصرفه معي منذ الصباح ، في استنفاره كراهيته لي ، واستحضاره أحقاده ضدي ، بما فيها تلك التي يكنّها لحماته ، ولإسرائيل ، ولاختفاء الموز من الأسواق ، وانقطاع الكهرباء والتسبب في عدم مشاهدته للحلقة الأخيرة من المسلسل العربي المعروض في القناة الرسمية ، التي لا يوجد قناة غيرها على أية حال ، ومن استقرار الفقر في عائلته على أسس وراثية . هذا عدا أحقاده الموسمية الناتجة عن

البرد ، وتعبئة تنكات المازوت ، أو الحرارة الزائدة عن اللزوم ، وزحمة المواصلات ، والغبارالذي يزين واجهات المؤسسات الحكومية وغير الحكومية .

لقد قيل له بوضوح : «قِدّامك قاتل محترف ، إنتبه وفتح عينيك» . نعم . لا بد أن ذلك قيل له حرفياً ، وإلا لما تصرف معي كما يتصرف الآن . تصرف يؤكد أنه أجاب على ذلك بكلمتين : نعم سيدي .

وهكذا أقام برج مراقبة قبالتي على السرير . كان الأبله يعتقد أن برجه مقام في هضبة الجولان ، أو أن له قيمة ذلك على الأقل . لذلك حولني إلى موقع استراتيجي معاد يحتله قاتل ممدد على سرير . لا أدري إن كنت الآن ، كافكا أم الصرصار ، كل ما أعرفه أنني ممدد على سرير في زاوية من زوايا مهجع مخصص للجنود .

يستوقفني ، بعد أيام ، سؤال لرفيق له :

– شو قِلت اسمك استاد؟

– اسمي ربعي . . .ربعي المدهون .

–ربعي . . . المدهون ! والله اسمك مو غريب علي . وين سمعت بهالاسم وين . . . تزكرت . .لا مو معقول . . . لاتْقِللي استاد إنو انت يللي كاتب بملحق الجريدة .

–أيوه ، أنا . . . ليش مستغرب ؟

– قريت قصتك استاز وعجبتني .

ثم دنا مني ليهمس :

– بس شلون جابوك لعنا هون ؟

فجأة انتفض واقفاً :

– أجا المعلم .

قال ، ومضى قفزاً نحو سريره في ركن بعيد ، بينما كان صوت أداء التحيات العسكرية يمتزج بإيقاعات أحذية الجنود في الخارج .

– قوم اوْلاه . . .

انتهرني حارسي بفظاظة ، وتابع :
- إوعى اوْلاه تغمِّض عينك . . . فاهم لو فَهمك !
أحاول أن أفهم . عيناي لا تفهمان . أحاول إبقاءهما مفتوحتين تذبلان . جفناي متعبان مرتخيان يسقطان غصباً عني . أريد أن أغفو لحظة ، وأريد تنفيذ أوامر الجندي أيضاً . كدت أفقد قدرتي على التحمل . صحت في داخلي حتى مزقت داخلي : ارحميني يا شاااااااااام . . . يا قلب العروبة النابض بالدمامل والجروح .
لا يقتنع . الجندي لا يريد أن يقتنع . ولا يريد رفع أنظاره عني ، حتى أنه غير من وضعه فوق السرير . تمدد على جانبه الأيسر ، وأسند رأسه إلى كفه اليسرى أيضاً ضارباً مرفقه في عمق السرير استعداداً لمراقبة طويلة :
-قلت لك لا تنام اوْلاه .
-يا أخي والله ما نمت من أول تِ مْبارح .
- لكْ بحكي عن هلق ، مو عن أول تِ مبارح . ههْ . . . شوف . . شوف اولاه . . . هيِّك نايم . .طيب ليك ، إزا كنت صحيح مو نايم ، قللي شو تاريخ اليوم . .ها .
- احدعش آب وامبارح كان عشرة .
- ايه ، والله بعدك متزكِّر يا ملعون !
معقول ! وهل يمكن أن أنسى ، مع أن ما حصل ليلة أمس ينسي البني آدم التاريخ والجغرافيا .

***

بعد ثمانية أيام يطلق سراحي . سيارة جيب مخابراتية تنزلني قبالة مكتب الجبهة الديمقراطية في حي التجارة . يستقبلني الرفيق أبو العبد عصام بحرارة . ويطلب مني ، في نهاية اللقاء ، تسجيل الوقائع بالتفصيل . يقول إنها درس ثمين .

الرفيق جواد ، مسؤول المالية في المكتب يعطيني مائة ليرة سورية ، سلفة مستردة .
أغادر حي التجارة عائداً إلى مقر إقامتي ، مكتب إعلام الجبهة الديمقراطية ، في بناية الست ، في شارع بغداد ، والذي كان قبل ثمانية أيام مسرحاً للجريمة .
أصل . المنطقة لم تعد تشبه المنطقة . بناية الست رابضة مثل جبل متاعب . رفعت رأسي عالياً . آلمتني رقبتي من حشرها المتكرر داخل دولاب الكاوتشوك أصعد . هنا الشقة ٥٤ بلا وجيه . وجيه مات ، وسيشيع جثمانه غداً في مخيم اليرموك ، ليدفن في مقبرته . لا مكان يتحمل الفلسطيني مثل المخيم . فيه يتحرر اللاجىء من المحيط . وفيه يدفن متحرراً من تحرره حين يقتله المحيط . هنا الدرج – السلالم ، جنود يصعدون دم يسيل . هنا الشقة يخاف اقترابها الجيران . هنا الباب ضلفتان مكسورتان . هنا الصالة جف فيها بولي ، تشربته رجل بنطلوني اليسرى قبل أسبوع . هنا قيثارتي ، مشبعة أوتارها بصيحة الأميركيين السود : «we shall over come» سوف ننتصر .
«يوماً ما سوف ننتصر»
اعتقلوا أبا أيمن . كان عائداً من زيارة لأقارب له في الأردن ، صبيحة يوم الجريمة .
«بيض وسود معاً . . . سوف ننتصر»
حضر أبو الجاسم إلى المكتب صباحاً ليداوم كعادته ، اعتقلوه
«سوف نعيش بسلام»
سقط مخيم تل الزعتر في اليوم الثاني لاعتقالي
«يوماً ما سوف نعيش بسلام»
صار عدد المعتقلين سبعة
«أؤمن بذلك من أعماق قلبي»
على قدمي خط خرطوم المياه صورته عشرات المرات
سوف ننتصر . . . سوف ننتصر .
هنا يمكن معاينة وقائع الجريمة . هنا الموت رائحته لم تزل تفوح . هنا المطبخ .

هنا النافذة . من هنا سقط وجيه . هنا فنجان شاي لم نشربه . هنا تداهمني التفاصيل . هنا أكتب بقلم أسود على ورق أصفر قصتي – قصة وجيه .

نسمة باردة هبت قادمة من الظلام البعيد . ارتعشت أوراقي ، خفت على التفاصيل . أغلقت النافذة . أعدت ترتيب الأوراق . أخذت نفساً عميقاً . بدأت كتابة التقرير :

١٩٧٦/٨/١٠

خارجاً من الحمام بيدي منشفة قطنية أجفف بها شعري ، أخطو وسط الصالة ، يستوقفني صوت وجيه :

– تشرب شاي يا رفيق ؟

– طبعاً . . . فنجان شاي بعد الحمام يسوى الدنيا يا وجيه .

– خلاص . هسة رح أعمل بس انت لا تنساني بعدين . . .في الموضوع اللي سألتك عنه .

–آه . . . لا ما رح أنساك .

يريد إغرائي بمتابعة السهرة . بإنعاش ذاكرته بحكايات الحب والنساء في البلدان الاشتراكية . يريد التزود بذخيرة من النصائح والتوصيات ، قبل سفره إلى تشيكوسلوفاكيا للدراسة الجامعية .

حين تبلغ خبر حصوله على بعثة دراسية ، في براغ ، لم ينم الفرح في بيتهم طيلة أسبوع . أمه كررت أمامه : يمّه هاظا كله من دعواتي إلك . وقالت لنساء الجيران : عقبال عند اولادكو انشالله . الجبهة الديمقراطية استدعته لكي تخرجه من ظلمة العمل السري ، في الضفة الغربية ، وتكسبه تجربة العمل تحت الشمس . التحق بمكتب الإعلام ، في الشقة ٥٤ يقوم بمهمات مساعدة . لحق به أبو ايمن ، الطالب الآخر ، الذي جاء يمارس مثله الانتظار .

تفتح شقتنا أبوابها في الصباح . لا ينقصها سوى اليافطة كي تشابه المكاتب والدكاكين . ليس لدينا يافطة . مكاتب المقاومة لا تضع مثل هذه الإعلانات المباشرة . لكنها تعلن عن نفسها بمباشرة أكبر : أشخاص داخلون وخارجون على

امتداد ساعات النهار . أصوات عالية تؤكد استمرار العمل . بعض الشعارات على حائط أو اثنين . نور لا يهتم بفاتورته أحد . أوراق ، أعقاب سجائر ، علب فارغة ، أحياناً ، تستقبل الزائرين وتذكر الجيران بجيرانهم . حراس شخصيون يركضون أمام قادة لا يركضون . في المكتب نتعاطى المراسلات والمهمات الإعلامية اليومية . حين يهبط الليل نصبح سكان الشقة رقم ٥٤ .

لم أزر براغ أبداً . ولم أرتشف رحيق شفاه صباياها . لكن موسكو استضافتني ، خلال الدورة التثقيفية الأولى للجبهة ، بين آذار/مارس ١٩٧٦ وكانون الثاني /يناير من العام التالي ١٩٧٦ . موسكو أطلعتني على النموذج الاشتراكي للحب ، على ال«بلادي» (البغايا) ، في حديقة غوركي ، لم يقرأن رواياته ، لكن يُجدن قراءة وجه الغريب ، ويحصين الدولارات داخل جيوبه . على سيقان ال «ديفوشكي» (الصبايا) ، تضيء المساحات تحت الأشجار . من هناك بدأنا . تعرفنا على مفاتيح الحب ، يباع في الشوارع كحاجة إنسانية بلا ثمن ، مثل كوب ماء ، كما ألحّت روزا لوكسمبورغ ، وعارضها لينين ، ومقابل سيجارة أميركية بعدما مات الرفيقان ، ولم يعد يختلف أحد على الموضوع . موسكو تبيع الحب مع الدخان المنفوث في شوارع العشاق الخلفية والأمامية . وسعيد الحظ من يحضر معه بضع علب من سجاير «مالبورو» ، الأكثر جودة . مالبورو التي تغري أجمل النساء بالدخول إلى عالمها . حين ينطلق النداء تسقط التحفظات : تعالوا إلى حيث النكهة . . .تعالوا إلى مالبورو تفتح أبواب اللذة . تدخلكم تفاصيل الجسد الاشتراكي العام تحت الأشجار ، فوق المقاعد الخشبية الصامتة ، أو في مخادع الأزواج الغائبين في مهمات رفاقية . .تعالوا إلى مالبورو . تعالوا إلى حيث النكهة . . . تمْ تمْ تتم ، ترَرَرَمْ . تا رااااااا تيراتتا . .تارااااااااااا . . . .

تهيأت لإسماع وجيه ما لدي من حكايات ، توليفة من تجاربي وقصص الآخرين . قررت أن أصنع منها «سلاطة حب» أممية ، مع قدر من البهارات الكلامية الضرورية لتحسين النكهة وتطييب المذاق .

– إحكي رفيق . . .سامعك أنا .

قال وجيه . خبطة قوية مفاجئة على الباب قاطعته واستوقفتني . لساني تجمد قبل أن يتحرك . وجيه تجمد في المطبخ حيث يعد الشاي . وجيه أطلق صيحة توجس :

-هاذي خبطة غريبة !

كان في التاسعة عشرة ،لم يزل مراهقاً قليل الخبرة حديث التجربة . وكنت في الثلاثين تقريباً . وكان علي أن أتصرف بحجم الفوارق كلها . استدرت قافزاً باتجاه الباب . لمحت وجيه يطل من خلف زاوية الممر المؤدي إلى المطبخ . وجهه أصفر مثل الكركم . عيناه زائغتان راعشتان .

- ما تخافش يا وجيه . . . خلليك عندك يا رفيق . .أنا رح أفتح .

لم أكد أنقل قدمي ، حتى انفجر الباب . ضلفتاه ارتطمتا بالجدران على الجانبين . وجدتني في مواجهة مسدس صوِّب نحوي ، مرفوعاً في قبضة ضابط اندفع ، من على جانبيه ، عدد من المسلحين ، ملؤوا البيت صراخاً وفوضى وتهديد وخرطشة سلاح . وجيه اختفى داخل الممر . الضابط الذي تقدم المجموعة وقاد عملية الإقتحام اندفع خلف وجيه مهدداً بإطلاق النار . هل جاء مستهدفاً وجيه بالذات ؟ أنا تولاني ثلاثة مسلحين زرعوا فوهات بنادقهم الكلاشنيكوف في أنحاء متفرقة حول خاصرتي . فقدت السيطرة على نفسي في اللحظات الأولى للاقتحام المفاجئ . ذراعاي إرتفعتا عالياً مثل عصاتين شدّتا إلى السقف . ساقاي ارتعشتا وتسلل فوق يسراهما سائل دافىء انساب عبر رجل بنطلوني الطويل . جسدي كله صار كتلة راعشة بين فوهات البنادق وقبضات الجنود ، في لحظة استسلام لا إرادية . سجلت وقائع الاستسلام الثالث في حياتي ، بعد استسلامي الأول الذي قادته عمتي الحاجة ربعي صبيحة يوم سقوط مدينة خان يونس بأيدي قوات الجيش الإسرائيلي عام ١٩٥٦ ، وبعد استسلامي الثاني في حضرة جنديين أردنيين ، أحدهما من أصل فلسطيني ، خلال أيلول الأسود في الأردن ، عام ١٩٧٠ .

ظهر الضابط فجأة عند بداية الممر . طلب مني بلهجة عنيفة قاسية أن أدلّه

على مكان الأسلحة والمتفجرات التي نخبئها في الشقة ، وتسليمها في الحال . جوقة الجنود استغلت الموقف وأنشدت مقطوعة شتائم بذيئة وزعها أفرادها الذين أخذوا يتقافزون بأسحتهم الرشاشة داخل الشقة . أحد الثلاثة الذين يحيطون بي تبرع وشد شعري الطويل بين أصابعه ، جاذباً رأسي إلى الوراء . تمالكت نفسي رغم قسوة الموقف ، ورعبي الشديد من انطلاق رصاصة في ظهري من أحد الرشاشات الثلاثة المغروسة في لحمي ، قصداً أو بصورة عفوية . حاولت استعادة ثقتي تدريجياً . قلت بلهجة متماسكة شكلاً ، هي سلاحي الوحيد على أية حال :

– هذا مكتب علني للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، واللي عنا بندقية واحدة كلاشنيكوف ، مسموح إلنا نحتفظ بيها بتصريح من الضابطة الفدائية . . . مرمية هناك على الكنبه جوة .

صاح جندي من خلف ظهري :

– وجدناها سيدي .

وران فجأة صمت مخيف . كل شيء توقف عن الحركة دفعة واحدة . الضابط عاد باتجاه المطبخ واختفى في الممر القصير . خطوه أحدث ضجة وسط الصمت الذي سرعان ما عاد يفترش الشقة ويحولها إلى مقبرة . صمت أرعبني أكثر من عملية الاقتحام ، وكشف لي عن أسرار غامضة وخطيرة خلفه . علي أن أستعد إذن لمواجهة العاصفة المقبلة حتماً ، بعد هذا السكون الرهيب .

***

انتهرني الجندي الذي يقوم بحراستي :

-إصحا اوْلا . . قوم أجا المحقق .

– صاحي .

ودخل الغرفة شرطي عادي . متوسط العمر ، متوسط القامة من النوع الذي نراه في المسلسلات العربية ، حتى أنه بدا لي متوسط الاهتمام بقضيتي ، إذ تقدم

مني بخطوات رخوة كسولة لا يمكن وصفها بالجدية ، لكنها ليست عابثة على أية حال . حين التقت نظراتنا لم ألحظ في عينيه وميض الباحث عن جريمة ، الراغب في إثباتها . كما أن نظراته لم تعكس لدي الانطباع بأنه سيكتب كلاماً في صالحي . باختصار ، كان المحقق جزءاً من المشهد العام : اعتقال ، تعذيب ، يليهما تحقيق سريع لمعرفة أسباب الاعتقال ، ثم تنفيذ العقوبة . أرعبتني الكلمة الأخيرة . أخذت الأمر بجدية كاملة تحسباً للاحتمالات ، او لسوء تقدير يقودني إلى سجن نزلاؤه بلا أرقام أو عناوين .

حياني الشرطي تحية عادية محايدة ، لم أشعر معها بأنني أمام محقق جاء لاستجواب متهم بجرائم ، بينها زرع متفجرات أمام مقرات حكومية . اعتدلت في سريري ، لكي أبقى مستقيظاً رغم صعوبة ذلك .

فتح الشرطي ملف التحقيق . أخرج بضعة أوراق . سحب من جيب أعلى كمه عند الكتف قلّما . بدأ يدون تفاصيل ما أرويه .

رويت له الوقائع ، التي أعيد الآن كتابتها في التقرير بدءاً بعبارة «خارج من الحمام بيدي منشفة قطنية . . .وحتى العاصفة التي تلي السكون الرهيب» .

عندما انتهيت من الإعادة تلك ، سألني المحقق عما حدث بعد ذلك . يريد أن يعرف تفاصيل العاصفة التي تلت السكون الرهيب .

واصلت الكلام قائلاً ، الضابط صاح :

- صاحبك هرب .
- وبعدين ؟

سألني المحقق .

ضحكت ببرارة . طبعاً لم أكن قادراً على الضحك لحظة وقوع الجريمة ، سواء ببرارة ، أو حتى بأسوأ منها ، بل كنت قادراً على عدم التصديق فقط . أما الآن فبإمكاني أن أجهر بسخريتي من كلام الضابط ، الذي بدا متسامجاً وغبياً في موقف مفجع شديد التعقيد «صاحبك هرب» . حولت وجهة الاستجواب بتوجيه السؤال للمحقق نفسه :

- بتصدق انت ، لو كنت مطرحي طبعاً ، إنو وجيه هرب زي ما قال الضابط ؟

توقف عن الكتابة ، وأخذ ينقر بمؤخرة القلم على الورق فوق ركبتيه ، تماماً كما سيفعل المحقق الغبي البليد في مسرحية «شاهد ما شافش حاجة» بعد ذلك بسنوات . أوقف تلك الحركة فجأة كأنه مل منها ، وأخذ يحك ذقنه بظاهر كفه . استشعرت حيرته . أدركت أنه عرف هدفي من السؤال : إشهاده على ما حدث هو الذي لم يكن حاضراً ، بل جاء منذ قليل بهدف إجراء تحقيق في الحادث لا الشهادة في حادث لم يره أصلاً . هكذا سماه هو «الحادث» .

تابعت لمزيد من الضغط عليه :

- الشقة يا سيدي من غرفتين وممر ومطبخ وحمام . نبشها الجنود شبراً شبراً ، حتى وصلوا للملابسنا الداخلية ، كلاسينا بالعربي لمشبرح . حتى كلاسينا فتشوها ، الوسخ منها قبل النظيف . معقول وجيه يهرب من الشقة اللي كلها ما بتجيش عشر أمتار . ما شايف حضرتك إنو الموضوع مش راكب على بعضه؟

أحرجته . شعرت بذنب ما . . .هل كان ينبغي علي أن أفعل ذلك وأحرجه ؟ أم كنت فقط راغباً في إقناع نفسي بما توصلت إليه من نتائج حول أسباب موت وجيه ؟

-ما فاهم شو قصدك ؟

سألني .

- شوف يا سيدي ، الشقة في الطابق الخامس ، واذا بني آدم اختفى منها ، وما طلع من الباب اللي عليه حراسات زي النمل . . .معناتو فيه جريمة مية في المية ، وهلأ رح أعطيك التفاصيل .

تابع المحقق باهتام تدوين التفاصيل . وفي ما يلي ما قلته له ، وهو ما أعيد كتابته ، أيضاً ، في التقرير :

الضابط بدا مرتبكاً . أخذ يدور في الشقة ، ويتنقل داخلها بعصبية . استدار ناحيتي فجأة وصاح :

- صاحبك هرب ولاه .

المحقق قال :

- هذه كتبناها .

- نعم ، لكن هذه غير التي كتبناها ، فالضابط كررنفس العبارة ولكن بحدة هذه المرة .

واصلت :

الضابط بدا لي مرتبكاً لا يصدق ما يقول . يبحث عن عبارات تنقذه . ومع ذلك أرادني ، أنا أن أصدق أن وجيه هرب . هكذا ! أطلق ساقيه للريح في صحراء عربية ، وليس في شقة من غرفتين ، حشر داخلها منذ قليل ، بين باب المطبخ وشباكه .

شعرت بانتصاري على الضابط الذي استشعرت ضعف موقفه . قلت بشجاعة لم أعهدها فيّ من قبل :

-اذا وجيه اختفى ، فإنت اللي بتعرف وين راح . إنت الحقته وأكيد عارف وين راح .

قال متظاهراً الجدية :

- ياللي خبرتك هوي صحيح . . . صاحبك فعلاً اختفى .

- وين راح ؟

انتفض فجأة ، وصاح فاقداً أعصابه مرة واحدة :

- صاحبك انتحر أوْلاه ، انتحر فاهم . . . نط من الشباك ومات . . . وازا مو مصدق تعا اتطلع تحت وشوف .

وجيه مات إذن . صدقته هذه المرة .

بت الآن متاكداً من موت وجيه . ومن أن الضابط يحاول انتزاع شهادة مني على انتحاره . هو يعلم الحقيقة كاملة . هو صانع تلك الحقيقة . كنت أرغب في البكاء . أقاوم احتباس دمعي . أشعر بعيني تحاولان مغادرة محجريهما . قررت أن أستثمر طاقتي باتجاه آخر . أن أبدأ هجوماً سريعاً لاختبار تفاصيل ما جرى في المسافة بين المطبخ والغرفة المجاورة حيث يمتد ممر قصير يتوسطه شباك . صحت

بغضب حقيقي ، وقد تبخرت مخاوفي تماماً :

- انت هاجمته وبتعرف كل التفاصيل . . . أنا ما شفت اشي .

- إخرس يا كلب . إخرس وامشي دوِّر عليه إمشي يا عرص ياحقير .

وبدأ عدد من الجنود يدفعونني عبر الممر إلى أن بلغت عتبة باب المطبخ ، وصرت في مواجهة النافذة تماماً . النافذة مفتوحه على ظلام سرمدي يوحي بكل ما هو مجهول . أحسست بالموت شبحاً عملاقاً أسود يفترش المكان . الجنود يتحركون بعصبية حولي ، يحاولون إدخالي عبر بوابة مذبح ، مثل جمل صغير تجمّد على باب مسلخ بلدية خان يونس . رأيت الجزارين يدفعونه . يفتح قوائمه الأربع على اتساعها . يطلق صوت استغاثة في المدينة . المدينة لن تسمعه . المدينة تنتظر عرض لحمه للبيع معلقاً في شناكل من حديد لدى القصابين الكبار والصغار . يقاوم . يصارع اللحظات الأخيرة التي تسبق اقتراب السكين . بغريزته اشتم رائحة الذبح . تعرف على لون الدم المسفوح . أنا ذلك الجمل الصغير . أنا «القاعود» الذي سيدخل من النافذة تحت ضربات سكاكين الجنود . شاهدت الموت حياً يقترب مني . لا شكل له ولكن له لون تلك الليلة . رأيت وجيه يسقط من النافذة . يهوي من الطابق الخامس ألف مرة . أحلامه الكبيرة والصغيرة تتمزق وتعلق على حبل غسيل في البناية . صدري ينقبض ونفَسي يضيق . ألهث وألهث وألهث . أقاوم ضغط الجنود وألهث . ينجح الجنود في إدخالي إلى المطبخ وألهث . يدفعونني باتجاه النافذة وألهث . الآن صرت على بعد متر واحد من النافذة ألهث . صرت على مسافة ليست بالمسافة ألهث . ذاكرتي تهرب مني وأنا ألهث . لم يبق فيها سواي أنا والنافذة والموت والجنود وروح وجيه معلقة على حبل غسيل . والجنود يسنون السكاكين . وأنا مثل الجمل لا أريد أن أموت . كل شيء في حياتي اختفى . تاريخي كله تبخر ، ولم يبق لي منه سوى لحظة تحدق في اللحظة . جنود يدفعونني نحو الموت . يساعدهم صوت قائدهم قادماً من بعيد قريب : دوِّر عليه اوْلاه . .دورع وجيه . اتطلع تحت شوفه . . . جثته بعدها تحت . . اتطلع اولاه . . .

وفجأة ، استيقظ عقلي من عقلي . طلع مثل فجر ينشر ضوءه الصباحي الأبيض فوق مساحة تلك اللحظة دون كل المساحات . وأخذت صورة وجيه تدق رأسي بقوة . اهمس باسمه أولاً . ثم أصرخ منادياً : وجيه يا وجيه . . . أصرخ وألهث باسم وجـيـه يا وجي .ي .ه يا وج .ي.ي .يه . .وينك يا وجـيـه .ألهث وأنادي . أمزق الصمت باسم وجيه وألهث . أستخدم اسمه سكيناً تشق وجه الصمت . أوقظ الحياة في المكان . ألقي باستغاثة في بحر صمت الحي النائم لعله يصحو وينقذ القاعود . ويا لدهشتني كيف أنقذني وجيه . المعادلة انقلبت . المشهد بدأ يتغير أيضاً ، وكذلك التفاصيل . الجنود يتراجعون ,يحاولون تهدئتي . الضابط يصرخ بي بصوت خافت : اخرس . اخخخررر . اخخ .اخ .ا . اسكت اولاه بلا فضائح .

خلال دقائق قليلة كانت قبضات الجنود قد تراخت . أقدامهم وقد تراجعت إلى الخلف . . . جروها منسحبين من باب المطبخ ، وجروني معهم . أحدهم سارع يغلق فمي بكفه وهم يسحبونني عبر الممر إلى وسط الشقة . لقد نجحت في غلق نافذة الموت . توقفت الآن تماماً عن اللهاث .

أخذت نفساً عميقاً . سحبته من صدر الضابط ومن رئات الجنود . وللحظات شعرت بهم يختنقون .

عادت الحياة تدب في كياني مجدداً . ذاكرتي بدأت تعيد انتشارها على مساحات تاريخي الشخصي . تاريخي صار يتدفق مثل تيار هواء بارد منعش ، حاملاً إلي وجوه جميع الذين عرفتهم ، وقد توافدوا إلي يعزفون على الأرغول ويدقون الطبول . رجال يدبكون ويرقصون حولي . نساء ترش الملح والرز والزهور . وأنا ألم التهاني والزغاريد فارداً ذراعي . فارس يمتطى ظهر جواد أصيل . عريس يزفونه في ليلة دخلته .

استفقت على يدين تشدان وثاقي وتسحباني إلى خارج الشقة . هبطت سلالم الطوابق الخمسة برفقة جنديين غرزا بندقيتيهما في ظهري . توقفنا عند الطابق الأرضي للحظات . أحد الجنديين طلب مني أن أستدير وأنظر يساراً

حيث أشار . تلفتُ جانباً . ثمة خيط دم يمتد متعرجاً متقطعاً من باب شقة في الطابق الأرضي إلى مدخل البناية . دم متخثر . كتل بيضاء أشبه بدماغ . أغمضت عيني على دمع يغلي قبل أن أفتحهما على الحقيقة كاملة : وجيه سقط من النافذة من الطابق الخامس . رأسه ارتطم مباشرة بالأرض الصلدة لبلكونة الجيران . جثته سحبت عبر شقتهم إلى خارج البناية .

انتهى المحقق من كتابة إفادتي . وأخذ يطرق بمؤخرة قلمه مجدداً على ظهر الدوسيه ، قبل أن ينهض طالباً مني التوقيع ، ففعلت . ودعني ومضى .

عدت إلى معركتي من جديد . أحاول أن أسرق غفوة سريعة من عيني الجندي الذي لم يزل يحرسني في مكان لا تلزمه الحراسة . لكنه لا يكف عن مراقبتي . بقيت كذلك مدة ساعتين ، نقلت بعدهما إلى قسم آخر يعج بالأسرّة والجنود .

***

الآن علي أن أملأ المسافة بين خيط دم وجيه على بلاط الطابق الأرضي وحتى خروجي من المعتقل . وتمتد سبعة أيام تقريباً .

دخلت إلى المطبخ لأصنع كوباً من الشاي . دمعت عيناي . كأنه الكوب الذي صنعه وجيه ولم أشربه . حملت دمعي في عيني ، والكوب بيدي وخرجت عائداً إلى الغرفة . جلست خلف الطاولة . تناولت القلم مجدداً . وبدأت استكمال كتابة التقرير :

بدا المشهد أمام بناية الست حين هبطت السلالم التي تسبق المدخل رهيباً . النظرة الأولى أوحت لي بوقوع انقلاب عسكري ، واحتلال وحدات من الجيش مكاتب ومقرات فصائل المقاومة الفلسطينية ، وبضمنها مكتبنا في الشقة رقم ٥٤ . ضباط من رتب عسكرية عالية ظهروا في المكان . فوق أكتافهم نجوم وصقور أضاءت المنطقة . كانوا يتمشون في المساحة الواقعة أمام البناية في انتظار نتائج

الاقتحام على ما يبدو . رأيت ضباطاً صغاراً أيضا ، وسط عدد كبير من الجنود . ثمة سيارتا جيب عسكريتان متوقفتان وسط الساحة ، إحداهما أقرب إلى مدخل البناية .

ساقني الجنديان بقسوة إلى وسط الساحة حيث وقف ضابط كبير . تركني أحد الجنديين وتقدم نحو الضابط مباشرة وبقيت في حراسة الجندي الآخر . أدى الجندي الأول التحية للضابط الكبير وصاح بصوت جهوري قوي لا يليق بحجمه :

- قبضناع المجرم سيدي .

نظر الضابط إلي باشمئزاز واحتقار ، وأطلق اشارة بأصبعه وأخرى بحاجبيه . أخذوني ، مع أنني كنت اصلاً مأخوذاً وبين أيديهم .

تقدمت سيارة الجيب القريبة من المدخل نحونا ، وتوقفت على بعد متر واحد تقريباً مني . دفعني الجنديان نحو مؤخرة السيارة ، وساعداني على الصعود إليها وأنا مكبل اليدين . أجلسني جنديان كانا في داخل السيارة بينهما ، وصعد ثالث إلى السيارة وأخذ مكانه قبالتي . تناول أحدهما فوطة حمام عصب بها عيني . تحركت السيارة بهدوء . أحسست بها تدور حول البناية ، وربما في الساحة أمامها بهدف تمويه مسارها ، على الأغلب ، ومنعي من معرفة وجهتها . ثم انطلقت بسرعة تزايدت تدريجياً وأخذت إيقاعاً ثابتاً بعد ذلك . على امتداد الطريق وزع الجنود عليّ ، بسخاء ، أفضل الشتائم العربية وأكثرها بذاءة ، وكان عليّ أن أسمع ولا أرد ، فسمعت متجاهلاً سعادتهم بإطلاقها في نصف الوجه الذي أحمله بعد أن اختفى نصفه الآخر تحت فوطة الحمام .

أخذت أركز جميع حواسي على السيارة وسرعتها وحركتها لكي أتمكن من معرفة وجهتنا والجهة التي تختطفني ، أو تعتقلني .

رأيت الرفيق فلاديير في تلك اللحظة ، جالساً قبالتنا خلف طاولته في غرفة المحاضرات في المدرسة الحزبية القريبة من مدينة بوشكين . كان كعادته يتحدث بلا اهتمام كبير . ونحن نسمع بلا إصغاء دقيق أيضاً . لم أتصور أبداً ، أنني ، أو

غيري من الرفاق سوف يستفيد من محاضراته تلك ذات يوم . الليلة عرفت قيمة فلاديمير . الليلة تقودني كلماته مثل دليل وسط دهاليز رحلتي المظلمة . إنه الوحيد الذي سأرى بكلماته الطريق واضحة وأنا معصوب العينين .

انتبهوا أيها الرفاق لحركة السيارة التي تقلكم ،

يقول فلاديمير ، وكان أسامة الجالس إلى يساري على المقعد نفسه يبتسم ، وقد أراح رأسه فوق ذراعه على حامل الكتابة ، استخدمها كثيراً لكي تسند رأسه ، كأنه كان يعرف أنه سوف يفقدها في معركة صيدا بعد شهور .

فلاديمير يواصل :

– للدوران في أي من الاتجاهات . تذكروا ذلك . قدروا المدة التي تبقى فيها السيارة تسير في اتجاه معين . لصوت عجلاتها انتبهوا . هذا أمر مهم للغاية . نوعية الصوت ، حدته وخشونته . للتغيرات التي تطرأ على صوت احتكاك العجلات بالطريق . المنحنيات . المرتفعات . إنكم بهذا ترسمون خارطة واضحة المعالم لمجمل الطريق ، تمكنكم ، في النهاية ، من إجراء مقارنة سريعة مع ما تعرفوه من طوبوغرافيا المكان وجغرافيته ، والمؤسسات التي قد تنقلون إليها . هنا يلعب الزمن والسرعة دورهما في تحديد المكان .

حتى الآن رسمت الخارطة التالية :

سرنا على أوتوستراد عريض يمتد عدة كيلومترات خارج المدينة . لا انحناءات أو مرتفعات بارزة فيه . الرحلة استغرقت قرابة عشرين دقيقة . السيارة استدارت يميناً ببطء . دخلت طريقاً ترابياً لا يخلو من حجارة . وهذا ما أكده صوت العجلات واهتزازات السيارة . السيارة توقفت أخيراً أمام حاجز ، لأن صوتاً آمراً طلب ذلك . السيارة تحركت مجدداً . توقفت .

بعد ذلك :

هبطنا . قدماي سقطتا على مزيج من تراب خشن وحجارة صغيرة . سرت صعوداً بخطوات متثاقلة ، بناءً على أوامر من حارس يمسك بي من وسط ذراعي اليسرى . سرنا مسافة تقارب العشرين متراً . صعدت بضع درجات . سرت فوق

أرض صلبة ملساء . حذائي لا يخطىء ملمسها . هذا هو المكان إذن . إنه مكتب في مؤسسة أمنية حتماً . حصيلة ذلك كله إجابة على سؤال سألته لنفسي : أين أنت الآن يا ربعي ؟ هل عرف القارئ المكان . أنا عرفته وأنا مغمض العينين . لقد كان مقراً لقوة أمنية كبيرة ، ويقع في منطقة جبلية قريبة من العاصمة . روعتني المعرفة تلك ، فقد عرفت ما يعنيه وجودي في هذا المكان ، وحالاً سوف أحكي كل شيء تماماً كما حدث .

***

انتهرني جندي قادني في الظلام عبر درجات سلم هابط طالباً مني أن أخفض رأسي حتى لا ترتطم بسقف واطئ لا أراه . فأخذت أهبط بقامة منحنية وقد وضع الجندي كفه فوق رأسي لكي يبقى منخفضاً . هل كان يسير بمحاذاتي مطاطىء الرأس أيضاً ؟ لم أجرؤ على اختبار ذلك ، فقد يتعرض رأسي لضربة قوية من السقف المفترض ، أو من قبضة الجندي . استدرنا يميناً ثم يساراً عدة مرات . لعب معي لعبة التمويه التي لا فائدة منها الآن ، لأنني عرفت المكان ولم تعد تهمني تفاصيله ، إلى أن انتهينا ، وكأننا كنا بدأنا أصلاً ، إلى غرفة مؤثثة بحوارات وهمهمات غامضة . فك الجندي قيدي وأجلسني على كرسي . تحسست معصمي فشعرت بالدم يندفع فيهما فتستعيد أصابع كفي نشاطها . أنزلت ذراعي ارتطمتا بمسندين . أنا الآن داخل غرفة مكتب . الحوارات الهامسة تؤكد لي أن نقاشاً جدياً ، أو مسرحياً مفتعلاً يجري بين مسؤول وعناصر خاضعة لمسؤوليته . سمعته يخيِّرهم بين البدء بتعذيبي مباشرة ، وبين استجوابي أولاً إلى حين يحتاجون إلى التعذيب . تركتهم يهمهمون وفكرت : كيف أواجه التعذيب إذا وقع ؟ لقد اجتزت اختبار الموت ونجوت بأعجوبة ، فهل أنجو من التعذيب ؟ هل أبقى مرفوع الرأس وأتفادى السقوط ؟ لم أجرب التعذيب ولا مرة في حياتي . لم أدخل سجناً ولا تجارب لي فيه . بت في الإسكندرية ورفاقي ليلة واحدة وأخرى

في المطار، في ما يعتبرونه توقيفاً مؤقتاً تمهيداً للنقل والترحيل . فكيف أواجه الموقف الجديد ؟

سألني صوت جهوري يؤكد أنه المسؤول ، أو لأفترض ذلك حتى أتبين الأمر :

- شو دورك في صنع المتفجرات ؟

فاجأني السؤال :

- ما بعرف عن إيش بتحكي .

- وما بتعرف عن العبوات ياللي انفجرت قدام بوابة القيادة القومية .

محاولة لإلباسي تهمة خطيرة إذن :

- أنا كاتب وصحافي ما بفهم لا بالمتفجرات ولا بعرف وين القيادة القومية .

-يعني مين رح اكون مسؤول عن التفجير .

- وأنا إيش عرفني .

-مين مسؤولك في الجبهة ؟

-هاني حوراني .

-يعني هاني بيشرف على عملياتكم .

-هاني كاتب معروف ، شغلته يكتب دراسات ومقالات ، واحنا بنشتغل سوا في مكتب إعلام .

- مفهوم . . . هاي للتغطية على تصنيع المتفجرات . .مو !

- أنا صحافي وبشتغل إعلام . .

-طيب يا كلب . . . ما بدك تعترف . . .هلأ بتشوف الإعلام ع جلدك .

وصاح في الحاضرين :

-وصلو شرايط الكهرباء .

في البداية ارتعبت . الكهرباء قاتلة ومميتة . لا أعتقد أنه جاد . أحسست بمن أخذ يربط معصميّ إلى مَسْندي الكرسي . ويلف سلكين كهربائيين حول إصبعي البنصرين . كانت لحظة اختبار قاسية ، لا أملك حيالها إلا أن أتركهم يفعلون .

- تعترف واللا نشغل الكهربا ؟

بلغ قلقي ذروته ، حسبتها بسرعة البرق . سواء كهربوني أم لا ، ليس لدي ما يمكن أن أعترف به من النوع الذي يطلبون . بدأت أشك في جدية مستجوبي ، فمن الغريب أن يبدأ استجوابه لي بالتهديد باستخدام الكهرباء مباشرة ، فالمفروض أن يلجأ إليها ، إذا كان يريد استخدامها فعلاً ، بعد يأسه من رفض الاعتراف . إذ عادة ما يبدأ التحقيق بالإهانات والضرب . ويجري الضغط على السجين تدريجياً . فلماذا يلجأ مستجوبي إلى هذا التهديد ، ويباشر استعداداته لتنفيذه ؟ استنتاج واحد خرجت به ، وهو أن الذي يحقق معي يعرف تماماً أن الحادث كله والقضية مجرد تلفيق . وأنه يحاول ترويعي فقط . وهو لم يتعرف على مفاتيح شخصيتي بعد . صحيح أنني جبان في بعض المواقف مثل بشر كثيرين ، لكني لست ساذجاً أو قليل التجربة . لذلك عمد إلى هذا الاختبار الذي توصلت إلى اعتباره بلهاً وسذاجة . لكني احتفظت بمظهر خوفي كي لا تخذلني استنتاجاتي .

-ما عندي إشي اعترف به .

أمر بفتح التيار الكهربائي . شُدت أعصابي بكاملها ثم تراخت ببطء إذ سمعت حركات لا معنى لها . كان من المفترض أن يسري التيار بمجرد صدور الأمر ، فأنتفض من رأسي إلى أطراف أصابعي مثل دجاجة حزت رقبتها بسكين حامية . شيء من هذا لم يقع . أصابعي تحركت باحثة عن الكهرباء فيها . طلب الضابط رفع قوة التيار . شعرت بأصبعي تتنملان . كان ذلك بفعل السلك المشدود حولهما . أدرك الضابط من صمتي ، ومن عدم ظهور انعكاسات واضحة على وجهي نتيجة استخدام تياره أنني واعٍ تماماً للعبته . . . فاجأني بصرخة عصبية :

-نزلوه تحت .

نزع أحدهم الأسلاك من أصبعيّ وأنزلني عن الكرسي . ثمّ حشر جسدي داخل دولاب سيارة كاوتشوك . مؤخرتي داخله ، قدماي مرفوعتان . عملية الفروج . هكذا يطلقون عليها ، لأن وضع السجين يشبه وضع دجاجة تشوى على الغاز . بدأ أحدهم بجلدي على قدمي حوالي ستة عشر مرة . همهمت متألماً في

البداية . أول مرة أتعرض فيها للجلد على قدمي . حاولت كتم مشاعري أحسست بحاجة لا تقاوم للصراخ من شدة الألم . كان خرطوم المياه الذي استخدموه لاذعاً . أهأهت عدة مرات ، ثم أطلقت صوتي مستغيثاً بأبي . صرخت باسمه في مواجهة الألم وبكيت . . .آخ يابا . ولا مرة صرخت آخ يمّه .

-اعترف اوْلاه . . .

عدنا مجدداً . لم يمض سوى دقائق معدودة بين الجولة الأولى من التحقيق تحت الضرب والجولة الثانية التي بدأت بصياح عال تخلله صوت الضابط يلقي أوامره : كسروه هذا النذل .

عادوا إلى جلدي على قدمي مجدداً قرابة عشرين جلدة . رديت بأطلاق صيحات الاستغاثة بأبي القابع كومة من عظام في مقبرة خان يونس لا يبعد عن مدخلها أكثر من عشرين متراً . آخ يابا . .تعا شوف ابنك . تعا شوف العروبة ايش عاملة فيه .

***

مضت ستة أيام على اعتقالي ورفاقي الآخرين قبل أن أستدعى إلى مكتب الضابط الذي يتابع قضيتنا ، التي لا أعرف ما هي بالضبط . أخذني جندي تولى تعذيبنا على وجبات ، خلال الستة أيام الماضية ، إلى مكتب في الطابق الأول . أدخلني إلى المكتب حيث وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الضابط الذي قاد عملية الاقتحام ، والذي تسبب بطريقة ، أو بأخرى بمقتل وجيه . ولا بد أنه هو الذي أمر بإلقاء جثته من النافذة في الطابق الخامس .

طلب مني الضابط الجلوس على كرسي قبالته ففعلت دون تردد . قدم لي سيجارة «مالبورو» ، مهربة طبعاً ، مما يباع على العربات علنا في شوارع مخيم فلسطين . شعرت لحظتها بحاجة ماسة إلى تلك السيجارة بغض النظر عن مصدرها ، مع أنني توقفت عن التدخين قبل ما يزيد على عام ونصف العام .

حدث ذلك في موسكو حيث أجبرتني متاعب الإثنى عشر والقولون على قبول نصائح الدكتورة «ناديجدا» ، أو ناديا كما ينادونها . زارتني ناديا ، وكانت تتفقد المرضى ذلك الصباح . كنت مستلقياً على سريري في غرفة في الطابق الأول في المستشفى المركزي ، المخصص لمعالجة أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وعائلاتهم ، والذي يستقبل ، في العادة ، مرضى من أعضاء الأحزاب الشيوعية الصديقة ، وأعضاء حركات التحرر الوطني العالمية ، التي تعترف بها موسكو وتقيم معها علاقات رسمية ، حين دخلت علي ابتسامة ناديجدا قبلها .

سألتني الدكتورة ناديا إذا ما كنت مدخناً ، وعدد السجاير التي أدخنها يومياً . وصعقت حين عرفت أنني أدخن أكثر من عشر سجائر ، حتى وأنا مريض .

طلبت مني الاكتفاء بخمس سجائر في اليوم .

- تولكه بيات ، فقط خمسة . قالت .

لم أعلق . تابعت :

- هل تستطيع ، هل تعدني بذلك ؟ تولكه بيات .

أحببت اسم «ناديجدا» ، منذ عرفتني تاريخ الثورة البلشفية على رفيقة لينين ، ناديجدا كروبسكايا . ناديجدا . كنت ألفظ الإسم أمام الآخرين بكثير من الحب والإعجاب ، للمرأة التي رافقت مسيرة لينين وتحملت متاعبه ومتاعبها . كانت موسيقى الاسم تفتح لي أبواب الروح ونوافذ السماء : ناديجدا «أمل» أو«الأمل» .

قلت ل «ناديجدا مايا» (أملي) :

- خرشو سيغلاسنا ، حسنا ، اتفقنا .

ورأيت على وجهها ابتسامة تولد مثل فجر . تصعد وقت الضحى مثل شمس . تضيء مساحات روحي مثل قمر . ابتسامة لم أرها ترتسم على وجه امرأة من قبل ، ولم أرها تتكرر بعد ذلك .

في اليوم التالي فاجأتها بأنني دخنت أربع سجائر فقط .

-مالاديتس ، شاطر .

قالت .

ابتسامتها تتورد . أدخن ثلاث سجائر في اليوم . تلهب شفتيها . أدخن سيجارتين . تخرج منهما رائحة نعنعية .أتوقف تماماً عن التدخين .

وزعت ما لدي من علب سجائر «بي-تي» البلغارية ، الأقرب إلى نكهة «مالبورو» بين ما هو متوفر في موسكو ، على الممرضات الشابات في العنبر . آخر علبة كانت من نصيب غالينا :

- غالا مو . إنّه موي بادارك تبيى .

هذه هديتي لك يا غالا .

بعد انتهائها من عملها في المستشفى ، جلسنا معاً ، غالا وأنا متجاورين على مقعد في جانب من الحديقة الجميلة التي تحيط بالمستشفى . أمضينا أكثر من نصف ساعة . لم تحاول غالا إشعال سيجارة خلالها أبقت العلبة كما هي . أخرجتها للحظات من حقيبتها ، تأملتها كأنها تتأمل قطعة ذهبية ، ثم أعادتها .

- سوف أوزعها على الشلة في سهرتنا نهاية الأسبوع .

قلت دون أن أقول : غالا ستعمل عزومة تذبح فيها علبة سجائر بلغارية .

أتليتشنا . . . رائع .

ونهضت مودعة . اقتربت مني وطبعت قبلة على شفتيها ، كانت تريدها سريعة لا تتجاوز تقديم الشكر ، لكني لم أسمح بذلك ، ولم أضيع فرصة تذوق شفتين روسيتين . أحطت الفتاة بذراعي واحتفظت بشفتيها على شفتي للحظات ، قبل أن أتراخى وأتركها تبتعد .

رفع الضابط عينيه ونظر في عيني مباشرة كمن يريد ضبط ردة فعلي على موقف محتمل . هذا هو اللقاء الأول في الضوء بيني وبين الضابط الذي اقتحم المكان ، منذ عصبت عيني ونقلت إلى هنا . الآن سوف يفقد هذا الرجل كل مميزات مواقعنا غير المتكافئة في السابق . سأتحداه إذن . سأعود إلى رفاقي الذين ينتظرون في غرفة التوقيف البشعة ، في الطابق الأرضي ، بنتائج هذه الدعوة المفاجئة . لن أخذلهم ، ولن أعود حاملاً إليهم آلاماً جديدة . لقد بدا لي واضحاً

أن خاطفي بدءوا يميلون إلى تسوية ، وإلا لما دعيت إلى هذه الجلسة المفتوحة .

تناولت السيجارة من يد الضابط . لم أرفض . أردت تفتيت الحجر القابع في صدري ، أنفثه غباراً مع الدخان ، لطالما توهمنا بأننا نطرد همومنا بالدخان ، أنا اليوم بحاجة إلى مثل هذا الوهم .

أشعل لي السيجارة بنفسه ، و قال مشيراً بيده إلى الكرسي الذي أجلس عليه :

– هاض الكرسي اللي قعدت عليه ساعة التعذيب بالكهربا .

ثم سحب بيده سلك تليفون قديم ملقى على الأرض . مد طرفه نحوي وقال متصنعاً المزاح :

–وهاض السلك اللي عذبناك فيه .

بعد لحظة صمت عاد يقول :

– أنا اللي ضربتك .

تحديته ساخراً :

– كنت رحيم ع الآخر .

– بتسمي هاض ضرب !

–انت عارف م البداية إنو ما فيه قضية . . . وأنو الموضوع مفبرك .

– طيب خلينا من الموضوع . أني جيبتك لأحكي لك شلون جماعتك بهدلونا .

– بهدلوكم ؟!

– نعم . رفاقكم يا ستاد . نشروا خبر في جريدة كويتية ، بيتهمونا باعتقالك وتعذيبك . وبيطالبوا بإطلاق سراحك انت ورفاقك .

سوف يقول لي يحيى يخلف أنه كاد أن يصدر بياناً باسم فرع اتحاد الكتاب الفلسطينيين الذي يترأسه في دمشق . سوف ألتقيه في مبنى الاتحاد في شارع بغداد ، ليس بعيداً من مكان وقوع الجريمة ، ويقول لي أنه جمد موضوع البيان حين علم بإطلاق سراحي .

قلت للضابط ساخراً :

-لا مالهومش حق ، الجبهة ما لازم تنشر أي خبر . وبعدين مين قال إحنا معتقلين . . . إحنا في زيارة ودية للتعرف على نشاطات الشباب لديكم .

- ولك إحنا ما عملنالكم شي ، اعتقلناكم بالغلط أصلا .

أأقول له أنهم عملوني فروجة . عملونا كلنا فراريج ، وشوونا على جلدات نربيش ناشف . أأشرح له قبض بعض رفاقنا على بعض لكي يثبتو الرفاق الفراريج في المشوى (دولاب الكاوشوك) ! أأقول له كيف حاول أبو عصام أن يدخل مؤخرته في الدولاب ليتلقى نصيبه من العلقة ففشل ، بسبب ضخامة جثته ، فاضطر اثنان إلى المشاركة في حفل تعذيبه بالإمساك به وتثبيته في الدولاب . أأقول له أن هاني عبد الله ، النحيف ، القصير جداً سحل من الدولاب . حاول أن يضع مؤخرته في الدولاب انزلقت ، وخرج جسمه كله من الناحية الأخرى ، واحتاج الأمر مساعدة من رفاقه لإنجاح تعذيبه .

سوف يضحك لو أخبرته . سوف أخرجه من الحرج الذي بات غارقاً فيه . ثم ماذا أقول له عن وجيه ! هل أطلب منه أن يصف لي تفاصيل موت المسكين . . .

- اللي صار صار . المهم . .ما دم كل اللي جرى بالغلط طلعونا ، على الأقل بتصلحو بعض الغلط ، قبل ما يكبر .

- مسألة إجراءات وتطلعو .

***

وضعت القلم جانباً . كانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحاً حين أنهيت كتابة التقرير . تركت الأوراق على الطاولة ودخلت غرفتي . تمددت على الكنبة التي اعتدت النوم عليها وغفوت .

***

استيقظت فزعاً على صوت رنين الهاتف . نظرت إلى ساعتي قبل أن أرفع

السماعة فوجدتها قد قاربت الرابعة والنصف فجراً . لم يسبق أن تلقينا أية مكالمات في مثل هذا الوقت . احتمالات كثيرة مرت بخاطري ، عدا ما جرى :

- ألو . .

- رح انّيك عرضك إذا بنشوفك .

وأغلق المتحدث السماعة . ولم أنم حتى الصباح .

الليلة التالية :

مرت بسلام ، ولكن قرابة الساعة الخامسة صباحاً ، رن الهاتف مجددا . استبعدت أن يكون المتحدث هو نفسه بطل مكالمة البارحة . رفعت السماعة إلى أذني :

- ألو . .

- أستاد ربعي . . .

- آه ، نعم . . .

- إزا كنت رجال روح اليوم ع بكرة الساعة تسعة على حديقة زكي الأرسوزي ، رح لاقيك هونيك وكسر راسك يا عرص . . .

وأغلق السماعة . . .

الليلة الثالثة :

قرابة الرابعة صباحاً ، عاد جرس الهاتف يرن . أبو أيمن قفز من مكانه وصرخ فيّ :

-خلّي عنك يا رفيق ، أني بعرف كيف أرد عليه .

تناول سماعة الهاتف وبدأ يشتم قبل أن يضعها على أذنه :

- والله لألعن سنسفيل إم اللي خلفك يا عرص يا شرموط .

وأغلق سماعة الهاتف .

كف الهاتف عن الرنين ، فجراً على الأقل ، لكني منذ أطلق سراحي لم أعد قادرا على الأستمرار في العيش في دمشق . صارت كلها بالنسبة لي سجناً كبيراً ، وجنود أمن متفرغين لملاحقتي . وعادت إليّ ، في تلك الفترة ، آلام

القرحة الأثنى عشرية . وسكنت ليلي كله صورة وجيه يتخبط بدمه . كنت كلما هبت نسمة وسمعت مرورها عبر شقوق النافذة ، أرى وجيه قادماً محمولاً على ظهر الريح ، يقطر جسده دماً . أستيقظت مراراً وأنا أنادي على وجيه . . . وفي النهاية قررت وضع حد لكل تلك المتاعب . . . قررت الانتقال إلى بيروت .

في أول اجتماع حزبي عقد برئاسة الرفيق أبي العبد عصام وحضور أبي الجاسم وهاني حوراني ، طلبت إنهاء وضعي في دمشق ، والانتقال إلى بيروت في أقرب فرصة . كنت أريد الالتحاق بالإعلام ، والعودة إلى الكتابة في الحرية . قاوم أبو العبد هذا التوجه ، لكنه وأمام إصراري وافق على انتقالي مشترطاً الالتحاق بلجنة الأردن ، والتي يترأسها هو شخصياً ، ويشرف الرفيق بشير زقوت على فرعها في بيروت ، حيث يستقبل أعضاء قادمين من الضفة الغربية بهدف تدريبهم ، أو تثقيفهم ، وإطلاعهم على التجربة التنظيمية في الخارج . وكان بشير ، على ما أظن ، ترك فرع التنظيم في بغداد إلى دمشق ، قبل أن يتردد على بيروت ، في أثناء وجودي في موسكو . لم أشأ تعقيد الأمور ، وقبلت باقتراح «أبو العبد» . فقد قررت مع نفسي أن أسعى للعودة إلى الإعلام خلال وجودي في بيروت . وهكذا وجدت نفسي هناك خلال أسابيع ، أبدأ مرحلة جديدة في حياتي لا تشبهها أي من المراحل التي سبقتها .

إلى اللقاء

أعود اليوم من عملي في كامدن تاون ، مساءً كالعادة ، غير أنني أحمل معي هذه المرة المخطوطة الكاملة من «طعم الفراق» ، بعد أن أفرغت محتويات عدد من الأقراص المرنة على الورق . أشياء كثيرة تغيرت منذ بدأت الكتابة قبل عامين ، يقع غالبيتها خارج سياق العلاقة مع القارئ التي تواصلت عبر هذا النص ، باستثناء وسيلة المواصلات ، التي بدأنا بها علاقتنا ، عندما صعدت إلى قطار نوريتش لكي ينقلني إلى كامدن تاون . تغير خط مواصلاتي ، ولم أعد أستخدم قطار نوريتش ، واستبدلته بقطار الأنفاق في رحلتي اليومية من ، وإلى العمل . رحلة شقاء لندني أخرى يتحول البشر خلالها ، إلى فئران تركض داخل أنفاق تتعرج تحت شوارع المدينة ، ولا ينقذني منها سوى «القدس العربي» ، في رحلة الذهاب إلى العمل باكراً ، وكتاب يصاحبني في الإياب ، يساعدني في التغلب على بؤس أنفاق لا نرى منها سوى شبابيك القطار مفتوحة على الظلمات .

اليوم تضيء صفحات المخطوطة مسائي الأنفاقي ، تشعرني بأنني أنجزت عملاً بحثت عنه طويلاً . هل طعم الفراق حقاً كذلك ؟ هل أنجزت ، فعلاً ، ما طمحت إليه ؟ هل أحمل معي الآن «رواية الجنوب» ، التي ألحت إلى صديق عزيز أنني أطمح إلى كتابتها ؟

كانت رائعة إلياس خوري ، «باب الشمس» ، قد أدهشتني حقاً ، وجعلتني

أهتف فور الانتهاء من قراءتها : لقد كتب الأديب اللبناني المرموق ، رواية الشمال الفلسطيني . لملم الحكايات من أفواه أبطال النكبة ، وسجلات ضحاياها ، الذين عاشوا وعانوا قسوة الرحيل عن مدن الشمال عام ١٩٤٨ وكتبها . أنا الآن أكتب رواية الجنوب ، ذلك الذي كان مسقط رأسي في المجدل عسقلان ، محور أحداثه ووقائعه الهامة في سنوات الأربعينات ، وخلال حرب ١٩٤٨ بالذات .

منذ قراري ذاك ، أخذت ألملم الحكايات : من بين شفتي والدتي ، التي أمضيت معها ساعات طويلة على الهاتف ، أضفتها إلى عشرات الحكايات والأمثال التي سمعتها منها على مر السنين ،حتى صارت أمي راوية تشاركني صوغ الحدث الدرامي . من الخزائن المغلقة في ذاكرتي ، منذ بدايات وعيي الأول ، زمن الرحيل ، وأنا في الثالثة من العمر أتشبث بكتفي زوج عمتي الحاج حسين العمصي ، في طريق حفرته مأساتنا ولم نزل نسير فيه . من عشرات المواقع على الأنترنت ، حيث جمعت قدراً من المعلومات عن وقائع سنوات الأربعينات ، والفترات اللاحقة ، أبرزها الأهرام الأسبوعي ، وبالذات العدد الصادر في مناسبة مرور خمسين عاماً على قيام إسرائيل . من الصحف والمكتبات التي لم تقدم لي الكثير ، إلا أن بعض ما عثرت عليه ساعد في الإحاطة بوقائع وأحداث تاريخية معينة ، وحتى ببعض التفاصيل ، أحياناً : مذكرات «ابو داوود» المنشورة في الحياة ، مذكرات صلاح خلف«أبو إياد» : فلسطيني بلا هوية ، علي الخليلي : التراث الفلسطيني والطبقات . وبالإنجليزية : القنوات السرية لمحمد حسنين هيكل ، إسرائيل . . تاريخ ، لمارتن غلبرت ، ١٩٤٨ وما بعدها لبني موريس ، خمسون عاماً من الحرب ، لأهارون بيرغمان ، وجيهان الطاهري . غير أن الكتاب الذي كان دليلي الأول إلى المجدل عسقلان ، بعد والدتي ، كان «القرى الفلسطينية المدمرة -٢» ، الطبعة الثانية ، الصادر عن جامعة بير زيت في الضفة الغربية ، والذي أشرف عليه الدكتور شريف كناعنة ، وكان حصيلة أبحاث سوسيولوجية ، ولقاءات وأحاديث طويلة ومكثفة مع أهالي المجدل - عسقلان ، ووثائق حصل عليها فريق الباحثين الذي قام بالعمل الميداني ، وفي المقدمة رشاد المدني الذي

تقاسم المسؤولية مع د . كناعنة . وقد حصلت على تلك الوثيقة الهامة من خلال الصديقة سلوى ، ابنة الدكتور شريف ، التي كانت أهدت الكتاب للصديق عبد الباري عطوان ، رئيس تحرير القدس العربي ، وقام بدوره بتقديمه لي مشكوراً .

مررت بكل ذلك ، وبكثير من الصعوبات التي واجهتني ، وأنا أسند رأسي إلى الحاجز الزجاجي القريب من باب القطار ، أفكر شارداً مسافات بعيدة عن القطار وركابه وأنفاسهم المتقاطعة ونظراتهم الهاربة من نفسها . وفجأة سحبتني يقظة أخرجتني من شرودي ، ووجدتني أرفع رأسي عن الزجاج ، وأتطلع إلى المخطوطة ، أتحسسها بأصابعي ، أتلمس مشروعي الذي حلمت بانجازه طويلاً . قلبت أوراق المخطوطة ، التقيت أبطالها عبر الصفحات ، وتذكرت أنهم كمشاركين حقيقيين في إنجاز هذه العمل ، يستحقون أكثر من مجرد كلمات تحية عابرة بين السطور . أخرجت ورقة وقلم من حقيبتي ، تماماً كما فعلت يوم كتبت فصل «قصة والدين» في قطار نوريتش ، وكتبت :

أقدم ، بكثير من الخشوع والاحترام ، شكري الخاص لوالدتي على ما قدمته من معلومات عن حياتها الخاصة ، ولقبولها أن تفتح قلبها للقراء ، عبر بعض صفحات هذا الكتاب . ولزوجتي سناء على ما تحملته من غياب لي تواصل على امتداد عامين ، هما فترة إنجاز هذا العمل ، رغم وجودي إلى جانبها في البيت . وإلى خالي محمد ، «أبو زياد» ، الذي حمل نكبته معه ، عام ١٩٤٨ ، ولحق بزوجته الخليلية ، واستقر في الخليل ، ولم أره في حياتي ، إلا بأذنيَّ صوتاً على الهاتف قادما من عمق الفراق . وإلى شقيتي رحاب . وإلى الصديق الشاعر أمجد ناصر ، الذي لم يكتف بمشاركتي هموم الكتابة ، بل فتح لي خزائن مكتبته ، وقدم لي عدداً من كتب السيرة الذاتية ، وتابع معي عن قرب خلال لقاءاتنا الأسبوعية ، تطورات العمل ، وكان على الدوام مشجعاً ، يفرش الثقة ببلوغي أهدافي فوق طاولة اللقاء . وإلى ابني الأكبر ، وسام ، الذي أخذتني الكتابة من صداقته في الفترة الحرجة من عمره ، فترة بلوغه حافة الرجولة . وإلى ابني الثاني رامي ، الذي قام بتصميم الغلاف ، وتابع معي تجربة تصميم موقعي الخاص على

الأنترنت ، وتولى نقل ملفات الجزء الأول من «طعم الفراق» إلى ذلك الموقع ، الذي زاره خلال الشهر الأول فقط ، أكثر من أربعمائة شخص ، من مختلف عواصم العالم ومدنه ، ترك العديد منهم كلمات تهنئة حارة ، وتقديرات عالية ، سوف تبقى شهادات أعتز بها .

كما أتقدم بالشكر من جميع الفنانين الذين أبدعوا الأغنيات التي أوردتها ، وكانت ضرورية لاستكمال جوانب في البناء الدرامي : كاتبي كلماتها من الشعراء ، واضعي ألحانها ، مغنيها ، وأخص بالذكر أغنيتي «الله أكبر» و «عدى النهار» ، الأولى لأنها كانت ملهمة كفاح ، ومفجراً للروح الشعبية في مقاومة الغزاة على ضفتي قناة السويس ، عام ١٩٥٦ ، والثانية لأنها النفس الشعبي الحقيقي الذي خرج من تحت أنقاض الهزيمة ، وصوت الرفض الذي صاغه الشاعر عبد الرحمن الأبنودي ، ليرد الروح لأبناء مصر ، الذين «أحبوا موّال النهار» .

وأعتذر : من أمهات الشهداء ، الذين لم أقصد إعادتهم إلى الحياة ، عبر النص ، لكي يستشهدوا مرة أخرى ، تحت مطر من دموعهن . ومن زملائي في الدراسة الجامعية ، وأصدقائي ، ورفاقي السابقين ، في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، الذين تعرضت لجوانب في شخصياتهم ، وبنيت حوارات على ألسنتهم تطلبها العمل الدرامي ، بما قد لا يروق لهم . ومن بعض أفراد عائلة المدهون ، أقاربي ، وأخص بالذكر ابنة عمي ، أديبة ، صديقة طفولتي وصباي . وإلى جميع الذين لم أتمكن من استشارتهم ، أو أخذ آرائهم ، حين تعرضت لجوانب في حياتهم ، مضطراً ، لكونها خيوطاً تلتقي مع نسيج حياتي التي لا يكتمل بناؤها الدرامي بدون ذلك .

انتهيت من كتابة كل ذلك في الوقت المناسب ، حين بدأ القطار يخفض من سرعته لكي يتوقف عند المحطة التي أقصدها . لملمت الأوراق وأعدتها والقلم ، إلى داخل الحقيبة . توقف القطار تماماً . نهضت ، وألقيت نظرة على المقعد خلفي ، خشية أن أكون نسيت شيئاً ، ثم هبطت الدرجات القليلة التي تقود إلى خارج المحطة ، واتجهت نحو البيت مباشرة .

حين وصلت ، غيرت ملابسي على عجل . توجهت إلى غرفة الجلوس ، التي عانت طويلاً من جلوسي فيها خلف الكمبيوتر ، ساكناً مثل مقاعدها ، وألقيت بنفسي على الكنبة العريضة . أخذت نفسا عميقاً ، وتلفت إلى زوجتي الجالسة على الطرف الآخر من الكنبة :

- شو ، شايفاك مبسوط وبتضحك ع غير العادة ؟

- طبعا . .خلّصت كل شي .

لقد نلت على تلك الإجابة قبلة من زوجتي ، فهل نلت ثقة القارئ ، تلك الثقة الضرورية لمتابعة الرحلة ، وتسجيل مرحلة ما بعد وصولي إلى بيروت ، والإقامة في حي الفاكهاني ، عاصمة جمهورية الفلسطينيين ، التي عمرت سنوات طويلة ، إلى أن أخرجها اجتياح إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢؟ كيف عاشت تلك الجمهورية ، كيف عاش سكانها ، الذين حصلوا على «حقوق المواطنة» الكفاحية ، في ظروف تاريخية استثنائية ؟ كيف عشت أنا تفاصيل عمر تلك الجمهورية ؟

ذلك هو سؤال الكتاب الثاني الذي أعد بانجازه ، آملاً أن أفي بالوعد ، وألتقي القراء مجدداً ، لكي ننهي معاً رحلة فراق ، ذقنا الكثير من مرارتها .

إلى اللقاء

لندن ، في ٨ شباط / فبراير ٢٠٠١

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
سفر الفلسطينيين	٧
الجزء الأول:	٩
المقطوعة الأولى: صيد البدايات	١١
المقطوعة الثانية: باب النكبة	٣٨
الجزء الثاني:	٥٧
المقطوعة الأولى: حكايات بريئة	٥٩
المقطوعة الثانية: ضحىً أحمر ـ أسطورة شهداء	٩٤
المقطوعة الثالثة: قصة والدين	١٥٣
المقطوعة الرابعة: بائعة القماش	١٧٠
الجزء الثالث:	١٩٣
المقطوعة الأولى: أقوال عين الشمس	١٩٥
المقطوعة الثانية: بدر الهوى.. شط الغريب	٢٠٩
المقطوعة الثالثة: أخطار صحيحة	٢٢٦
الجزء الرابع:	٢٤١
المقطوعة الأولى: حريق الشعارات	٢٤٣
الساعة ٥:٤٥ .. ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠	٢٦٦
المقطوعة الثانية: شقيقتي التي تزوجت	٢٩٨
المقطوعة الثالثة: مدينة المدن	٣١٩
المقطوعة الرابعة: قلب العروبة	٣٤٦
إلى اللقاء	٣٧٣

* * *

طعم الفراق

ثلاثة أجيال فلسطينية في ذاكرة

رحلة مع الناس العاديّين الّذين نلقاهم في زوايا الحاضر والماضي والمستقبل ، نمضي معها مدفوعين بحسّ اكتشاف عالم الأسطورة الفلسطينيّة في تجلّياتها ، بفصولها ، ورموزها ، وأماكنها ، وألوانها، وتاريخها المكتوب بالدم واللون والصوت ، رحلة تعيد خلق طعم ومزاج الزمن .. زمن الاحتلال .

القدس العربيّ / لندن

نصّ موثّر راقٍ وحميم ، شاحذ للذاكرة ، مستواه الفنيّ عالٍ ، قريب من مسرح بريخت ، يكتبه المؤلّف تحت أنظار المتلقّي ، ثمّ يأخذه إلى الجحيم الفلسطينيّ .كتاب فذّ يشكّل إضافة للإبداع الفلسطينيّ ، هو مزيج من الرواية ، والمذكّرات ، والسيرة ، وهو رحلة أجيال في تتابعها حياة وإرادة ، وغربة عن الوطن ، وبناء حياة في المنافي ، ولكنّ فلسطين باقية ، حيّة ، تنبض في الذاكرة والعقل والقلب ، والأجيال تتوارثها معنى لوجودها وتواصلها .

رشاد أبو شاور / قاص وروائيّ

إضافة قيّمة جدّاً للتراث الإنسانيّ ، قبل أن تكون للتراث الأدبيّ العربيّ . منهج جديد ، وأسلوب رشيق متمكّن في بساطته . كلّ من فصول هذا العمل يعدّ كياناً منفرداً متميّزاً ، طاقة نور ساطعة تفتح أعين الأجيال الجديدة على حقائق مأساة طالما سمعت بها و لم تعشها ، وتذكّر الأجيال الّتي عاشتها بفداحة الجرح . رحلة هروب من جحيم الاستعمار حرّكت الدموع في قلبي قبل عينيّ .

هاني الكنّيسي / إعلاميّ وأكاديميّ

منشورات 2001

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١

العنوان البرقي: موكيالي،

هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨ / ٨٠٧٩٠١